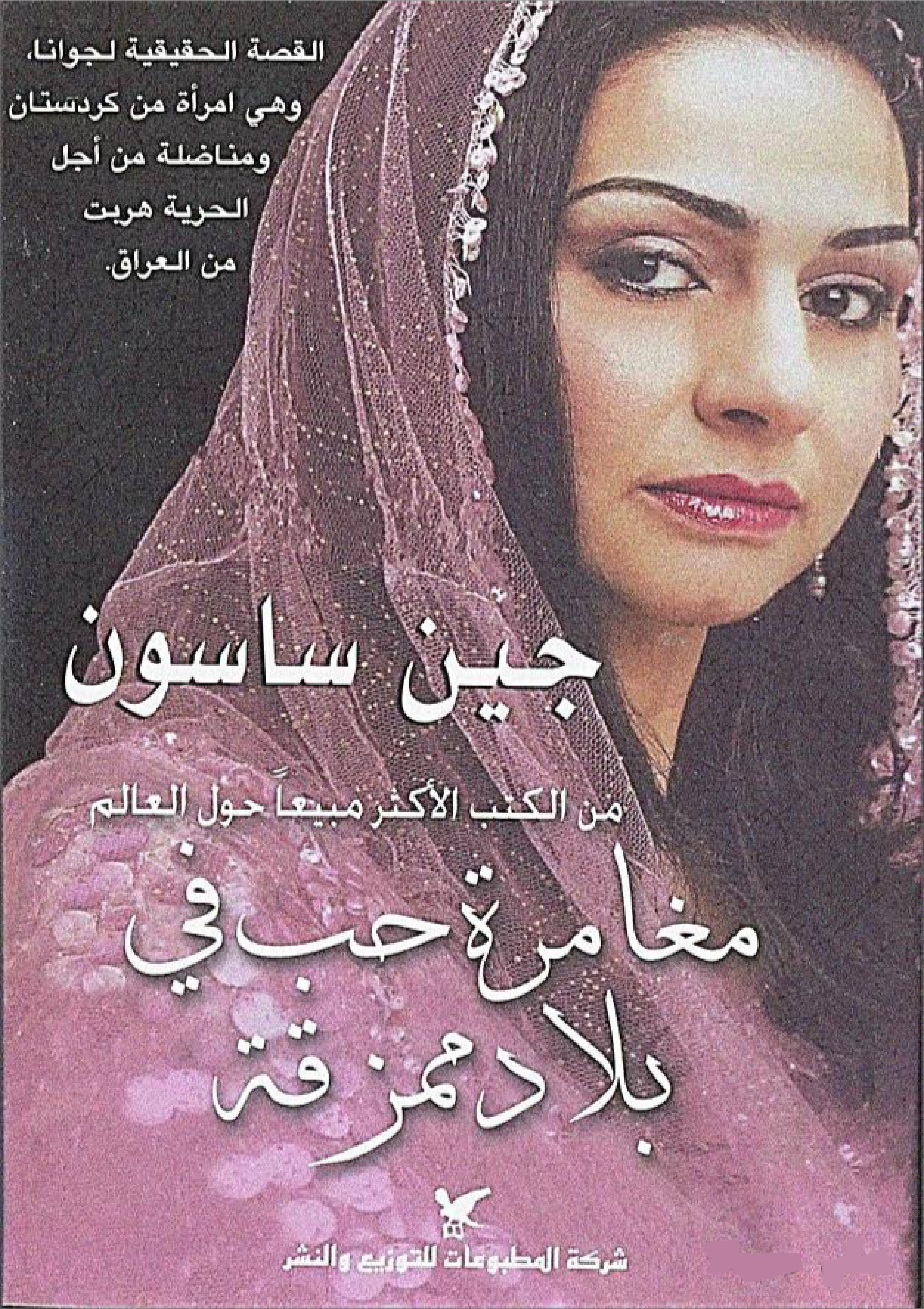

القصة الحقيقية لجوانا،
وهي امرأة من كردستان
ومناضلة من أجل
الحرية هربت
من العراق.

جين ساسون

من الكتب الأكثر مبيعاً حول العالم

مغامرة حب في بلاد ممزقة

شركة المطبوعات للتوزيع والنشر

عن الكاتبة

جين ساسون: كاتبة ومحاضرة، لها سبعة كتب احتلت صدارة أفضل الكتب مبيعاً في العالم. ظهرت المؤلفة في برامج تلفزيونية كثيرة مثل «أوبراه»، و«توداي»، و«48 ساعة»، وعلى شاشتي CNN، و NPR.

جين ساسون

مغامرة حب في بلاد ممزقة

شركة المطبوعات للتوزيع والنشر

مغامرة حب في بلاد ممزقة

Copyright © The Sasson Corporation

Translation Copyright © All Prints Distributors & Publishers

© جميع الحقوق محفوظة

لا يسمح بإعادة طبع هذا الكتاب أو أي جزء منه أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات أو نقله بأي وسيلة من الوسائل، سواء التصويرية أم الإلكترونية أم الميكانيكية، بما في ذلك النسخ الفوتوغرافي والتسجيل على أشرطة أو سواها وحفظ المعلومات واسترجاعها دون إذن خطي من الناشر.

شركة المطبوعات للتوزيع والنشر

شارع جان دارك - بناية الوهاد

ص. ب.: ٨٣٧٥ - بيروت لبنان

تلفون: ٣٥٠٧٢٢ - ٧٥٠٨٧٢ - ٣٤٤٢٣٦ ١ ٩٦١+

تلفون + فاكس: ٣٤١٩٠٧ - ٣٤٢٠٠٥ - ٣٥٣٠٠٠ ١ ٩٦١+

email: tradebooks@all-prints.com

website: www.all-prints.com

الطبعة الثالثة ٢٠١٠

ISBN: 978-9953-88-058-7

Copyright © 2007 Global Women Group LLC

Originally Published as: **Love in a Torn Land**

Published by arrangement with Sasson Corporation,

c/o Rembar & Curtis, P.O.Box 908, Croton Falls, New York 10519, USA.

website:http://www.jeansasson.com

ترجمة: سعيد محمد الحسنية

تدقيق: فؤاد زعيتر

الغلاف: فؤاد رسامني

الاخراج الفني: بسمة تقي

القصة الحقيقية لجوانا،

وهي امرأة من كردستان، ومناضلة من

أجل الحرية هربت من الانتقام العراقي

الإهداء

إلى البشمركة الشجاع في حياتي، شارباست،
وولَدَي، كوشا وديلان؛

إلى خالتي عائشة؛

إلى زوجات البشمركة الشجاعات؛

جوانا حسين

بنيت حولي، عندما كنت طفلاً، جداراً من الحقد.
سألوني، «ماذا استخدمت لبناء هذا الجدار؟».
أجبت: «حجارة الإهانات».

مثل شائع

الفهرس

الإهداء ٧
المقدمة ١٣
شهادة حية ١٥
كلمات شكر ١٧
خريطة العراق ـ إيران الحديثة ١٩
تمهيد ٢١

الجزء الأول
مرحلة الطفولة

(١) فتاة «البشمركة» الصغيرة ٢٩
(٢) تلة الشهداء ٦٩
(٣) غبار النجوم ٨٧
(٤) الرعب البعثي ١١١
(٥) رعد وهادي يعودان ١٣٥

الجزء الثاني
مرحلة الصبا

(٦) الموت ١٦٥
(٧) والدتي ووالدي ١٨١
(٨) مغامرة حب في بلاد ممزقة ١٩١
(٩) الحرب ٢٠٥
(١٠) الخنادق ٢١٩

(١١) رعد يغادر المنزل ٢٢٧
(١٢) نهاية الأمل ٢٣٩
(١٣) البوليس السري ٢٥٣
(١٤) رسائل حب ٢٧٩

الجزء الثالث
غرام ومأساة في كردستان

(١٥) غرام وزواج ٢٩٥
(١٦) تحت سماء برغالو ٣٣٣
(١٧) الكرديّ «الصالح»، والكردي «السيّئ» ٣٦٥
(١٨) الهجوم الكيميائي ٣٨٣
(١٩) مع العمى ٤٠٧
(٢٠) الهروب إلى «مرجة» ٤٣٥
(٢١) القصف على «مرجة ٤٧٣
(٢٢) عندما تسلّقنا جبل قنديل ٤٩٩
(٢٣) البحث عن الخالة عائشة ٥٢٩
(٢٤) كوشا، كوشا. . . حشاشة قلبي ٥٦١
خاتمة: الحرية! ٥٧٥
أين هم الآن ٥٨٥
جدول زمني بالأحداث الرئيسية التي أثّرت في مصير
العراقيين الأكراد في العصر الحديث ٥٨٩
مسرد ٥٩٥

المقدمة

شهدت رحلة حياتي جولات قمتُ بها إلى أنحاء عديدة من العالم. أسعدني الحظ، في سياق هذه الجولات، بلقاء العديد من النساء المميزات، والتعرف إليهن عن كثب. تعرّف العالم إلى بعض هؤلاء النسوة عن طريق كتبي التي لقيت نجاحاً كبيراً. وجدت نفسي، مرة أخرى، في وضعٍ فريد سمح لي باستكشاف حضارةٍ مثيرة من خلال التعرف إلى القصة الحقيقية للبطلة. حدث ذلك أثناء كتابتي «مغامرة حب في بلاد ممزقة»، وهي قصة حقيقية لامرأة كردية.

نشأت جوانا العسكري في بغداد، لكن قلبها تعلق بكردستان. ملأت جوانا أفكارها، أثناء اتكائها على ركبتَي والدتها، بالسحر الذي تتمتع به كردستان، واستمدت منها انبهارها بالتقاليد الكردية، والتأثر بفكرة الوطن الكردي. أمضت عطلاتها أثناء طفولتها في مسقط رأس والدتها، مدينة السليمانية، وهي إحدى مدن كردستان. لم تدرك هذه الفتاة، المفتونة بحب الحضارة الكردية، أثناء انشغالها باللعب مع أبناء عمومتها الأكراد، ما تخبئ لها الأقدار، وللأكراد الآخرين. لم تكن

القسوة الكامنة في قلب رجل يدعى صدام حسين، قد انطلقت من عنانها بعدُ.

لم يفاجَأ أحد حينما وقعت جوانا، عندما كانت شابة صغيرة، بغرام مناضلٍ وسيم من المناضلين الذين يسعون إلى الحرية. قرّرت الانضمام إلى الرجل الذي أحبته، والذهاب معه بعدما اختار ترك رغد الحياة من المدن العراقية، وآثر عليها البحث عن الحرية في جبال كردستان. نجت جوانا بصعوبة، عندما كانت عروساً جديدة في «برغالو»، من أولى الهجمات الكيميائية التي أمر صدّام حسين بشنها على الأكراد. بدا للوهلة الأولى أن أحلامها قد تحطمت، عندما اضطرت إلى الهرب إلى إيران المجاورة، لكن الواقع لم يكن كذلك. بدأت جوانا مع زوجها حياةً جديدة بالرغم من تجدّد أحلام حصول الأكراد على حريتهم مع عزل صدام حسين.

أعتبر تجربتي مع جوانا هديةً عظيمة أرغب بشدة في تعريف غيري بها، عبر صفحات هذا الكتاب(*).

جاين ساسون

(*) لا تتردد، عزيزي القارئ في زيارة موقعي على شبكة الإنترنت، وهو www.jeansasson.com، كي تحصل على معلومات إضافية عن هذه الحكاية.

شهادة حية

رويت للمؤلفة جاين ساسون تفاصيل حياتي، بما فيها تلك التي شهدتُها، وشعرتُ بها خلال الأيام والليالي المرعبة التي عشتها مع زوجي، أثناء اضطرارنا إلى الهرب كي نحافظ على حياتينا. نجونا من مخاطر مهلكة، بما في ذلك حملات القصف، والهجمات الكيميائية. وشققنا طريقنا عبر جبال كردستان وقراها، كي نصل إلى بر الأمان في إيران المجاورة. ما أرويه في هذه الرواية، ليس من محض الخيال. إنها يوميات رهيبة قد حدثت لي فعلاً، كنت منشغلة خلالها فقط بهمّ البقاء. لم أكتب يومياتي حينها. لم أكن أملك فرصة مثل هذا «الترف». كنا في سباق مع القهر والموت والوقت، كدنا معه ننسى أننا من لحم ودم، وأننا خُلقنا حتى ننعم بحياتنا، لا أن نهرب من قدرنا. لذلك، يُحتمل أن أكون قد سهوت عن تعيين التوقيت الدقيق لبعض الأحداث المحددة، ويرجع ذلك إلى فوضى الحرب، وفوضى الذاكرة التي شلّعتها المآسي، ومرور الأيام، وهي العوامل التي ألقت، كما لو أنها تنجيني من بعض قسوة الماضي، بعضَ ستائر النسيان على ذاكرتي. يستطيع القارئ الوثوق بأنني عشت كل حدث وصفته المؤلفة.

جوانا العسكري حسين

كلمات شكر

يقتضي العرفان أن أشكر رعد، وهادي، ورانج، وإيريك، للمساعدة التي قدموها إليّ أثناء كتابتي هذه الرواية. بذل رانج جهوداً كبيرة، ساعد من خلالها خالته، وساعدني أنا أيضاً.

أريد التعبير عن امتناني لغريغ، ابن أخي، لوجوده الدائم إلى جانبي، واستماعه إلى مكالماتي الهاتفية العديدة التي أجريتها معه خلال الأوقات الصعبة التي أمضيتها أثناء كتابتي هذه الرواية. أقدّم الشكر الجزيل إلى صديقيَّ العزيزين، داني، وجاك، اللذين وقفا إلى جانبي.

كما أشكر عمّتي مارغريت، وأليس، وآنيتا، لتحمسهن لكل شيء أكتبه. لقد منحتني تعليقاتهن على كتاباتي الكثير من التشجيع الذي كنت أحتاج إليه.

ويَدين هذا الكتاب بظهوره للمساهمة القيّمة التي قدّمتها وكيلتي الأدبية، ليزا داوسون.

شعرت بإرهاق كبير عندما وصلت إلى القسم الأخير من هذا الكتاب، فكدت أعجز عن إتمامه لولا محررتي البريطانية،

ماريان فيلمانز، ومحررتي الأميركية، هناء لاين. أقدّر كثيراً جهديهما في سبيل إتمام هذا الكتاب.

أقدّم إليهم شكري جميعاً.

خريطة العراق - إيران الحديثة

تمهيد

ذُعرتُ عندما تساقطت علينا قذائف المدفعية بغتةً، ونحن الذين اعتدنا على برنامج قصف معتاد وضعه أعداؤنا، لكنهم خرجوا حينها على «روتين» هذا البرنامج. اعتدنا على المواعيد الدقيقة للقصف، إلى درجة أننا كنا نضبط ساعاتنا على دويّه الذي كان «ضيفاً» دائماً بحلول فترتي العصر والمساء.

شعرت باندفاعةٍ من الاضطراب. تواجدتُ حينها على مسافةٍ بعيدة من منزلي. وهكذا تعذّر عليّ الاحتماء به، واضطررت إلى الابتعاد عن الطريق. انحنيتُ منتظرةً فرصة تتيح لي التوجه إلى منزلي، كي أحتمي في غرفة محصَّنة.

لاحظت عندها شيئاً غريباً. بدت لي قذائف المدفعية هذه مختلفة تماماً. لاحظت أنها تسقط من الجو بسكون، لكنها تنفث في طريقها سحباً من الدخان المتسخ المتصاعد في الجو. استمررتُ في مشاهدة هذا المنظر الغريب. شعرت بجفافٍ في حلقي ترافق مع قلقٍ شديد، وحرصٍ على أن لا أدع لمخيلتي العنان بتصوّر أسوأ مشهد يمكنني تخيله. أيُحتمل أن تكون هذه العُلب غير مؤذية؟

حدث بعدها شيء غريب آخر: بدأت الطيور تتساقط من السماء! صرخت بشكل لاشعوري: «إنها تمطر طيوراً!».

أثار دهشتي مشهد تساقط القنابل الصامتة، الذي ترافق مع مشهد الطيور المتساقطة من السماء. أدرتُ رأسي من جانب إلى جانب لأعرف ماذا يدور من حولي. ملأتْ ناحيةَ الأفق في ذلك العصر ومضاتٌ من الألوان، ونقاط مبهرجة، مندفعة نحو الأرض. بدت لي هذه النقاط الملونة أكثر من مجرد طيور. كانت هذه الطيور البائسة ترفرف بأجنحتها بيأسٍ، تعرف أنها تهوي إلى حتفها، وقد سقطت كما تتساقط الأحجار نزولاً، نزولاً، نزولاً إلى الأرض.

جفلتُ في مكاني عندما سمعت أصوات طَرَقاتٍ متتالية من حولي.

أحببت الطيور على الدوام. لهذا، لم أتحمّل رؤية هذه الكارثة المحزنة. أدركت أنه يتعيّن عليّ التحرك لأنني رأيت، بأم عيني، الطيور تتساقط من السماء. يتعيّن عليّ أن أتحرك... أن أتحرك بسرعة، وأن أركض بحثاً عن ملجأ. رأيت نفسي جامدة في مكاني كصخرة عصية على الحركة.

تفحّصت الطريق بحثاً عن زوجي. أعرف أنه سيسرع إلى نجدتي حالما يعلم أنني في خطر داهم. هل افترضَ أنني في الملجأ؟ أم أنه سارع نحو الملجأ الجماعي الموجود في وسط القرية بسبب الخطر الداهم، الذي برز فجأة.

عضضتُ على شفتي أثناء متابعتي البحث في الطريق عن

زوجي المفتول العضلات، وشعرت بموجة من الخوف على سلامته.

لم أشعر بالشك في أن برغالو هي الآن وسط هذا الخطر المريع والطارئ.

سقط، في هذه اللحظة بالذات، طائرٌ أمام قدميّ مباشرة، فدفعني الارتطام إلى إطلاق صرخةٍ مكتومة. رأيت الطائر في غاية التألّم. شاهدت منقاره الذي اندفع في حركات متسارعة، ثم تباطأ، بشكل يثير الحزن، تنشقُه للهواء بمنقاره.

بقيت في مكاني، لأن تلك العلب الصامتة استمرت بالتساقط من السماء. استطعت سماع نبضات قلبي الصاخبة، ولاحظت أن هذه العلب الغريبة تستمر في نفث دخانها، الذي سرعان ما يتحول إلى غيمة وسخة بنية اللون تغطي سطح الأرض.

سقط طائر آخر إلى جواري.

تمتعتُ بما يكفي من الذكاء كي أعرف أن الطيور هي التي تقدم أول دليلٍ على هجوم كيميائي. هل هذا الهجوم بالغازات السامة، هو الذي توعد به علي المجيد؟

دفعتني هذه الأفكار المرعبة إلى التخلي عن حذري، والنهوض. تملّكني الخوف على حياتي، فأسرعت إلى النزول ركضاً على الطريق المؤدية إلى منزلي.

بدت الأشياء ضبابيةً، لكني استطعت رؤية بغل طليق غير مقيد. شاهدته يتقافز بحالة هستيرية. مرّ مسرعاً من أمامي واندفع

في الطريق، وأخذ يجري بأسرع ما يمكنه ذلك، حتى خلتُ أنه يرقص. لم أشاهد في حياتي كلها بغلاً يعدو بهذه السرعة.

تابعتُ الركض. حاولت أن أتجنب الطيور المتناثرة في كل مكان في طريقي. وثبتُ أخيراً إلى منزلي وأنا ألهث طلباً للهواء. وصلت أخيراً إلى الأمان!

اندفع زوجي من خلال الباب المفتوح، بعد مضي ثوانٍ قليلة على وصولي. تفرست فيه، وفتحت فمي لاهثةً باحثة عن هواء أتنفسه، ولم أتفوه بكلمة.

صرخ بي: «جوانا، أقسم بشرفي إنه هجوم كيميائي!».

أجل! عرفت ذلك! بدأت أميّز الآن تلك الرائحة المزعجة، وهي تلك الرائحة نفسها التي سمعت الناجين من هجمات كيميائية سابقة يتحدثون عنها: إنها رائحة التفاح، والبصل، والثوم الفاسد. إننا نواجه هجوماً كيميائياً بالفعل!

تحرّك زوجي بسرعة، ومدّ يده إلى رفٍّ عالٍ فوق باب جانبي. رحت أفكّر بارتياح في أنه يتحرك ليتناول أقنعتنا. سمعته يصرخ: «جوانا! ضعي هذا على وجهك!».

ناولني قناعاً مضاداً للغازات السامة، ثم أسرع ليتناول قناعاً ثانياً ليضعه على وجهه، وهرع يشد الأربطة الصغيرة التي تثبّت القناع حول رأسه.

أمسكتُ أنفاسي أثناء بحثي اليائس عن الشريط. بدت تلك المهمة البسيطة عملاً صعباً بسبب توتري. سبق لي أن تحدثت

مع زوجي عن هذه الأقنعة أكثر من مرة. قال لي إنه يريدني أن أعوّد نفسي على هذا الجهاز، لكني فشلت، بغباء، في مهمتي هذه.

سحب زوجي، أخيراً، القناع من بين يديّ، ووضعه على وجهي. ركضنا، يداً بيد، في اتجاه ملجئنا الطيني، وزحفنا نزولاً إلى آخر نقطة تصل إليها تلك الحفرة.

أدركت أنني لم أتنفس طوال المدة التي استغرقها وصولنا إلى الملجأ. سحبت أكبر كمية ممكنة من الهواء الذي تعطشت إليه عبر فمي، لكن كل ما استطعت فعله هو إيذاء عضلات حنجرتي. لم أستطع الحصول حتى على نَفَسٍ واحد!

لم يعرف زوجي بمشكلتي هذه. شعرت باليأس، ورحت أشدّ قناعي حتى انزلق عن وجهي. صرختُ: «لا أتمكن من التنفس عن طريق هذا الشيء!».

تمكنت أخيراً من جذب انتباهه، فأسرع نحوي. تناول القناع من يدي وراح يتفحصه.

أحسست بأن رأسي على وشك الانفجار، فاضطررت إلى تنشق الغازات الملوثة. بدأت عيناي بالإحساس بتأثير الغازات فيها. شعرت كأنهما قد احترقتا. بلغ الألم من الشدّة بحيث لو كان محجراهما تعرضا لوخز إبرٍ ساخنة، لما كان الألم أسوأ. لم أستطع احتمال الألم، ولو للحظة إضافية. بدأت بفرك عينيّ بيديّ. لم أكترث للتحذيرات التي تلقيتها في السابق، وتمنع فرك الأعين أثناء التعرض لهجوم كيميائي.

شعرت بأنني أختنق بسبب تنشقي الغاز السام الذي ملأ الملجأ. صرختُ: «وصل الغاز إلى عينيّ!».

بدأت الغازات السامة في التجمع فوق سطح الأرض مباشرة، وهكذا امتلأت بها حفرتنا. تحرّك زوجي بسرعة، وزحف خارج الملجأ، ثم سحبني وراءه. حملت قناعي بيد، بينما أمسك زوجي بيدي الأخرى، ونجح بعد جهد كبير في سحبي إلى المنزل مجدداً.

فكّرت في الصعود إلى الجبال، لأنني تذكرت جيداً تلك التعليمات التي تأمر بالتوجه إلى ملجأ منخفض، أثناء التعرض لهجمات القصف المدفعي. وتنصح في الوقت نفسه بضرورة تسلّق أكثر الأماكن ارتفاعاً أثناء الهجمات الكيميائية.

تعيّن عليّ أولاً إيجاد قناعٍ صالح.

شعرت بألم في حنجرتي، ثم بدأت عيناي بالوخز. تهالكتُ على الأرض، فركع زوجي إلى جانبي. سيطر ضباب لزج على حواسي فأعاقها، وتسبّب بالتشوش في تفكيري. فكّرت بيني وبين نفسي: حسناً، مرحباً أيها الموت!

الجزء الأول

مرحلة الطفولة

(١)

فتاة «البشمركة» الصغيرة

بغداد: السبت، ٨ تموز، ١٩٧٢

عشت فتاةً كردية في البلاد التي تكره الأكراد.

تعلّق قلبي بالسليمانية، برغم أنني وُلدت في بغداد، وكبرت فيها. بغداد هي مدينة والدي العربي، أما السليمانية فمسقط رأس والدتي الكردية. تبعد السليمانية، التي هي جزءٌ من كردستان، مسافة ٣٣١ كيلومتراً عن شمال بغداد. اعتدت أن أمشي في شوارع بغداد المليئة بالأتربة في الشهور العشرة الطويلة الممتدة ما بين شهري أيلول وحزيران. مشيتها وأنا أحلم بقدوم شهري تموز وآب، اللذين كنت أعتبرهما «الشهرين السعيدين»، لأنني كنت أترك فيهما السهول البنية الداكنة لبلاد ما بين النهرين، وأتوجه مع والدتي، وأشقائي، وشقيقاتي، إلى جبال كردستان ووديانها، المليئة بالألوان المفرحة.

أتذكر جيداً يوم سفرٍ لا أنساه في العام ١٩٧٢. كنت حينها في العاشرة من عمري. شعرت بالبهجة بسبب رحلتنا إلى درجة أن والدتي وأشقائي وشقيقاتي، الذين كانوا يتحضرون للمغادرة، أطلقوا عليّ لقب النحلة. شعرت كما لو أني وحيدة، لكن عندما

لاحظ خالي عزيز، وهو الذي عاش معنا لسنين عديدة، والذي أحبّه كثيراً، أنني أقف بتكاسل في المطبخ. تقدم مني واصطحبني في نزهة إلى حديقة بيتنا الخلفية. تمتعت هناك بمنظر «البوغنفيلية» (نبات معرش) المزهرة التي غطت الجدار.

أراد خالي مساعدتي على تمضية الوقت، فشجعني على قطف أزهار الليمون والنارنج. تتواجد في حديقتنا الخلفية مجموعة منوعة من أشجار الفاكهة، وأجمات التوت البري. تضم هذه المجموعة أشجار الليمون، والمشمش، والإجاص، والنارنج، والبلح. شعرت بأنني محظوظة لأنني أعيش في البلاد التي تنمو فيها ثمار فواكه، تتوزع من حولي كأنها الجواهر. أذكر أنني كنت أفضّل النارنج من بين كل الثمار، وهي ثمرة شبيهة بالبرتقال، ويميل مذاقها إلى الحموضة. اعتدنا أن نعصر هذه الثمار بعد نضجها، ثم نسكب العصير في قوالب الثلج وننتظره حتى يتجمد. تعودت والدتي أن تقدم هذا العصير إلى الضيوف وأفراد العائلة، المجتمعين على الشرفة، بعد أن تسكبه في أكواب زجاجية مليئة بالماء المثلج والسكّر.

أحببت مثل هذه المناسبات التي كنت أتصرف فيها كأنني فتاة كبيرة، وكنت أضع رِجلاً فوق رِجل، مثلما تفعل السيدات، وأنصرف بعدها إلى ارتشاف ذلك المشروب اللذيذ. اعتدت أيضاً أن أدلي بآرائي مقاطِعةً أحاديث النسوة الكبيرات في السن. واعتادت النسوة أن يتظاهرن بأنهن يأخذن حديثي بجدية، أولاً لأنني كنت في العاشرة من عمري، وأصغر الأولاد في البيت، إضافة إلى كوني محبوبة جداً.

دُهشت حينما ظهر، من الباب الخلفي للمنزل، أخي الأكبر «رعد»، الذي كان في الثامنة عشرة من عمره حينها، وناداني: «جوانا، تحركي، وراقبي قدوم سيارة الأجرة!».

أومأ خالي عزيز، ومدّ يده ليتناول الثمرة التي قطفتها بنفسي. أسرعت من خلال المطبخ، حيث كانت والدتي تجلس مع أختي منى، التي تبلغ الرابعة عشرة من عمرها، وقد انهمكتا بتحضير مجموعة من شطائر لحم الدجاج، وحلوى التمر، كي نتناولها أثناء رحلتنا. مررت عبر غرف منزلنا إلى الشرفة الأمامية. استندت إلى رجلٍ واحدة في البداية، ثم استندت إلى الأخرى. شعرت بأن صبري قد فرغ، ولا أستطيع الانتظار أكثر. تمنيت أن تصل سيارة الأجرة بسرعة كي نستطيع المغادرة إلى محطة الباصات.

أبقيت نظراتي الحريصة على متابعة حتى دبيب النمل في الجادة. تمنيت لحظتها لو أننا نمتلك سيارة خاصة بنا، فنستطيع عندها أن نذهب إلى الشمال برفاهية، ومن دون عذاب الانتظار.

تمتلك عائلات العسكري، التي تربطنا بها صلة قرابة، سيارات فخمة. يرجع ذلك إلى أن هذه العائلات تتمتع بنصيبٍ من الثراء. لكن عائلتي كانت، مع الأسف، فقيرة. لم يكن والدي قادراً على الحصول على رخصة قيادة سيارة، حتى ولو كنا أغنياء. كان غير قادر على سماع أصوات السيارات، والباصات، والعربات التي تقودها الحمير، والتي تتسابق جميعها وتتقافز فوق شوارع بغداد. بقيَ والدي أصمَّ منذ طفولته، لذلك

كانت الدراجة الهوائية الزرقاء والقديمة العهد، هي وسيلة تنقله الوحيدة.

حدّقت في دراجته الهوائية المستندة إلى سياج الحديقة. كم تمنيت لو أنني أستطيع الوثوب فوقها وأنطلق بها بعيداً! لم يكن من المسموح لي الركوب على تلك الدراجة، برغم أن شقيقيَّ سُمح لهما بركوبها، واعتاد «رعد» أن يوازن نفسه خلف «سعد» الذي كان يتربع في مقعد القيادة.

شعرت بالحسد تجاه شقيقيّ. ولم تنفع توسلاتي المتكررة في السابق، لأن مثل هذا الأمر كان يُعتبر مستهجناً بالنسبة إلى فتاة تعيش في بغداد.

أجبرت نفسي على التركيز على ذلك الشارع من المدينة، علّي أنسى مظالم هذه الحياة، وكي انتبه إذا ما تجاوزت سيارة الأجرة منزلنا عن طريق الخطأ.

اكتشفت أن مشاهدة الحركة في الشارع هي مصدر تسلية لي. أحسست بالتنوع الغني الذي يحمله صباح بغداد، والذي كان في ذروته. رأيت أشخاصاً يلتمعون مثل السراب: رجالاً يُسرعون كي يصلوا إلى مقهى الحي، بينما تسرع ربات البيوت المتلهفات إلى الوصول إلى السوق. شاهدت الأولاد الكبار يتسلّون بلعبة «الكِلل»، ويتنافسون في تعداد ما أحرزوه من مكاسب وهمية، بينما ينشغل الأولاد الصغار بالصياح أثناء ممارستهم لعبة «الإكس». رأيت عدداً قليلاً من الفتيات في الشارع. وترجع قلة عددهن إلى أن المجتمع كان يتوقع من

الفتيات «المحترمات» أن يبقينَ في بيوتهن بعد أن تنتهي سنتهن الدراسية.

شعرت بالامتنان لأن والدتي لم تُرغمني على المساعدة في أعمال المنزل اليومية، التي كنت أكرهها بشدة. جعلتْ والدتي من منزلنا أنظف بيتٍ في بغداد كلها. وانشغل أخوتي الكبار بمهمات محددة، لكني أُعفيت من الأعمال لأنني كنت «آخر العنقود» في البيت.

«ملح! ملح!».

جذب صياح سائق الناقة البدوي انتباهي. كان يقوم بجولته الأسبوعية في الحي. اعتدت سماع صوته الأجش على امتداد صباحاتٍ عديدة في السابق، بينما كنت أنعم بدفء الأغطية لسريري. لذلك كان طبيعياً أن أحدق فيه باهتمام. قد تكون المرة الأخيرة التي أراه فيها، أو أنصت إلى نداءاته.

تابع الرجل صياحه: «ملح! ملح!».

ارتدى الرجل قميصاً رمادية بالية، وبنطالاً بنياً قديماً. حدقت في بشرة هذا الرجل الداكنة، وفي وجهه الخشن، وحاجبيه المقوسين. تدلى حبل مربوط، مصنوع من الصوف الأحمر والأزرق، والتفّ حول ذراعه، ووصل حتى الرقبة الطويلة للناقة الصغيرة. أحببت تلك الناقة الصغيرة على الفور، وأشفقت عليها، وأُعجبت بوبرها المتموج الأشقر اللون، وبفمها المقوّس. بدا لي أنها تبتسم، وأخذت تتمايل كأنها ترقص على أنغام لحن ما. حملت هذه الناقة حمولتها الثمينة، وقد وُضعت

في أكياس من القماش الخشن، وتهادت من جهةٍ إلى جهة. لاحظت أنه عندما يبادر سيدها إلى ضربها قليلاً بطرف عصاه، كانت تُصدر شكوى صاخبة، ثم لا تلبث أن ترغي وتزبد، فيتجمع لعابها على زوايا فمها المفتوح.

«ملح! ملح!».

تابع البائع المتجول صياحه أثناء تدخينه سيجارته التي تدلت من زاوية فمه. رفع بصره لينظر إليّ، وانتزع السيجارة من فمه، بينما عبرت وجهه ابتسامة متفائلة. اتسعت عيناه واهتز وجهه بالأمل.

هززتُ رأسي بالنفي، وصرفته بإشارةٍ من يدي. أعرف أن والدتي تحتفظ بكيسٍ غير مفتوح من ملحه في مطبخها. هزّ كتفيه بحسن نيّة، ثم ابتعد ليتابع صياحه: «ملح! ملح!».

تحوّلت عيناي إلى امرأة ريفية شابة ترتدي بلوزة واسعة ومتموجة، وتنورة ملونة، وتعتمر «شالاً» نسائياً ملفوفاً بعناية. حملت المرأة فوق هذا الشال صينية مستديرة متوازنة. لاحظت أن أقمشة بيضاء تحيط بقدميها وكاحليها بهدف حمايتها من الحرارة.

أعرف ما يكفي كي أتأكد من أن هذه المرأة قد قدمت من الجنوب، وبالتحديد من منطقة من العراق تدعى الأهوار. تشتهر النساء القادمات من تلك المنطقة بجمال أخّاذ يماثل جمال تلك المنطقة وسحرها.

تعمل هذه البائعة المتجولة ببيع مراهم، أو كريمات، تستخرجها نساء تلك المنطقة من الجواميس. من قال إن حياة الناس في هذه البلاد «أهنأ» من حياة الجواميس. الحياة قاسية بما يكفي لتقطع شابة وحدها، مسافات شاسعة، من أجل أن تبيع ما سهرت ليالي طويلة على تعبئته في أوعية خشبية مستديرة، وتحملها طوال رحلتها الطويلة فوق رأسها.

بقيت في مكاني أشاهدها وهي تتهادى فوق شارع فرعي. لاحظت أن مجموعة من قطط الحي الجرباء تتحلق حول قدميها. تدافعت القطط من جانبٍ إلى جانب، وراحت تموء بسبب الرائحة المنبعثة من ذلك المرهم المعطّر. بدت هذه الشابة مستسلمة ليأسها بالرغم من جمالها وشبابها.

شعرت بالأسى تجاهها. لو أنني أمتلك ما يكفي من المال لكنت ابتعتُ كل المراهم التي تنتجها جاموستها. سُررت عندما رأيت زبوناً يتقدم نحوها، ورأيته يمد يده ليشير إلى كمية المرهم التي يريد أن يشتريها. تناولت الفتاةُ العابسة إبرةً فولاذيةً نحيفة كانت تتدلى من خصرها، ثم مدت يدها إلى ما فوق رأسها وتناولت أحد الأوعية الخشبية. استخدمت الفتاة الإبرة لتقتطع كميةً من المرهم المتجمد.

تطلعت القطط بأمل، وجهزت نفسها لتأخذ جزءاً من أي كمية قد تسقط على الأرض، لكن الفتاة كانت أحرص من أن تسمح بإهراق أي كمية من المرهم.

أسقط الرجل عدة قطع نقدية بيد الفتاة المنتظرة، وغادر حاملاً معه مشترياته الثمينة.

تزايدت أعداد القطط المتجمعة حول قدمَي الفتاة، لكن بدا أن الفتاة لم تكترث، أو أنها لم تنتبه إلى وجود القطط أصلاً، ولم تكترث حتى لوجودي ونظراتي الطويلة إليها أثناء مرورها أمام بوابة منزلنا. فكّرت في أن حياتها كانت قاسية عليها ما يكفي لأن يجعلها مشوَّشة وخائفة وحائرة. لذلك، تحافظ الفتاة على تجهم دائم في وجهها. ظهر كل ذلك بوضوح على شفتيها البائستين.

حاولت أن أتخيل حياة تلك المرأة الشابة عندما ابتعدت عني. بدا لي أنها تختلف كثيراً عن حياتي. كنت أعرف، حتى في تلك السن المبكرة، أن العراق مليء بمجموعات متنوعة من القوميات والمذاهب التي تعيش بأساليب حياة مختلفة، وتمتلك عقائد متباينة، ولا يجمع في ما بينها سوى بؤسها، والظلم الذي تعيش في كنفه.

قرّر البريطانيون والفرنسيون بعد انتهاء الحرب العالمية الأولى أن يضموا المناطق الجغرافية الرئيسية الثلاث لتكوّن العراق الحديث. يتألف معظم الجزء الأوسط للعراق من طبقة صخور كلسية، وتقع مدينة بغداد في قلب هذه المنطقة. أعرف أن بغداد الحديثة لا تُعتبر مدينة جميلة، لكنها تستطيع أن تتباهى بماضيها الفريد، والمجيد، الذي شُيّد فيه الكثير من القصور، والمساجد، والأسواق، والحدائق.

يُعرف الجزء الثاني من العراق بالأهوار، وهو عبارة عن سهل منخفض يقع جنوب البلاد، وهو موطن بائعة الكريمات

ذات الوجه الحزين. والعينين المليئتين بدموع تكابر على الألم. كانت هذه المنطقة موطناً خصباً لمجموعة متنوعة ورائعة من الأسماك، والطيور، والأنواع النباتية. وتذكر مخطوطات عربية قديمة أن تلك المناطق الخلابة قد ظهرت بعد حصول طوفان مدمرٍ، كان من القوة بحيث تلاشت فيه البيوت الطينية، وعادت كما كانت وحولاً، بينما انقسمت اليابسة إلى آلاف الجزر الصغيرة. عاش الناجون من الطوفان العظيم في أكواخ أقيمت على زوارق دُعيت باسم mash-houf، وكانت تُبنى بمزيج من القصب والقار.

اشتُهر الجزء الثالث من العراق، أي الجزء الشمالي، بجباله العديدة التي تكلّلها الثلوج، وبغاباته الخضراء، وكان مكاناً يتجسّد الجمال فيه بشلالاته وبساتينه. برزت في هذه المنطقة العديد من المنتجعات السياحية بسبب برودة مناخها. وينقسم العراقيون حول تحديد هوية هذه المنطقة، وتحديد اسمها، فبينما يُطلق العراقيون العرب عليها اسم شمال العراق، لا يبرح الأكراد يسمونها باسمها الحقيقي: كردستان.

تفحصتُ الشارع مرة أخرى بحثاً عن سيارة الأجرة. لفتت نظري مجموعة من أولاد الحي الشرسين. اعتادت عصابة الأربعة هذه، التي تقاربني سناً، أن تستمتع دائماً عندما يهزأ أفرادها مني لأنني كردية. بدأ الأولاد بالتقافز على أقدامهم العارية عندما التقت عيناي بأعينهم، وتبادلوا الضحكات الممزوجة بالازدراء المقيت، وراحوا يسخرون مني، ويرددون: «منزل

الأكراد! منزل الأكراد! فتاة كردية!». وأخذ أحد الصِّبْية يصرخ ويضحك بأعلى صوته، ثم راح يردد: «لآ! لآ! ابنة الأصم والأخرس!».

التقت عيناي بعينيه. نجحت كلمته لدقيقة بتجريدي من كل قوتي وأحاسيسي. للحظة شعرت بنفسي كتمثال في حجر أُفرغ من أي عاطفة، لكن سلبيتي لم تستمر أكثر من المدة التي استغرقتني لأنزل من الشرفة. رحت أصرخ: «هاي!». وبالكاد توقفت لمدة تسمح لي بتجميع بعض الأحجار الصغيرة، والمنتشرة تحت أجمة الياسمين الزكية الرائحة التي زرعتها أمي، ورحت أقذف الأحجار بأقوى ما أستطيع. كنت أقذف معها كل الكبت الذي لازمني منذ وعيت على نظرات الدونية التي كنت أُلاحَق وأُجلَد بها. لم يسبق لي أن استُفززتُ بهذه الطريقة، لكني صممت، منذ وقت قريب، على أن أتصرف أكثر مثل والدي، وهو رجل مقدام يعرف كيف يدافع عن نفسه على الدوام، حتى ولو كان الأمر يتطلب العراك الجسدي.

فوجئ الصبيان بتصرفي هذا. لم يعهدوني هكذا من قبل، ولم يعتادوا أن يروا فتاةً تسارع إلى الدفاع بشراسة عن نفسها، فاستداروا على أعقابهم، وفروا خوفاً مني.

أصبتُ أحد الفتيان في ذراعه، وكاد رفاقه يتعثرون عندما سمعوا صراخه، وخافوا أن يلقوا المصير نفسه. بدا الصبيان أغبياء حقاً في موقفهم هذا!

ضحكت بصوتٍ عالٍ. ضحكت بأكثر ما أستطيع. أردت أن

يسمع الجميع صدى صوتي، وأن أزرع الفضاء بضحكاتي. شعرت بارتياح كبير عندما شاهدت هؤلاء الجبناء يهربون عائدين من حيث أتوا. إنهم يهربون من فتاة، وهو ما زاد الأمر حلاوة.

لم يسبق لي أن شعرت بأنني أمتلك هذه القوة، فهؤلاء لن يجرؤوا على إخافتي مرة أخرى، مطلقاً!

تمتعت بما يكفي من الذكاء الذي جعلني أدرك أنه يتعيّن عليّ أن أخفي فعلتي، لأن عائلتي لن توافق أبداً على أن تقوم فتاة بالتصرف بهذه الطريقة القاسية. أسرعت بتنظيف يديّ من التراب، ومحو آثار فعلتي. رفعت رأسي لأتأكد من عدم عودة الأشقياء، فرأيت في تلك اللحظة بالذات أن سيارة الأجرة قد وصلت أخيراً.

«لقد وصل!».

رحت أصرخ، وركضت نحو المنزل. فتحت الباب وناديت بأعلى صوتي: «وصل سائق سيارة الأجرة! هيا!».

بدت هذه الوثبة جنونية مع إسراع الجميع إلى تناول حقائبهم من الشرفة الأمامية، لوضعها في صندوق سيارة الأجرة.

قفز سائق الأجرة النحيل من سيارته، وبدأ يصيح بصوتٍ عالٍ وهو يصدر توجيهاته لتحميل حقائبنا.

سبق لوالدتي أن علمتني عدم التحديق في الناس، لعدم إثارة ارتيابهم، لكنني لم أستطِع إلا أن أحدّق في وجهه الأسمر

المتغضن والمتعَب. لاحظت أن يديه كانتا مجعدتين، وأنه راح يفركهما بعصبية على بنطاله. أدركت أنه رجل فقير.

أعرف أن معظم الناس الذين يعيشون في بغداد هم من الفقراء. تطلعت إلى والدي، وخالي عزيز، وأشقائي. ارتدوا جميعاً ملابس أنيقة ونظيفة، تخلو من التمزقات أو الثقوب، بالرغم من أنهم فقراء أيضاً.

تطلعت إلى ثوبي اللامع الزهري اللون. يرتدي معظم العرب الذين يعيشون في بغداد ثياباً داكنة الألوان، وعلى الأخص الألوان السوداء، أو الكحلية الداكنة، لكن ذلك ليس شأننا نحن الأكراد. إننا نحب الألوان الزاهية. تطلعت إلى فستاني الجميل الزهري. غُسل وكُوي منذ وقت قريب، فبدا جديداً برائحته، برغم أنه ليس كذلك.

أتقنت والدتي إبقاء كل شيء في حالة مثالية. كانت مهووسة بنظافة منزلنا وثيابنا، وترتيب كل شيء يمت إلينا بصلة، بحيث إنه تعذر على جيراننا معرفة أننا فقراء. سبب ذلك أننا فعلاً لم نظهر بمظهر الفقراء، حتى ولو كنا كذلك. ولعل هذا الترتيب هو الذي زاد من نقمتهم علينا.

وجد الرجال صعوبة في إقفال صندوق السيارة. قدمت مساعدتي على طريقتي حينما قلت لهم: «هذه السيارة تجنح إلى جهة واحدة».

رأى سائق السيارة ما رأيته أنا، فبدأ يعطي التوجيهات في أثناء انشغاله في تفحص الإطارات. بدا لي أن هذه الإطارات

صغيرة بالنسبة إلى سيارة كبيرة كهذه. استطعت أنا، مع افتقادي الخبرة في مثل هذه الأمور، أن ألحظ ذلك، لكنني قررت أن أُبقي هذه المعلومة لنفسي. خشيت أن تصر أمي على عدم اعتماد سيارة الأجرة هذه، وأن تطلب سيارة أخرى. خشيت أيضاً أن تتأخر رحلتنا حتى للحظة إضافية واحدة. كنت أنتظر هذه الرحلة منذ مغادرتنا السليمانية، أي منذ سنة مضت على شهر آب.

انزلق سائق السيارة إلى مقعده بعدما اطمأن إلى أن كل شيء على ما يرام، وأخذ يصرخ: «هيا بنا! هيا بنا!».

جلست والدتي ومنى قربي في المقعد الخلفي للسيارة. صعد خالي عزبز إلى جانبي ودفعني بلطف نحو وسط ذلك المقعد. علمت أنه قرر مرافقتنا إلى محطة الباصات، لكنه لن يُكمل الرحلة معنا إلى كردستان.

في العام ١٩٦٢، كان خالي ما زال طالباً في السليمانية عندما اعتُقل هكذا وببساطة، لا لسببٍ إلا لكونه كردياً. العذاب الذي تعرّض له وتحمّله في فترة الاعتقال غيّر حياته إلى الأبد. لم يستطِع خالي منذ ذلك الوقت أن يتحمّل العيش في الشمال، حيث سُجن واضطُهد، لذلك انتقل إلى العيش في بغداد كي يبقى قريباً من أخته الكبرى... والدتي.

بقي خالي، حتى بعد مضي أعوام على فترة الاعتقال والعذاب التي أمضاها، يرفض التحدث مع أي شخص، أو الخروج من غرفته. انطوى على نفسه، وأمضى فترة غير قصيرة يعاني اضطرابات نفسية تجعله يغالي في تصرفه الغريب هذا.

بقي عاجزاً لأعوام عن الالتحاق بالجامعة، أو عن شغل وظيفة ما لمدة طويلة. لكنني برغم ذلك، احتفظت على الدوام بحب خاصٍ تجاهه، وكان هو يبادلني المحبة بأكثر منها. كان على استعداد دائم لمشاركتي في ألعابي الساذجة. كان على استعداد دائماً لمشاركتي طفولتي.

بقي خالي في بغداد من دوننا لهذا السبب، بينما انطلقنا نحن لزيارة جدتنا أمينة، وخالاتي، وكل أقربائنا الذين يعيشون في السليمانية.

أخذ السائق بالصياح معلناً أنه في عجلةٍ من أمره، وأنه ينبغي علينا أن ننطلق. أسرع رعد وسعد بالصعود إلى المقعد الأمامي إلى جانب السائق.

تذكرت، عندما بدأت السيارة بالابتعاد عن الرصيف، أنني نسيت أن أودّع والدي الذي كان نادراً ما يرافقنا في رحلتنا إلى كردستان. لم يكن والدي كردياً، لكنه كان سيبقى في بغداد ليعمل، حتى لو كان كذلك. أعرف أنه لم يمتلك ما يكفي من المال الذي يمكّنه من الانضمام إلى عائلته في إجازتها. يا للوالد المسكين!

التفتّ، أثناء سير السيارة، حتى تمكّنت من رؤية وجه والدي من خلال زجاج نافذة السيارة. شاهدت عينيه البنيّتين المحاطتين بالتجاعيد، وشفتيه تنفرجان عن ابتسامة، حاول أن يُواري بها حزنه. حدّقت في وجهه العطوف إلى أن انحنى كي يلتقط شيئاً من الأرض. شاهدت شعره المبعثر الذي التصق قسم

منه بفروة رأسه في أماكن معينة، بينما بقي القسم الآخر متحرراً. أعرف أنه تصبب عَرَقاً أثناء تحميل أمتعتنا في صندوق السيارة، أكاد أجزم أنه غسل وجهه بدموعه لفراقه عنا.

شعرت، فجأةً، بتوتر، وانتابني قلقٌ غامض بشأن صحة والدي. وضعت جانباً ذلك الشعور السيئ بسرعة مع دخول سيارتنا وسط ازدحام السيارات في شوارع بغداد.

تتمتع بغداد بخاصية تميّزها عن بقية المدن. فهي لم تكن قرية صغيرة شهدت نمواً حتى أصبحت مدينة، لكنها شيّدت منذ البداية بحسب تصميم رئيسي. حدث ذلك في عام 762 بعد الميلاد، أي عندما قررً الخليفة أبو جعفر المنصور، بناء مدينة مسيّجة. فكّر المنصور في بقاء مدينة مستديرة الشكل، تتكون من ثلاث مناطق مميزة مسيجة، على الضفة الغربية لنهر دجلة.

حكَم الخليفة المنصور انطلاقاً من المنطقة الوسطى، بينما أُقيمت منازل الجنود في المنطقة الثانية، في حين عاش السكان في المنطقة الخارجية. وقد تمددت بغداد الحديثة إلى خارج دوائرها التي وُضعت بعناية، فخسرت بذلك سحرها الذي تمتعت به لوقتٍ طويل.

تتميز بغداد بالفوضى والازدحام نظراً إلى وجود عدد قليل فقط من الشوارع الرئيسية فيها.

وجّه السائق سيارته نحو الطريق الرئيسية، وتنافس في سيره للوصول إليها مع جموع الناس، والعربات التي تجرها الحمير، والباصات الصغيرة.

شاهدت اللوحات الإعلانية الكبيرة التي تعرض المنتجات الغربية. حملت لوحات أخرى مديحاً للمنافع، التي يُفترض أن العراقيين يتمتعون بها في ظل الحكومة الحالية لحزب البعث، وهو الحزب السياسي الذي استلم السلطة غداة آخر الانقلابات قبل أربع سنين، أي في العام ١٩٦٨. سبق لي أن سمعت أخي رعد يطلق لقب «العائدين» على رجال حزب البعث، وذلك على سبيل المزاح. وسبب هذا «اللقب» أنهم استلموا السلطة من قبل، في العام ١٩٦٣، لكنهم سرعان ما أُبعدوا عنها بسبب الأذى والحقد اللذين طبعا فترة حكمهم الأولى. أعرف أن كل الناس يعتقدون أن حكم البعثيين أصبح راسخاً هذه المرة.

أدركت، بالرغم من حداثة سني، النتائج المدمرة التي حملتها معها ثورة العام ١٩٥٨، والتي تسببت في موت بعض أفراد عائلتي، وأفقدتْ والدي عمله. أتذكر أنني كنت أكثر وعياً من معظم الأولاد الذين هم في سني، وكنت على اطّلاع على الهمسات المتفائلة التي أطلقها العراقيون بالنسبة إلى السلطة الجديدة. عرفت حينها أن الكبار يريدون شيئاً واحداً فقط. إنهم يريدون أن يروا نهاية فترة الاضطرابات والفوضى، التي تحدث في كل مرة تتغير فيها السلطة في العراق.

لكن، من كان يستطيع، في ذلك اليوم المشمس من شهر تموز، أن يتكهن بكل الأسى والحسرة اللذين سيأتي بهما الحكم البعثي، وصدام حسين، في نهاية المطاف، ويجعلانهما قَدَراً لجميع العراقيين؟ كم كان من حسن حظ الجميع أنهم يجهلون ما ستحمله إليهم الأيام المرعبة الآتية.

اعتادت عائلتنا أن تسافر بالقطار من بغداد حتى كركوك، ثم تتابع الرحلة بالسيارة من هناك إلى السليمانية. قررت والدتي، في ذلك الصيف بالذات، أنه يتعيّن علينا أن نوفر المال، وهذا هو السبب الذي دفعنا إلى اختيار الباص في رحلتنا شمالاً. لم نتأخر في الوصول إلى محطة باصات «النهضة» الواقعة في وسط بغداد التجاري. ساد هرج السفر ومرجه مرة أخرى عندما ترجلنا من سيارة الأجرة، وانتظرنا أن يفرغ رعد، وسعد، وخالي عزيز، من إنزال أمتعتنا من السيارة.

تقدّم حمّالٌ منا، وعرض نقل أمتعتنا علينا مقابل أجرٍ زهيد. أنجز عمله بكل حماسة، ثم أسرعنا في المشي في اتجاه المكان المحدد لوقوف الباصات المتجهة إلى السليمانية، والتي تقف بطريقة عشوائية بانتظار ركّابها.

باغَتَنا أحد سائقي الباصات، وهو رجل طاعن قليلاً في السن. لاحظت أن الرجل أصلع الرأس، ويرسل شاربيه الكثيفين نزولاً على زاويتي ذقنه. بدا لطيفاً، وشجّعنا على ركوب باصه، وادّعى أنه سائق يتمتع بخبرة كبيرة بحيث يستطيع أن يوفر علينا ساعةً من مدة السفر. وأعلن الرجل، فوق كل ذلك، أنه لا يتقاضى أجراً عن الأولاد الذين تقل أعمارهم عن الاثنتي عشرة سنة.

استقللنا باصه ونحن نشعر بالامتنان الكبير له، وبالارتياح، لأنه سيوفر علينا بعض المال الذي كان ينقصنا على الدوام.

لم يشك أحد في أنني دون الثانية عشرة من عمري. فقد

كنت نحيلة، وأبدو أصغر من سنّي. بدت منى صغيرة جداً بحيث كانت تستطيع الاستفادة من السفر المجاني هي الأخرى، لكن والدتي رفضت أن تكذب بشأن عمرها.

أخطأنا كثيراً بالوثوق بذلك السائق. لكن، سيمر بعض الوقت قبل أن نكتشف فداحة غلطتنا.

بدأ ذلك الباص المتداعي بالصرير عندما ابتعد عن المحطة، وعدنا مرة أخرى إلى شوارع بغداد المزدحمة. تهادى الباص داخل المنطقة التجارية من بغداد، التي تقع فيها معظم أسواق المدينة، ومحلات التسّوق، والأسواق القديمة، وحيث تتواجد المعامل بمداخنها العالية. وجدنا أنفسنا، بعد وقتٍ قصير، في الطريق السريعة الرقم ٤، وهي طريق حديثة تصل إلى كركوك، سنّمر بها أثناء سيرنا شمالاً نحو مقصدنا النهائي في السليمانية.

لم يتجاوز عدد ركّاب الباص الأحد عشر شخصاً فقط، بالرغم من أنه يستطيع نقل خمسة وعشرين شخصاً وأكثر. تشاورت والدتي مع رعد بشأن هذا الأمر الغريب، وما لبث رعد أن استفسر من السائق عن السبب، لكنه أسرع في تجاهل القلق الذي يشعر به أخي بغمزة من عينه.

همست منى راسمة ابتسامةً متعجلة ظهرت على وجهها: «يعطينا هذا الأمر مساحةً أكبر لنا». بدا أن الحق معها. لطالما كانت أختي منى خجولة، وعصبية، بحيث إن كل فردٍ من أفراد أسرتنا قد أحسّ بمسؤولية تجاهها تفرض عليه حمايتها. شقيقتي

منى هي توأم أخي سعد، لكنهما على النقيض من بعضهما بعضاً في كل شيء.

يتميّز سعد ببشرته الداكنة، وبقوته الجسدية، وبشخصية قوية. أما منى فكانت تمتاز ببشرة بلون الخزف الصيني الشاحب، وببنية ضعيفة، وتميّزت بطواعيتها وتساهلها. وقف الاثنان على طرفَي نقيض بشكل دفع بعض الأشخاص إلى اتهامنا بأننا نسخر منهم عندما أخبرناهم أن سعد ومنى هما توأمان.

لطالما شعرت بالأسف والحزن لأنني لم أشهد اليوم الذي وُلدت فيه منى وسعد. أعتقد أنه كان حدثاً مثيراً بشكل جعل كل افراد عائلتنا لا ينسونه. سبق لي وسمعت القصة أكثر من مرة. لم يتوقع أحد، حتى طبيب والدتي، أنها تحمل توأماً في حملها الثالث. مضت عدة ساعات على بدء عملية الوضع، وما لبثت أن ظهرت ممرضة غير مكترثة، وقدمت إلى والدي صبياً ذكراً يتمتع بصحة جيدة. أظهر أفراد أسرتنا سرورهم الكبير لولادة ابن ثانٍ لهم، لكنهم شعروا بالقلق لأن والدتي استمرت في صراخها الذي كنا نسمعه، من دون انقطاع، من وراء بابين مقفلَين. ظهرت الممرضة مجدداً عندما اختفت صرخات والدتي أخيراً، لكنها لم تكن غير مكترثة هذه المرة. امتلأت هذه الممرضة فجأة بالحيوية المنبثقة من الإثارة التي شعرت بها، فاندفعت من غرفة الولادة نحو والدي مباشرة لتسلمه طفلاً ثانياً!

فغر الأشخاص الموجودون أفواههم عندما رأوا لفافة صغيرة بين يدَي الممرضة. أعلنت الممرضة بصوت عالٍ عن قدوم أختٍ

توأم لسعد. بدت مستغربة وهي تقول إنه يفوق وزنها بنسبة الضعف. عجز الجميع عن تصديق ما قالته الممرضة. ووصل الأمر ببعض أقاربنا الأكراد القادمين من الشمال، إلى اتهامها بأنها تلقي بمزحةٍ ثقيلةٍ على أفراد أسرتنا، لا لسبب إلا لأن والدتي كردية.

أخطأوا جميعاً، فشقيقتي منى ليست مزحة. تبدو حقيقية بما فيه الكفاية، برغم أنها ضعيفة البنية إلى درجة أنها بقيت في المستشفى عدة أسابيع بعد ولادتها. رفض الأطباء ضمان سلامتها حتى بعد خروجها من المستشفى، وطلبوا من والدتي أن تلّف تلك الطفلة الصغيرة بلفائف القطن في الأشهر القليلة الأولى من حياتها، لحماية جلدها الشفاف، الذي كان حساساً إلى درجة أنه كان ينزف لمجرد تمسيده. بدت عملية اللف ضرورية لسبب آخر: لم تتواجد، في طول العراق وعرضه، أثواب طفل تناسب طفلاً أصغر بكثير من لعبة.

مضت الأعوام، وزاد سعد رجولةً وقوة، وكان يعلن آراءه للجميع، بينما ازدادت منى خجلاً، إلى درجة أنه كان من النادر أن تتفوّه بكلمة.

شعرت بتعاطف عظيم تجاه شقيقتي منذ البداية، وأدركت أنه تقع عليّ مسؤولية حمايتها من العالم القاسي المحيط بنا، بالرغم من الواقع الذي يُظهر أنني أصغرها بأربع سنين.

استغرق بعض الركاب في النوم، بينما انشغل آخرون بالتطلع

من خلال نوافذ الباص، أما أنا فوُلدتُ بطبعٍ يتميز بالفضول، وهكذا أخذت على عاتقي مراقبة كل الركاب.

جلس رجلان كرديان بهدوء في المقعد الأمامي من الباص. كانا مميزين برداءيهما التقليديين، كناية عن عمامةٍ، وسروال فضفاض مميز. كان ذلك كافياً لأعرف أنهما من أبناء شعبنا. رحت أتساءل ما إذا كان هذان الرجلان ينتميان إلى المناضلين الأكراد من أجل الحرية، الذين يُعرفون باسم «البشمركة»، وهم الذين سمعت الكثير من القصص عنهم. أعرف بالطبع أنهما لو كانا كذلك، لكان لزاماً عليهما أن يُخفيا هذه الحقيقة. إن مجرد انتماء المرء إلى «البشمركة» في العراق كان يستجلب عليه حكماً بالإعدام.

لم أستطِع التوقف عن التحديق فيهما.

تمتع أصغر الرجلين سناً ببنية عملاقة، وكتفين عريضتين، وذراعين مفتولتين بالعضلات كما لو أنه رافع أثقال. لاحظت برغم ذلك أن عينيه الواسعتين والحالمتين، ومظهره الودود، تطغى على قوته الجسدية. تدلّت خصلات من شعره الأسود المجعّد من تحت عمامته على قفا عنقه.

بدا الرجل الآخر صغيراً ونحيلاً. حدقت في جفنيه الغريبين، والمتهدلين، والمتغضنين. بدا لي، بالرغم من كل ذلك، مَرِحاً، ويشعّ بالحيوية والحياة. لاحظت أن المسافرين الأربعة الآخرين كانوا زوجين وطفليهما الصغيرين. أدركت من أزيائهم أنهم من العرب. ارتدى الزوج «دشداشة»، وهي عبارة

عن رداء يشبه قميصاً طويلة، وهي من النوع التي يرتديها الكثيرون من الرجال العراقيين الريفيين. وارتدت الزوجة عباءة سوداء فوق فستان أزرق اللون، أما الأولاد فكانوا يلبسون ثياباً على الطراز الغربي. لاحظت أن الولدين يحدقان بازدراء في أزيائنا الكردية.

تفردت أنا ووالدتي من بين أفراد الأسرة بارتداء الأزياء القومية الكردية على الدوام، لكننا في ذلك اليوم كنا نرتدي جميعاً أفضل أثوابنا الكردية.

بدا رعد وسعد مفعمين بالحياة بقميصيهما الواسعتين، وسرواليهما الفضفاضين والمميزين بحزامين على وسطهما. ارتديا أيضاً فوق رأسيهما كرديتين تقليديتين يطلق عليهما اسم «كلاو»، وانتعلا زوجين من الصنادل يُعرفان باسم كلاش. ارتدت المسافرات الإناث الثلاث في عائلتنا الفساتين الكردية الزاهية الألوان، بينما ارتديت أنا فستاني المفضل بلونه الزهري الداكن، أما شقيقتي منى فارتدت فستاناً بلونه الأزرق البرّاق في حين ارتدت والدتي فستانها الأصفر الساطع. لم نعتمر، أنا وأختي، أي وشاح رأس، بينما غطت والدتي شعرها الأسود بشال رائع ذهبي اللون، محاطٍ بقطع من عملة فضية طُرزت على أطرافه، تُصدر رنيناً جميلاً عند تحريك أطراف الشال.

أرادت والدتي أن تكون ودودة مع الطفلين العربيين، فقدمت إليهما بعض قطع الحلوى المليئة بالتمر. دُهشت عندما رأيت والديهما يتصرفان كأن قطع الحلوى هذه كانت مسممة. جذب الوالدان أيدي طفليهما، وأبلغا والدتي باختصار: «لا! لا!».

استرخت والدتي، بعدما ملأتها الدهشة، على مقعدها.

صُدمت لجلافة تصرف هذين الوالدين بالرغم من أنني كنت كبيرة بما يكفي كي أفهم حقيقةً من حقائق الحياة: معظم العراقيين العرب يكرهون الأكراد.

هدأت والدتي بسرعة، وعادت لتقدم إلينا القليل من قطع الحلوى. شعرتُ بالإهانة لفظاظة تصرف هذين العربيين إلى درجةٍ دفعتني إلى إظهار استمتاعي الكبير بمضغ قطع الحلوى. فعلت ذلك بكثير من المبالغة كي أُظهر للجميع كم هي لذيذة. شعرت بالشماتة الشديدة تجاه الطفلين العربيين اللذين راحا يحدقان بغضب في والديهما، كأنهما يوجهان التأنيب إليهما.

بدا الوضع مختلفاً مع الرجلين الكرديين اللذين تطلعا حولهما، ووزعا الابتسامات، ثم قدما قطعاً من الحلوى إلى جميع الأولاد. مد الطفلان العربيان، اللذان احمرا خجلاً، أيديهما الصغيرة بسرعة. أمسكا بقطع الحلوى الصغيرة، ونزعا غلافها، ثم دسّاها في أفواههما بسرعة قبل أن يمنعهما والداهما هذه المرة أيضاً.

ضحكتُ بصوت عالٍ وسط الدهشة التي ظهرت على وجهَي والدي الطفلين، وضحك الرجلان معي. شاركنا الضحك الرجل الذي كان هادئاً جداً، والذي لم يتفوه بكلمة طوال الرحلة.

أدركت أن الرحلة ستستغرق حوالى تسع ساعات. أدركت أيضاً أن عائلتنا هي الوحيدة التي ستكمل الطريق إلى السليمانية، وعلمنا أن العائلة العربية ستغادر الباص في قرية صغيرة يقطنها

العرب السنّة، ولا تبعد عن بغداد أكثر من مسيرة ساعة. وقال الرجل الأكبر سناً بين الرجلين الكرديين إنه سينزل من الباص في قرية تقع خارج كركوك.

تميّز طقس ذلك اليوم بحرارته الشديدة. شاهدت ذبابة كبيرة الحجم تحوم داخل الباص. حاولت أن أقتلها بيدي الصغيرة. نمت قليلاً، لكني استيقظت مذعورة على صوت سائق الباص العربي. لقد أظهر الرجل لطفاً كبيراً إلى الآن، فاعتقدت أن حرارة تموز التي لا تُحتمل هي التي فرضت عليه مزاجه العكر.

صاح الرجل: «أنتم هناك! اهدأوا أيها الأكراد الجالسون في الخلف! الأولاد الصاخبون يتسببون في شعوري بالصداع!».

شعرت بأنني مهانة شخصياً. فنحن لم نتسبب في أي ضجيج. مددت عنقي بفخر، وألقيت نظرة على العائلة العربية. تبادل الرجل وزوجته نظرة حذرة جداً.

شددت قبضتيّ، مع علمي الكامل بأنني لا أستطيع فعل أي شيء بوجود والدتي وإخواني من حولي. نظرت بأمل نحو الرجلين الكرديين لأعرف إن كانا سيدافعان عنا نتيجة هذا الهجوم غير المبرر. لاحظتُ نظراتهما الحائرة أثناء انشغالهما بالتفرج على المناظر الطبيعية التي تمر بنا. بدا واضحاً أنهما غير مستعدّين للدخول في مشاجرة مع السائق. شعرت بالإحباط، لكني قلت لنفسي إنهما إذا كانا من «البشمركة» المتخفيين فعلاً، فعليهما أن يبقيا هكذا.

علمنا قبل انطلاقنا في رحلتنا، أن الحياة بالنسبة إلى الأكراد في الشمال قد أصبحت في غاية الصعوبة، وحتى في غاية الخطورة. حامت الشكوك حول الأكراد بأنهم معارضون ومنشقون، ويتسببون في الاضطرابات المدنية. وفرضت الحكومة قوانين جديدة شديدة القسوة، من بينها: يُشنق الكرديُّ الذي يُقبض عليه وهو يحمل منظاراً. ويُقبَض على الكردي ويُحاكَم إذا امتلك آلة كاتبة من دون إذن خاص. تثير آلات التصوير الشكوك على الدوام، لكنها إذا كانت مزودة بعدسة مكبرة فهي تكلف صاحبها الكردي حياته. يُقبض على الأكراد بشكل مزاجي. يستطيع العربي أن يبلّغ عن أي كردي بسبب انتقاده للنظام، ويتعرض الكردي للعقاب على الفور، حتى ولو كان التقرير كاذباً.

تحرّكت والدتي، وأشقائي الأكبر مني سناً في أماكنهم، لكن بسبب كوننا من الأكراد، وكون السائق الذي أخطأت التقدير حين ظننته لطيفاً من العرب، فلم يجرؤ أحد على الرد.

فقدت الرحلة بريقها بالنسبة إلي.

وصلنا بعد وقت قصير إلى مجموعة من المنازل المبنية بالقرميد البني اللون، التي تتوزَّع في ضاحية بغداد التي ستنزل فيها العائلة العربية. جمعت هذه العائلة أمتعتها الشخصية، التي كانت عبارة عن حقيبتين قديمتين، ومرّ أفرادها بنا من دون إلقاء نظرةٍ واحدة في اتجاهنا، لكنهم أسرفوا في التعبير عن امتنانهم لسائق الباص.

شعرت بدافع قوي في داخلي يدعوني إلى الصراخ. . . إلى مجرد إعلان حالة الاعتراض والتمرد.

تعيش هذه العائلة في ضاحية متواضعة، وهي المكان المثالي لسكنى العائلات العراقية الفقيرة، حيث تتشابه البيوت المؤلفة من طابق واحد بألوانها المماثلة للّون الرملي. انتشرت الثياب على السطوح بانتظار تجفيفها، وتناثرت على طول هذه السطوح مجموعة من الكراسي المعدنية الصدئة.

شعرت بالارتياح لنزول هذه العائلة غير الودودة من الباص، لكني شعرت بالإحباط، في الوقت نفسه، لأنها غادرت من دون أن يعرف أفرادها أن والدي يتحدر من عائلة العسكري الشهيرة في بغداد. دأب الغرباء الذين التقيناهم على إظهار رهبتهم عند سماع اسم عائلتنا.

وصلنا إلى استراحة سريعة أخرى عندما وصل الباص إلى محطة وقود صغيرة وقذرة. أعرف أن الوقود يقل أكثر فأكثر كلما اقتربنا من كردستان، ويرجع ذلك إلى أن الحكومة قد حددت إمدادات الوقود للأكراد. هي سياسة متبعة تجاه المناطق الكردية، وقد جاء هذا التحديد من ضمن سياسة العقوبات الجماعية التي فرضتها الحكومة. اضطر سائق الباص إلى التطلع نحو الأكشاك المتناثرة على جوانب الطريق بحثاً عن فتيان أكراد يبيعون الوقود المعبأ في أوعية بلاستيكية.

عاد الباص ليسير في طريقنا الرئيسية. غط الجميع في النوم حتى وقت الغداء. أيقظتنا والدتي ومنى، وناولتنا شطائر لحم

الدجاج مع السَلَطَة، بالإضافة إلى مشروب «الفانتا» (عصير البرتقال) كانت اشترته والدتي من محطة الوقود.

أظهر الرجلان الكرديان امتنانهما عندما أصرت عليهما والدتي، بهدوء، أن يتشاركا معنا بتناول الشطائر، لكن سائق الباص رفض عرضها. تصرّف الرجل كما لو أن الشطائر تثير اشمئزازه، وتدفعه إلى التقيؤ، برغم أن والدتي هي من أكثر ربات البيوت حرصاً ونظافة في كل بغداد.

اختفت الأرض الترابية من تحت الباص عندما مررنا فوق الجسر المعدني المعلق فوق وادٍ صغير. استطعت أن أرى، للمرة الأولى في هذه الرحلة، سلسلة الجبال الخضراء الرائعة المرتفعة نحو السماء. لن يمر وقت طويل قبل وصولنا إلى كردستان، وهي المكان الوحيد في هذه الأرض الذي أشعر فيه بالثقة والسعادة.

أدركت، حتى في هذه السن الصغيرة، أنني أنتمي إليه، وليس إلى بغداد.

«أنا أحب كردستان!».

لم أَبُحْ بهذه الحقيقة لشخصٍ بعينه، لكن مجرد مجاهرتي بها زرع ابتسامات الرضا على وجهَي الرجلين الكرديين. أصدر سائق الباص همهمة تنمّ عن استيائه، لكنه لم يعلّق.

أعلم أنه كان من غير المسموح قانونياً أن نطلق اسم كردستان على منطقة شمال العراق. امتلكتُ الجرأة والثقة لأنني

استبعدت أن تتعرض فتاة صغيرة مثلي للعقاب. وأدركت أيضا أننا سنصل إلى منزل الجدة أمينة بعد وقت قصير، وأننا سننسى كذلك كل مشقات هذه الرحلة.

تحسّن مزاج سائق الباص قليلاً ما إن وصلنا إلى جبال كردستان الباردة. دُهشت عندما شغّل الرجل آلة تسجيل، فترددت في أرجاء الباص أغانٍ كردية فولكلورية، وحثّنا على مرافقة هذه الأغاني بأصواتنا. يعرف الجميع أنه من غير القانوني تأدية الأغاني الكردية التي تثير الروح الوطنية، وبرغم ذلك يذيع راديو بغداد البعض من الأغاني الكردية الفولكلورية في المناسبات. تظاهر أكبر الرجلين الكرديين سناً بأنه يرافق الموسيقى بغنائه، لكني عذرته لأنه يتظاهر هكذا كي يبقى في أمان. صممت على ألا أغني بناءً لأوامر ذلك الرجل القاسي.

وصل الباص في غضون ساعة إلى المحطة التي كان سوف يغادر فيها الرجلان الكرديان. ودّعنا الرجلان بوضع أيديهما على قلبيهما، ثم أسرعا بالنزول من الباص وعلامات السعادة بادية عليهما. مشيا بسرعة في اتجاه قرية صغيرة تشبثت بسفح الجبل. لاحظنا أن سقوف هذه البيوت منخفضة، وأنها متقاربة جداً إلى درجة أنني كنت واثقة من أنني، لو أردت، لاستطعت استخدامها لتكون درجاً أتسلق من خلاله إلى أعلى الجبل.

تحرك الباص مرة أخرى بعد أن مضى على وجودنا في جوّه الحار مدة تزيد على ست ساعات. بدأ التعب ينال منا، وفي

هذا الوقت انعطف بالحافلة بشكل غير متوقع بعيداً عن الطريق السريعة الرئيسية. أعلن سائق الباص أننا سنتوقف قليلاً.

أسرعت والدتي بالصراخ معترضة بالكردية: «ما هذا؟ إلى أين أنت ذاهب؟».

تجاهل السائق احتجاجها.

كرّر رعد كلمات والدتي، لكن باللغة العربية هذه المرة.

هزّ السائق رأسه، وأعلن بتردد: «عندي راكب. إنه راكب دائم معي، وهو يريد أن أقلّه إلى السليمانية».

ترجم رعد كلمات السائق لوالدتي، لكنها عبست وزمّت شفتيها. لم تكن مسرورة بما يجري.

لم تكن الطريق معبدة، فتطاير الغبار من تحت الإطارات، ودخل عبر النوافذ المفتوحة حتى كدنا نختنق وبدأنا بالسعال. ترك رعد مقعده، واقترب من والدتي حتى يتشاور معها بشأن هذا الوضع المقلق. سمعنا في الوقت نفسه ضجيجاً مفاجئاً، وأزيز طلقاتٍ نارية.

اصطدمت جبهتي بالجهة الخلفية للمقعد المتواجد أمامي، عندما ضغط السائق على دواسة الفرامل. ترنح رعد إلى الوراء، لكنه تمكّن من الحفاظ على توازنه، ثم سقط في مقعده وشهق بطريقة عفوية.

شعرت بالرعب. تطلعت نحو والدتي التي أشارت إليّ قائلةً: «تعالي يا جوانا».

اندفعت إلى جانبها، وتطلعت من خلال النافذة. شاهدت مجموعة من الرجال المسلحين يتحركون بطريقة مريبة، وينزلون في درب ملتوية. ماذ يحدث؟

سمعنا صرخات: «ترجّلوا! ترجّلوا من الباص!».

سارع سائق الباص إلى النزول أولاً، ولم نتأخر في النزول واللحاق به.

قاطِعو طرق! هل سنتعرض للنهب؟ بدأت نبضات قلبي تخفق بقوة وبسرعة.

رأيت، بعد أن نزلنا من الباص، خمسة رجال مسلحين. تطلع هؤلاء نحونا بغضب.

أعرف أن كثيرين من العراقيين يعيشون في حالة فقر مدقع، لذلك ظهر قاطعو الطرق اليائسون من كل شرائح المجتمع. الأكراد أنفسهم يقطعون الطرق أحياناً، لكن الرجال الذين أوقفونا بقوة فوهات بنادقهم، لم يكونوا من الأكراد.

لا أستطيع أن أتوقع رحمة من قاطعي الطرق العرب، حتى لو علموا أن والدي هو عربي أصيل مئة في المئة. أعرف أيضاً أن مثل هذه المعلومة ستدفعهم إلى كرهنا أكثر فأكثر، لأننا كنا نرتدي الثياب الكردية.

بدأ أحد قطاع الطرق في الصراخ على السائق. فهمنا بسرعة أنه يعمل بالتنسيق معهم، وأدركنا أن دوره هو التجول في أنحاء العراق بهدف استدراج المسافرين، الذين لا يعلمون طبيعة

نواياه، إلى ركوب حافلته. يعمد الرجل بعد ذلك إلى أخذ الركاب إلى مناطق حدّدها سلفاً ليتم سلبهم فيها.

فهمنا من الأحاديث التي دارت بين قطاع الطرق، أننا خبّبنا آمالهم، لأنهم توقعوا استقبال ركاب أكثر ثراءً.

تأكدنا الآن من أن هؤلاء الرجال سيقومون بسلبنا. انحصرت أفكاري بلعبتي السوداء الجميلة، وهي اللعبة التي جلبَتْها لي من لندن عمتي فاطمة، وشقيقة والدي الأصغر سناً منه، وهي امرأة لامعة احتلت مركزاً حكومياً رفيعاً. لم يسبق لأفراد عائلتنا أن رأوا لعبةً من قبل. صُنعت من الخزف الأسود، وظهر الوجه بشكل متقن وكامل، وامتلكت رموشاً طويلة. ارتدت اللعبة فستاناً حريرياً بلون أخضر فاتح. وما بهرني وجعلني أتعلق بها، كما لو أنها صديقتي الحميمة، أنها ترتدي ثياباً داخلية تتناسب ألوانها مع لون الفستان. قالت لي والدتي إن هذه اللعبة هي من المقتنيات الثمينة، لأنها قيّمة جداً، وفريدة من نوعها، لهذا وضعتها في صندوق خاص لنحتفظ بها «للمناسبات الخاصة».

توسلتُ والدتي لعدة أيام قبل أن توافق على أن أصطحب هذه اللعبة معي إلى كردستان. أردت أن أُريها لأقربائي الأكراد في السليمانية، وأتباهى بها هناك. هل سيعمد قطاع الطرق إلى أخذ هذه اللعبة مني؟

تطلعت نحو والدتي. عرفت من ملامحها أنها قلقة على أشياء أكثر أهمية من لعبتي. شعرت أمي بالرعب خوفاً على

سلامتنا، فجذبت منى من ذراعها وقرّبتها إليها، حتى كادت تتوحّد بها.

أبدى كثير من الناس إعجابهم بمنى لجمالها الذي يكلّله شعر أشقر يميل إلى العسلي، وبسبب بشرتها الفاتحة اللون، وملامحها المتناسقة. خافت أمي أن يطلب هؤلاء الرجال أخذ منى لتكون عروساً لأحدهم، برغم أنها لا تزال صغيرة جداً. بالكاد تبدو طفلة.

أحاطت والدتي منى بذراعها، ورأيتها تسدد نظرةً ذات مغزى في اتجاه رعد وسعد طالبةً منهما أن يبقيا هادئين.

أظن أن قطاع الطرق اعتقدوا أن شقيقيّ يشكلان تهديداً لهم، وأنهما قادران على التصدي لمحاولاتهم إيذاءنا، وعلى الأخص شقيقي الأكبر رعد. لم يصبح رعد رجلاً بالغاً بعد، لكن طوله وصل إلى ما يزيد على ستة أقدام، أي أنه يفوق قطّاع الطرق طولاً. صعُب عليهم أن يدركوا أن أخي الأكبر لا يستطيع العراك، وأنه يتجنب أي شجار، ويفضل أن يجلس في زاوية غرفته ليدرس، وينطوي على نفسه.

يشكّل سعد، بالمقابل، مشكلة بالنسبة إلى والدتي. كان فتى كبيراً هو الآخر، لكنه عصبي وعنيد. رأيت عضلاته، عندما نظرت إليه بطرف عيني، تتحرك وتتوتر.

انشغل قطّاع الطرق بأشياء أخرى، وأظهروا سخطهم الشديد على شريكهم، سائق الباص، لأنه أحضر لهم ركاباً فقراء.

ضاق أقصر الرجال، وكان من الواضح أنه قائدهم، ذرعاً بكلام سائقنا المعسول، فهدّده بمسدسه. استدار السائق الجبان، وأسرع كي يختبئ وراء الأجمات العالية المحاذية للطريق الترابية. زرع القائد الطريق بطلقاته النارية. كان هذا الأمر كافياً ليزرع الرعب في قلوب الجميع.

سمع السائق أصوات الطلقات النارية، ورأى الرصاصات تتناثر حول قدميه، فزلّت قدمه أثناء محاولته الوقوف فجأة. استدار السائق، وصرخ: «هاي! هاي!».

اندفع يؤشر بيديه محاولاً استرضاء أصدقائه اللصوص، وعاد في اتجاهنا.

شعرت بالصدمة. وجدنا أنفسنا نتعرض للسلب على أيدي عصابة من المهرّجين. أعرف أن الوضع، مع الأسف، كان مأساوياً جداً.

شتمه القائد وهدده. أشار السائق نحو أمتعتنا. كانت عبارة عن ثماني حقائب مصفوفة على سطح الباص: «لعل هذه الأمتعة ترضيكم».

نظر السائق بشراسة نحونا متابعاً كلامه: «أنا متأكد من أن هؤلاء الأكراد يمتلكون شيئاً له قيمته».

تحققت أسوأ مخاوفي عندما أمر القائد اثنين من رجاله بإنزال أمتعتنا. أسند الرجلان أسلحتهما على هيكل الباص. سبق أحد قاطعَي الطرق رفيقه في الصعود إلى سطح الباص، وبدأ

الاثنان في إلقاء حقائبنا على الأرض. قفز الرجلان إلى الأرض بعد انتهائهما من المهمة، وبدآ في فتح الأمتعة حقيبةً بعد حقيبة، وانطلقا بسرعة البرق يبحثان عن الأشياء القيّمة فيها.

اختلست نظرةً نحو والدتي فرأيتها تضع يدها على فمها. بدا شقيقاي وشقيقتي مصعوقين أيضاً مع مشاهدتهم أغراضنا الشخصية تتناثر على الأرض.

لم يرضَ هؤلاء الأشخاص بشيء، وأظهروا استياءهم من أغراضنا المتواضعة، فبدأوا برميها جانباً.

هزّ السائق كتفيه: «إنهم أكراد. ماذا تتوقعون منهم. هل تتوقعون أن يمتلكوا مجوهرات ثمينة؟».

حملق الرجل بنا، كأن الملامة تقع علينا في عدم رضا شركائه، أو كأننا تعمدنا أن نكون فقراء.

توجه أحد الرجال بالكلام إلى والدتي: «أين أموالكِ؟».

بحثت والدتي في حقيبتها الصغيرة، فسقطت عدة قطع نقدية على الأرض. تعودت أمي ألا تحمل معها أي نقود عندما تزور كردستان، لأنها تعرف أن عائلتنا في السليمانية ستتكفل بتأمين كل احتياجاتنا.

رأيت في تلك اللحظة بالذات لعبتي السوداء تُرمى إلى الأرض. انفلتت صرخة من شفتيّ عندما اندفعت إلى التقاطها، برغم صرخة والدتي المحذرة: «لا! جوانا! لا!».

تفحصت اللعبة. تأكدت من سلامتها. كانت لعيني تبدو

كأنها جديدة برغم خدوشٍ قليلة على وجهها، وبعض التراب الذي علِق بثيابها.

تحرّك السائق بشكل مخيف باتجاهي، ومدّ يديه، لكني صرخت، وأخفيت اللعبة ورائي. أسرع قائد اللصوص بإصدار أمره: «اتركها».

تراجعتُ ببطء حتى اختفيت عن الأنظار وراء والدتي، وبدأت بالتطلع بحذر من جانبها.

انتقى المجرمون الستة أفضل ما نحمله من الثياب والهدايا التي اشتريناها خصيصاً لأقاربنا، وما لبثوا أن صعدوا إلى الباص وهم يشتكون من فقرنا بأصوات عالية.

جذبت ذراع والدتي: «أمي؟».

شعرنا بالرهبة عندما رأيناهم يتحضرون للمغادرة تاركين إيانا لقدرنا على قارعة طريق موحشة. رأيت السائق وهو يوجه آخر نظرة ازدراء نحونا قبل انطلاقه. سخر منا لثقتنا به، وصرخ: «أكراد أغبياء!».

حدّقت في الباص الذي أخذ بالابتعاد عنا، وشاهدت الإطارات التي غطتني بغبار الطريق. شرعت في البكاء خوفاً علينا جميعاً. لقد بقينا وحدنا في هذه المنطقة المعزولة، وها هو الباص، الذي كنا منذ قليل نرمي بأجسادنا وهمومنا وآمالنا فوق كراسيه، يختفي غير آبه في البعيد.

شعرت والدتي بالارتياح عندما تأكدت من سلامة أبنائها. ما همها لو أخذوا منها كل مالها. ما يهمها هو أننا لم نُصَب

بأذى. بدت غير مكترثة لحقيقة وجودنا وحيدين هنا من دون وسيلة نقل، ولا طعام، ولا ماء، ووسط منطقة جبلية خطرة يُحتمل وجود حيوانات متوحشة فيها.

تفحصت الخضرة المحيطة بنا وأنا أذرف دموعاً خانتني القدرة على إسكاتها. توقعت أن أشاهد الذئاب، والثعالب، والقطط البرية لتهاجمنا. نسيت أن أذكر الأفاعي، فهذه المنطقة الوعرة تعج بأفاعٍ سامة لا حصر لها. بدأت أشعر بالرعب من الأفاعي في الصيّف قبل الماضي، حين لاحقني قريب لي في كردستان وهو يحمل أفعى بيده.

حدقت والدتي وأشقائي في أغراضنا المتناثرة في الطريق الترابية. ترك لنا قطّاع الطرق ثلاث حقائب متواضعة. تحركنا معاً مثل الرجال الآليين، وبدأنا نعيد توضيب الأغراض الباقية.

كسرت أمي الصمت المخيّم: «لربما توجد قرية قريبة من هنا».

أشار رعد نحو الاتجاه الذي قدمنا منه، وقال بهدوء: «لا تبعد الطريق الرئيسية كثيراً عن هنا».

شعر سعد بغضب شديد بحيث إنه وجد صعوبة بالكلام. اكتفى بالهمهمة فقط.

بدأت منى، مثلي أنا، بالبكاء.

وضع رعد وسعد الحقائب الثلاث على ظهريهما، وألّفنا خط سير عمودياً. مشينا في منتصف الطريق متجنبين جانبيها

حيث تكون الأرض الصلبة حجرية ومليئة بالأعشاب الطويلة والأشواك. أقنعتُ نفسي بأن الأفاعي السامة تتربص بنا على جوانب أجمات القصب الكثيفة، فبقيت في وسط الطريق، وحرصت على أن أبقى في الوسط بحيث يفصلني شخصان عن كل جانب.

توقفت منى عن البكاء، وعرضت عليّ بلطف أن تحمل لعبتي التي بدت ثقيلة.

تألقت شمس تموز، إلى حدّ شعرنا بوطأة العطش بسرعة. شعرت بأن لساني قد تورم، وأن حلقي تيبَّس، وشفتيّ تورمتا من الظمأ. بقيت مؤونتنا من المياه في الباص. يتواجد الكثير من الينابيع الجبلية في كردستان، لكن أحداً لم يجرؤ على المخاطرة بإيجاد أحدها وسط الحشائش الكثيفة.

بدأ ذهني باختراع صورٍ وهمية. عجزت عن التفكير في أي شيء عدا المذاق اللذيذ لعصير العنب الذي اعتادت جدتي أمينة تقديمه إلى ضيوفها في منزلها في السليمانية. اعتادت أن تسكب ذلك العصير فوق ثلج الجبل الصافي. لا أعتقد أنه يوجد شيء في العالم ألذ مذاقاً من عصير العنب، فقد كان يُقطَف ويُنقَل يومياً من أكثر قمم الجبال ارتفاعاً.

مرّ زمن طويل على تذوقنا شطائر لحم الدجاج، فشعرت بجوع شديد. اشتقت حتى إلى قضمة واحدة فقط من الخبز الطازج الذي تخبزه جدتي مع الجبنة المخلوطة بالأعشاب العطرية.

سمعت صوت محرك في الوقت نفسه الذي بدأت فيه رجلاي بالارتعاش، وعجزت عن التقدم، ولو لخطوة واحدة. ورحت أتساءل: هل عاد قطّاع الطرق؟

أصبنا، والحمد لله، بعض الحظ الحسن هذه المرة. ظهر جرّار زراعي أحمر اللون فوق التلة. جلس مزارع فوق مقعد السائق. استنتجت فوراً أن الرجل كردي بسبب الملابس التي يرتديها.

دُهش الرجل عندما رآنا. أبطأ السرعة في البداية، قبل أن يعمد إلى إيقاف محرك جراره. رفع الرجل حاجبيه، وحدّق فينا متشككاً في أمرنا. أراد أن يعرف: «ماذا تفعلون أيها الناس هنا؟»

تقدم رعد إلى الأمام كي يشرح وضعنا.

تغيّرت تعابير الرجل المتشككة في البداية، لتدل على تعاطفه معنا. سأل الرجل أخي رعداً عن خلفية عائلتنا. مضت لحظات قليلة قبل أن تنكشف أمامنا أغرب مصادفة: تبيّن لنا أن ذلك المزارع الكردي هو عم هادي. أعطاني هادي اسمي عند ولادتي، وهو الذي تزوج بأختي الكبرى علياء. هذا يعني ببساطة أننا أقرباء!

قفز الرجل إلى الأرض، وصاح بنا: «هيّا. دعوني أساعدكم. اصعدوا إلى الجرار. سآخذكم إلى منزلي».

أدركنا أن هذا الرجل سينقذنا من محنتنا عندما عرض علينا بلطفٍ بالغ: «ستكونون ضيوفي هذه الليلة».

بدأ المزارع، ورعد، وسعد، بوضع أمتعتنا في أماكن مناسبة في الجرّار، ثم صاح المزارع بنا: «ليجد كل منكم مقعداً آمناً».

جلس كل واحد منا بطريقة مختلفة فوق ذلك الجرّار. جلست بشكل دائري إلى جانب والدتي، بينما جلست أختي منى وأخي سعد فوق أغطية الدواليب. قال رعد متطوعاً: «سأجلس فوق غطاء المحرك».

أعرف أخي جيداً. هو أراد أن يوفر علينا مشقة الحفاظ على توازننا فوق ذلك الموضع الساخن.

أدار المزارع محرك جرّاره، وانطلقنا. استمرت الشمس في إرسال حرارتها على ظهورنا، وشعرنا بنسائم هواء خفيفة تصفع وجوهنا، لكننا تابعنا طريقنا بطمأنينة ونحن نبتعد عن ذلك المكان الخطِر.

ضحكتُ بصوتٍ عالٍ عندما تطلعت إلى أخي رعد. شاهدته ينحني إلى الأمام مثل فارس مصمم على أن يفوز حصانه بالسباق.

شعرت بسعادة غامرة أخيراً، بينما كان النسيم يتلاعب بشعري الطويل. رفعت أنفي إلى الأعلى وسط الهواء الكردي الذي امتلأ بعبير الحرية.

(٢)

تلة الشهداء

السليمانية ـ كردستان: تموز، ١٩٧٢

قبلنا بسرور، بعد أن أنقذنا بأعجوبة قريبنا المزارع، الذي التقيناه صدفة، دعوته الكريمة التي وجّهها إلينا لقضاء الليل في منزله. يعيش هذا المزارع في منزل صغير يختبئ وراء ظلال بستان من الأشجار الباسقة. جعلني هذا المنزل أفكّر في قصة خيالية.

رأيت، عندما دخل الجرّار الطريق الترابية الخاصة بالمنزل، وجوهاً تتطلع من وراء ستائر مزركشة بلون الخزامى، تماوجَ قماشها مع النسائم من خلال النوافذ التي تخلو من الزجاج.

أقر عمّ هادي بأنه رجل محظوظ يمتلك زوجة صالحة، وثلاث بنات مطيعات. خرجت أسرة المزارع بخجل بناءً على إلحاحه. وقفت زوجته وبناته فوق الشرفة الأمامية، ثم أخذن يشرن إلينا بإشارات مرحبة بقدومنا.

أردت أن أكون أول النازلين من الجرّار الزراعي. قفزت قفزةً كبيرة قبل أن أنطلق مسرعة نحو الشرفة، وتابعت سيري عبر الباب الأمامي. لاحظت أن هذه الأسرة لا تمتلك إلا القليل من

الأثاث التي يُمكن المرء أن يشاهده. لاحظت أيضاً أن الغرف مزينة بزهور تم قطفها حديثاً، وهذا هو شأن كل المنازل الكردية، سواء أكانت متواضعة أم فخمة.

رحّبت الأسرة بنا باعتبارنا ضيوفاً مكرّمين، وادعى المزارع أن «الضيوف يجلبون الحظ الحسن معهم».

رافقتنا زوجته بسرور إلى الشرفة الخلفية. تناولت دلواً من مياه الينابيع العذبة، ثم حثّتنا على الشرب منه، والاغتسال، وأن نرتاح بانتظار تقديم الطعام إلينا. أبلغتنا الزوجة بكل مودة أن «الزائر يجلب معه عشر بركات، فهو يأكل مقابل واحدة، ويترك التسع الباقية».

سكبت لكل واحد منا كوباً من الداو، وهو طعام كردي، يُصنع من مشروب اللبن الرائب البارد، وذلك قبل أن تستدعي بناتها الثلاث الخجولات. اكتشفت بسرور أنهن حضّرن ثلاثة أطباق كبيرة مليئة بالخبز المرقوق حديثاً، وبالجبن الأبيض، والتين. تلقينا دعوة الأسرة إلى تناول الكبة، وهي من الأطباق الشعبية من القمح المطحون (البرغل)، الممزوج مع اللحم المفروم، والبصل، واللوز.

روى رعد أثناء تناولنا الطعام القصة الكاملة لوقوعنا في «شرك» السائق، وكيف أنه خدعنا وأحضرنا، بعد أن راوغنا في ادعائه حُسن المعشر، إلى مكان مجاور لأرض المزارع حيث سُلبنا.

استرسل المزارع في الكلام، وروى على مسامعنا العديد من

الأمثال الكردية، ومنها، «لا تقلق. سيبادر الكثيرون إلى إرشادك إلى الطريق عندما تنقلب عربتك».

حاولت أن أُخفي ضحكاتي على مواعظه، فعمدت إلى التظاهر بالاختناق، ووضعت يدي على فمي. أسكتتني والدتي بوكزة لم ينتبه إليها أحد.

أصّر ذلك الرجل الودود على أن ننام على المفارش البيضاء في الشرفة الأمامية، بينما تنام عائلته تحت أشجار العرعر والصفصاف في الحديقة. لا أعتقد أن مضيفاً يتفوق على عم هادي في حسن ضيافته.

استيقظنا بعد هذه الاستراحة الليلية، وتناولنا فطوراً لذيذاً من الشاي الساخن، والبيض المسلوق، واللبن الرائب الطازج، والمزيد من الخبز الطازج. وفى المُزارع بوعده عندما اتفق مع قريب موثوق له كي ينقلنا، في آخر قسم من أقسام رحلتنا، إلى منزل الجدة أمينة في السليمانية.

بدت سيارة قريب المزارع قديمة، وفي وضع سيئ، لكن صوت المحرك بدا طبيعياً. استطاعت السيارة السير بسرعة فور مغادرتنا منزل المزارع. شعرت بالحبور إلى درجة شعرت معها بأن هذه الرحلة قد استغرقت أقل من ساعتين. تسلقت السيارة تلة، وانعطفت على منحنى قبل أن تزيد من سرعتها كثيراً في اتجاه الوادي، الذي اكتظت فيه الأعشاب الخضراء، والزهور المتعددة الألوان.

ظهرت السليمانية الرائعة أخيراً وسط هذه اللوحة من الألوان

المنوّعة. ترتفع المدينة، التي بناها سليمان باشا الكبير في الع ١٧٨٠، تسعمئة متر فوق سطح البحر، وهي تزيّن وادياً زمردياً محتضَناً بين جبلين يأخذ شكل «الطاسة».

السليمانية مدينة كردية مئة في المئة، وهي المكان الذي وُلدت والدتي، ونشأت فيه. احتفظت بكل حبي للسليمانية برغم أن بغداد هي مكان ولادتي.

يقع منزل جدتي الكبير في حيّ يتميز بمنازل كبيرة، ومفتوحة، أمام الضيوف. تحيط بالمنزل الحدائق الغنّاء والأشجار القديمة الظليلة.

ظل منزل جدتي، بالنسبة إلي، أجمل منزل في العالم كله. تنفتح كل الغرف فيه على حديقة فسيحة تتوسطها نافورة كبيرة. وتظلل عرائش عنب كثيفة شرفات غرف نومه الفسيحة.

كانت والدتي محظوظة لأنها نشأت في ذلك المنزل. وُلدت أمي في العام ١٩٢٨، واحتلّت الترتيب الرابع بين أخواتها. عمل والدها، حسون عزيز، بصفته ضابطاً في الجيش العثماني، وهو الذي يتحدر من عائلة معروفة جداً. يُعتبر أفراد عائلته مزيجاً من الأتراك والعرب، أما عائلة جدتي أمينة فكانت كردية. وُلد لجدي ابن من زواج سابق، أما زواجه من الجدة أمينة فقد أثمر بناتٍ فقط.

أحس جدّي حسون بخيبة أمل مريرة عندما وُلدت أمي. أقدم، في غمرة رغبته اليائسة في طرد الحظ السيئ، على تسمية والدتي «كافية»، التي تعني «كفى» باللغة الكردية. باءت محاولته مع هذا الاسم بالفشل. وُلد لجدي ثلاث بنات أخريات بعد

ولادة أمي، قبل أن يبتسم له القدر، ويُولد له صبيان. وهكذا كان خالي عزيز، أصغر طفل من زواجه، وآخر العنقود.

لا يستغرب المرء أن ينشأ الخال عزيز متمتعاً بمحبة كبيرة من عائلة مؤلفة من سبعة أفراد. جلبت الفتيات السبع الشهرة للعائلة بسبب طولهن، ونحافتهن، وجمالهن، وتمتعهن بوجوه ساحرة. واشتهرت الفتيات بنظراتهن الفاتنة الخلابة التي جذبت الكثير من الخطّاب طالبي الزواج. قيل في ذلك الزمان إن رجالاً كثيرين قد حلموا بالزواج ببنات الضابط حسون.

لم تتمتع والدتي بالجمال فقط، بل كانت مجتهدة في دراستها أيضاً. سُمح لوالدتي بإكمال أعلى المستويات الدراسية التي يُسمح بها للفتيات الكرديات في ذلك الزمن، أي ما يساوي ست سنين دراسية. تمتعت والدتي برغبة جامحة في التعلم، وكانت قارئة نهمة، بالإضافة إلى ولعها بالشعر الكردي. انتهت طفولة والدتي السعيدة، وآمالها بالمستقبل، بشكل فجائي عندما انفجرت زائدة جدي، وهو الأمر الذي نشر السموم في أنحاء جسده. لم يستطع أحد إنقاذه، ولم يستطع أحد إنقاذ والدتي من مصيرها بعد موته.

بدأت في هذا الوقت والدة أبي بالبحث عن عروسٍ مناسبة لابنها الأخرس والأصم. اعتادت أفضل العائلات التي تعيش في بغداد على التزاوج في ما بينها، لكن القليل من هذه العائلات كانت على استعداد لتزويج بناتها برجل يُنظَر إليه كمعاق على الرغم من ثراء عائلته، أو ثقافته الأوروبية. أخطأ معظم الناس في ذلك الوقت في التفكير في أن صممه قد ينتقل إلى الأولاد الذين سينجبهم.

جدي لأمي حسون عزيز

جدتي لأمي أمينة حسون

جدي لأبي علي رضا العسكري عندما
كان ضابطاً في الحرب العالمية الأولى

جدتي لأبي مريم حسون

والدي محمد عدنان العسكري في أوائل العشرينيات، في الوقت الذي خسر فيه قدرته على السمع

والدتي كافية حسون ترتدي زياً كردياً

أرسلت والدة أبي ممثلاً عنها ليستكشف، في أنحاء البلاد، بنات العائلات الموسرة اللواتي بلغن سن الزواج. سمع «مندوبها» عن بنات حسون عزيز الجميلات.

بلغت والدتي، في ذلك الوقت، سن السادسة عشرة، وهي السن التي كانت تُعتبر مناسبة لزواج الفتيات في ذلك الزمن. حصلت عدة اجتماعات بين العائلتين، فتقدمت عائلة والدي بطلب ارتباط العائلتين عن طريق الزواج.

تقدم عدة أشخاص في هذا الوقت يطلبون يد والدتي، وكانت تحب، سراً، فتى كردياً شُغفت به، وطالما تمنت أن يكون زوجها في يوم من الأيام. رفضت اقتراح عائلة والدتي، لأنها لم ترغب في أن تتزوج برجل لا يُعتبر غريباً بالنسبة إليها فحسب، لكنه غريب وعربي أيضاً. عرفت أمي مقدار الاحتقار الذي يكنّه العرب تجاه الأكراد. ولم ترغب كذلك في الزواج برجل أصم وأبكم. هي لم ترغب أصلاً، في الارتباط بعائلة تعيش بعيداً جداً عن عائلتها.

لم يكن الناس يُكثرون من الترحال بعيداً في تلك الأيام، لذلك أدركت أمي أنها ما إن تصبح في بغداد حتى تجد نفسها في عزلة، بحيث ستكون محظوظة إذا ما زارت عائلتها مرة في السنة.

حمل مثل هذا الزواج في طياته مشكلةً أخرى، فهي لا تتقن العربية، وستكون عاجزةً عن التواصل مع محيطها وأهل زوجها، حتى أنها ستكون معزولة في سكنها بين العرب في بغداد.

وجدت جدتي أمينة نفسها، في ذلك الحين، أرملةً غير مستقرة. لقد رأت في هذا الزواج فرصة لربط عائلتها مع واحدة من أعرق العائلات العراقية. قبلت جدتي أمينة طلب الزواج نيابة عن والدتي، ورغماً عنها.

وجدت أمي المسكينة نفسها مضطرة إلى ترك «جنة» السليمانية من أجل الاقتران برجل لا تعرفه، ومضطرة إلى العيش بين غرباء في العاصمة العراقية الحارة، التي لا تغري أحداً بالعيش فيها.

شعرت والدتي باليأس، لكن الفتيات في تلك الأيام كنّ مضطرات إلى الانصياع لأوامر أولياء أمورهن.

كانت هذه هي قصة ولادتي في بغداد لوالدٍ عراقي عربي، وأم كردية.

استرخيت في وقت لاحق من ذلك اليوم في كرسي استراحة في بيت جدتي أمينة الرحب. انشغلتْ في ذلك اليوم والدتي، وجدتي، وثلاث من خالاتي، في تبادل الأحاديث. اعتقدن أنني نائمة لأنني أحطت ذراعيّ بلعبتي السوداء، لكنني كنت أستريح فقط، وأنا مغمضة العينين، بينما رحت أستمع، سراً، إلى أحاديث الكبار من حولي.

مضت ساعات قليلة على وصولنا، لكن الإرهاق ظل مسيطراً عليّ بسبب هذه الرحلة المتعبة، وما تعرضنا له خلالها. شعرت بقرصة الجوع. فتحت عينيّ كي أحاول إقناع والدتي بأن تسمح لي بتناول بعض الحلوى. همست خالتي عائشة، وكانت تزور

جدتي هي الأخرى، في تلك اللحظة بالذات: «كافية. أخبريني كيف هي حال عزيز؟».

أسرعت إلى إغلاق عينيّ مرة أخرى، وعدت إلى التظاهر بالنوم مجدداً. ملأني الفضول لما يُمكن أن يُقال حول خالي الحبيب. كان من النادر أن تناقش العائلة مسألة اعتقال الخال عزيز وتعذيبه. افترضت أنه لو أنني حافظتُ على هدوئي، فلربما سأعرف بعض التفاصيل عن اعتقاله، وعن عذاباته التي أعقبت هذا الاعتقال.

أصدرت والدتي آهةً مسموعة قبل أن تُصدر سلسلة من الأصوات بلسانها.

حثّت جدتي أمينة والدتي: «كافية؟».

اعترفت والدتي أخيراً: «إنه الآن كما كان من قبل. يمضي أيامه باللعب مع جوانا، أو يقوم بالعزف على الناي، عندما يمر في مزاجٍ كئيب».

تميّز خالي عزيز بأنه عازف موسيقي ومُغنٍ موهوب. اعتاد أن يعزف على الناي، وهو عبارة عن مزمار أفقي يُصنع من قصبة طويلة لها ستة ثقوب للأصابع من جهتها العليا، وثقب واحد من الجهة السفلى. امتاز نايه بزخرفاته القديمة الطراز، برغم أن معظم النايات الأخرى كانت عادية.

أصدرت الجدة أمينة صوت همهمة خافتة في حنجرتها، ثم قالت بنبرة حزينة: «يا ليتني لم أطلب منه أن يقلني بالسيارة في ذلك اليوم».

أسرعت خالتي فاطمة إلى تذكيرها: «من أين لكِ أن تعرفي بوجود ذلك الحاجز الذي أُقيم في السوق يا أمي؟».

قالت بكآبة: «نعم، هذا صحيح. لم أعرف بوجود ذلك الحاجز، لكني كنت على علم بالاضطرابات التي جرت في الشوارع. كان يجدر بي إبقاء عزيز بأمان... يقع عليّ اللوم لأنني كلّفته بتلك المهمة».

اشتهرت خالتي عائشة من بين أفراد عائلتنا، بإيمانها الديني العميق، وبشخصيتها القوية، لذلك لم تكن تسمح لجدتي بأن تحمّل نفسها مسؤولية ما حدث في ذلك اليوم الحزين: «يحدث كل شيء بإرادة الله فقط يا أمي. كان عزيز شاباً صغيراً، والشبان الصغار يشعرون بأنهم لا يُقهَرون، ولو لم يكن معك، لكان مع شخصٍ آخر. إن ما حدث في ذلك اليوم هو إرادة الله. لا تشككي في إرادته».

لاحظت جدتي أمينة بعناد: «إن الشبان الصغار هم في خطرٍ على الدوام. أعرف ذلك».

انشغلت خالتي منيرة بحياكة كنزة لإحدى بناتها، وأصدرت صنارتا الحبك قرقعة. أعرف أن خالتي منيرة أصبحت عمياء في عمر الرابعة عندما التقطت عدوى مرضٍ غامض تسبب على الفور في انكماش مخيفٍ في مقلَتَي عينيها. حافظت خالتي على جمالٍ رائع برغم فقدانها بصرها، واستطاعت أن تنجب عائلة كبيرة لسعيد الحظ الذي تقدّم إلى خطبتها. تميّزت بالبراعة، إلى درجة أنها لم تكن تسمح لأحد بمساعدتها في أعمالها المنزلية.

واعتادت دائماً رؤية النواحي الإيجابية في كل شيء. لم تتغيّر في تلك الليلة، وذكّرت جدتي والأخريات: «احمدن الله، على الأقل، لأن عزيز ما زال بيننا، وأننا غير مضطرات إلى زيارة «تلة الشهداء»».

فتحتُ إحدى عينيّ. رأيت والدتي، وجدتي، وثلاثاً من خالاتي جامدات كالأحجار، ينظرن إلى بعضهن بعضاً، ويزممنَ شفاههن.

سمعتُ، مثلي مثل بقية الأكراد، قصة أولئك الشهداء المساكين. تحولت تلك التلة إلى مزار، ومحج يقوم الكثير من الأكراد بزيارته، فضلاً عن أقارب الذين ماتوا، في كل يوم جمعة، وهو يوم عطلة المسلمين، وذلك كي يبكوا، ويصلّوا من أجل شبانهم الذين قُتلوا فوق تلك التلة.

دأب رجال السلطة في بغداد على استهداف الأكراد، ما تسبب في مجازر عديدة تعرّض لها مدنيون أبرياء كثُر، كان من المستحيل تعدادهم. لكن المجزرة المعروفة باسم «مجزرة تلة الشهداء» كانت أبرزها في تاريخ الأكراد الحديث.

وقعت صدامات عنيفة عديدة ما بين الجنود العراقيين والأكراد، وذلك بعد مرور وقتٍ قصير على ولادتي. أطلق الجيش العراقي الذي يحتل السليمانية حملةً ذات يوم لاعتقال الطلاب والشبان الآخرين الذين تتراوح أعمارهم ما بين الرابعة عشرة والخامسة والعشرين. نجا خالي عزيز، لحسن الحظ، من حملة الاعتقالات هذه، وهي الحملة التي كان من الممكن أن تكلفه حياته.

أجبر الجنود الشبانَ الأكراد المعتقلين بالسير عبر شوارع المدينة، واقتادوهم إلى أعلى نقطة في المدينة تشرف على تلة يستطيع رؤيتها الكثير من سكان السليمانية. أقدم الجنود بعد أن وصل الطلاب إلى التلة، على إعطاء السجناء رفوشاً وأمروهم بالبدء في الحفر.

خيّم رعب كبير وسط حشدٍ من المتفرجين، لأنهم افترضوا أن الشبان قد أُجبروا على حفر قبورهم بأيديهم قبل أن يتم قتلهم رمياً بالرصاص. طُلب من معظم الشبان النزول إلى تلك الحفر بعد الانتهاء من حفرها. أمر الجنود بعدها من بقي من الشبان بجرف التراب على أصدقائهم، وأقاربهم، حتى وصل التراب إلى ذقونهم. انتهت هذه المهمة المحيّرة، وأسرع بعدها الجنود العراقيون إلى دفع السجناء المتبقين إلى الحفر الباقية، ثم أقدموا على طمرهم بالتراب حتى ذقونهم. بدا المشهد مخيفاً. وحدها صفوفٌ، وصفوفٌ من الرؤوس البشرية المتلوية فوق التراب، بقيت مرئية.

قيل وقتها إن الحشد احتار قليلاً بما يراه، لكنه شعر بالارتياح. لم تكن هذه هي طريقة القتل التي اعتدناها من الحكومة العراقية. شعر الجمهور المحتشد بوميض من الأمل أوحى لهم بأن هؤلاء الرجال المدفونين أحياء سيُتركون كي تحرقهم الشمس لمدة من الزمن، ثم سيجري انتشالهم بعد ذلك، ويُتركون أحراراً، ويُسمح لهم التوجه إلى منازلهم وهم أحياء. سيتأذى اعتدادهم بأنفسهم فقط، وستتقرح رؤوسهم، لكنهم سيبقون أحياء!

استُدعيت دبابة إلى قمة التلة في هذا الوقت بالذات.

تلقى قائد الدبابة، وسط رعب الحشد وهوله، أمراً بقيادة دبابته فوق رؤوس الشبان وسحقها. وهذا ما حدث فعلاً. يا لهول هذه الميتة.

بدا المشهد مليئاً بالسادية والوحشية. تناثرت أشلاء ضحايا المجزرة. أوقف الجنود تقدم الحشد بقوة رصاصهم، لأن عملية سحق جميع الرؤوس الظاهرة استغرقت سائق الدبابة وقتاً كبيراً.

لم تحاول السلطات العراقية إخفاء هذا العمل الوحشي، ولا إنكاره. وبدلاً من ذلك، أظهرت افتخارها بالمجزرة. أقدمت السلطات على دعوة أفراد عائلات الأفراد، الذين أصروا على محاربة الحكومة المركزية، إلى رؤية ما حدث لأولادهم بأعينهم. لم يشعر الأكراد بالخوف حينها، ودلّت الوقائع على أن هذه الحادثة أدّت إلى تأثير معاكس لما أرادته السلطات.

انتشرت أخبار المذبحة كالنار في الهشيم. أحدث هذا النموذج المرير لظلم النظام العراقي، موجات صدمية في أنحاء كردستان. تضاءلت فرص توقيع معاهدة سلام بعد تلك المجزرة التي وقعت في تلة الشهداء. تحرّك «البشمركة» الساخطون من مخابئهم، وقاموا بمحاولات جريئة لاغتيال الشخص الذي أمر بقتل الشبان: عبد السلام عارف، أي رئيس العراق، لكن هذه المحاولات باءت بالفشل.

هرب القتلة من العقاب، لكن حدة القتال تصاعدت كثيراً، وتم استقدام المزيد من الجنود العراقيين إلى الشمال. بدا

الأكراد منتصرين، لكن إلى حين، إلاّ أنهم رفضوا بعناد الرضوخ لمطالب الرئيس العراقي.

تزامن ذلك مع الأمر الذي أصدره الرئيس عارف إلى جيشه بتدمير كل ما يمتّ إلى الأكراد بصلة،، وهذا ما حصل فعلاً.

تزايدت شراسة القتال أكثر فأكثر مع وصول كامل القوة العراقية، وكانت أعداد هذه القوة كبيرة جداً. هُزم مقاتلو «البشمركة» في نهاية الأمر، ولم يتمتع المدنيون الأكراد بأي حماية أثناء تواجد المحاربين في ساحات القتال. سمح هذا الوضع بذبح آلاف من الناس العاديين، وإعدام الكثير الكثير من الأكراد. وتبع ذلك اندلاع عمليات القتل والتخريب، التي انتشرت في أنحاء الأرياف الكردية، وشملت إطلاق الرصاص على المواشي، وتسميم آبار المياه، وإشعال المنازل.

عاد الجيش العراقي إلى تركيز انتباهه على المدن، وذلك بعد تخريب الأرياف. حدث ذلك في الوقت الذي قبض فيه الجنود على خالي عزيز.

تحطمت حياته لا لسببٍ، إلا لأنه ولد مطيع. طلبت منه والدته في ذلك الحين أخذها بالسيارة إلى أماكن في السليمانية بسبب بعض أشغالها، فأسرع إلى تنفيذ أمرها.

وُضع جميع الأكراد، وحتى الطلاب الصغار، موضع الشبهة بعد المجزرة التي شهدتها تلة الشهداء، وبعد محاولة اغتيال الرئيس العراقي التي تبعت هذه المجزرة. وصل خالي عزيز إلى حاجز أُقيم حديثاً. أُوقف من دون إعطاء الأسباب، بالرغم من

أن أوراقه الثبوتية كانت سليمة، وبالرغم من عدم وجود شك في كونه طالباً، وليس مقاتلاً ينتمي إلى «البشمركة». راقبت جدتي بيأس التعنيف الذي تعرض له أصغر أبنائها، وذلك قبل أن يُرمى به في عربة عسكرية ابتعدت عن ناظريها.

مرّت شهور صعبة قبل أن يتمكن قريب لنا من تحديد مكان وجوده. وُجد خالي في سجن اشتُهر بعمليات التعذيب والعقوبات المروعة. شعرت العائلة بارتياح لأنه ما زال على قيد الحياة، لكن أفرادها شعروا بالرعب أيضاً من الحالة التي قد يجدونه بها.

يعرف كل الأكراد أنه ما من خير يأتي من ذلك السجن.

بذلنا جهوداً يائسة لتأمين عودته إلى الحرية، حتى أننا دفعنا رشى عديدة، أفلحت أخيراً في إطلاق سراحه.

لاحظ الجميع أن ذلك الرجل الصامت، والكئيب، الذي استقبلته العائلة، إنما يحمل القليل من الشبه مع ذلك الشاب الذي قُبض عليه قبل أشهر. حمل جسدُه شواهد معتادة على التعذيب، وأبرزها علامات حروق، ونزع الأظافر، لكن أكبر ضررٍ وقع له لم يكن مرئياً، على الأقل في البداية.

اعتقدت العائلة أن عزيز الغالي على قلبها، كان يعاني فقط بسبب صدمة السجن والتعذيب. أصبح بعد خروجه من السجن شخصاً آخر: منطوياً على ذاته، ويرفض الكلام مع الآخرين، ملازماً لغرفته وسريره، وأظهر سلوكه المتناقض (الذي يشبه عوارض انفصام الشخصية) أن ذهنه المتوقد قد تلاشى نتيجة فترة

السجن. وتأكد أفراد العائلة من أن ذلك الشاب الذي عرفوه سابقاً، وعلقوا عليه آمالاً كبيرة، لم يعد موجوداً.

لم يبقَ ذلك الرجل العبقري الموهوب في مادة الرياضيات. ولم يعد ذلك الطالب الطموح. ولم يستمر في كونه ذلك الابن الحسّاس، أو ذلك الشقيق الذي يساعد أشقاءه. توقف كذلك عن تمضية الساعات الطوال في لعب الورق مع أصدقائه، ولم يعد يستمتع بالرياضة، كما أنه لم يعد مكترثاً بحديث الزواج والأولاد. هكذا، بكلّ بساطة، وبكل أسف، توقف خالي عزيز عن الارتباط بالحياة بحد ذاتها.

لم يستطع أحد من أفراد عائلتنا كشف ما حدث بالضبط لخالي خلال فترة احتجازه، لكن طالباً شاركه الزنزانة نفسها، أخبرنا أنه تعرّض لأبشع صنوف العذاب التي نستطيع أن نتخيلها. قال إن الأمر بدا كأن الجلادين يكرهون الطلاب. لم تأتِ كلماته هذه بجديد بالنسبة إلينا. اتبعت الحكومة العراقية سياسة ثابتة بالنسبة إلى الأكراد، ولم نكن نحن غريبين عنها، ولا جاهلينها: يشكل جميع الأكراد خطراً على البلاد، لكن الكردي الذي يحمل قلماً هو أخطر من الباقين.

أحس رفيق خالي عزيز في الزنزانة بالخشية تجاهه، وادّعى أن عزيز لم يَخَفْ أثناء فترات تعذيبه هو، بقدر ما لازمه الخوف وهو يشهد تعذيب نزلاء الزنزانة معه. أعرف أن خالي لا يستطيع تحمّل رؤية الآخرين وهم يتعرضون للعذاب. وعرفنا أكثر أنه عجز عن مشاهدة تعذيب النساء والأطفال من دون أن ينهار.

وقال رفيق خالي في الزنزانة إن مقاومته الصلبة قد انهارت عندما ربطه الجلادون بكرسي، وأجبروه على مشاهدة التعذيب الوحشي الذي أنزلوه بطفل صغير.

انحصرت اهتمامات خالي منذ خروجه من السجن بتسلية الأطفال الصغار في عائلتنا، وبالعزف على آلته الموسيقية، أو بالغناء. عاد هذا الخال إلى طفولته، وفقد اهتمامه بالعمل، أو بالدراسة، وتخلى عن كل انضباط في حياته اليومية.

انحصرت جريمته في كونه كردياً.

بدأت بالاستسلام للنوم وأنا أستمع إلى الأصوات الخافتة لنساء أسرتنا، وإلى تمتماتهن عن القسوة والوحشية اللتين يتحملهما، وسيتحملهما، الأكراد إلى أبد الآبدين، على ما كانت سطوة النظام تشي بذلك.

(٣)

غبار النجوم

السليمانية: تموز، ١٩٧٢

\استيقظتُ صباحَ اليوم التالي لأجد السماء الياقوتية مليئة بأنوار الشمس، ولاحظت أن السحب البيضاء الرقيقة والخفيفة بدأت في التجمع. تناهت إلى أسماعي أصوات الأولاد الذين يلعبون، تدوّي في أرجاء المنزل.

يدفعني هذا الجو الطافح بالهناء في السليمانية، إلى الشعور دائماً كأنني أمضي فترة احتفالات. عجّ منزل الجدة بأفراد الأسرة. اعتاد الكبار النوم فوق مفارش قطنية توضع على أرضيات غرف النوم، بينما ينام الأولاد على سقف مسطح. واعتادت النساء اللواتي يتواجدن في هذا المنزل، النهوضَ باكراً لتحضير طعام الإفطار، بينما تقوم النسوة بتحضير كل الأطباق الكردية، مثل كفتة السليمانية، التي هي عبارة عن فطائر أرّز مطحون محشوة باللحم المفروم، والدولما، وهي عبارة عن ثمار خضار محشوة بالأرّز، أو الحلوى المفضلة عندي، أي حلوى مميزة، تسمى بورما، التي هي عبارة عن فطيرة منتفخة ومحشوة بالجوز الأميركي، وتُغمر بالعسل، أو أنواع أخرى من عصير

الفواكه المكثّف. ولا يغيب الشاي عن هذا المنزل في كل الأوقات، ويُحفظ في أوعية كبيرة خاصة تدعى السماور، وهي آنية نحاسية تركية خاصة.

سُمح للأطفال باللعب طوال النهار وحتى وقت متأخر من المساء. اعتدنا القيام بنزهات في بعض الأحيان، وخصوصاً إلى مكان يدعى «سيرشينار» تكثُر فيه الشلالات. وينطلق هناك الأطفال بألعابهم، بينما ينشغل الكبار بتبادل الأحاديث. أما لعبتي المفضلة فكانت اختبار التحمل، الذي يتنافس فيه الأطفال على البقاء أطول فترة ممكنة تحت المياه الباردة، لكن، لخيبة أملي، لم أربح قط.

لم يكن اليوم الأول من عطلتي استثناءً من هذه القاعدة. توفّرت لدينا أشياء للقيام بها أكثر بكثير مما يستطيع المرء القيام به في ساعات النهار المتوافرة. تناولنا طعام الفطور، وما لبثت أن تلقيت أنا وشقيقتي الإذن بمرافقة اثنتين من قريباتنا الإناث إلى السوق المركزية.

اعتبر رعد نفسه بالغاً، وهكذا انشغل بأمور أهم من البقاء إلى جانب الأولاد. سمعت والدتي تقول إنه سيذهب كي يزور بعض الطلاب الأكراد النشطاء، الذين كانوا يكتبون منشورات تدعو إلى تحرّر كردستان، ويوزعونها. منَعَنا النظام من التحدث بلغتنا، ومن تعلّم تاريخنا، ومن إنشاد أغنياتنا الوطنية، ومن اقتباس أشعارنا.

انضم أخي رعد قبل أعوام قليلة إلى الحزب الكردي

الديموقراطي، وإلى زعيمه الملا مصطفى البرزاني، وهو بطل وقائد كردي حارب الحكومة المركزية في بغداد في كل فرصة تسنح له.

بدت والدتي مسرورةً بنشاطات رعد السياسية، وهكذا لم يساورني القلق بشأنها. لم تكن هناك من وسيلة أستطيع أن أعرف بواسطتها أن شقيقي قد غامر بدخول مجالٍ خطِرٍ جداً، فلن يمر وقت طويل قبل أن يؤثر ذلك في حياتنا.

اعترضت والدتي طريقنا، فور انطلاقنا، أمام باب المنزل لتذكّر منى بأن تمسك بيدي خلال نزهتنا. يعود سبب تحذيرها هذا إلى خمس سنين مضت عندما كنت في الخامسة من عمري، وعندما عادت شقيقتي الكبرى، علياء، بمفردها إلى المنزل بعد أن كانت قد اصطحبتني إلى السوق.

سئلت علياء وقتها عن سبب عودتها بمفردها، فاكتفت بالقول: «أخذها الغجر».

أطلقت والدتي، وجدتي، وخالتي عائشة، حملة يائسة للبحث عني، لكنهن لم يجدنني في الأمكنة التي بحثن عني فيها. تملكتهن الخشية في النهاية من أن يكون أحدهم قد خطف صغيرتهن جوانا، وأنهن لن يرينها ثانية. بدا الأمر مأساة عائلية تهم الجميع. رأيت السعادة التي ارتسمت على وجوههن في وقتٍ لاحق من ذلك اليوم، عندما اصطحبني رجل شرطة ودود إلى مدخل بيت جدتي، وشرح لهن أنه وجدني أتسكع في الشوارع الرئيسية للسليمانية، وقال إنني اقتربت من بعض الأولاد

الكبار طالبةً منهم أن يشتروا لي بعض «كباب الضأن» وزجاجة صودا باردة.

إنني هكذا على الدوام: طفلة نضجت مبكراً.

طلبت والدتي من شقيقتي منى أن أبقى تحت رقابتها المشددة عندما أبتعد عنها، بالرغم من أنني كنت في العاشرة من عمري في ذلك الصيف.

التصقت منى بي كأنني كنز ثمين. استطعت أخيراً أن أفلت من قبضتها، لكن بعد أن وعدتها بألا أخبر والدتي أننا عصينا أوامرها، ووعدتها أيضاً بألا أغيب عن ناظريها.

وصلنا بعد وقت قصير إلى السوق التي طالما اعتبرتها أهم مكان في العالم. امتزجت في هذه السوق روائح الأطعمة القوية النكهة، والتوابل الفريدة، والعطور الزكية الرائحة، والأزهار المقطوفة حديثاً والزكية.

اشتملت السوق على كل ما قد يحتاج المرء إلى شرائه. وُضعت الفواكه والخضار بترتيب على طاولات خشبية متداعية، أو انتشرت على قماش ملون وُضع على الأرض. شاهدت اللبن الرائب الطازج يُباع في أوعية برونزية كبيرة. ووُضعت أقمشة قطنية مخرمة بيضاء اللون، تدعى ململاً، فوق الأوعية المفتوحة، وغُطي القماش المخرم الأبيض بليفة رطبة، يعمد البائع، بعد انتهائه من بيع اللبن الرائب، إلى بيع هذه اللّيف الكردية، التي يُقال إنها أجود أنواع الليف في العالم.

استعرضنا ذلك الجزء من المتاجر المخصصة للجواهر الجميلة، التي صاغتها أيدي حرفيين محليين. رأيت أمام أحد الأكشاك ثلاث شابات، افترضت من التشابه الكبير بينهن، أنهن شقيقات. ضحكت الشابات الثلاث بطريقة ساحرة أثناء عرضهن باعتزاز للأحجار الكريمة التي جُمعت في قلادات، وأساور، وأقراط. بَدَوْنَ على درجة من الجمال دفعت بجميع العابرين إلى التحديق فيهن وعدم رفع عيونهم عنهن، إلا غصباً، أو حياءً. لاحظت أن واحدة منهن قد عقدت شعرها البني الداكن في جدائل سميكة وصلت إلى خصرها، بينما ارتدت الشاباتان الأخريان وشاحين متناسقَين باللون الأحمر، ومزيّنين بخيوط ذهبية اللون مرصّعة بقطع نقدية لامعة.

رحت أحدّق مأخوذةً بجمالهن، ولم أنتبه إلا عندما نحّتني إحدى قريباتي مع منى جانباً، وهمست بإثارة: «أريد أن أخبركن قصة هؤلاء الشقيقات الثلاث. إنها قصة مثيرة يتهامس بها الجميع في كردستان. إنها قصة حزينة ذات نهاية سعيدة».

قلت لها بشوق: «هيا تابعي».

مالت، بعد أن أضافت مسحة من الأهمية على ما ترويه: «هؤلاء الشقيقات الثلاث مخطوبات لثلاثة من أشد مقاتلي «البشمركة» هيبةً في كل كردستان. ويُقال إن أهلهن وأشقاءهن قد أُحرقوا أحياءً أثناء الهجوم العسكري الذي شنته قوات قاسم في العام ١٩٦١، وهو العام الذي أعطى فيه قاسم أوامره بإزالة معالم كل القرى الكردية. توجه مقاتلو «البشمركة» إلى القرية

والدا جوانا في العام ١٩٥٨ مع أكبر
أولادهما، علياء (وقوفاً) ورعد
(جالساً في حضن أبيه)

جوانا في العام ١٩٦٨ عندما
كانت في سن السادسة

جوانا الطفلة مع هادي، زوج شقيقتها، في بغداد العام ١٩٦٢

علياء، شقيقة جوانا الكبرى

جوانا في حديقة منزل العائلة في بغداد العام ١٩٧٠

الشقيق الأكبر لجوانا، رعد، يقف أمام صورة والد جده مصطفى، الذي كان ضابطاً في الجيش العثماني

منى، توأم سعد، في سنيّ مراهقتها

سعد يجلس في أحد الخنادق أثناء الحرب مع إيران، في أوائل الثمانينيات

للأخذ بثأر الذين قُتلوا أثناء إحراق القرية. وصل هؤلاء متأخرين، ولم يستطيعوا الانتقام من جنود الجيش العراقي. لكن أثناء وجودهم هناك، شاهد أحد المقاتلين الوسيمين الشقيقة الكبرى، وقد كانت في الثانية عشرة من عمرها فقط في ذلك الوقت».

أشارت قريبتي إلى الشابة التي تتحدث عنها قبل أن تتابع حديثها: «إنها تلك الشابة صاحبة الضفائر. كانت تجلب الماء من أجد الينابيع في تلك الأثناء. وقع الشاب في غرامها على الفور، وأحسّ بتوق شديد تجاهها. راح يسأل عن الفتاة، وعرف أنه لدى هذه الشابة الجميلة شقيقتان في مثل جمالها. ساد الخراب تلك القرية تلك الأيام، ومات والدا الشقيقات الثلاث، وبالتالي لم يكن يستطيع التقدم من تلك الفتاة كي يُعلن لها عن حبه، وهكذا غادر القرية بعد بعض التردد. ويُقال إنه لم يستطع محو صورة وجهها الجميل من مخيلته. قضى هذا الشاب شهوراً من الليالي المسهدة، استطاع بعدها إقناع صديقين له من مقاتلي «البشمركة» بالعودة معه إلى تلك المنطقة.

«لكنه اكتشف في هذا الوقت أن الشقيقات قد غادرن القرية ليتابعن حياتهن مع أقاربهن».

التفتّ بطريقة عفوية لأتطلع صوب المرأة. رأيت وجهها التام مؤطراً مثل لوحة فنية بهذه الجدائل الطويلة لشعرها الكستنائي اللامع.

قرصتني قريبتي في ذراعي: «اسمعي يا جوانا، هناك تتمة لهذه القصة. أتريدين أن تسمعيها أم لا؟».

أومأتُ: «نعم! نعم! أنا أصغي إليك».

«حسناً. وقع مقاتل «البشمركة» في الحب، ولم يكن ليسمح بشيء أن يقف في طريقه. بدأ ذلك المقاتل في البحث مع أصدقائه إلى أن وجدوا، أخيراً، القرية التي تعيش فيها الشقيقات الثلاث. لم يستغرق إيجاد بيت الأقارب وقتاً طويلاً، ويرجع ذلك إلى أن الجميع في هذه القرية قد سمع بجمال الشقيقات الثلاث، وسحرهن. تمتع مقاتل «البشمركة» هذا بجرأة تفوق الجميع، لذلك تقدم من أكبر الرجال سناً في العائلة، وطلب منه، صراحةً، يد الفتاة للزواج، وعرض الانتظار عدة شهور حتى تنضج.

«عقدت العائلة اجتماعاً للتشاور. قالوا إنهم يحترمون هؤلاء المقاتلين الشجعان، لكنهم لا يرغبون في أن تعيش الفتاة الحياة الصعبة، كما تفعل زوجات «البشمركة». أضافوا أنها تعذبت بما يكفي، كما أن الشقيقات كنّ فائقات الجمال، بحيث إنهن سيزددن جمالاً مع الأيام، وتستطيع العائلة عندها انتظار مهور كبيرة عنهن. أعرب الجميع عن رفضهم لهذا السبب».

«وهل هربتْ؟».

طرحت السؤال، وأنا أقول لنفسي إنني كنت سأفعل الشيء نفسه إذا أراد مقاتل وسيم من «البشمركة» أن يتزوج بي برغم رفض أهلي له.

تضايقت قريبتي من جهلي بهذه الأمور: «لا! يتمتع المقاتلون بشرف يمنعهم من هذا التصرف! شعرت الفتاة التي

يحبها هذا «البشمركة» بالفضول بشأن هذا المقاتل الذي تبعها من قرية إلى قرية. . . فضول دفعها إلى أن تتسلل من الحديقة، وتمشي بمحاذاته أثناء مغادرته المنزل. لقد صمّمت على أن تلقي عليه نظرةً بنفسها.

«بدا وسيماً جداً بحيث لم تستطع تجاهله. افتتنت به هي الأخرى ما إن التقت عيونهما.

«أصبحت البقية من الماضي. ليّنت العائلة موقفها بسبب الحب الجارف، الذي تجلى عندما أقسمت الفتاة صاحبة الجدائل إنها عازمة على القفز في بئر، وإغراق نفسها فيه، إذا مُنعت من الزواج ببطلها الشجاع. أعلن الاثنان خطوبتهما منذ ذلك اليوم، وسيتم زواجهما قريباً».

التفتّ، وحدّقت في الشقيقات الجميلات مرةً أخرى: «وماذا حدث لشقيقتيها؟».

أكملت قريبتي بحماسة، يخال معها المرء أنها هي التي أتمت عقود الزواج: «اصطحب الخطيب صديقته، والتقى الجميع بالشقيقتين الأصغر سناً، فأصيب الصديقان بدورهما بحمّى الحب. مرّت الأيام، وخُطبت الشقيقتان بدورهما. ستتزوج الشقيقات الثلاث جميعاً من مقاتلي «البشمركة»».

سألت منى بصوتها الطفولي: «ومتى ستتم مراسم الزواج؟».

حدّقت بمنى بفخر. بدت جميلة، خصوصاً في ذلك اليوم ببشرتها المضيئة وعينيها الواسعتين بلونيهما البني الداكن. بدت لي جميلة مثل الشقيقات الثلاث. أتمنى، في الواقع، أن أكون

بمثل حُسن منى، لكنني لست كذلك، ولربما لن أصل يوماً إلى درجة جمالها.

أجابت قريبتي: «سمعت أن الزواج سيتم في وقتٍ قريب. ستعيش الفتيات مع أزواجهن في الجبال. إنهن بطلات أيضاً، وسيعشن بقية حياتهن من أجل تحقيق الحرية للأكراد».

حدّقت في الشابات. خلتهن يعشن حلمي أنا. حلمت منذ طفولتي بالشعور الذي يوحي لي أنني لن أعيش حياة عادية، وأنني لن أكون عروساً عادية، ولن أرضى أن أكون الفتاة التي ترتدي فستان عرسها الأبيض، وتتزوج بموظف حكومي ويعيشان حياةً آمنة.

انحصر حلمي الوحيد في تلك اللحظة في أن أكبر، وأن أكون جميلة بحيث أتمكن، أنا أيضاً، من لفت أنظار مقاتل شجاع من «البشمركة». سيقع بطلي المنتظر في حبي على الفور، بعد أن يلقي نظرة واحدة على وجهي، ثم سيعمد إلى أن يتوسلني كي أتزوج به. وإذا ما رفض أهلي أن أتزوج بحبيبي الشجاع، سأهرب معه كي أعيش في الجبال، حيث سأقاتل إلى جانبه.

ارتعشت ساقاي، وعجزت عن اللحاق بقريباتي، ومنى، التي بقيت سائرةً حتى انتبهت إلى أنني لست معها. عادت أدراجها، فعلا الاحمرار وجهها الأبيض، وعنّفتني قائلة: «جوانا، أنتِ وعدتِ!».

لم أستطِع التفكير في شيء غير الشقيقات الثلاث الجميلات اللواتي ينتظرن لحظة الزواج كي يعشن إلى قرب أزواجهن

الرومانسيين، والشجعان، في الجبال الكردية. قلقتُ، بيني وبين ذاتي، من أنني لا أُعتبر جميلة. قيل لي في الماضي إنني كنت طفلة جميلة بحيث احتجت إلى حمايةٍ من العيون الشريرة. لم يعد الأمر كذلك في هذه الأيام، لأن الكثيرين يسخرون من نحافتي وطولي.

عانيت مشاكل أخرى. دأبت أمي على إبقاء شعري، لأسباب عملية، مرفوعاً في حدود رأسي. امتلكت أذنين طويلتين نسبياً. أعرف أنه من الصحيح أنني فتاة نحيلة، وامتلك ساقين طويلتين بالنسبة إلى جسمي. أما لون جلدي فداكن، ويصبح داكناً أكثر بعد انتهاء موسم كل صيف.

تمتعت أمي وأشقائي، في المقابل، بحُسنٍ مقبول. أعرف أيضاً أن جدتي أمينة، وهي امرأة مسنّة، تمتلك بشرة بيضاء، وجميلة جداً. واعتادت النساء الأخريات سماع الإطراء لملامحن البيضاء، أما أنا فكنت فتاة ذات بشرة داكنة تعيش في بلاد يقدّر أهلها كثيراً البشرة البيضاء، التي هي بلون الزنبق.

قررت في تلك اللحظة أن أسمح لشعري القصير بأن يصبح طويلاً. سأبدأ منذ الآن في حماية بشرتي من أشعة الشمس التي تجعلها داكنة. سأستخدم مظلة! أدركت أنه بالرغم من هذا كله، ستمر أعوام عديدة قبل أن أتمكن من الحصول على أدنى فرصة بلفت أنظار محارب شجاعٍ من «البشمركة».

تبعتُ شقيقتي بتثاقل للعودة إلى منزل جدتي.

بدت السهرة، التي بدأت في وقت لاحق، مسليةً جداً

بالنسبة إلي. ارتدت النساء والفتيات أزهى فساتينهن الملونة. بينما ارتدى الرجال والفتيان سراويلهم الواسعة، التي تدعى في كردستان الشراويل، بأحزمتها العريضة التي تحيط بخصورهم.

نزلت الشمس إلى خط الأفق، وعرضت ألوانها الحمراء والزهرية، فتجمع الجميع في الباحة. بدت ألوان الحديقة، التي أحاطتها صفوف من الخشخاش والنرجس الأبيض، مماثلةً لألوان غروب الشمس. انشغلت الأمهات بتحضير الوليمة، لكننا بدأنا وجبتنا في تناول ثمار التين، والتفاح، واللوز، والجوز. لفتت نظري أوعية الأرّز الساخن التي يتصاعد منها البخار، وسرعان ما بدأت العائلة في تلقي الأطباق الرئيسية، التي اشتملت على الكبة المحشوة باللحم، والدولما المحضَّرة من أوراق العنب، والفراخ المشوية، والكباب.

تناولت من الطعام كميةً أكبر مما ينبغي، وأكثر مما أستطيع، وذلك في محاولةٍ مني لاكتساب بعض الوزن الإضافي. لاحظت أن قريباتي أصبحن أكثر جمالاً مني في غضون سنةٍ واحدةٍ فقط، وهو الأمر الذي لم يساعد على تحسين مزاجي. لاحظتُ، للمرة الأولى، أن معظمهن يتمتعن ببشرة فاتحة. وشاهدت، والغيرة الشديدة تتملكني، ثلاثاً منهن يتمايلن برؤوسهن عندما يتكلمن. فعلن ذلك عن عمد لإظهار شعرهن الأسود اللماع الذي يصل إلى خصورهن، أو هكذا خُيّل إليّ.

أيقنت أيضاً أن أحداً لم يلاحظ، أو حتى يكترث لأنني لست على طبيعتي، وهذا ما زاد في تعكّر مزاجي. أدركت أنني

لست سوى فتاة بلهاء، ولم أعد صغيرة أو لطيفة، وبرغم ذلك لست كبيرة بما يكفي لأتلقى تقييماً لجمالي الأنثوي من الآخرين. صدمني هذا الرفض.

شعرت بعقدة «عصبية» في حنجرتي، وبدأت عيناي في سكب الدموع، لكني رفضت أن أدع أي شخص يراني وأنا أبكي. تظاهرت بأنني أعاني مشكلة في عينيّ. ادَّعيت ذلك، وأنا متلبكة، وتكاد تُفتضح كذبتي، عندما سألني أحدهم عما أعانيه.

فرغ الجميع من تناول الطعام، وحان وقت الموسيقى والغناء. وجد رعد بعض الأشرطة مسجَّل عليها موسيقى كردية راقصة. ضجّت الباحة بالموسيقى التي نحبّها كلنا بعد وقت قصير. ولم يمضِ وقت طويل قبل أن يهب كل المراهقين والشبان البالغين واقفين على أقدامهم.

يقول المثل: من لا يُجِد الرقص فليس بكرديّ.

إن هذا المثل صحيح جداً.

أسرع الشبان في تشكيل حلقة دائرية، وتشابكت أيادي الرجال والنساء معاً. ارتفع صوت الموسيقى، وكان أخي رعد أبرز الراقصين، لأنه اشتُهر بحركات رقصه البارعة. رفضت منى، وسعد، الانضمام إلى الحلقة برغم الدعوات الملحة التي جاءتهما من الأقرباء. كانت منى شديدة الخجل، أما سعد فكان جدياً بحيث لا يكترث لمثل هذا الطيش.

لم يكلف أحد نفسه بدعوتي إلى المشاركة في حلقة الرقص التي تشكلت، لكن ذلك لم يكن مشكلةً بالنسبة إليّ. كنت في الأصل أشعر بخجل كبير، فلم يكن تجنب دعوتي إلى الرقص يشكل حرجاً لي. وقد زاد من إحساسي بالخجل، ما ألمحه في عيون من يحدق فيَّ، بسبب شعري القصير وساقيّ الطويلتين. اكتفيت بالمراقبة من مكاني إلى جانب والدتي.

شبك الراقصون أيديهم على أنغام الموسيقى الصاخبة، وتمايلوا، واقتربوا من بعضهم بعضاً، وتراصت الأكتاف. بدأ الراقصون في أول الحلقة وفي آخرها في التلويح بمناديل ملونة أثناء انشغالهم بالقيام بإيماءات مؤثرة. تبادل الراقصون أمكنة رقصهم، وتمكنوا من إكمال الحركات المعقدة من دون إفساد وضعية أيديهم كما كانت في البداية.

انتهت السهرة أخيراً بعدما تعب الراقصون، فتبعتُ قريباتي بهدوء إلى السطح حيث نمنا. تمتعت، سابقاً في الأحوال الطبيعية، بالانضمام إلى قريباتي النائمات على السطح، لكن في تلك الليلة بالذات شعرت بحزن منعني من الاستمتاع بأي شيء.

تبرع الفتيان والفتيات الأكبر منا سناً، بنقل المفارش الخفيفة الوزن، والمصنوعة من القطن، والوسائد، والأغطية الخفيفة. رقد الجميع على مفارشهم، فانصرف أقربائي الأكبر سناً للتحدث بهدوء، بينما اكتفى الفتيان الصغار بالإصغاء إلى أصوات الليل، وراحوا يتسلون بتخمين ما إذا كانت هذه الأصوات الممتعة التي يسمعونها هي أصوات ضفادع، أم أصوات الجداجد (صرّار الليل).

بدأ الليل يميل ببطء نحو السكينة، بينما استسلم الأطفال الصغار للنوم. أويت، بصمتٍ، إلى الفراش بدوري بعد أن وضعت الغطاء الرقيق فوقي حتى وصل إلى ذقني، ورحت أحدّق نحو السماء لأشاهد قسماً صغيراً من القمر، وهو يرسل أشعته الخافته في هذا الأفق اللامتناهي الذي تتناثر النجوم في أرجائه. شعرت بسوداوية أكثر أُضيفت إلى مزاجي المتعكر، وباكتئاب أكبر. أحسست بأنني تافهة جداً تحت تلك السماء الكردية اللامتناهية.

بدأت في سماع أصوات التنفس الثقيلة لأقربائي الذين سبقوني إلى الاستسلام لنومهم. تناهى إليّ في هذا الوقت صوت ضجيج مفاجئ ومرعب، كان كافياً ليجعلني أهبّ واقفة على قدميّ. أدركت أن ما أسمعه هو صوت إطلاق الرصاص، وذلك بعد التجربة التي مررنا بها مع قطّاع الطرق. حاولت على الفور مغادرة السطح والنزول عبر الدرج، لكني وجدت نفسي ملتصقة بالأرض. كدت أختنق عندما ترنحت إلى الخلف.

اكتشفت أن أخي رعد كان يقوم بحماية جسمي بجسمه هو. أمسكني بشدة وإحكام بحيث عجزت عن القيام بأدنى حركة.

نادى أخي بصوت عالٍ بما يكفي كي يسمعه الجميع، «ابقوا على الأرض»، وقال لي، «اسكتي يا جوانا. لا تتحركي، ولا تصدري أي صوت».

بدأ عدد من أقربائي الصغار بالنشيج وبمناداة أمهاتهم، لكني

سمعت قريباً أكبر سناً يهمس بكلمة تحذيرية، ويقول إن الوقوف هو أمر خطرٌ على الجميع.

قال رعد آمراً: «إنه على حق. لا تقفوا. وإذا بقيتم على الأرض فلا خطر عليكم. يتعرض مقاتلونا للملاحقة والهجوم. لا يعرف أحد بوجودنا هنا».

سمعت عدداً لا حصر له من الصرخات الآتية من جهة الأشجار الكثيفة، كأنها أوامر تعطى، لكني لم أستطع أن أفهم بوضوح الكلمات التي تُقال. حدّقت في وجه أخي عندما همس لي: «جوانا، أَصغي إليّ، لكن لا تخافي. حدث شيء ما. ظهر بعض مقاتلينا في المدينة. أنا متأكد من أن الجنود اكتشفوا وجودهم. لن يستطيع الجنود العثور على «البشمركة» أبداً. لن يستسلم أي شخص يعيش هنا. وعدا عن ذلك، فشوارع المدينة هذه غريبة على الجنود».

أزّت رصاصة وحيدة فوق رؤوسنا. ارتعشت نتيجة الخوف المكبوت. إنها الحرب!

سارع الجميع إلى احتضان الأرض بأشد قوةٍ ممكنة.

سمعنا تبادلاً آخر لإطلاق الرصاص، والصرخات المنطلقة في الظلمة، والممتزجة في ما بدا لنا أنه الاضطراب الأكثر وحشية.

لم نتحرّك لفترة طويلة، وانتظرنا حتى خفت صوت إطلاق الرصاص حين ابتعد الجنود عن منطقتنا. خيّم السكون بعد ذلك.

سمعنا تنهدات الارتياح، وأسرعت قريباتي الصغيرات إلى النهوض والفرار نزولاً عبر الدرج، ودخلن المنزل ليكنّ قرب أمهاتهن.

بقيت على السطح برغم أن رعد نصحني بالنزول. لم أستجب لنصيحته. أردته أن يتناسى أنني موجودة هناك.

أثارت الحادثة غيظ أقربائي الذكور الأكبر سناً، وادّعى بعضهم أنهم سينضمون إلى «البشمركة» بعد تخرجهم. آمن هؤلاء بأنهم سيكونون الجيل الذي سيقود الأكراد إلى النصر. تبجّح أحدهم قائلاً: «نقسم بالله إننا سرعان ما سنكون على تخوم بغداد»!

لاح شبح ابتسامة على شفتيّ، وهمست لنفسي: «وأنا أيضاً».

شكّل ذلك اليوم نقطة تحوّلٍ كبيرة في حياتي. أدركت أنني أنا، جوانا العسكري، سأعيش في يوم ما الحياة التي يحياها مقاتلو «البشمركة». عرفت ذلك مثلما أعرف اسمي. إنه أمرٌ مقدَّر.

هنّأ رعد، الذي أصبح حديثاً ناشطاً من نشطاء القضايا الكردية، أفراد «البشمركة» الحذرين، ثم تحدث عفوياً عن كل المظالم التي تنزل بالأكراد.

نظرت بانتباهٍ شديد إلى السماء المضاءة بالنجوم، وأصغيت بانتباه إلى كل ما قيل. أردت أن أعرف كل شيء عن بلادي، وعن الشعب الكردي الذي أحبه كثيراً.

حدثت في العام ١٨٠٦ أول ثورة كردية مهمة في القرن التاسع عشر، عندما اجتاحت الجيوش العثمانية بلادنا، وسيطرت عليها. تبعت هذه الثورة موجات متتابعة من القتال ضد الأتراك. حدثت الحروب والثورات بشكل متتابع بحيث إنها تداخلت ببعضها.

احتل البريطانيون بلادنا في العام ١٩١٨، أي قبل عشر سنين فقط من ولادة أمي. هاجمنا البريطانيون مستخدمين أسلحتهم الحديثة بعد أن قاومنا احتلالهم. وأقدم سلاح الجو الملكي البريطاني على إسقاط قنابل الغاز السام على الأكراد، وذلك بناءً على أوامر من ونستون تشرشل، وهو الرجل الذي صنّف الأكراد باعتبارهم «قبائل بدائية»، وكانت تلك هي المرة الأولى التي يتعرّض فيها شعبنا لمجزرة عن طريق استخدام الأسلحة الكيميائية.

وقفت عائلتي الكردية إلى جانب الشيخ محمد بارزنجي، عندما قاد ثورة ضد البريطانيين وفيصل، الملك العراقي الجديد. أعلن بارزنجي نفسه، بكل جرأة، ملكاً على كردستان، لكن السليمانية سقطت في العام ١٩٢٤ خلال معركة مع الجنود البريطانيين، وتبدَّد حلمه.

وقعت كردستان تحت الاحتلال مجدداً.

أخبرتني أمي، التي وُلدت في العام ١٩٢٨، أنها لا تتذكر زمناً لم يكن عالمها مشغولاً فيه بالحرب. قالت إنها تمتلك ذكريات مبهمة عن انتفاضة العام ١٩٣٢، لكنها تتذكر جيداً

انتفاضة العام ١٩٤٣، التي تمكّنت القوات الكردية أثناءها من السيطرة على مساحات كبيرة من البلاد.

حدثت في العام ١٩٤٦ ثورة عنيفة انتهت بإقدام الحكومة العراقية على نفي القائد الكردي الملاّ مصطفى البرزاني، الذي فرّ بعدها إلى الاتحاد السوفياتي. فقدَت النداءاتُ الكردية من أجل الحرية زخمها بعد هذه الخسارة.

أعاد جيل جديد من الوطنيين الأكراد في العام ١٩٥١، الحياة إلى الحركة الكردية، وتم انتخاب الملاّ البرازاني رئيساً، حتى مع وجوده في المنفى. وتصاعدت النداءات في حملة جديدة لإعطاء الأكراد حقوقهم في العام ١٩٥٨، وذلك بعد الإطاحة بالعائلة المالكة العراقية. عاد بطلنا البرزاني في تلك السنة من المنفى، وهو الأمر الذي جدّد الصرخات لنيل الحرية.

تعرضت كردستان للهجوم مرة أخرى، لكن «البشمركة» كانوا قد أصبحوا أسياد تكتيكات حرب العصابات. تمكّن المقاتلون من ربح معركةٍ إثر معركة، وتمكنوا من صعق الحكومة العراقية عندما احتلوا الطريق الرئيسية المؤدية من خانقين إلى بغداد. وجد المقاتلون أنفسهم على بعد ١٤٠ كيلومتراً فقط من العاصمة بغداد، وهو الأمر الذي لم يحدث من قبل. قدّر لنا في غضون أعوام قليلة، على الرغم من هذه الانتصارات، أن نتحمّل هزيمة أكثر بشاعةً.

تصاعد التوتر مجدداً في تلك الليلة من العام ١٩٧٢.

سمعت أحد أقربائي الذكور، الذي يقارب أخي رعد في

السن، وهو يهمس: «أنت تعرف الحقيقة، أليس كذلك؟ جريمتنا هي أننا وُلدنا أكراداً».

أصدر رعد همهمة خافتة في حنجرته دلالةً على موافقته. وعلى غضبه في آن.

إذاً، هل اقترفتُ جريمة لمجرد أنني وُلدت كردية؟ لم أشك لحظة في أنني عندما أصبح كبيرة بما يكفي كي أستطيع حمل السلاح، سأجد أمامي الكثير من المعارك كي أخوضها. يبدو أن معاركنا هي معارك أبدية، وأن التغيير الوحيد هو في وجوه أعدائنا، وهوياتهم.

اكتشف رعد في هذه الأثناء أنني مستيقظة.

اقترب مني. رحت أتأمل وجهه الوسيم بجبهته العالية والعريضة، التي تعلو عينين بنيّتين ناعستين. تذكرت أنه استطاع الإفلات من النقد، باعتباره نصف كردي، بهذا القناع من الرصانة. يمتلئ أخي بشجاعة لا تتوفر لغالبية الشبان الآخرين. إنه يقاوم الاحتلال بطريقته الذكية الخاصة به.

راح رعد يذكّرني بلطف: «يجب أن تنامي يا جوانا الصغيرة. سنذهب غداً في نزهة إلى الجبال، وسنسبح تحت الشلالات».

رحت أتخيل منظراً يبعث السعادة فيّ. ومضت في ذهني تلك الصورة عندما أغطس في مياه الشلالات الشفافة.

شجعني مجدداً: «جوانا. قومي نامي».

أجبته: «أنا لا أشعر بالنعاس».

قال لي: «جوانا، انظري إلى السماء المليئة بالنجوم».

«أنا أنظر إليها».

«هل ترين النجوم؟».

«أنا أراها».

«هل تريدين يا جوانا أن تعرفي سراً من أسرار النجوم؟».

ارتعشت من فرط حماستي لمعرفة هذا السر، فلطالما أحببت الأسرار: «ما هو؟».

«سأخبرك سراً علمياً لا يعرفه إلا قلة من الناس. جوانا، هناك سبب يجعل النجوم تلتمع بهذه الشدة. سأخبرك هذا السبب، وهو أن أكثر النجوم التماعاً تمطر ما يسمى غبار النجوم. سيتساقط هذا الغبار عليك عندما تنامين».

ابتسم أخي، وراح يمسّد وجهي بلطف قبل أن يتابع: «إنه غبار النجوم يا جوانا، إنه غبار النجوم. تخيلي ذلك فقط. تخيلي غبار النجوم، وهو يغمر وجهك الجميل والصغير».

صدّقته لأنني كنت ما زلت صغيرةً جداً. وعدا ذلك، لطالما كانت كردستان بلاد الأحلام بالنسبة إليّ. انقلبتُ على جنبي، وأغمضت عينيّ كي أنام بسلام طوال الليل، علَّ غبار النجوم اللامع يتداخل في أحلامي.

استيقظنا صبيحة اليوم التالي على أخبار حقيقة ما حدث في هجوم الليلة الماضية. دارت المعركة ما بين الجيش العراقي

ومقاتلي «البشمركة»، وكان محورها الشقيقات الجميلات الثلاث اللواتي رأيتهن يبعن الجواهر في السوق. علمنا أن حفنة من الجواسيس الموجودين في المدينة قد أبلغت الأمن العراقي قصة غرامهن مع مقاتلي «البشمركة». وقعت الشقيقات الثلاث مساءً، وكن في عربة يجرها حمار في طريق عودتهن إلى قريتهن، في كمين نصبه الجنود العراقيون، وأُلقي القبض عليهن. استخدم الجنود العراقيون العرائس الجميلة بمثابة طعمٍ لجلب الخطّاب الوسيمين الثلاثة من مقاتلي «البشمركة».

أسرع المحاربون إلى التسلل إلى المدينة لإنقاذ النساء اللواتي يحبونهن، لحظة علموا أن خطيباتهم قد وقعن في الأسر. اكتشف المقاتلون الثلاثة أن الشقيقات الثلاث قد نُقلن إلى سجنٍ في بغداد. دخل المحاربون الفخ الذي نُصب لهم، فقُتل اثنان منهم أثناء القتال، بينما تمكّن الثالث من النجاة. عرفنا جميعاً المصير المحتوم الذي ينتظر الشقيقات. سيتعرضن للتعذيب والاغتصاب قبل أن ينفذ فيهن حكم الإعدام.

شعرت بالأسى على هؤلاء المحبين الشبان.

تعرّض الكثير من الأكراد للقتل على مدى سنين طويلة. لم يستطِع هؤلاء تحقيق أحلامهم بالوقوع في الحب والزواج. شعرت بكراهية شديدة تجاه الرجال الذين حطموا أحلامهم. راح غضبي يطنّ مثل خلية نحلٍ هائجة، بطيئة وغاضبةٍ، داخل رأسي. صممت على متابعة السير بثبات نحو قَدَري.

هل سيضيء غبار النجوم المتساقط طريقي؟

(٤)

الرعب البعثي

بغداد: الخميس، ٤ تموز، ١٩٧٤

تمر الأعوام بطيئة على الدوام في بغداد. لا يحدث أي شيء فيها يوحي بالخير. أشعر كأن تقدمي في السن يعترضه ما يكفي من الغموض. ملأني الأمل أن يشهد عيد ميلادي الثاني عشر معجزة بيولوجية عندي، بحيث أصبح جميلة مثل قريباتي الكرديات المراهقات. رفض جسدي أن يكبر، واستمررت في سماع سخرية الآخرين بشأن ساقيّ الطويلتين، وجسمي النحيل، وصدري غير المنتفخ، وهي جميعها أمارات تدل على أنني ما زلت طفلة.

سمحت لشعري بالاسترسال في طوله رغماً عن والدتي. وارتحت إلى أن أحداً لا يستطيع إنكار جماله. كان شعري الأسود طويلاً وكثيفاً، ولماعاً، ويصل إلى خصري، برغم أنني عمدت أحياناً إلى تسريحه بشكل ضفيرتين سميكتين، أي مثل الضفائر التي شاهدتها تزين شعر تلك الخطيبة الكردية، التي أُعجبت بها كثيراً في السليمانية.

ظلت صورة الشقيقات الثلاث تخطر في ذهني مرة بعد

أخرى. أدركت أنه عادة ما تتسبب البطولات، والمشاعر الوطنية، في الموت، وهذا هو ما حدث للكثير من الأكراد. تعلّق قلبي بالكامل بالقضية الكردية. لكن، كما كانت الحال مع المقاتلين الأكراد، أردت أن أعيش، وأن أشعر بالمتعة الكاملة الناتجة عن قدرة البقاء على قيد الحياة أثناء المعارك.

أدركت أنني ما زلت طفلة في نظر عائلتي، إلا أنني لم أعد أتصرف، أو أفكر، كطفلة. جعلني وعيي بالقضية الكردية أكبر من سنيّ عمري. امتلكت معارف بشأن الأمور السياسية والجغرافية المتعلقة بكردستان، أكبر بكثير مما يعرفه الكثيرون من البالغين.

لزم والدي الفراش في صيف ذلك العام نتيجة مرض غامض. تأخرت رحلتنا إلى السليمانية بسبب مرضه. كنت عندها في الثانية عشرة من عمري. عانى والدي ضعفاً وسقماً، وفقداناً للشهية. تسبب مرضه في الاضطراب بين أفراد الأسرة، وبقائنا دوماً على أعصابنا، ويرجع ذلك إلى أن والدي تمتع بصحة جيدة، ما عدا عجزه عن السمع والكلام. أكدّت لنا والدتي أنه إذا استمر التحسن في صحة والدي فستتمكن من المغادرة في اتجاه السليمانية، بتأخير يبلغ أسبوعاً واحداً.

شعرت برغبةٍ يائسة في العودة إلى هناك، إلى كردستان، إلى الجنة.

لم نتمكن من الوصول إلى الجنة في ذلك الصيف. أُلغيت الرحلة بالكامل عندما تعرضت بغداد للقمع، وسادها التوتر،

لأسباب تتعدى الحرارة. بدا أن حكومتنا البعثية أصبحت أكثر ميلاً إلى ممارسة القمع. لم يعد الناس يشعرون بحرية التحدث على سجيتهم. وسادت المدينة أحاديث عن عمليات اعتقال غير مبررة، كما سرت شائعات عن اختفاء أناس أبرياء. وزادت حرارة الطقس الشديدة من شعور التوتر عند الناس.

تظلّل منزلَنا أشجارُ نخيلٍ كبيرة. وبالرغم من ذلك تسللت الحرارة المتزايدة إليه بصمت مثلما يتسلل الضباب بإصرار من خلال غرفه الصغيرة، وتخللت كل زاوية من زواياه، حتى أصبحت لا تطاق. عجزت عن المكوث في داخله لفترة طويلة، لأنني إن فعلت ذلك لكان العرق يتصبب من كل جسدي، جاعلاً من ثيابي داكنة اللون.

استفادت غرفة والدي المظللة وحدها من نعمة الهواء البارد، ولم يحسده عليها أحد منا. دأب ساكنو منطقة ما بين النهرين، منذ أوقات لا يستطيع معظم العراقيين تذكرها، على استخدام طريقة فذة لتبريد الهواء. اشتملت هذه الطريقة على إدخال سُعُف النخيل في بعضها بعضاً لتؤلف أُطراً. تُشبك هذه الأُطر مع سُعُفٍ أخرى، وتوضع بعد ذلك طبقة من شوك الصحراء بين تلك السُّعُف، ويثبّت هذا الإطار من سعف النخيل فوق النوافذ. ويعمد الأطفال، وكنت من بينهم، بعد ذلك، إلى سكب الماء فوق تلك الغصون والسُّعُف. يقوم هذا الجهاز القديم بمهمة تبريد الغرفة الداخلية كلما هبّت نسمة. أعرف أن القليل جداً من العراقيين في ذلك الوقت أبقوا على استخدامهم

تلك الطريقة، لكن والدي تمسّك بالطرائق القديمة لتبريد الهواء، وكان يستمتع كثيراً بالهواء البارد.

التمس بقية أفراد أسرتنا الهواء البارد الذي تحمله الليالي، إما على سطحنا، وإما في حديقتنا الخلفية، وإما في شرفتنا المغطاة. اعتدنا أن نجتمع عند الغروب، والدتي، ومنى، وسعد، وأنا، في تلك الشرفة المغطاة، ثم ننهمك بعد ذلك في ترتيب مفارشنا استعداداً للنوم.

لم يتناقص عدد الأشخاص الذين يعيشون في بيتنا إلا حديثاً. غادر خالي عزيز المنزل لزيارة شقيقة أخرى له، أما رعد فلم يعد يسكن في المنزل منذ أن بدأ سنته الجامعية التحضيرية. يسكن الآن مع شقيقتنا الكبرى علياء، وزوجها هادي، في منزلهما في الجهة المقابلة من المدينة، في ضاحية المنصور الفخمة. يتميز منزل علياء بميزتين: أُولاهما قربه من جامعة بغداد للتكنولوجيا؛ وثانيتهما، أنه يتمتع بخصوصية أكبر. أعطته علياء غرفتها الخاصة، وقالت إن رعد يحتاج إلى منطقة هادئة ليدرس فيها.

التحق رعد بالجامعة كي يصبح مهندساً مثل والدنا. أعلم أن العرب والأكراد لا يعطون شيئاً أهميةً أكثر من تعليم الولد الأكبر، لأنه سيصبح مسؤولاً، في يوم من الأيام، عن تأمين معيشة جميع أفراد العائلة.

اعتدنا أن نأوي إلى الفراش ما إن ننتهي من ترتيب المفارش، برغم أننا لم نكن نستسلم للنوم على الفور. تحمل

ليالي الصيف في بغداد إثارةً خاصة وسحراً فريداً، بالرغم من شدة الحرارة التي تشهدها نهارات صيفها. لم تكن تلك الليلة استثناءً أبداً.

غاب قرص الشمس الزهري والمائل إلى الاحمرار عن أنظارنا، وسرعان ما بسطت أنوار القمر أشعتها من خلال بستان أشجار النخيل. تمايلت أغصان الأشجار مع النسيم اللطيف، فبدت مثل أذرع طويلة تلوّح باتجاهنا. بدا لي أن البومة الكبيرة، التي استوطنت إحدى أشجار النخيل، تراقبنا بعينيها الذهبيتين الملتمعتين. اشتقت فجأة إلى رفقة أخي رعد ما إن رأيت تلك البومة، لأنه تحدّث أمامي مراراً عنها بالذات، وحاول حينها أن يمحو خوفي الذي يشيع بين الناس من أن البوم تجلب الحظ العاثر.

تسلّلت إلينا عبر سكون الأشجار أصوات عرفت أنها أصوات الحراس الليليين الذين يسمّون «شرخاشي» (الشركس)، والذين يمتهنون الحراسة منذ زمن طويل. يرتدي الحراس أزياءً متميزة تحت معاطفهم العسكرية التي تصل إلى كواحلهم، والمزدانة بالأزرار النحاسية. ويعتمرون عمامات ملونة على رؤوسهم، ويتسلحون ببنادق قديمة العهد تعود إلى الحكم البريطاني للبلاد. أفترض أن بنادقهم القديمة هذه لم تعد تعمل، لكنها تعطي أولئك الرجال إحساساً بالأمان يحميهم من اللصوص.

تلاشت مناظر ليلة بغداد وأصواتها ببطء، واندمجت في الظلمة الحالكة، بينما طافت بي أفكاري في أرجاء السليمانية.

أعتقد أن قريباتي وأقربائي موجودون الآن على سطح منزل الجدة أمينة، ولا بد من أن أنظار الجميع مشدودة الآن إلى قرص القمر العظيم نفسه.

سأنضم إليهم في وقتٍ قريب. تلذذت بتلك الفكرة المفرحة، وتقلبت في فراشي، وسرعان ما استسلمت للنوم العميق.

مضت ساعات عدة قبل أن يوقظني ضجيج مقلق من أحلامي الجميلة التي نقلتني إلى السليمانية. خُيّل إليّ أن أحدهم يحاول تحطيم الباب الأمامي لمنزلنا!

فتح سعد عينيه، وهبّ واقفاً. كان في الخامسة عشرة من عمره وقتها، لكن بنيته الجسدية القوية توحي بأن عمره أكبر من هذه السن. أمرنا، في مواجهة خطرٍ محتمل، بأن نبقى في أماكننا.

اعتبر سعد نفسه حامي النساء في البيت بعد رحيل رعد عنه. أسفت لهذا الوضع لأنني كنت طفلة متمردة، وتنقصني الذهنية التي تسمح لي بتلقي الأوامر من الآخرين.

خضعت منى لهذا الأمر، وبقيت حيث هي، واكتفت بتغطية وجهها بأغطية السرير. تمتعت أمي، مثلي أنا تقريباً، بإرادة قوية، لهذا نهضنا معاً ما إن اندفع سعد من الشرفة الخلفية، وبدأنا في الركض خلفه أثناء مروره من المطبخ، والممشى الذي يؤدي إلى غرفة جلوس كبيرة. وقفنا هناك قرب بعضنا بعضاً لنصغي إلى الأصوات.

هل هناك لص طليق في الحي؟ هل حضر الحراس لتحذيرنا؟

لم نرَ أبي، لكن ذلك ليس بالمفاجأة بالنسبة إلينا، فحتى لو لم يكن طريح الفراش فسيمنعه صممه من سماع هذا الضجيج.

صاح سعد: «مَن هناك؟»، لكن الاستجابة أتت بشكل ركلات قوية على الباب. هل اللصوص يستهدفون منزلنا.

شهقت من فرط الدهشة عندما بدأ الباب الخشبي في التشقق في أماكن عديدة قبل أن ينبعج من الوسط، ثم مع انفصال أجزائه. أدركت أن قوةً عاتية تتجه نحونا من الخارج.

سقطت قطعتان كبيرتان منه بطريقة عشوائية على أرضية الغرفة، لكن بقيت بعض القطع المكسورة عالقة على الإطار. نجح الرجل المجهول، الذي ركل بابنا، في فتح ثغرة فيه تسمح لرجل بالغ بالدخول إلى المنزل. تدافع ثلاثة رجال يرتدون أزياء رجال الأمن العراقيين، واحداً تلو الآخر، من تلك الثغرة، وداسوا على أجزاء الباب المتناثرة في طريقهم. بدا الرجال الثلاثة في عجلة من أمرهم لدخول منزلنا، إلى درجة أن أحدهم تعثّر وسقط على الأرض، وداس رفيقاه عليه بسبب عجلتهم هذه.

لاحظت أن وجه أضخم الرجال الثلاثة أحمر اللون، وتنتشر فيه بقع الجدري. واجه الرجل أخي بالصراخ: «أنت! أيها الجاسوس! أين جهاز اتصالك؟».

لم يَخَفْ سعدٌ أحداً في حياته، ولم يخف حتى هذا الوحش. صاح به بدوره: «جواسيس؟ جواسيس؟ ما من جواسيس هنا!».

«نمتلك دليلاً على أن هذا المنزل هو بيت للجواسيس».

اندفع لسان الرجل ما بين شفتيه مرتين، أو ثلاث مرات، مثلما تفعل الأفعى. ارتجفت من شدة كراهيتي له.

صاح الرجل: «للإسرائيليين!».

هل قال: الإسرائيليون؟ لم أستطِع تصديق ما أسمعه. لو لم أكن خائفة، لكنت ضحكت من شدة سخريتي من ادعائه غير المعقول هذا. أعرف أنه لم يسبق لأحد من عائلتي أن رأى إسرائيلياً، وذلك على حد علمي على الأقل. أعرف أيضاً أن القليلين من العرب أو الأكراد، في تلك الأيام، قد فكّروا في الإسرائيليين أو اكترثوا لهم. شغلتنا الاضطرابات الكثيرة التي فرضتها حكومتنا المجنونة، بحيث لم نستطِع التفكير في الصراع الذي يدور بعيداً عنا ما بين الفلسطينيين والإسرائيليين.

تابع الرجل تبجّحه المجنون: «هذا هو المنزل الذي يدعم الملاّ مصطفى البرزاني!».

بعث اتهامه الأخير موجةً من القلق لدينا، وخاصة لديّ، في الوقت الذي كان فيه زعمه بتجسسنا لصالح إسرائيل، سخيفاً. مصطفى البرزاني هو أشهر قائد ومحارب كردي. ولا ينكر أحد أن جميع أفراد أسرتنا الكردية يعتبرونه بطلاً.

تذكّرت فجأة ذلك الملصق الضخم المعلّق في غرفة رعد. سيكتشف هؤلاء الرجال صورة البطل بسهولة. أعطتنا الحكومة منذ العام ١٩٧٠، الحق القانوني بدعم أبطالنا الأكراد أمثال الملاّ البرزاني، لكني أصبحت كبيرة بما يكفي لأفهم أن مجرد وضع القوانين لا يؤمّن أي حماية للأكراد. عرفت، بطريقة ما، أن ذلك الملصق سيتسبب في القضاء علينا جميعاً.

انشغل الرجال مع سعد، وهكذا تمكنت من التسلل إلى الغرفة التي كان يشغلها رعد. غطى الملصق، الذي يحمل صورة الملاّ مصطفى البرزاني، ذلك الجزء من الجدار فوق سرير رعد. أصبح ذلك الملصق جزءاً من حياة رعد منذ شهر آذار من العام ١٩٧٠، أي منذ أن قررت الحكومة العراقية أخيراً ضرورة التفاوض مع الأكراد، وهم الذين كانوا يُلحقون الهزائم بالجيش العراقي في الجبهة الشمالية. توصل الطرفان حينها إلى اتفاقية ضمنت الحكم الذاتي للأكراد. وعدت الاتفاقية أيضاً بالاعتراف باللغة الكردية لغةً رسمية في البلاد. وجرى تعديل هام في الدستور ورد فيه أن الشعب العراقي مؤلف من قوميتين، العرب والأكراد.

حصلنا منذ ذلك الوقت على حق دعم الأحزاب الكردية. خرقت الحكومة العراقية هذه الاتفاقية، في واقع الأمر، منذ اللحظة الأولى لتوقيعها. استهدفت الحكومة الأشخاص الذين صدّقوا واقعة حصولهم حديثاً على حرياتهم المدنية، فسجنتهم وأنزلت العذاب فيهم.

قُتل الكثيرون من الأكراد نتيجة لإظهار دعمهم، بكل بساطة، للزعماء الأكراد.

هل سيُقدمون على اغتيال رعد.

أتذكر جيداً ذلك اليوم الذي أحضر فيه رعد الملصق، وعلّقه. بدا أخي أكثر شبان بغداد زهواً وهو يقوم بأخذ القياسات، كي يحدد النقطة المثالية لوضع صورة بطله البرزاني. كتب رعد، بفرح، تحت الملصق: «أسد الجبال، وأبو الأكراد».

شعرت بأسف شديد عندما وقفت فوق السرير وبدأت بتمزيق أطراف الملصق وسحبها بعيداً. مزقتُ صورة الملاّ مصطفى البرزاني إرباً إرباً. أحسست بتقطع في أنفاسي، وبتوتر في أعصابي، حتى أنني دسست أجزاء الصورة تحت ثيابي. لم تكد تمر دقيقة حتى سمعت الرجال يتجولون في أنحاء بيتنا. سمعت قائدهم عندما أمر أحد رجاله كي يحرس المدخل، وغرفة الدرج التي تؤدي إلى السطح، بهدف اعتقال أي شخص يحاول الهرب من المنزل.

جمدتُ في مكاني عندما أعلن صوت عالٍ بخشونة: «إننا نبحث عن الجاسوس رعد العسكري. أين هو؟».

بحثت حولي في أرجاء الغرفة بقلقٍ كبير عن أي إشارات تؤدي إلى إدانتنا، لكنني لم أرَ أي شيء. أردت أن أتفحص طاولة رعد كي أتأكد من عدم وجود منشورات، أو كتيبات، تروّج للقضية الكردية في أدراج تلك الطاولة. لم يبق لدي وقتٌ كاف للبحث.

عرفت أن الرجال ينزلون من الرواق في اتجاهي.

شعرت بالرعب عندما أحسست بأجزاء الملصق الصغيرة تنزلق نزولاً فوق ساقيّ. بدأت الجاذبية تقوم بعملها. سيكتشف الرجال ما أقدمت عليه إذا لم أجد حلاً سريعاً. لن يشفع لي صِغَر سني. خطرت في بالي فكرة رهيبة: لربما انتهيت مثل خالي عزيز، معتقلةً ومعذبةً حتى أفقد عقلي!

لم يبقَ ما يكفي من الوقت. جمعت أجزاء الملصق من الأرض، ثم قفزت إلى السرير ورحت أتلوى تحت الأغطية، ورفعتها حتى ذقني. تظاهرت بالنوم.

وجدت اثنين من الرجال يقفان فوقي قبل أن أتمكن من التنفس، ثم فتحت عينيّ متظاهرة بأنني دُهشت لوجودهما.

لمحت والدتي وسعد يقفان وراء رجال الأمن. أظهرت والدتي وأخي دهشة لا حد لها عندما اكتشفا أنني أنام في غرفة رعد. راقبتُ وجهيهما عندما تطلعا معاً إلى الجدار من فوق رأسي. شعرت بارتياح شديد لردة فعلهما. التمعت ومضة شعور بالانتصار في عيني سعد، بينما اجتاح وجه أمي ارتياح ظاهر.

بدأ الرجلان في تفتيش الغرفة تفتيشاً دقيقاً، وراحت والدتي تلطم وجهها بلطف، وهو شيء تدأب النساء الكرديات، اللواتي هن في سنها، على فعله، عندما يكنّ في حالة ضِيق. لم تصرخ أو تبكي. لم تكن والدتي تفهم العربية جيداً، لكنها عرفت ما يكفي لتدرك ما يبحث عنه هؤلاء الرجال.

انحصر هدفهم الوحيد في جمع دلائل كافية لإدانة ابنها الأكبر. سيضيع كل شيء إذا ما وجدوا أيّ دليل إدانة.

شعرت بأنني بحاجة إلى بعض التشجيع، فبدأت أردد بصمت بعض أبياتي المفضلة من النشيد الوطني الكردي:

«مثل الأسود نهض الشبان الأكراد

لحماية تاج الحياة بالدم

لن يقول أحد أن الأكراد ماتوا

الأكراد أحياء

الأكراد أحياء؛ ولن يسقط علمُهم قط».

أعتقد أن الرجال تجاهلوني لأنني بدوت أصغر من سني، وبسبب مظهري الطفولي. لم يأبه الرجال لي، على أي حال، أثناء بحثهم الدقيق في الغرفة، وانشغلوا برمي الكتب على الأرض. زحف هؤلاء على ركبهم ليتطلعوا تحت السرير، وهزوا بأيديهم بقوة الستائر، كأنهم صدقوا أن رجلاً بالغاً يستطيع الاختباء وراء هذه الأقمشة التي تكاد تكون شفافة. دقّ أحد الرجال على الجدران. لم يقبل الرجل الآخر أن يكون رفيقه أفضل منه، فوقف على كرسي الطاولة وبدأ في الطرق على السقف.

أدركت، برغم صغر سني، أن ما يثير الهلع في النفوس هو أن يمسك مثل هؤلاء الرجال غير الأذكياء بمصيرنا بين أيديهم. بدت الوسائل التي يستخدمونها كوميدية، لولا الواقع المرير.

راقبت أخي بدقة. التمعت عيناه الداكنتان بالغضب واليأس. زمّ شفتيه في محاولة للمحافظة على هدوئه.

تمنيت كثيراً أن يتمكن سعد من السيطرة على غضبه، وإلا لكان سيستخدم قبضتيه لإيقاف هؤلاء الرجال عند حدهم. وإذا حدث هذا، فسيعمد رجال الأمن إلى توقيف كل أفراد عائلتنا.

حافظ سعد، لحسن الحظ، على سيطرة تامة على نفسه، وبرهن في ذاك اليوم المؤلم عن وجود مزية جديدة في مزاجه: ضبط النفس.

تمنيت أن يرحل الرجال بسرعة. إذا رحلوا يمكننا عندها تحذير رعد.

انتهى الرجال من تفتيش كل بوصة في غرفة نوم رعد، ثم تحركوا لتفتيش بقية غرف المنزل. سمعتهم يرمون القدور والمقالي الثقيلة على الأرض، فاغتنمت الفرصة لتجميع أجزاء الملصق التي كانت تحت ثيابي، وتحت أغطية السرير، ثم وضعتها تحت بعض الأوراق التي فرغ الرجال من تفتيشها ورميها على الأرض. ارتحت لأن سري أصبح الآن في مأمن، فأسرعت إلى الخروج من الغرفة للانضمام إلى والدتي ومنى، اللتين دخلتا منذ وقت قريب من الشرفة.

شكّلنا نصفَ دائرة واكتفينا بمراقبة الجنود الذين خربوا مطبخ والدتي المرتب جيداً. بقيت والدتي تلطم وجهها، بينما ثابرت منى على إصدار شهقة مع كل طبق يُرمى على الأرض، ومع كل كأس زجاجية تتحطم.

أقدم الرجال، بطريقة استعراضية، على إفراغ أكياس الملح، والطحين، والسكر، على سطح الطاولة، وعلى خزائن المطبخ، وفوق الأرض. أقدم هؤلاء الأغبياء على كسر أربع بيضات كانت فوق سطح إحدى الخزائن.

أذهلتني هذه التصرفات. هل سيُقدم أي جاسوسٍ على إخفاء دليلٍ ما داخل قشرة بيضة غير مكسورة؟ وإذا كان الأمر هكذا، فكيف يفعل ذلك؟

بدا اضطراب الرجال خيالياً، لأنهم قرنوا أفعالهم بالشتائم والتهديدات لما سيُنزلونه بـ «بالجاسوس الإسرائيلي» رعد العسكري.

مرّت لحظة مرعبة عندما رمى الرجال على الحائط صينية أكواب القهوة الثمينة التي تحتفظ بها والدتي، فتناثرت الأشلاء الدقيقة للأكواب الزجاجية، وأصدرت أصواتاً بسبب احتكاكها ببعضها. بدت مثل أجراسٍ تتساقط على الأرض.

شحُب وجه منى، وتمايلت كأنها على وشك أن يُغمى عليها. لم تستطِع أن تتحمل هذه الكارثة. خشيتُ أن تفقد شقيقتي عقلها.

تبعنا قائد هذه العصابة الذي أمرنا بشراسة، بأن نجلس في زاوية الغرفة. نفذنا ما أمرنا به، والتصق بعضنا ببعض، بينما راح الرجال يتنقلون في أرجاء المنزل، ثم صعدوا إلى السطح وعادوا ثانية إلى الشرفة الخلفية قبل أن يدخلوا الحديقة. لحقت أمي وسعد بالرجال. بدت والدتي حزينة، بينما علا التجهم وجه سعد، وهما يشاهدان التخريب الذي أصاب منزلنا.

استغربتُ عدم مواجهة الرجال لوالدي. افترضت أن مكاتب هؤلاء الرجال تمتلك ملفاً أمنياً كاملاً عن عائلتنا، وهم يعرفون سببين لعدم احتمال أن يشكل والدي خطراً على النظام: أولاً، إنه ليس كردياً، وثانيهما، أنه لم يسبق له أن شارك في أي نشاطات سياسية كردية. وقد مثّل الصمم الذي أُصيب به والدي ضمانةً إضافية لعدم قدرته على تشكيل خطرٍ على الحكومة. فكّرت أيضاً في أنه لربما يعود السبب إلى الحبوب المهدّئة التي تساعد على النوم، والتي أعطتها والدتي له قبل وقت نومه. افترضت أنه كان يغط في نوم عميق بشكل لا يستطيع معه أن يستيقظ بسهولة.

استنتجت أن الصمم، برغم قساوته، شكّل منفعةً لنا في تلك الليلة. شعرنا جميعاً بالرعب وقتها، بينما استمتع والدي بنوم هانئ، ولم يتأثر بأكثر الحوادث إيلاماً التي مرّت في حياتنا. رحل الرجال في النهاية بعد مضي عدة ساعات. نثروا اللعنات والتهديدات علينا أثناء خروجهم عبر الباب المكسور، لكنهم خرجوا بخفي حنين. لم يجدوا شيئاً في منزلنا يمكّنهم من توجيه اتهامات سخيفة إلينا.

انضممت إلى والدتي وسعد في الشرفة الأمامية، بينما أسرع الجنود الثلاثة في النزول عبر الممر والقفز إلى سيارتهم. ابتعدوا عن أنظارنا، ودارت دواليبها كأنهم تلقوا استدعاءً لإطفاء نيران شبّت في قصر الرئيس.

بدا الأمر كأنني كنت في مواجهة مع الرعب بذاته.

أصغيت بهدوء، بينما انشغلت والدتي وسعد في مناقشة أفضل شيء يُمكن أن نقوم به.

أبلغ سعد والدتي: «سأذهب إلى منزل علياء، ويتحتم على رعد مغادرة بغداد، وأن يتجه إلى الشمال. يستطيع الانتظار هناك ريثما نجد حلاً لأسباب قلقه».

ملأتني كلمات سعد بالإثارة، فلعل رعد سيصبح مقاتل «بشمركة» حقيقياً. سيلتحق أخي رعد «بالبشمركة» بدلاً من توزيع المنشورات، ووضع ملامح لطيفة لكفاحنا. قررت أمراً بلحظة: إذا انضم إليهم فسألتحق به في هذه الجبال. سأكون أصغر مقاتلي «البشمركة» سناً في جميع أنحاء كردستان.

تمطّيت كهرة من فرط السعادة عندما التفت سعد نحوي، وقال: «إنك ذكية جداً يا جوانا، لأن ملصق البرزاني كان سيثير غضبهم، كما أنه كان سيعطيهم دليلاً ضد رعد».

أسرع سعد ليبدّل ثيابه ويرتدي بدلاً منها الثياب التي يرتديها في الشارع. همَّ بمغادرة المنزل ومر مسرعاً بقربنا، ثم تناول دنانير قليلة من راحة يد والدتي المبسوطة، من أجل أن يدفع أجرة التاكسي.

ارتعش جسدي بالكامل من فرط توقع المخاطر التي قد تحملها لنا الأيام المقبلة. مثّلت حادثة هذه الليلة اختباراً شخصياً لي. إذا قُدّر لي أن أكون محاربة فيتعين عليّ أن أكون هادئة في أوقات الأزمات.

أخذتني والدتي بين ذراعيها، ووضعت أصابعها تحت ذقني، وجذبت وجهي برفق إلى الأعلى كي أواجهها، ثم أثنت عليّ: «جوانا. إنك فتاة ذكية جداً».

أجل، لقد نجحت في اختباري الأول. يتعيّن على مقاتلي «البشمركة» أن يستجيبوا للظروف بسرعة حتى عندما يكونون تحت ضغط التحقيقات.

جلست والدتي وشقيقتي بهدوء، بينما رحت أتململ متطلعة في أرجاء بيتنا الذي أصابه الخراب.

ابتسمت والدتي: «يتعيّن علينا تنظيف المنزل، ويجب ألا يعلم والدك شيئاً عما حدث هذه الليلة. ستحدث مشاكل كبيرة إذا اكتشف أن رعد في خطر. يتوجب علينا إبقاء هذه الليلة سراً عن والدك، وعن عزيز».

أعتقد أن أمي على صواب. فإذا ما علم والدي بشأن التهديدات التي حصلت هذه الليلة، فسيُسرع إلى مكتب الأمن العراقي المحلي لتصفية الحسابات معه. لم يسبق لوالدي أن ظهر بمظهر الخائف مطلقاً. سيبدأ في العراك، وسينتهي به الأمر في السجن. أدركت، برغم صغر سني، أن الأوضاع في العراق خطرة أكثر من أي وقتٍ مضى. الحكومة الحالية ليست سهلة، ولن يستطيع والدي أن يتحمل السجن إذا ما أمر البعثيون باعتقاله.

وماذا بشأن خالي عزيز؟ يتعيّن علينا أن نحميه هو الآخر. وإذا لم نفعل فسيدخل بسهولة في انتكاسة تُبقيه في أماكن مظلمة ومجهولة.

«جوانا، يشعر والدك بتحسّن كبير، لذلك قد يتمكّن من تحضير الشاي غداً».

اعتاد والدي، في السنين الماضية وحتى فترة مرضه حديثاً، أن ينهض مع شروق كل شمس ليُعدَّ شاي الصباح. واعتاد أن يتناول الشاي مع الخبز والمربّى مع إشراقة كل صباح، وهي عادة من عادات العالم المتحضر التي عاد بها من فرنسا.

بدأ صوت والدتي يتلاشى حتى انتهى بتنهدة خافتة: «علينا إصلاح كل هذه الفوضى».

انطلقت إلى العمل فوراً، بينما اصطحبتْ والدتي مني إلى المطبخ.

انشغلتُ بإعادة كل الأشياء إلى مكانها المناسب في غرفة الجلوس. سمعت فجأة أصوات أقدام هادرة تعبر الممر في اتجاه الشرفة. استدرت كي أهرب اعتقاداً مني أن أولئك الرجال قد عادوا.

غمرني الارتياح عندما علمت أن أخي سعد هو الذي عاد، لكن وجهه كان متورماً وبدت عيناه داكنتين من شدة الغضب. مرّ من أمامي أثناء بحثه عن والدتي.

رميت وسادة أريكة من يدي وتبعته إلى المطبخ، حيث كانت أمي تزيل السكر عن الأرض.

«تأخرنا كثيراً».

«تأخرنا عن ماذا؟».

«أخذوا رعد وهادي».

«هل أخذوهما؟».

«أجل! كان لا بد من أن نعرف أن عمليات البحث هي عمليات منسقة. ظهر خمسة رجال في منزل علياء في الوقت نفسه لحضور ضباط الأمن إلى منزلنا. خرّب هؤلاء الرجال منزلها، وبحثوا عن كل دليل يستطيعون الإفادة فيه ضد رعد. ادّعوا أنهم وجدوا أدلة من شأنها إدانته. أصروا عندما غادروا على اصطحاب رعد وهادي معهم».

انخرطت منى في البكاء.

انهارت والدتي. تلك كانت المرة الأولى التي أراها فيها تتداعى هكذا. بدأت ركبتاها في الارتعاش، وتساقطت أرضاً قبل أن تتمسك بكرسي: «هل قبضوا على ولدي؟».

جمدت في مكاني. رعد؟ هل أودعوه السجن؟ ومضت سلسلة لا تنتهي من أفكار مرعبة في ذهني. هل سيعود رعد إلينا معاقاً هو الآخر؟

وهادي. ماذا سيحدث لهادي؟

أعرف هادي، ذلك الرجل اللطيف، حتى قبل أن يتزوج بعلياء، لأنه قريبنا. أُغرم صهري بعلياء إلى درجة أن الآخرين أخذوا يعيّرونه باعتباره يدلّل زوجته كثيراً، وهو الأمر غير الشائع في مجتمعنا. رُزق هادي من علياء بولدين صغيرين: شاسوار، الذي يبلغ الرابعة من العمر، وشوان، وعمره سنتان. سيجد الولدان نفسيهما في حالة بؤس من دون والدهما.

استعادت والدتي رباطة جأشها بسرعة: «اذهب يا سعد. اذهب إلى فاطمة. أخبرها بما حدث. توجه بعد ذلك إلى عثمان، فبإمكانه تقديم المساعدة إلينا».

تُعتبر فاطمة، وهي شقيقة والدي، التي أعطتني لعبتي السوداء، امرأةً صاحبة نفوذ في العراق بسبب زواجها برجل بارز. ويمتلك العم عثمان، وهو أصغر أشقاء والدي، ارتباطات مهمة هو الآخر.

ربتت والدتي على ذراع سعد، وقالت بصوت يوحي بالأمان: «قال والدك قبل أن ينام إنه سيعود إلى العمل غداً. نستطيع أن نزور ضباط الأمن في منطقتنا في هذه الأثناء. سنُبقي هذا الأمر سراً عن والدك».

تفهّم سعد الوضع من دون الحاجة إلى توضيحات إضافية.

عدت أنا وأمي إلى تنظيف المنزل بسرعة قياسية بعد مغادرة سعد المنزل للمرة الثانية. تبعتنا منى، وقالت إنها تريد أن تساعدنا، لكنها فوجئت عندما اكتشفت أننا انتهينا.

أويت إلى الفراش مع منى مع طلوع الشمس. بدا لي أننا عشنا حياة كاملة في غضون ساعات قليلة فقط. مرّت علينا أهوال كثيرة، وتعرّض منزلنا للتخريب، والأهم من ذلك أن رعد وهادي قد أصبحا في السجن.

لم يضيّع سعد أي وقت للعمل على إطلاق سراحهما. تمكنت أنا ووالدتي من إعادة المنزل إلى حالته العادية. لم نترك

أي دليل يذكّرنا بمسائنا المرعب، ما عدا الباب الأمامي المحطم، ولا أعرف كيف ستفسر والدتي الأمر لوالدي.

لم تستطِع والدتي النوم لأسباب مفهومة. لمحتها، عندما استسلمت للنوم، وهي تبسط سجادة الصلاة، وتتوجه نحو مكة، قبل أن تنحني راكعة على يديها وركبتيها، ثم تستغرق في الصلاة والدعاء.

استيقظت بعد ساعات قليلة لأجد أن منى لا تزال نائمة قربي. بدا منزلنا مظلماً وهادئاً. ارتحت عندما علمت أن والدي قد عاد إلى العمل للمرة الأولى منذ عشرة أيام.

وجدت رسالة مكتوبة بخط يد سعد كان قد وضعها تحت قِدْرٍ ثقيل على طاولة المطبخ. أمرني شقيقي في هذه الرسالة بأن نعتني بأنفسنا في هذا اليوم، بالرغم من أنه كتب سطراً بالخط العريض يحذرنا فيه من مغبة الخروج من المنزل.

لم أتبادل مع منى سوى القليل من الكلمات. بحثت عن الطعام ووجدت بعض الخبز اليابس، وقطعة صغيرة من الجبنة نستطيع تناولها، لكني وجدت صعوبة في ابتلاع ما آكله.

لم أعتد أنا ومنى التواجد وحدنا في المنزل، لكننا أخذنا بالتجوال فيه من دون هدفٍ معيّن. اكتشفنا أن الأجزاء المكسورة من الباب قد أُزيلت، لكن الثغرة بقيت موجودة. شعرت بالارتياح لأنني لم أشاهد ردة فعل والدي عندما رأى حالة الباب.

رحت أذرع المنزل جيئةً وذهاباً في محاولةٍ مني للهرب من

التفكير في مشاكلنا، لكن خيال وجه رعد لم يفارقني قط. شعرت بفراغٍ كبير، وبخوف شديد على مصيره. استطاع أشقائي الأكبر سناً مني أن يقدموا الحماية والدلال إليَّ دوماً، لكن رعد كان السبّاق دائماً.

إنه أمر يصعب تصديقه، لكن أمي حاولت التخلص مني عندما اكتشفت أنها حامل بطفلها الخامس. شعرتْ بأنها غارقة في المتاعب، وأنها غير قادرة على تحمّل متاعب حملٍ آخر. وحدث أن تعرّض معمل أبي لصناعة المفروشات، للتدمير بعد نشوب الثورة، وبعد وقت قصير على ولادة أمي لتوأم في عام ١٩٥٣. وجد والداي نفسيهما في حالة فقر شديد، على نحوٍ مفاجئ. ولم تستطِع والدتي أن تستوعب كيفية إعالة طفلٍ جديد. شعرَتْ بيأس شديد حيال قدومي المنتظر، إلى حد أنها لجأت إلى إجراءات يائسة للتخلص مني، إلى حد أنها أقدمت على رمي نفسها من أعلى الدرج، وقفزت من على سطح طاولة السفرة. اكتشفت أنها فشلت في تحقيق هدفها، فأقدمت على ابتلاع حبوب سامة. ادّعى الطبيب في ما بعد أن هذه الحبوب كادت تقتلنا نحن الاثنتين.

تعترف والدتي بشجاعة نادرة بأنها قامت بكل تلك الأفعال.

شعر والدي وأشقائي الكبار بالصدمة والرعب عندما أخبرهم الطبيب عن الهدف التي سعت إليه والدتي. وعمدوا منذ ذلك الوقت إلى حراسة والدتي للتأكد من قدومي بالسلامة. شعر الجميع بالارتياح عندما وُلدت بصحة سليمة إلى حد أنهم أفرطوا في تدليلي.

يحتل رعد أكثر المراكز تأثيراً في حياتي. تبعته كظله الصغير منذ أن كنت طفلة، حتى أنني كنت أتبعه عندما يخرج من المنزل ليتنزه قرب نهر دجلة. اعتدت الجلوس على الحافة المنحدرة للنهر كي أتطلع إليه بإعجاب وهو يمارس رياضة السباحة. كان يسبح بانسياب هائل في المياه، بحيث إن المتفرجين أطلقوا عليه اسم «تمساح دجلة».

أخذوا مني رعد، هذا الشقيق الذي أحببته وأُعجبت به كثيراً. ستلاحقني خيالات التعذيب التي قد يتعرض لها شقيقي، وستتسبب في شعوري بالتعاسة. ملأت الدموع عينيَّ قبل أن ترسم لنفسها مسارات متعرجة على وجهي الذي كان مثقلاً بالغبار نتيجة عملية التنظيف التي أجريناها لمنزلنا.

لم أعلم، وقتها، أن رعد وهادي يقبعان في تلك اللحظة في حفرة طينية، ويصارعان الموت تحت شمس بغداد الحارقة التي تصب أشعتها فوق رأسيهما. لو علمت ذلك كله لما تحملت. تُركنا مع خيالاتنا فقط.

مرّ شهر ببطء شديد، ثم مرّ شهر آخر، وبقي مصيرهما مجهولاً بالنسبة إلينا.

انتهى فصل الصيف.

خفّت وطأة الحرارة.

ملأت صلوات والدتي الهواء البارد.

وخيَّمت على منزلنا فترة انتظار أخرى مليئة بالعذاب.

(٥)

رعد وهادي يعودان

بغداد: تشرين الأول، ١٩٧٤

دأبت والدتي على القول إن الفرح الحقيقي ما هو إلاّ صلاة مستجابة. لم أُفاجَأ، لهذا السبب، عندما أصّرت والدتي على أن تكون أول من يرى رعد وهادي أثناء خروجهما من سيارة الأجرة التي رُكنت إلى مسافةٍ قصيرة من منزل علياء. سبب ذلك أن أمي استمرت في الصلاة منذ اعتقالهما. أطلقت والدتي صرخات الفرح (الزغاريد) التي اخترقت الهواء، والتي حملت معنى واحداً: خروج رعد. هرعت علياء، وولداها، وسعد، ومنى، من داخل المنزل عندما سمعوا صوتها.

ترددت صيحات فرح أمي قليلاً، ثم ما لبثت أن توقفت كلياً.

لم يحمل أخي أي شبهٍ مع ذاته السابقة. بدا شديد البياض إلى درجة أنه ظهر لنا مثل شبح. انحنت قامته إلى درجة أنه كاد يزحف. وقف رعد، في آخر مرةٍ رأيته فيها، منتصب القامة، وقوياً كما عهدته دائماً، لكنني لاحظت الآن أن جسده الرشيق، والمفتول العضلات، قد ضعف كثيراً، وشاهدت ثيابه التي

أصبحت باليةً، بحيث لم أستطِع تمييزها. هل كان محزَّماً بخرَق ثياب؟ أم إن هذه الخرَق الممزقة التي أراها هي بقايا ثياب النوم (البيجاما) التي كان يرتديها عندما ألقي القبض عليه؟ استحال عليّ الحصول على أجوبةٍ عن هذه الأسئلة.

وصل سعد، أخيراً، إليه. تشبث رعد بذراع أخيه الأصغر، وتحرك بتردد واضح مثلما يفعل الكثير من المُقعَدين، أو الرجال المسنّين، الذين اعتدت رؤيتهم يمشون بتثاقل في شوارع بغداد. بدا لي أن أولئك الرجال الضعفاء يُعتبرون أصحاء، وفي حالة جيدة، إذا ما جرت مقارنتهم مع أخي.

انتبهت إلى وجود حركة بطيئة خلفه، ثم رأيت هادي، الذي بدا بمثل سُوء حالة رعد تقريباً. رأيت وجهه الشاحب وقد غابت عنه حماسته، وغابت عنه ابتسامته العريضة التي اعتدنا رؤيتها مرتسمة على شفتيه.

غمرت السعادة أختي علياء، بالرغم من حالتهما المزرية. تركتْ ذراعَي والدتي لتندفع نحو زوجها. أردت أن أصرخ كي أحذرها من أن هادي كان أضعف من أن يتحمل أي اندفاعة في اتجاهه، لكن كل ما خرج من شفتيّ لم يتعدَّ صوتاً مختنقاً.

انسابت الدموع من عينيّ عندما ركضت والدتي نحو ابنها الأكبر، ثم وهي تقترب منه كي تحتضن وجهه بيديها. قرّبته منها، وهي التي لم تره منذ ثلاثة أشهر تقريباً، وكانت تخشى في معظم هذه الفترة أن يكون ميتاً ومدفوناً.

مثّلت تلك الشهور الطويلة فترة انتظار مؤلمة لوالدتي،

ولعلياء، ولسعد، ولآخرين من أقاربنا أثناء سعيهم إلى اكتشاف مكان وجود رعد وهادي. وُجدا أخيراً في أحد السجون الكبيرة. بدأت المفاوضات فوراً في ذلك اليوم، وتم دفع آلاف الدنانير التي استطاع أقاربنا جمعها، من أجل ضمان إطلاقهما. لم نحصل على ضمانات بإطلاقهما على الفور، لكننا كنا مضطرين إلى الانتظار في منزل علياء ترقباً لهذا الحدث في أي وقت.

عاد الاثنان إلى المنزل أخيراً. عادا حيين، لكن بالكاد يقويان على متابعة الحياة.

أخذ رعد يلهث مثل رجلٍ خرج لتوه من التنافس في سباقٍ للركض للمسافات الطويلة، وذلك بعد أن صعد أخيراً إلى الشرفة. ارتسمت ملامح الاضطراب على وجه أخي الذي كان أنيقاً ووسيماً ذات مرة. رأيت شعره الطويل والأشعث، وشعرات لحيته النابتة بترهل. شاهدت التشقق في شفته السفلى النازفة، وهي التي بقيت مفتوحة، مُبرزةً أسنانَه التي كانت ناصعة البياض ولامعة، وها هي تغطت الآن بقشرة من الاصفرار التي علقت عليها نتيجة ثلاثة شهور من الاعتقال.

لم أتحمل مجرد النظر إليه، لكني تطلعت نحو هادي، الذي تركّزت عيناه على علياء. بدا وجهه متغضناً، ومترهلاً، ونحيفاً، وهو الذي كان رشيقاً ذات يوم.

شرب كلٌّ من الرجلين كوباً من الماء من يد منى، التي كانت متأثرة جداً من حالتهما، بحيث إن يديها ارتعشتا بوضوح. قادت أمي وعلياء الشابين إلى المنزل، حيث قد يستطيعان غسل

آثار السجن بأخذ حمام، وتناول الطعام، والخلود إلى قيلولة قصيرة.

حدّقت في وجه مني، وفعلت هي الشيء نفسه. عجزنا عن الكلام. دخلت منى أخيراً المنزل، لكني بقيت وحدي في الشرفة لمدة تقارب ساعةً من الزمن داويتُ خلالها حزني وغضبي، بمزيد ومزيد من الدموع.

تحسنت أمزجتنا قليلاً في وقت لاحق من ذلك المساء بعد أن تجمّعنا كلنا في غرفة معيشة منزل علياء. وسرعان ما خيّم جو بهيج في المنزل، بعد أن سمع عدد من الأقرباء الأخبار السارة عن عودة رعد وهادي، وأرادوا أن يطمئنوا على السجينين السابقين بأنفسهم، فتوافدوا إلى المنزل. سُررت كثيراً بوصول خالتي عائشة التي غادرت السليمانية لتكون إلى جانب والدتي، كي تواسيها، فتحملت معنا لحظات الانتظار الصعبة. أحببت هذه الخالة أكثر من غيرها، وارتحت إلى البقاء إلى جانبها.

أرسلت والدتي أحد أقربائنا إلى منزلنا كي يُخبر والدي بأن علياء ليست بخير، وأنها لن تتمكن من العودة قبل وقت متأخر من ذلك المساء.

أدهشتنا والدتي بتمكنها من تحقيق رغبتها في إخفاء أخبار اعتقال رعد وهادي وسَجنهما عن والدي، بالرغم من كل التحركات التي قمنا بها من أجل إيجادهما، وإطلاق سراحهما. بدت حياتنا اليومية سلسلة متواصلة من الأكاذيب المتناقضة. صدّق والدي أن علياء المسكينة مريضة، وهكذا استطعنا تبرير زياراتنا المتكررة إلى منزلها. صدّق أيضاً أن رعد قد حالفه

الحظ ليحصل على إذن بالسفر إلى أوروبا، وهو الأمر الذي يفسر غيابه الطويل. بدا لنا أن حياتنا وسط هذه الأكذوبة كانت ثقيلة الوطأة، لأننا كنا نخشى أن يزلّ أحدنا من دون قصد، ويكشف عن الحقيقة. تطلعت إلى ذلك اليوم الذي يسترد فيه رعد صحته، كي نستطيع التصرف بصورة طبيعية مع والدي مجدداً.

تحلق الجميع جالسين على الأرائك ومن حولها. لاحظت أن هادي، الذي كان مرحاً ذات يوم، التزم الآن بصمت غريب. فاجأنا رعد في الكلام: «سأروي تفاصيل ما حدث لنا».

ضغطتُ على يد خالتي عائشة، فربتت بدورها على رأسي.

من المؤلم الاستماع إلى رعد، وهو يتحدث بذلك الصوت المتوتر والأجش. لم يعد يتميز بذلك الصوت الشجي الذي ترتفع نبرته حيناً، وتخفت حيناً آخر.

«استعد الجميع للنوم في تلك الليلة التي اعتُقلنا فيها. نامت علياء، وهادي، والأولاد في الحديقة الخارجية في ذلك الليل، لكني كنت على السطح، ولم أكن قد نمت بعد. كنت أستمع عندها إلى إذاعة «مونت كارلو» أثناء مشاهدتي القمرَ المكتمل، الذي يظهر من خلال أشجار النخيل المتمايلة.

«أحسست فجأة بوجود شخص آخر معي فوق ذلك السطح. ظننت أن هادي لربما تذكر شيئاً ليخبرني إياه. فوجئت عندما تطلعت، ووجدت خمسة أشخاص غرباء. لاحظت أنهم يرتدون ملابس مدنية، ويحملون بنادق هجومية. لا أعرف كيف ومتى دخلوا المنزل، لأنني لم أسمع أي ضجيج غير معتاد.

«لم يعطوني فرصةً للكلام. أسرع ثلاثة من أصل خمسة من الرجال إلى مهاجمتي، وبدأوا يضربونني أثناء قيامهم برفعي عن الأرض. أمسك أحد الرجال بجهاز الراديو الذي كنت أستمع إليه وحطّمه. صبّ الرجال الخمسة سيلاً من الشتائم عليّ، ثم أمروني بإرشادهم إلى غرفة نومي، وكادوا يلقون بي على الدرج. تمكن الرجال في هذا الوقت من القبض على هادي، بينما كانت علياء المسكينة وطفلاها شهوداً مرتعبين على ما حدث.

«سمعتُ هادي، أثناء قيام الرجال بدفعي إلى غرفة نومي، وهو يسألهم عن الشخص الذي ارتكب أي ذنب في هذا المنزل. تناهى إليَّ في تلك اللحظة أول الاتهامات الباطلة الموجهة ضدي. تأكدت من ذلك بعدما سمعت قائد أولئك الرجال يقول إنني شوهدت وأنا أتجسس لصالح الإسرائيليين! بالإضافة إلى التجسس لصالح الأكراد!

«إنها تهمة مزدوجة إذاً». قلت لهم إنه إذا كان ذلك الرجل يتحدث عن عضويتي في «اتحاد الطلبة الأكراد»، فإن هذا الاتحاد أصبح قانونياً نتيجة الاتفاقية التي أُبرمت في شهر آذار من العام ١٩٧٠.

«لم يقتنع أولئك الرجال المجانين بأيّ من الكلمات التي قلتها. وسبق لي أن سمعت عن استهداف بعض الطلبة بسبب كونهم أكراداً، وهكذا استنتجت أنهم يعتقلون كل الأعضاء المنتسبين إلى «اتحاد الطلبة الأكراد».

«تذكرت بعد ذلك أنه منذ عدة أيام، اتصل بي أشخاص

طالبين مني الانضمام إلى «منظمة الطلبة البعثيين». رفضت، بالطبع، الانضمام إلى هذه المنظمة. افترضت عندها أن رفضي هو الذي أطلق عملية التحرّي عني.

«بدأ أولئك الرجال في تخريب غرفة نومي، بينما وقفت عاجزاً أراقب ما يجري، وأنا ما زلت في ثياب نومي (مرتدياً البيجاما). رفض الرجال السماح لي بتغيير ملابسي، أو حتى ارتداء عباءتي، لكني تمكنت من انتعال الشبشب (الخف)».

- أومأت بالموافقة على الأشياء التي يتحدث رعد عنها. سبق لنا أن عانينا جميعاً هذه الإهانات نفسها.

تحوّل رعد إلى شرب كوب من الشاي الساخن، بينما تحدث هادي بصوت متردد: «لم يكن هناك أي شيء غير قانوني في المنزل. وجدوا منشوراً كان رعد بدأ في كتابته، يتحدث عن تاريخ الأكراد، ويمتدح الحكومة لأنها سمحت للأكراد بالبدء في التحدث باللغة الكردية، ودراسة التاريخ الكردي. أدركت، بالرغم من مضمون هذا المنشور، أننا انتهينا، وذلك عندما بدأوا في التلويح بتلك الورقة.

«بدأوا بوضع عصابات على عينَي رعد أولاً، ثم على عينيّ. بدأت علياء بالصراخ راجيةً هؤلاء الرجال عدم أخذنا معهم».

هزّ هادي رأسه قبل أن يتابع: «بدا هؤلاء الرجال أكثر صمماً من والدها محمد.

«وجدنا أنفسنا أخيراً في مركز الاستخبارات الأمنية في

منطقة المنصور. سبق لي أن رأيت ذلك المكان أكثر من مرة، وهو يتواجد في منزل كبير، وقديم، في تلك المنطقة».

أُصيب هادي بنوبة سعال حادة اضطرته إلى مغادرة الغرفة، وهكذا تابع رعد رواية القصة:

«أجلسَني الرجال عنوة على كرسي، ثم أزالوا العصابة عن عينيّ. وجدت نفسي في مواجهة محقق شرسٍ. بدا قاسياً وغبياً. ادّعى الرجل أنه تلقى تقارير تفيد عن قيامي بإرسال معلومات عن طريق جهاز لاسلكي. فكّرت بجهد كي أحاول أن أتذكر أي شيء جعلهم يأخذون هذا الانطباع الكاذب. تذكرت أن هادي أعارني سيارته ذات يوم لأتمكن من زيارة عمّتي فاطمة. لاحظت عند رجوعي أن هوائيَّ سيارته ليس ثابتاً في مكانه، فنزعته من السيارة كي أقوم بإصلاحه. وقفت هناك ممسكاً بالهوائي بيديّ، لكني لاحظت أن جاراً لي دأب على التجول بجواري، وأخذ يحدّق في الهوائي أولاً، قبل أن يبدأ بالتحديق فيَّ. عدت بأفكاري إلى الماضي، وأدركت أنه لا بد من أنه كان بعثياً خمَّن أشياء خاطئة على هواه.

«قال المحقق إنه بينما كنت ممسكاً بذلك الهوائي سمعني أحدهم وأنا أتحدث باللغة العبرية مع إسرائيليين! ادّعى بعد ذلك أنني حركت الهوائي إلى مكان آخر في الباحة، وبدأت أتكلم بالكردية مع مركز قيادة حزب البرزاني».

بدأ بعض أقاربنا بالضحك بصوتٍ عالٍ على فكرة وجود جاسوسٍ بلغ من الذكاء درجةً جعلته يتجسس لصالح فريقين

مختلفين، وأظهر في الوقت نفسه غباءً شديداً بحيث إنه تكلم بجرأة تامة بلغتين أجنبيتين أمام شهود عيان.

ابتسم رعد ابتسامةً خجولة: «دفعتني سخافة الاتهامات إلى سؤال الرجل عن سبب عدم إلقاء القبض عليّ فوراً، وهو الأمر الذي كنتُ سأقوم به لو كنت أنا ضابطاً أمنياً أشاهد مثل هذا الجاسوس الكثير الحركة، والمُريب التصرفات. أخبرته أيضاً بأنني لو كنت جاسوساً حقاً فعليه أن يعتبرني فاشلاً! طلبت منه أن يخبرني عن اليوم، والوقت، اللذين حدث فيهما ذلك بالتحديد.

«حددّ لي الرجل تاريخاً محدداً، لكنه لم يكن اليوم الذي زرت فيه عمتي فاطمة. تذكرت فجأةً المكان الذي تواجدت فيه في اليوم الذي ادعى فيه أنني كنت أتجسس. سبحت في نهار ذلك اليوم، ثم شاركت في مباراة لكرة القدم مع مجموعة من أصدقائي. قلت للرجل إنني أمتلك اثنين وعشرين شاهداً من الذين سبحوا ولعبوا كرة القدم معي، والذين بإمكانهم أن يشهدوا على ما أقول. أصررت على أن يتأكد من هذه الحقائق.

«نادى الرجل مساعداً له ليدوّن الأسماء، ثم شعرت بالندم على ما قلته. سبق لي أن حذّرني أحدهم، عندما انضممت إلى اتحاد الطلبة الأكراد، من البوح بالأسماء التي أعرفها، في حال توقيفي في يوم من الأيام. وأعطاني أحد الطلاب الأكثر خبرة نصيحة حكيمة: قم بالتضحية برأسك، ولا تضحِّ بسرك. قررت أنه من الأفضل لي أن ألتزم الصمت.

«قرع ذلك المحقق جرساً بعصبية عندما رأى أنني ألتزم

الصمت أكثر مما يطيق. دخل رجلان غريبان الغرفة، وشهدا بكل وقاحة أنهما شاهداني في ذلك اليوم بالذات، الذي قلت إنني سبحت ولعبت كرة القدم فيه. ادّعى الرجلان أنني أكذب، وأنهما شاهداني أقوم بالإرسال عن طريق جهاز راديو مزود بهوائي، وأنني تحدثت بالعبرية أولاً، وبالكردية ثانياً.

«قلت إنه لم يسبق لي أن سمعت أحداً يتحدث بالعبرية، كما أنني لن أستطيع تمييز هذه اللغة إذا ما سمعت أحداً يتكلمها في هذه اللحظة بالذات.

«أَدخلوا هادي المسكين إلى الغرفة بكل وحشية في تلك اللحظة، وبدأ الرجل في استجوابه عن علاقته بي. أكّد هادي أنه صهري. اتهمه المحقق بأنه متعاطف مع الأكراد. اعترف هادي بأنه كردي، لكنه قال إنه زوج وأب مسالم، ويعمل مهندساً.

«عرف أولئك الرجال أن شقيق هادي مقاتل ينتمي إلى «البشمركة»، وعرفوا أيضاً أن هادي قد توجه منذ وقتٍ قريب إلى شمال البلاد، ورجع بسيارة أخيه إلى بغداد كي يحفظها عنده.

«وضعوا العصابات على عيوننا مجدداً، ثم وضعونا في سيارة أخرى. لم أستطع أن أفكر في شيء أكثر من تفكيري في خالي عزيز، وكيف أنه تعرّض للتعذيب، وعلى الأخص عندما علقوه في السقف ورأسه إلى الأرض، وظلوا يضربونه لمدة أسبوع كامل. توقعت أن ألقى شيئاً من هذا القبيل، وخشيت أن أتلقى ضرباً مشابهاً لما تلقّاه خالي.

«سرعان ما توقفت السيارة، وأزيلت عصابات عيوننا. حُشرنا في منطقة مظلمة محاطة بجدار عالٍ. افترضت أننا موجودون في فناء سجن. تلقيت وهادي، أمراً بالوقوف جنباً إلى جنب، وهكذا افترضت أنهم يحضّرون لقتلنا رمياً بالرصاص تمهيداً لدفننا.

«ألقى القمر المكتمل أنواره على المكان. استطعت أن أرى بمساعدة ضوئه الباهت، أننا نقف إلى جوار غطاء معدني كبير. مشى أحد الحراس في اتجاهنا حاملاً سلّماً كبيراً. رُفع الغطاء المعدني عن الأرض، فبرزت أمامي حفرة عميقة ومظلمة.

«عمد أحد الحراس إلى إنزال السلّم إلى أرض الحفرة. أُمرتُ وهادي بالنزول إلى تلك الحفرة. اعتقدت أنهم سيلقوننا في حفرة مليئة بالأفاعي».

رجع هادي إلى الغرفة في هذا الوقت، وعاد ليتحدث بصوته المتعب: «كنت أفضّل التواجد بين الأفاعي. بدا الأمر كأننا داخلان إلى قبر».

«بالضبط».

بدت أمي كسيرة القلب. مشت نحو رعد، وبدأت بتمسيد رقبته وكتفيه: «لعلك تُكمل بقية القصة في وقت آخر يا بني».

رفع رعد رأسه: «يجب أن أُكمل القصة الآن قبل أن أنساها، فلعل العالم سيهتم لأن يعلم في يوم من الأيام، الأشياء التي تحمّلها العراقيون، والأكراد، نتيجة حكم هذه الحكومة المجنونة.

«تواجدنا هناك. كنا أحياءً في قبر واقفين في حفرة مظلمة. بدأ بعد ذلك مسلسل الرعب الحقيقي. وُضع الغطاء المعدني فوقنا. شهدنا عندها الظلمة الأكثر اسوداداً التي يمكن تصورها».

تدخل هادي هنا: «لم تكن هذه اللحظة أسوأ ما في الأمر. شعرت بالرعب لما أسمعه. إنه صوت تنفّس مجهَد. صحتُ «مَن هناك؟». لم أرَ أحداً بسبب الظلمة الحالكة، لكنني استطعت أن أسمع. واستطعت أن أشم. آه! ما هذه الرائحة الكريهة! يتقدم أحدهم، أو شيء ما، نحونا. افترضت أننا وُضعنا في حفرة مع حيوانات مفترسة! رفعت قبضتيّ في الهواء استعداداً للعراك مع شخصٍ ما، أو مع الوحوش.

«سمعت عندها صوت رجل مسكين، وهو يقول لنا، «لا تخافوا. أنا سجين مثلكم، مرّت عدة أسابيع على وجودي وحيداً في هذه الحفرة. أنا من النجف»».

أعرف النجف، هذه المدينة الكبيرة التي تقع جنوب بغداد. إنها مركز الزعامة الشيعية السياسية والدينية، كما أنها تُعتبر مدينة مقدسة بالنسبة إلى الشيعة. يوجد في تلك المدينة مدفن الإمام علي، وهو زوج ابنة النبي محمد. قاوم الشيعة السلطة السنّية في بغداد بشجاعة منذ أمد طويل، لكن الحكومة البعثية هي الحكومة التي مارست القمع الأشد والأشنع في تاريخ البلاد. لم يساورني شك في أن يكون رفيقي في الحفرة شيعياً».

تابع هادي كلامه: «شعرت بارتياح كبير لأن صاحب هذه

الرائحة الكريهة هو إنسان، بحيث إن رائحته لم تعد تزعجني. شعرت، في واقع الأمر، بدافع شديد إلى معانقة هذا الرجل».

أطلق رعد ضحكةً باهتة: «لم يتأخر الرجل عن رواية قصته لنا. قال لنا إن أخاه ناشط شيعي سياسياً، وهو ينتمي إلى حزب الدعوة ، الذي نعرف جميعاً أنه زاد من تحركاته ضد البعثيين. سمع ذلك الشقيق أنه سيتم القبض عليه ففرّ إلى فرنسا. قُبض على رفيقنا في الحفرة، برغم أنه لم يكن سياسياً في يوم من الأيام، واحتُفظ به رهينة مكان أخيه. أخبروه أنه سيموت في السجن بدلاً من أخيه، إذا لم يرجع شقيقه لمواجهة حكم الإعدام الذي صدر بحقه.

«تحدثنا طوال تلك الليلة، لأننا أردنا، جزئياً، أن نُبعد أذهاننا عن كارثة وجودنا في الحفرة. لكن معنويات الرجل كانت في الحضيض، بحيث إننا كدنا ننهار لرؤيته على هذه الحال. راح الرجل يكرّر أنه كُتب على ثلاثتنا أن نموت في تلك الحفرة.

«توقع الرجل أن أكون أول من يموت. قال إن الطلبة غير معتادين على الصعوبات، وينهارون بسرعة في الغالب. استنتج الرجل أيضاً أنه سيكون ثاني رجلٍ يموت منا، لأنه ضعف كثيراً أمام هذه المحنة. وقرّر أن هادي سيصمد عدة أسابيع قبل أن يموت.

«كنا نعتقد أننا نتعرض للتعذيب الحقيقي، لكن اعتقادنا هذا تلاشى مع شروق شمس الصباح التالي. شعرنا بأننا نُشوى تحت

هذا الغطاء المعدني الحارق. زادت الحرارة كثيراً من رائحة المرحاض. أدركنا أن الحفرة هي مرحاض بحد ذاتها، وأنه لم يسبق تنظيفها قط. بدا لي أنه لا توجد كلمات كافية لوصف هذه الرائحة.

«أدركت عندها أن ذلك السجين القادم من النجف هو فعلاً على حق. سنهلك جميعاً. صعُب عليّ أن أتخيّل أنه بإمكاني الصمود حتى ليوم واحد.

«شعرت بمعنويات منخفضة جداً في ذلك اليوم الأول، وبسبب امتلاكي ما يكفي من المنطق كي أستطيع متابعة التفكير. أدركت أن حياتي قد انتهت عملياً بطريقة أو بأخرى. أعرف أن مستقبلي قد انتهى بسبب إلقاء القبض عليّ، ولو لمرة واحدة. سأبقى إلى الأبد مختفياً عن أعين ضباط المخابرات، ولن يعود بإمكاني التحرك بحرية من دون أن يعترضني أحد.

«فتحوا ذلك الغطاء المعدني في وقتٍ لاحق من ذلك الصباح، وأنزلوا لنا وعاءً يحتوي على الماء الفاتر. رُبط الوعاء بحبل، لذلك أُهرق الكثير من محتوياته. أعطونا أيضاً رغيفاً واحداً كي نتقاسمه، لكني لم أستطِع تناول أي شيء، وخصوصاً في ذلك اليوم الأول على الأقل. حاول هادي أن يأكل، لكنه لم يستطع، وهكذا أكل رفيقنا السجين حصتنا وحصته بشهية كبيرة.

قال الرجل مقاطعاً: «فقَدَ الرجل كل أسنانه. سحب المستجوِبون أسنانه كجزءٍ من عملية التعذيب»».

أضاف رعد: «سحبوا أظافر أصابعه وقدميه أيضاً. توقعت أن يحدث الشيء نفسه لي».

راح رعد يحك رأسه، وأكد لنا بنبرةٍ معتذرة: «إنه القمل».

شهقتُ. تطلعت نحو خالتي عائشة. هل قال قمل؟ وعلى رأس رعد؟

«مضى يوم ليتبعه آخر إلى أن فقدنا إحساسنا بالزمن. لم تنتهِ الحرارة، ولا الرائحة الكريهة. لم ينتهِ الانتظار أيضاً».

تطلع رعد بمحبة ناحية هادي: «سأقول الحق، أكثر ما قلقتُ بشأنه، كان هادي. كنت أفكّر كل يوم في أنه سيكون اليوم الأخير في حياته».

ضحك هادي بحزن: «راودتني الفكرة نفسها عنك أيضاً».

تجهّم وجه رعد، وقال: «لكني كنت أول شخص ينهار. أُغمي عليّ ذات يوم. واجهنا الجوع المستمر، وبدأت أضعف يوماً عن يوم. جلست يوماً أفكر وأخطط لكيفية إبلاغ العائلة عن مكان اعتقالنا. مرّت دقيقة قبل أن أغيب عن الوعي».

أكمل هادي القصة: «انهار رعد، فبدا ميتاً. صرخت على الحراس، وأسرع رفيقنا في الحفرة إلى إلقاء نظرة عليه، وتحسّس عنقه، ثم أعلن أنه مات. مرّت عليّ عندها أسوأ لحظة لي في تلك الحفرة. لم أستطِع جذب انتباه الحراس، لهذا تناولت بعض الحصى التي جمعتها من الأرض، ورحت أرميها باتجاه الغطاء المعدني.

«ظهر الحراس أخيراً، فصرخت بأن رعد العسكري قد مات. سحبوه إلى أعلى الحفرة ثم إلى خارجها. رشّ الحرس الماء عليه. سمعتهم بعد فترة قصيرة وهم يصيحون قائلين إنه ما زال يتنفس. عاد الحراس لتغطية الحفرة مجدداً، وهكذا لم أعد أعرف ماذا سيجري لرعد بعد ذلك».

تابع رعد الحديث: «تصادفت هذه الحادثة مع ذكرى يوم الرابع عشر من تموز، وهو يوم الاحتفالات بعيد الثورة التي جاءت بالبعثيين إلى السلطة. راح الحراس يشربون الجعة (البيرة) والعَرَق (نوع آخر من المشروب الكحولي)، ويرقصون معاً. جرّوني إلى وسط الباحة التي كانوا يحتفلون بها، ثم أوثقوني إلى شجرة نخيل. جلست هناك لأراقب مجموعة من المجانين يشربون الكحول ويرقصون».

همهم رعد اشمئزازاً. أعرف أنه الشقيق الأكثر تديناً في أسرتنا، ولا يفوّت صلاةً، كما أنه يحرص على أن يبقى سلوك شقيقاته محافظاً، ولباسهن محتشماً. صدمته فكرة قيام موظفين حكوميين بشرب الكحول والرقص، بينما يُبقون على رجالٍ أبرياء في الحُفر.

«خفضت أحنيت إلى صدري، لكني رأيت أقداماً تتجه نحوي. رأيت ضابطاً مخموراً يفكّ أزرار سرواله ويمشي في اتجاهي مباشرة. أراد الرجل أن يتبول عليّ. وجدت في نفسي ما يكفي من الشجاعة التي تسمح لي بالصراخ في وجهه، فجفل على الفور. رآني مقيداً، ثم قال: «أقسم بالله! أعرفك. أنت رعد العسكري».

«سبق للرجل أن رآني في نادي الأعظمية الرياضي حيث اعتدت أن ألعب كرة السلة. أخبرته أنني أحتاج إلى المساعدة، وأنهم وجهوا إليّ اتهاماً باطلاً. أجابني بأن رتبته ليست رفيعة، وأنه لا يستطيع حتى مساعدة أقربائه الذين يقبع بعضهم في السجن. طلبت منه أن يتصل بعائلتي على الأقل. قرع الرجل على رأسه، وسألني: «هل أبدو رجلاً مجنوناً بالنسبة إليك؟ إذا اتصلت بأقربائك فسوف أنتهي مقيداً، وجالساً إلى جانبك».

«اختفى الرجل، وبقيت وحدي موثوقاً إلى تلك الشجرة. أشرقت الشمس، وكانت تلك المرة الأولى التي أرى فيها ذلك البستان في ضوء النهار. وماذا رأيت؟ شاهدت المئات من الأغطية المعدنية المثبتة فوق الأرض. أعطى كل غطاء من هذه الأغطية مثالاً على أشد ما تكون عليه المأساة الإنسانية.

«تناهت إلى سمعي التنهدات عبر تلك الأغطية المعدنية. بدت لي كأنها تنهيدة طويلة واحدة. إنها صرخات الألم التي تقضي على كل أمل يتسلح به أي سجين بإمكانية الخروج حياً من هذا الجحيم.

«بقيتُ متروكاً ومقيداً لمدة يومين. عذّبتني توسلات السجناء لتلقي المساعدة. حرّروني أخيراً من قيدي، وأخذوني إلى داخل بناء ليتابعوا استجوابي.

«واجهتُ محققاً آخر. كان رجلاً طويلاً وداكن البشرة، وبدا لي أنه أخطر من المحقق الأول. حمل الرجل سلاحاً، وبدأ يلوّح بمسدسه بطريقة غير احترافية. صوّب الرجل مسدسه نحو

رأسي، وراح يطلق اتهاماته وتهديداته، وقال لي: «إنك مجرد كلب وضيع. أعرف أنك من أتباع البرزاني. أنت رجل خائن. لماذا لا تعترف، وتوفّر عليّ مشقة حملك على الاعتراف؟». كان رجلاً مجنوناً بالفعل.

«قاطعه دخول سجين آخر رُمي من خلال الباب. راح الرجل يصرخ بالكردية طلباً للمساعدة. غادر المحقق الغرفة. تسلحت بحذري، لأنه سبق لأحدهم أن نبهني إلى وسيلةٍ مفضلة لدى المحققين، تقضي بوضع المساجين الذين يتشاركون في الانتماء نفسه معاً. افترضت أنهم يريدونني أن أثق بهذا الرجل، وأن أعترف له بأنني أعمل لصالح الإسرائيليين، أو أي تفاهة أخرى من هذا القبيل.

«سألت الرجل عن سبب اعتقاله. قال إنهم أمسكوا به عندما كان يستمع إلى إذاعة باللغة الكردية. أعرف أن الاستماع إلى الإذاعة الكردية لم يعد يُعتبر جريمة بعد العام ١٩٧٠. وهكذا لم أقل شيئاً.

«لم أكن متحضراً لما حدث بعد ذلك.

«فُتح الباب فجأة واندفع ثلاثة رجال مفتولي العضلات إلى الغرفة، وبدأوا، من دون أن يتلفظوا ولو بكلمة واحدة، بمهاجمة ذلك الرجل المسكين وضربه بوحشية. سمعت أصوات تنفس الرجل المتثاقلة، ثم لم أعد أسمع شيئاً. ظننت أنه مات. سحب الرجال جسده الهامد إلى خارج الغرفة.

«دخل ضابط آخر. تكلم الرجل بتهذيب مفرط، بحيث إنني

بالكاد سمعته. تقدم الرجل نحو النافذة وبدأ في فتح ستائرها. رأيت عندها بستان النخيل. حدّقت في الأشجار، وفكّرت في أولئك الرجال المدفونين أحياءً في ذلك البستان، وكيف أن أحداً في العالم لا يعرف بشأنهم، ولا يكترث لذلك المكان المرعب. فكّرت في أن مليارات البشر في العالم يستمرون في حياتهم اليومية، وفي الحكومات الأجنبية العديدة التي تقيم علاقات ودية مع صدام حسين والبعثيين. يجري كل هذا بينما يقبع الأبرياء من العراقيين في قبضة حكومة مجنونة، حيث يُلقى بهم في حفر في الأرض، ويتعرضون للعذاب والقتل من دون سببٍ موجب. أين دعاة حقوق الإنسان؟ ولماذا لا يكترث أحدٌ ما؟

«حدّق هذا الضابط فيَّ بعينيه الغريبتين والحزينتين. سألني: «لماذا اقترفت هذا العمل الشائن بحق بلدك؟ لا تنكر، فلدينا شهود يثبتون أنك تمتلك جهازاً لاسلكياً، وأنك كنتَ تتصل بالإسرائيليين وتتجسس لصالحهم. نعرف أنك اتصلت بعد ذلك بالقوات الكردية المتمردة في الشمال. فعلتَ كل ذلك كي تؤذي حكومتنا».

«لا أعرف السبب الذي دفعني لمناشدة ذلك الضابط. قلت له إنني أتكلم الكردية بسبب أن أمي كردية فقط. اعترفت له بأنني ناشط في اتحاد الطلبة الأكراد، لكني أفعل ذلك بعد حصولنا على هذا الإذن الذي أعطتنا إياه الاتفاقية التي عُقدت ما بين الحكومة العراقية والأكراد. أخبرته بأنني لم أغادر العراق

طوال حياتي. أبلغته أيضاً بأنني لم ألتقِ بإسرائيلي على الإطلاق، وأن كل شيء قرأه عني في ذلك التقرير ليس صحيحاً.

«شعرت بأنني أحرز تقدماً معه. كان بدأ يطمئن إليّ. وهكذا، تشجعت لأقول له إنني حينما أقول الحقيقة أكتشف دائماً أن الجميع يغضب مني، لكني إذا كذبت واعترفت بالأشياء التي يتهمونني بها، فسيكون ذلك فقط كي أُرضي المحققين. أبلغته أنني أرى فيه رجلاً ذكياً، وأنني أشك في أنه يريد أن يسمع الأكاذيب.

«كررت أمامه ما قلته في السابق، بأنني كنت أسبح، وألعب كرة القدم، في ذلك اليوم المعيّن، وأنه يستحيل عليّ أن أتواجد شخصياً في مكانين مختلفين، في وقت واحد.

«لم يصدّق المحقق أي كلمة قلتها. أثار أمامي قضية عمّي جعفر، قائلاً إنه يتوجب عليّ أن أحترم ذكرى هذا الرجل الذي كان أول وزير دفاع في العراق، وهو الرجل الذي ساعد على بناء العراق الحديث. ادّعى الرجل أن العم جعفر كان سيشعر بالعار لأن ابن أخيه قد تورط في مثل هذه النشاطات الخيانية.

«لم ينتظر الرجل جواباً مني، قال لي بعدها إن الحركة الكردية تتألف من المجرمين والجواسيس الإسرائيليين.

«أُرسلت مجدداً إلى الحفرة. ازددتُ يأساً على يأس. خشي هادي، في فترة غيابي عنه، أن أكون قد قُتلت. وقد شعر بفرح عارم ما إن أُنزلت في الحفرة. سُررت بدوري لرؤية هادي على قيد الحياة، لكني شعرت بالأسف لأنني عدت إلى تلك الحفرة.

«استُجوب هادي أثناء غيابي، وتعرّض للصفع بشدة. شعرت بالأسف لأننا بقينا على قيد الحياة بعد الفظائع التي شهدناها».

تمتم هادي: «آه، فلنشكر الله».

«بقينا في تلك الحفرة خمسة أيام أخرى، شارف رفيقنا في الحفرة خلالها على الموت. أتوا في اليوم السادس ليأخذونا بعيداً. أشكر الله لأن ذلك اليوم كان آخر عهدنا بتلك الحفرة، بالرغم من أن أياماً رهيبة كانت في انتظارنا».

سألت خالتي عائشة : «ماذا حدث لذلك الرجل المسكين الآتي من النجف؟»

قال هادي: «أنزلوا ثلاثة سجناء جدد في الحفرة في الوقت نفسه الذي أخرجونا منها. علمت أن ذلك الرجل المسكين قد ظل هناك لمدة أربعة، أو خمسة أشهر. توقف الرجل عن الكلام، ولم يقوَ على شيء إلا على النهوض قليلاً ليستلم حصته من الخبز والماء، ليسقط بعدها على الأرض ممسكاً بقطعة خبزه. وعلمت أنه فقد السيطرة على أمعائه، ومن المؤكد أن الرجل قد مات».

بدأت الوالدة في الارتجاف بشكل واضح: «ماذا حدث بعد ذلك، يا بني؟».

«أجبرونا على وضع نظارات سوداء لا يُمكن النظر من خلالها. اكتشفت أنني إذا حركت رأسي بوضع معيّن فسأتمكن من رؤية بعض الأماكن الموجودة إلى جانبي. غادرنا سجن

الحفَر، وسارت بنا السيارة خارج بغداد في اتجاه الغرب. لم تستغرق الرحلة أكثر من ساعة. عرفت الاتجاه الذي نسير فيه. وتمنيت أن أكون مخطئاً، لكنني سرعان ما أدركت أن مقصدنا كان سجن أبو غريب. فقدتُ عندها كل أمل بالنجاة».

ارتجفت من فرط الخوف بالرغم من وجودي بين ذراعي خالتي عائشة اللتين تبعثان على الاطمئنان. يعرف جميع العراقيين تاريخ سجن أبو غريب السيئ السمعة. بنى البريطانيون ذلك السجن في العام نفسه تقريباً الذي ولدت فيه، أي في مطلع الستينيات من القرن الماضي. ويُعتبر هذا السجن سلسلة ضخمةً من السجون، وهو بمثابة مدينة مستقلة تتألف من خمسة مجمّعات كبيرة. وقد خصّص في ذلك الوقت للسجناء السياسيين، من أمثال الأكراد الذين يسعون إلى الحصول على حقوق أمتهم، والشيعة الذين يطالبون بالحصول على الحرية الدينية، أو حتى البعض من السنّة الذين لم يكونوا راضين عن الحكم البعثي.

اقترن اسم هذا السجن بالتعذيب والموت منذ زمن بنائه، لكن لم يسبق لأحدنا أن رأى التقسيم الداخلي لهذا السجن... على الأقل ليس قبل إلقاء القبض على رعد وهادي.

وصف رعد ذلك المكان لنا: «سجلوا أسماءنا، ثم وضعونا في مكان يزدحم بالزنزانات. وجدنا في زنزانتنا الجماعية الأكراد، والشيعة، والسنة، وحتى أشخاصاً من غير العراقيين، من اللبنانيين والفلسطينيين. التقينا أيضاً بصحافي إسباني، مضى

على وجوده هناك أكثر من سنة. حُدّدت الزنزانات بقضبان حديدية، وهكذا استطعنا رؤية السجناء في الزنزانات الأخرى، حتى أننا تمكنا من التحدث معهم عندما كان يبتعد الحراس عن مجال السمع. لم تتوفر هناك أي خصوصية. زوّدت الزنزانة بوعاء صغير ليكون مرحاضاً».

ندّت عن هادي ضحكةً مكتومة: «بدت تلك الزنزانة مثل الجنة».

«نعم، أنت على حق. إذا قارنا فظاعتها بمدى فظاعة وجودنا في تلك الحفرة المحفورة في الأرض، فيمكننا القول إنها كانت مثل الجنة، في البداية على الأقل. سمعنا أن السجن يحتوي على قاعة لتناول الطعام، وعلى قاعة مخصصة للتمرين، وحتى على غرفة مخصصة للصلاة، لكننا اكتشفنا أن ذلك كله كان مجرد مزاح. لم يكن السجن نادياً اجتماعياً. ولم يُسمح لأي سجين بالتواجد في هذه الأماكن على حد علمنا.

«أخبرونا بعد وقت قصير أن أمراً، من بين ثلاثة أمور، سيحدث لنا: إما سيُطلق سراحنا، وإما سنقضي عقوبة السجن مدى الحياة، وإما سنُعدم. علمنا أيضاً أن القرار النهائي سيأتي في غضون أيام قليلة.

«اعتبرت تلك الأيام أصعب أيام حياتي المليئة بالعذاب، ولم أعرف ما إذا كنت سأعيش، أم سأموت. لم أعلم ما إذا كنتُ سأرى أي واحد منكم مجدداً».

تطلعتُ نحو هادي. جلست علياء إلى جانبه محتضنةً ابنها

الأصغر، شوان، في حضنها. أما ابنها الأكبر، شاسوار، فجلس إلى جانب أبيه. ألّف الأربعة عائلةً مثالية. جهدت كثيراً لأحبس الدموع التي كادت تنهمر من عينيّ.

«قضينا ما يزيد على سبعة أسابيع في ذلك المكان، ولم نعرف شيئاً عن مصيرنا بالرغم من مشاهدتنا المساجين الموجودين حولنا وهم يؤخَذون كي يتم إعدامهم. أخذوني ذات يوم كي يفحصني طبيب. أجرى ذلك الطبيب فحصاً لطيفاً، وسألني إذا ما كنت أحتاج إلى شيء. سبق لسجناء أن حذروني من أن الأطباء اعتادوا وصف حبوب مسمومة للمساجين، أو إعطاءهم حقناً مميتةً. أخبرته بأنني بخير، ولا أحتاج إلى غير حريتي.

«افترضت أن ذلك الطبيب هو رجل صادق، بالرغم من التحذيرات. قال لي الرجل، «عندما يحضرون السجناء إليّ، فعادة ما يكون ذلك قبل إطلاق سراحهم. يا بنيّ، يتعيّن عليك أن تتذكر شيئاً واحداً: لا تخبر أحداً بالأشياء التي تعرضت لها، أو بالأشياء التي رأيتَها في هذا المكان. لا تُخبر أحداً. إذا تكلمت، فستجد نفسك هنا مجدداً».

«أعادوني إلى الزنزانة. انتابني القلق عندما اكتشفت أنهم أخذوا هادي في غيابي. رحت أتساءل عن المكان الذي أخذوه إليه.

«لم أمتلك وقتاً طويلاً للقلق على هادي. أغلق الحراس باب الزنزانة ورائي، فسارع شركائي فيها إلى مهاجمتي. بدا لي

أنهم فقدوا عقولهم جميعاً، في وقتٍ واحد! أتراهم تلقوا أوامر من سلطات السجن لقتلي!

«دافعت، عبثاً عن نفسي. طرحوني أرضاً، وأجبروني على الاستلقاء على بطني. بدأوا في نزع الجزء العلوي من رداء نومي الذي ارتديته منذ ثلاثة أشهر تقريباً. رحت أصرخ متوسلاً رحمتهم.

«قال لي أحد الرجال المشاركين في مهاجمتي، «اهدأ، اهدأ. إن أخذ سجين إلى الطبيب عادة ما يكون الخطوة التي تسبق إطلاق السراح. إننا نحتفظ بقلم، سراً، هنا خصيصاً لهذه المناسبة. سنكتب الآن أرقام هواتفنا على ظهرك. اطلب من أحد أفراد عائلتك، بعد خروجك من السجن، أن يقوم بنقل الأرقام الموجودة على ظهرك. خذ هذه اللائحة وتوجّه بها إلى هاتف عمومي. اتصّل بالأرقام الموجودة، وقم بإبلاغ أي شخص يرد عليك، أنك كنتَ في القسم المخصص للمعتقلين السياسين في سجن أبو غريب. سيعرفون عندها مصدر الرسالة فعلاً، ولا تقل أي شيء آخر».

شعرت بالفضول، فانسللتُ من بين ذراعَي خالتي عائشة، وذهبت لأقف وراء الكرسي الذي يقف عليه شقيقي. استطعت أن أرى، عندما تطلعت إلى المنطقة الموجودة تحت ياقة قميصه، أثراً على وجود الأرقام المكتوبة بالحبر على ظهره.

قال رعد واعداً: «سينقل سعد هذه الأرقام في ما بعد. سأتصل بعدها بأصحاب الأرقام. إنه أقل شيء يمكنني فعله».

حدّقت بهلعٍ نحو أخي الأكبر الذي أحبّه كثيراً.

رسم رعد ابتسامةً باهتة على شفتيه، وقال: «أنا سعيد جداً لرؤيتك يا جوانا الصغيرة».

احمرّ وجهي خجلاً. لطالما أردت أن أخبر أخي بأشياء كثيرة. أردت أن أخبره عن البومة ذات العينين الذهبيتين، وأنه في اللحظة نفسها التي كان يحدّق فيها في القمر المكتمل، وفي السماء التي تتناثر في جوانبها النجوم. كنت أنا أفعل الشيء نفسه.

انحنيت فوقه، بالرغم من القمل الموجود في شعره، وطبعت قبلة على خدّه. تعمَّدت القيام بذلك قبل أن أجلس لأسمع نهاية قصته المحزنة.

«حدث كل ذلك هذا الصباح. لم يعد هادي إلى زنزانتنا أبداً، وهذا يفسّر عدم استخدام ظهره وسيلةً لإرسال رسالة».

سُررت عند سماعي ضحكةَ هادي، لأن ضحكته كانت دليلاً على عودته إلى الحياة.

قال هادي شارحاً ما حدث: «حدث ذلك لأنهم أخذوني إلى مكان عملي. قال أولئك الحراس إنه يتعيّن علينا أخذ ضمانة من شركة عراقية تفيد أنها ستوظفني إذا ما أُطلق سراحي».

حرّك هادي رأسه إلى الأمام وإلى الخلف قبل أن يتابع: «يا ليتكِ رأيت وجوه أرباب عملي عندما دخلت مكتبهم. غبت عن

عملي، لأعود وأظهر محاطاً بحراس مدججين بالسلاح، مرتدياً ثياب نوم ممزقة، ولأكون مصدراً للرائحة الكريهة المنبعثة من جسمي غير المغتسل. وقّعوا على ورقة الضمانة، وأبلغوني أنه يمكنني أن أعود إلى عملي بأسرع وقت ممكن».

«فليتمجد اسم الله».

راحت والدتي تتمتم بصورة عفوية، لأنها تعرف أن كثيراً من الشركات ترفض أن يعود سجين سابق إلى مكان عمله.

بدا رعد في عجلة من أمره ليُنهي قصته: «رمانا الحراس، أنا وهادي، قبل عدة ساعات إلى خارج البوابة الأمامية للسجن. تحقق أخيراً حلمنا بالخروج إلى الحرية. أُطلق سراحنا أخيراً».

أصدر أخي صوتاً بأصابعه: «هكذا».

تنحنح رعد ليُريح حنجرته: «وقفنا هناك. ظهرنا كأننا رجلان مجنونان بلحيتين كثتين وشعر طويل، يتعثران في الشوارع وقد غلبنا التعب، والجوع، وارتجفنا نتيجة ضوء الشمس الذي كاد يعمينا.

«لم تتوقف أي سيارة أجرة عند إعطائنا الإشارة. في الواقع ابتعدت السيارات عنا عندما رآنا سائقوها. توقف سائق سيارة أجرة آخر الأمر. لاحظنا أنه متقدم قليلاً في السن. أخبرناه أنهم اعتقلونا عن طريق الخطأ. صدّقنا الرجلُ لأن ابنه تعرّض للاعتقال غير المبرر في السنة الفائتة، وعانى طويلاً بسببه. قال إن قلبه الرقيق لم يسمح له بأن يتركنا في الطريق».

رفع رعد راحتَي يديه بوجهنا، ثم أطبقهما: «هذا هو كل شيء. لقد نجونا».

تنافست والدتي، وعلياء، وخالتي عائشة، وعدة خالات أخريات، على دفع أكواب الشاي والعصير إلى يدي رعد وهادي. عاد رَجلانا إلى منزليهما. عادا سالمَين إلى المكان الذي ينتميان إليه. اعتبرنا أن ذلك هو أهم شيء لنا. كان كافياً أن يعودا. لم نفكر للحظة كيف عادا. المهم أنهما بيننا الآن.

بدأ الاحتفال برجوعهما عندها.

تزايدت ضربات قلبي منذ تلك اللحظة، وامتلأ بالحيوية والأمل في أن يكون ذلك نهاية متاعبنا. دُهشت مع ذلك لأن رعد وهادي جلسا بهدوء، وبدت عيونهما متعبة جداً. أيقنت عندها أنهما غير قادرَين، على ما يبدو، على مشاركتنا فرحة هذا الاحتفال.

عدت بأفكاري إلى الوراء. أعتقد أن شقيقي وهادي قد نظرا إلى الهاوية، وشاهدا هناك مستقبل العراق، ومستقبلنا. مثّلت تلك الحادثة المرعبة البداية، ولم تكن أبداً النهاية. لقد بدأت متاعبنا للتو.

الجزء الثاني

مرحلة الصبا

(٦)

الموت

بغداد: تشرين الأول، ١٩٧٦

لن تبارح تفكيري ما حييت، حتى لو عشت مئة سنة، الذكريات التي رواها رعد وهادي عن نجاتهما المحفوفة بالمخاطر من بين يدي النظام البعثي.

تابع رعد دراسته الجامعية بعد أن استعاد صحته، لكنه أُجبر على الخضوع لإجراءات أمنية مذلة كل ستة أسابيع. اعتاد رعد التردد على المكاتب الأمنية للإجابة عن أسئلة، وكتابة تقارير تفيد أنه توقف عن «ارتكاب تصرفات إجرامية بحق الدولة». لم يخبرنا رعد ما إذا كان قد استمر بالمشاركة في نشاطات «اتحاد الطلبة الأكراد».

شعر شقيقي بالإهانة لمعاملته كمجرم، وهو الذي كان مثال الالتزام بالقوانين.

حال رعد لم تكن أفضل من حال هادي. فقد خيّم القلق الذي شعرت به علياء على سلامة هادي مثل غمامة ضبابية على منزلها. صحيح أن هادي عاد إلى العمل، لكنه بدا شاحباً

ومنكمشاً على نفسه، وظهر التغضّن على ملامحه. أبلغت علياء والدتي في أحد الأيام، والدموع تنهمر من عينيها، أن الكوابيس التي يتعرض لها هادي تعيده إلى الحفرة ـ السجن، وأن هذه الكوابيس تتسبب له في أذى كبير في كل ليلة. لاحظت شقيقتي أيضاً أن الذعر سيطر على ولديها شاسوار، وشوان، بشكل دائم، بحيث إن الصبيين الصغيرين، اللذين عاشا حياة لهو في الفترة الماضية، سيطر عليهما الخوف، وأصبحا يبكيان أكثر مما يضحكان. أما الأمر الوحيد المفرح هذه الأيام فكان أن علياء حامل، وهي تنتظر مولودها الثالث قريباً.

مؤلم أن يشاهد المرء العذاب الذي تشعر به مني. صُدمت شقيقتي الحسّاسة بمأساة أخيها. اعتادت أن تنكمش على نفسها، وأن تكوّر جسدها الصغير ليصبح مثل طابةٍ مشدودة.

أما سعد، فقد وُلد وعاش متديناً منذ ولادته، لكنه أصبح أكثر تديناً والتزاماً منذ قصة اعتقال رعد، ولم يعد يفوّت صلاةً واحدة. أصبح التدين ملاذه الأوحد. أصر سعد على اصطحاب ولدَي علياء معه إلى المسجد في بعض الأحيان، بالرغم من صغر سنيّ عمرهما، فالأكبر في السادسة، أما الثاني فهو في الرابعة. لم يكن يسمح لهما بالخلود إلى الهدوء أثناء تأدية الصلوات.

اعتقدت وقتها أن سعد هو في طريقه ليصبح رجل دين.

بدا أن اتخاذ شقيقي مثل هذا القرار سيجلب الفرح لوالدتي، لكنني سأستقبل قراره هذا بحماسة أقل. ويعود ذلك إلى أن حماسة شقيقي الدينية ستشجعه على اتباع سلوك أكثر تسلطاً

معي. لم أشعر بأنني أرغب في سلطة قمعية في البيت، شبيهة بسلطة قمعية من قبل النظام، ولا أحتاج إلى وصيّ على أخلاقي.

حاولت والدتي جاهدةً المحافظة على سلوكٍ هادئ، لكني أعلم أنها أُصيبت في الصميم. لاحظت وجود شبكة جديدة من الخطوط التي تدل على القلق، أحاطت حديثاً بعينيها وفمها. ألقت الحياة المتكدرة في ظل بغداد البعثية بثقلها على أمي الجميلة التي بدأت تتقدم في السن. لم تتردد والدتي عن الاستمرار في دعمها للقضية الكردية، بالرغم من مناشدة رعد لها ألّا تفعل ذلك.

ارتحت كثيراً لأنني أعددت خططي للمستقبل. صممت عندما أكبر على أن أنضم إلى دعاة القضية الكردية. لن يستطيع أي شخص أن يوقفني. حذّرتنا أمي من أننا دخلنا مرحلة جديدة، وأكثر خطورة، في تاريخنا الكردي. كانت ملامح هذه المرحلة الخطيرة علينا، كأكراد، وجود هؤلاء البعثيين في السلطة. قالت إن كل واحد من أولادها يجب أن يكون خفيراً، وأن يراقب كل كلمة يكتبها أو يتفوّه بها، وأن يكون حذراً في كل تصرّف يقوم به. وعدتُ والدتي بأنه عندما أشب وأنضج سأنضم إلى حزب سياسي كردي، لكني وعدتها بأن أكون حذرةً.

بقي والدي بعيداً عن كمّ القلق الهائل الذي شعرنا به جميعاً. واستطاعت والدتي، بفضل لغة الإشارات التي أتقنتها خلال سنين عديدة من زواجها به، أن تقنع والدي بأن لصوصاً

قد نزعوا باب مدخل منزلنا، لكنهم هربوا عندما رأوا أخي سعد مسلحاً بسكين حادة. أسرع والدي، الذي يُعتبر بنّاءً وحرفياً ماهراً، في تركيب باب خشبي قوي مزوّدٍ بأقفال قوية وفريدة من نوعها. لم يسبق لي أن رأيت مثل هذا الباب. تستطيع دبابة عسكرية أن تكسر هذا الباب، ربما، لكن قدماً بشرية لن تفلح في كسره أبداً، مهما فعلت.

أستطيع أن أؤكد أن الحياة لم تعد كما كانت في الماضي. اعتدت، عند ظهور سيارةٍ غريبة خارج منزلنا، أن أسارع إلى أن أتطلع من خلال الستائر، وأن أتحضّر لإطلاق صرخة تحذيرية للجميع كي يتراجعوا إلى الحديقة الخلفية، وحتى كي يعبروا السياج طلباً للسلامة. وصل الأمر بي حتى إلى التمرن على الركض السريع. شعرت بالفخر لأنني تمكنت من إطلاق إنذار، وتناول حقيبة الطوارئ الخاصة بي، والمليئة باللوازم الضرورية، وهي الحقيبة التي تعمّدت إخفاءها تحت طاولة مغطاة موجودة في غرفة رعد، والوصول بعد ذلك كله إلى سور الحديقة.

تمرنت على هذه الإجراءات يومياً. شاهدت والدتي وأشقائي وشقيقاتي يتبادلون الابتسامات، كأنهم اعتبروني أمارس لعبة أطفال، لكنني كنت متيقنة من أن مثل هذه التحضيرات قد تنقذ حياتنا في يومٍ من الأيام.

دُهشت عندما سمعت أمي تقول ذات يوم، إن كثيرين من أبناء شعبنا يدعمون الرئيس البعثي أحمد حسن البكر، ويدعمون نائبه صدّام حسين، الذي يعرفه العراقيون بلقب «السيد نائب الرئيس». أفترض أن «السيد نائب الرئيس» هو الذي يُمسك

بالسلطة الحقيقية في العراق هذه الأيام، لكن والدتي سخرت من فكرة وجود فرقٍ بين الرجلين، وقالت إن الأمر سيّان عندما يعطي أحدهم البَيْض، ويقوم الآخر بتفقيسه.

يدَّعي بعض الأشخاص أن الأوضاع في البلاد لم تكن أفضل مما هي الآن، واستشهدوا بالقوانين الحكومية الجديدة التي تضمن حقوق المرأة. كما أقرت الحكومة قانوناً جديداً دُعيَ الحملة الوطنية للقضاء على الأمية، وهو القانون الذي ألزمَ كل العراقيين أن يكونوا متعلمين. ووجد القرويون المسنون، الذين لم يدخلوا مدرسةً في يوم من الأيام، أنفسهم مجبرين على الالتحاق بصفوف القراءة. لا يشك المرء في أن مثل هذه الإصلاحات الاجتماعية تُعتبر مفيدة، لكن الجو القمعي والخوف من الاعتقال والتعرّض للتعذيب، جعلت معظم المواطنين العراقيين يتخذون موقفاً معادياً من البعثيين.

احتفلت في العام ١٩٧٦ بعيد ميلادي الرابع عشر. شعرت بأنني أصبحت فتاةً كبيرة. ارتحلنا شمالاً في صيف ذلك العام، لكنني سُررت بعودتي إلى المدرسة في شهر أيلول. جاء الشهر التالي، أي تشرين الأول، فأحسست بأن العائلة قد تتخطى أخيراً الرعب الذي عانته نتيجة سجن رعد، لكن الموت كان لنا بالمرصاد.

صُعقت بأشد ما يكون عليه الألم، في اللحظة التي سمعت الخبر فيها. جاء رد فعلي الأول، لسبب لا أعلمه، بانتزاع حذائي ورميه في الهواء. واجهت وجوهاً مصدومة نتيجة فعلي

هذا، لكني لم آبه. لم تتأخر خطوتي التالية بتمزيق أوراقي المدرسية ورميها في الهواء. سمعت بعدها صرخات تنمّ عن الألم. تساءلت عن مصدر هذه الصرخات، ولم أنتبه إلى كونها صرخاتي أنا. بدأت أبكي، وعدوت نحو المنزل، ثم رحت أتنقل ركضاً من غرفة إلى غرفة، وبدأت أقلب الكراسي، والطاولات الصغيرة. عدوت بأقصى سرعتي في المطبخ، ثم اندفعت من خلال الباب الخلفي، وتابعت طريقي بسرعة إلى الحديقة. رحت أصرخ في وجوه الجيران الذين قلقوا، وأتوا مسرعين ليستفسروا عما حدث من فوق سُور الحديقة. سألوني عن المشكلة، ونادوا أحد الأشخاص كي يتصل بالشرطة ليُخبرها أن مذبحة قد حدثت في منزل العسكري. لم أهتم لذلك!

أخفيت نفسي وراء إحدى أكبر أشجار النخيل الموجودة في حديقتنا. استندت إلى الجذع الشائك لتلك النخلة القديمة، ورحت ألطم جبهتي براحتَي يديّ المفتوحتين. لم أصدق، عندما تطلعت نحو سماء بغداد الزرقاء من خلال أغصان النخلة، أن كل شيء بدا كما كان في اليوم السابق، وأن الأرض ما زالت تدور حول الشمس، وأن الشمس لا تزال ترسل أنوارها المتألقة برغم بعض الغيوم البيضاء التي تمرّ أمام صفحتها. أريد أن تكتسي السماء، والشمس، والغيوم، باللون الأسود حداداً.

انزلق ظهري ببطء على جذع الشجرة قبل أن أنهار إلى التراب. رحت أتقلّب على الأرض وسط حزني الشديد، وشعرت بانسحاق حبيبات الرمل وهي تدخل مسام وجهي، لكني لم أكترث!

اقتربت حبيبات الرمل المتناثرة من شفتيّ عندما رحت أتلفّظ بكلمات لا تصدّق بصوت مختنق: «أبي! أبي! أبي!».

تعرض والدي لانهيار مفاجئ في مكاتب سكة الحديد قبل عشرة أيام، ونُقل إلى المستشفى على وجه السرعة. أسرعت أنا، ووالدتي، وسعد، ومنى، لحظة معرفتنا بالخبر، واستقلَلْنا سيارة أجرة نقلتنا بسرعة عبر شوارع المدينة. توجهنا إلى مستشفى النعمان، في الأعظمية. دأبت أمي على التحديق أمامها مباشرة، وراحت تصلي، بينما بدا سعد كئيباً وساكناً، أما منى فكانت شاحبة ومرتجفة. أصبتُ أنا بحالة ذهول ساحقة. رغبتُ في أن أبكي من دون أن أستطيع ذرف دمعةٍ واحدة.

وجدنا علياء في استقبالنا، بالرغم من أنها وضعت قبل أسابيع قليلة فقط طفلها الثالث، أسمته شازاد. لم يسبق لي أن رأيت شقيقتي في مثل هذه الحالة من الذهول والحزن، حتى عندما أُلقي القبض على هادي.

قادتنا الممرضة إلى غرفة والدي. رأينا ملامح وجهه المشدودة بسبب الألم، ورأيت جهةً من فمه متدلية وحزينة. بدا عليه القنوط عندما فشل في تحريك جسده المشلول، ولو قليلاً.

انكشف أمامي فجأة جانب جديد ومريع من الحياة. أدركت أن والديّ قد يصابان بالمرض، أو يموتان، ويتركانني. اقتربت لأمسك بيد والدي، لكن والدتي جذبتني بعيداً، وقالت لي «افعلي ذلك في ما بعد يا جوانا... في ما بعد». حاولت بعد

ذلك أن أجعل أبي يراني، لكن الألم الكبير الذي كان يشعر به، منعه من أن يلاحظ وجودي.

شعرت بالانكسار، فوقفت إلى جانب أمي، ورحنا ننتظر بلهفة وصول الطبيب. استمعنا أثناء الانتظار إلى أصوات الأطفال المتعبين الذين تصاعدت أصواتهم من رواق المستشفى القريب. ظهر أخيراً طبيب قصير القامة، لكنه قوي البنية ويتميز بفكين بارزين.

فكّرت بيني وبين نفسي في أن أبي سيعيش كما طمأننا الأطباء. علمنا في اللحظة التالية الأنباء المرعبة عن إصابته بسكتة دماغية خطيرة، وأن دماغه أصبح مشوشاً، وأنه لربما يعاني آلاماً مبرحة.

أقنعت نفسي بأنني سأمضي إلى جانبه كل دقيقة فراغ عندي إذا ما عاش، وسألبي كل احتياجاته. بقيت والدتي إلى جانب أبي، لكن طُلب من سعد، ومنى، ومني، أن نذهب إلى المنزل. علمنا أن خالتي عائشة ستغادر السليمانية قريباً لتعيش معنا.

لم أتمكن قط من الحَصول على الراحة التي يعطيني إياها توجيه كلمات وداع إلى أبي قبل أن أتركه، وتوجيه رسالة أبوح له فيها عن مدى حبي له، لكني قبّلت يديه ووجهه، وربّتُّ على كتفه. غادرت المستشفى وأنا أحمل اعتقاداً ساذجاً بأنه سرعان ما سيعود كل شيء إلى طبيعته.

علمت في ما بعد أن الطبيب لم يخبرنا الحقيقة، لأنه علم أن أبي لن يشفى من حالته.

اعتاد الأطباء في تلك الأيام، على الأقل في العراق، على عدم كشف الحقائق المحزنة عن مرضاهم.

كانت تلك الليلة التي أمضيتها في المستشفى هي آخر مرة أرى فيها أبي.

دُهشت أثناء عودتي مسرعةً من المدرسة، بعد مضي عشرة أيام، عندما رأيت الوجوه الحزينة لجمهرة كبيرة من أقربائنا مجتمعة في منزلنا، فتباطأت خطواتي. أوحى لي قلبي أن لهذا الحشد المتجمع علاقة بمرض والدي. أدركت عندها أن شيئاً لن يعود كما كان.

تعمدت تجنب سماع الأخبار التي أعرف جيداً أنها تنتظرني، وفكّرت في الانزواء في منزل إحدى صديقاتي، لكن أحد أقربائي رآني وركض نحوي، وأخذ يناديني تكراراً: «جوانا! جوانا! جوانا!».

رأيت الدموع التي سالت من عينيه، ثم رفعني عن الأرض، وحملني إلى غرفتي ووضعني بلطف على السرير، وقام بتغطيتي بحِرام.

ساد في المكان ضجيج يصم الآذان. الجميع كانوا يتكلمون في وقت واحد، وقدّم كل واحد نصيحته بشأن ما يجدر بي القيام به. اعتبروني فتاة كسيرة القلب، تذرف الدموع كي تستطيع

رؤية والدها مرة أخرى. طلبت رؤية والدتي، لكنها كانت لا تزال في المستشفى الذي توفي فيه والدي. اعتزمت أمي التوجه من هناك مع أشقائي إلى الضريح لمتابعة إجراءات الجنازة التي ستجري في اليوم التالي، لأنه من الواجب دفن الموتى في الإسلام في غضون أربع وعشرين ساعة من وفاتهم. لهذا السبب، لم أتأكد من الوقت الذي ستعود فيه والدتي إلى المنزل.

وصلت خالتي عائشة من السليمانية، وهرعت لتكون إلى جانبي. إنها الوحيدة التي في إمكانها مواساتي. طلبت خالتي من الجميع مغادرة غرفتي.

أجل، أريد أن أبقى وحدي مع ذكرياتي التي أحتفظ بها عن والدي.

لم يستطع والدي أن يخبرني أي شيء عن حياته بسبب الصمم والبكم اللذين عانى بسببهما، لكني علمت أشياء كثيرة عنه من والدتي، ورعد، وعلياء، وأقربائنا الأكبر سناً الذين عرفوه منذ ولادته. أعادته أفكاري هذه إلى الحياة، ولو في ذهني فقط.

تمتع والدي، بشكلٍ مختلف عنا، بطفولة مميزة. تمتعت عائلة العسكري بنفوذٍ كبير في العام ١٩١٤، وهي السنة التي وُلد فيها والدي. انحازت العائلة في ما بعد، شخصياً وسياسياً، إلى جانب العائلة المالكة العراقية، وهي العائلة التي حكمت البلاد منذ نهاية الحرب العالمية الأولى وحتى ثورة العام ١٩٥٨.

نشأ والدي في منزل كبير يقع في منطقة العويطة في بغداد. ظلّلت أشجار النخيل العراقي التي تتمايل بغصونها تلك الفيلا الرائعة. اعتاد أن يمضي، برفقة أخيه الأصغر عثمان، ساعات طويلة من الاسترخاء على ضفاف نهر دجلة، الذي سرحت فيه أحلام الرجال منذ انبلاج فجر الحضارة. شاهدا هناك الزورق النهري الذي يتهادى فوق مياه النهر، وعلى متنه شابان يحلمان بقدوم الأيام التي ستشهد احتلالهما المركز الذي يستأهلانه في المجتمع البغدادي. انتهت أحلام والدي عندما أصبح في عمر السابعة فقط.

لم تتأخر أولى علامات المتاعب في الظهور. شعر ذات يوم بألم مبرح في حنجرته، بحيث وجد صعوبة كبيرة بالبلع. اجتاحته بعد ذلك حرارة شديدة. لاحظ جداي طفحاً أحمر انتشر في رقبته وصدره. قيل حينها إن جلده الأحمر والمتموج قد أصبح بمثل خشونة ورقة زجاج، وإن لسانه تورم واحمرَّ. تكرّرت حالات الغياب عن الوعي والصحو عند أبي. تعافى من حالته هذه، لكن عندما تقدّم والداه منه لمعاينة حالته، فاجأهما بصراخه «لا أستطيع سماعكما!».

أصيب والدي بالصمم على نحو مفاجئ. وبالرغم من ذلك لم يفقد قدرته على الكلام، ثم بدأ في البكاء بصمت. تصاعد زخم صرخاته حتى ترددت أصوات اليأس في أرجاء المنزل. أمسك والده الحنون، وهو الرجل العملاق ببنيته الجسدية، بيديه الصغيرتين، وأخذ يبكي معه، بينما وقفت والدته ساكنة وصامتة.

بدت كأنها تمثال خشبي، واسودّت عيناها البنيتان، وابيّض أكثر لون بشرتها.

تمتع جداي بالثروة، لهذا تمكنا من استشارة كل طبيب اختصاصي في بغداد. إلا أن أياً من أطباء بغداد والعراق، لم يقدم أي أمل لشفاء ولدهما.

ازداد حزن والدي عندما بدأ بفقدان قدرته على النطق بشكلٍ صحيح. يُذكر أنه عندما يصاب الأطفال بالصمم فإنهم يفقدون عادة قدرتهم على التكلم أيضاً. شعر والدي بالخجل من عجزه عن الكلام والسمع، إلى درجة أنه فرض العزلة على نفسه.

لم تكن تتواجد في العراق أي تجهيزات لمعالجة مشاكل والدي الصحية في العام ١٩٢١، أي في العام الذي ابتلي فيه بمرضه. لقي معظم الأطفال الذين أصيبوا بحالات مماثلة الإهمال، وكانوا يُعزلون في أماكن خاصة في المنزل، ويلقون التجاهل من بقية أفراد الأسرة. كان يُنظر إلى الطفل المعاق باعتباره عاراً، وعبئاً، حتى من قبل أقرب الناس إليه: عائلته وأهله.

نعِمَ والدي بحظ أوفر من معظم هؤلاء الأطفال، فأسرته كانت غنية، وتوفَّرَ لأفرادها نصيب من التعليم العالي. دخل عامل أكثر أهمية لصالحه، وهو أنه كان ابن شقيق جعفر باشا العسكري، الذي حظيَ بشهرة كبيرة، والذي أثارت عبقريته العسكرية الكثير من الإعجاب، وما لبث أن أصبح دبلوماسياً ناشئاً، وكان بالإضافة إلى ذلك صديقاً كبيراً للأوروبيين

والعراقيين. لم أعرف عمي جعفر مطلقاً، لأنه توفي قبل ست وعشرين سنة من ولادتي، لكني أعرف الحقيقة الثابتة بكونه شخصاً غير عادي.

أعلن جعفر باشا أن ابن أخيه المعاق يجب أن يأخذ قسطه من العلم، وأن يتدرب على إتقان مهنة منتجة، وهكذا جرى ترتيب مستقبل والدي بطريقة عجائبية.

أُرسل والدي إلى مدرسة خاصة للصم والبكم في فرنسا عندما بلغ الحادية عشرة من عمره. نجحَ هناك، وأصبح نحاتاً ماهراً للخشب، كما حصل على درجة جامعية في الهندسة. شعر والدي بارتياح كبير في فرنسا، إلى درجةٍ جعلته يبقى فيها اثنتي عشرة سنة. وما لبث أن عاد بكثير من التردد، بناءً على طلب أسرته، وعندما تعرض عمه جعفر باشا للاغتيال في العام ١٩٣٦.

جاء اغتيال عمه ليكون أول حلقة من ضمن سلسلة طويلة من النكبات العائلية التي حلّت به. مرّت ستة أشهر على موت جعفر باشا قبل أن يُقدم جدي لأبي، علي رضا، على الانتحار يوم الثاني والعشرين من آذار في العام ١٩٣٧. أطلق جدي النار على رأسه على إثر نوبة من نوبات اكتئابه بسبب اغتيال أخيه جعفر باشا.

شكّل موت جدي صدمةً فظيعة لكل فرد من أفراد الأسرة، ولوالدي بشكل خاص. وحدثت في يوم الرابع عشر من تموز في العام ١٩٥٨، الانتكاسة المأساوية الثانية التي عكّرت صفو

سعادة والدي، عندما تعرضت الأسرة الملكية الحاكمة في العراق لمذبحة. تعرّض يومها معمل والدي لصنع المفروشات، الذي عرف ازدهاراً كبيراً، للتدمير في غمرة الفوضى التي عمت البلاد في ذلك العام. وقد كُتب على والدي أن يبقى فقيراً إلى الأبد بعد تدمير مصنعه.

عاد أبي من المستشفى إلى المنزل في صباح اليوم التالي، لكنه لم يكن في الوضع الذي تمنيته أو تخيلته. عاد إلينا في تابوت خشبي وُضع في وسط غرفة المعيشة.

غصّ منزلنا بأقربائنا، وأصدقائنا، ومعارفنا المحزونين. كان والدي، برغم فقره، رجلاً مرموقاً، وموضع احترام. لم أستطِع أن أفكّر في غير التابوت الموجود أمامي. لم يكن وجه والدي ظاهراً، لأن التابوت كان مغلقاً، لكن مخيلتني أخذتني لأكون معه.

لم أحتمل فكرة أن يتواجد والدي، ذلك الرجل الرياضي، في ذلك الصندوق الصغير. رفضت أن أبتعد عنه، وهكذا بقيت بقربه. بدا كل شيء ضبابياً في عينيّ. استطعت رؤية وجوه الذين جاؤوا لتعزيتي، ولاحظت حركات شفاه المعزين الذين عبّروا عن حزنهم، لكن من دون أن أسمع ما قالوه بالتحديد.

لم تجد علياء عزاءً لها. انهارت شقيقتي تماماً عندما رأت ذلك الصندوق الخشبي. ألقت نفسها فوقه، وانخرطت بالبكاء، وتوسلت أن يعود أبوها إليها. اضطر هادي وسعد إلى التعاون

كي يبعداها عن التابوت. أسرعت والدتي، وتبعتها بعض خالاتي، لمواساة علياء المحزونة.

أما أنا فبقيت إلى جانب والدي. اقتربت أكثر وأنا أحدّق في ذلك الصندوق الصغير، ورحت أهمس بصوت خافت، «أبي»، راجيةً إياه أن يعود إلى الحياة، وأن يعود ويفتح عينيه، وينزل من تابوته ليدفعه بعيداً، وليستخدم ذراعيه القويتين كي يرفع غطاءه من فوقه ويبعده عنه، وأن ينظر في اتجاهي، ويبتسم في وجهي، ويفتح ذراعيه ليحتضنني.

لكنه لم يفعل أمراً واحداً من جميع ما تمنيت، وبقي في ذلك الصندوق الصغير.

بقيت في غرفة المعيشة حتى وصل الرجال المكلفون حمل التابوت، وأخذ والدي إلى مقبرة الشيخ معروف الكرخي.

لا تحضر النساء في بلدي طقوس الدفن الفعلية، لكننا نستطيع زيارة المقبرة لاحقاً. أعرف ماذا سيحصل بالرغم من عدم وجودي هناك. يصل الرجال إلى المقبرة، ويُنزلون والدي إلى حفرة في الأرض، ثم يقومون بتغطيته بالتراب.

تبعت الموكب إلى الشارع، بالرغم من معارضة خالاتي، وراقبت التابوت حتى غاب والدي عن ناظريّ. غاب والدي الحبيب، هكذا، بكل بساطة، ولن يعود أبداً.

(٧)

والدتي ووالدي

بغداد: تشرين الأول ـ تشرين الثاني، ١٩٧٦

امتلأ قلب والدي الحنون بالغنى، لكنه مات فقيراً.

ساد الاضطراب منزلنا نتيجة خشيتنا من المستقبل الذي ينتظرنا بعد موته. اشتدت حاجتنا الماسة إلى المال بعد مرور وقت قليل على الجنازة، إلى حدّ أن والدتي، وعلياء، وخالتي عائشة، فتشن في ملابس والدي بحثاً عن المال. لم يجدن أكثر من ستين ديناراً عراقياً فقط. أما أنا فاعتبرت أنهن وجدن أشياء أكثر أهمية كان يعطيها والدي قيمةً كبيرة. عثرن على رزمة من الصور المحببة تمثل طفولته، ويظهر فيها والداه، وعدد من الأقرباء المتوفين. احتفظ أبي بهذه الصور ولفّها بعناية بمناديل ورقية متجعدة. لاحظت أنه احتفظ تحت رزمة الصور برسائل قصيرة كتبها أولاده له على مدى سنين طويلة. كانت كتابة الرسائل القصيرة هي وسيلتنا الوحيدة للتواصل معه، لأنه لم يستطع أن يسمع، ولا أن يتكلم.

لن يكفينا مبلغ الستين ديناراً سوى أسابيع قليلة. فكّرت بحزن في والدتي التي عليها أن تتكفل بالمصاريف المدرسية

لأربعة أولاد. وفكّرت في شقيقتي علياء، المتزوجة الوحيدة في أسرتنا، التي ما عادت تهتم بشؤون والدتي. خيّمت علينا المشاكل المادية، ولهذا السبب حثّ أقرباؤنا الأكراد أمي على العودة إلى منزل طفولتها في كردستان، وهكذا سنتمكن من الاستفادة من عائلتنا الكبيرة، والمحبّة، التي تقيم هناك.

ضغطت على والدتي كي تذهب إلى كردستان، وهو أمر متوقع مني، لكن لم يأخذ أحد برأيي بسبب صغر سني.

سمعت علياء توسلاتي، لكنها حذّرتني من الضغط في اتجاه مثل هذه الخطوة، وقالت إن حياتنا ستكون مختلفة تماماً في الشمال. أخبرتني بأن البعثيين أصبحوا أكثر وحشية مع الأكراد في كردستان. وقالت إن العنف يتزايد في بلادنا الممزقة، وكل ذلك بسبب الغارات التي تقوم بها الحكومة، والحصارات، وقتل الكثير من الأكراد الأبرياء.

وجدت أنه لديّ الكثير جداً من الأمور لأفكر فيها. اكتشفت فجأة أنه ما من شيء سهل في حياة البالغين.

خشيَت أمي أن تأمرنا الحكومة بإخلاء منزلنا، لأننا كنا نعيش في منزل تعود ملكيته إلى هيئة السكك الحديدية، التي سمحت لوالدي بالسكن فيه طوال وجوده في الخدمة.

عاشت أسرتي قبل الثورة في منزل رائع وكبير يقع في منطقة السليلية، لكنها خسرت كل شيء في أعقاب الثورة التي حدثت في العام ١٩٥٨. خسرت العائلة منزلها ومصنع المفروشات الحديث الذي يمتلكه والدي. لكن الأسرة لقيت بعض الحظ

عندما عُيّن والدي مهندساً ميكانيكياً في سكة حديد العراق. كان المنزل جزءاً من المميزات التي خُصّصت له في ذلك الحي المتواضع، حيث نشأتُ.

لم تتوفر لنا أيٌّ خصوصية في حياتنا العائلية التي تتميز بكثرة أفرادها، لكنني استمتعت بالعيش في ذلك المنزل المزدحم، والمتواضع، ذي اللون الأصفر والقرميدي، والذي لا يحتوي على أكثر من طبقة واحدة. بنى موظفون رسميون لدى الدولة هذا المنزل في سنيّ الأربعينيات من القرن الماضي. وقد عرفت أن الكثير من البريطانيين الذين لم يدمروا منزلنا، عاشوا في العراق خلال الأعوام التي حكموا فيها البلاد عن طريق حليفهم الملك فيصل.

امتلك البريطانيون عندما رحلوا أخيراً ما يكفي من التبصر، بحيث تركوا بيتنا المؤلف من طابق واحد، الذي تمتد أمامه حديقة مسيّجة بأجمات الياسمين، تنشر رائحة تشبه رائحة أزهار الحامض، في المنطقة بكاملها، عند إيناعها. تتواجد شرفة أمامية صغيرة يمكن الدخول منها إلى غرفة الجلوس، التي تتناثر الأرائك فيها أمام الجدران. كما تتواجد ثلاث غرف نوم، وحمام واحد، في المنزل. ويوجد في المنزل بيت درج ضيِّق يؤدي إلى السطح، وهو المكان الذي لا غنى عنه للعراقيين والأكراد الذين اعتادوا استخدامه للنوم خلال أشهر الصيف الحارة. اعتادت والدتي أن تطبخ معظم الوجبات التي تعدها في مطبخ صغير مجاور للغرفة المفضلة عند الأسرة، وهي شرفة

كبيرة مجهزة بثلاث طاولات كبيرة، والكثير من الكراسي. لكن الميزة الأهم لمنزلنا هي وجوده وسط حديقة تضم أشجاراً ارتفعت بحيث كانت تحجب الأشعة الحارة لشمس بغداد.

قلقنا كثيراً لإمكانية طردنا، ولهذا السبب سُررنا لتلك المفاجأة المدهشة عندما أبلغنا موظفون حكوميون أننا نستطيع الاستمرار في العيش في المنزل طوال حياة والدتي، وأنها ستحصل على معاش تقاعد متواضع من شركة سكة الحديد. أدركت أننا سنحصل على ما يكفي من المال الذي يؤمن لنا المأكل والملبس. سيتخرج رعد في غضون أعوام قليلة من الجامعة، وسيتولى مسؤولية أسرتنا بصفته الابن الأكبر لوالدي. أدركت فجأة أن مستقبلنا سيكون أقل كآبة.

قررت والدتي في خضم كل هذه الأنباء الطيبة أن نبقى في بغداد.

بقي أقاربنا الأكراد معنا بضعة أيام بعد الجنازة. تحلقت النساء الموجودات في منزلنا، بحزن، ذات ليلة في الشرفة الخلفية. بدت شقيقة والدي، فاطمة، مرحة على غير عادتها، فانطلقت تمازح والدتي قائلة: «كافية، حان الوقت لتتوقفي عن البكاء، وأن تعيشي حياتك!».

ذُهلت لهذا النوع من الكلام لأنني لم أستطِع أن أتخيّل أنه في استطاعتي أن أحس ببهجة الحياة في ذلك الوقت، أو في المستقبل. أحسست بجرحٍ كبير في قلبي الفتيّ، الذي أصبح يتيماً، ومن دون أب.

رسمت عمّتي ابتسامة خبيثة على وجهها المستدير، وشعّت عيناها البنيّتان عندما اقتربت من والدتي وسألتْ: «كافية، هل سبق لك أن أخبرتِ بناتك كم كان زوجك يحبك؟».

تحركتْ والدتي بانزعاج في مقعدها، وعبست في وجه شقيقة زوجها، لكنها رفضت أن ترد على سؤالها غير الملائم.

امتلكت والدتي الكثير من المزايا الاستثنائية، فهي كانت أماً غير أنانية، وزوجةً مخلصة، ومسلمةً تقيةً، وطباخة بارعة. وبلغ ترحيبها بالزوار حداً جعل معه منزلنا يمتلئ على الدوام بزوارنا من الأقارب. كان هؤلاء يفضلون التواجد في منزلنا على التواجد في منازلهم.

أظهر أخوتي افتخارهم بمزاياها الأخرى أيضاً، فهي كانت مثالاً للجمال الملكي، وتتميز ببشرة بيضاء، وعيناها داكنتان تشعان بالحيوية. تميّزت بطولها، وبشعرها الأسود اللامع، الذي كان محط حسد شقيقاتها وبناتها. حتى أن يديها كانتا رائعتين بأصابعهما النحيلة، وأظافرهما المقلّمة بعناية.

لم أتفاجأ لأنها كسبت إعجاب زوجها، بالرغم من أن زواجهما كان مدبراً.

تطلعت عمتي فاطمة إلى الدائرة الكبيرة للنساء المتحلقات، وقالت: «كان محمد مفتوناً بكافية إلى درجة أنه ألقى بنفسه ذات مرة تحت دواليب باص!».

شعرتُ بالإثارة، فأنا لم أسمع هذه القصة من قبل.

تطلعت والدتي نحو علياء، ومنى، ونحوي أيضاً، ووضعت يدها فوق فمها. أعتقد أنها شعرت بالخجل لأن تفكر بناتها في أن أمهن امرأة مرغوبة، ومثيرة.

صفقت عمتي فاطمة بيديها: «إذا لم تُقدم كافية على رواية هذه القصة، فإنني سأرويها بنفسي. أنا متأكدة، يا بناتي، من أنكن سمعتن جميعاً بمريم، وهي والدة محمد. عرف الجميع في بغداد أنها لا تحب نساء أبنائها، لكنها كرهت كافية أكثر من الأخريات فجعلت من حياتها جحيماً لا يطاق. ماذا فعلت مريم عندما علمت أن كافية أصبحت حاملاً؟ لقد هدّدت كافية بأنها ستمنع الطبيب من مساعدتها في وضعها الأول!».

جالت عمتي فاطمة حول الحلقة قبل أن تتابع: «ماذا تقلن الآن في المرأة التي تتمنى أن تعاني امرأة أخرى، أثناء وضعها لطفلها، من دون مبرر؟».

سرت همهمة من عدم التصديق في أنحاء الغرفة.

«ارتعبت كافية التي كانت في السادسة عشرة من عمرها لأنها ستضع مولودها الأول بحضور والدة زوجها القاسية، وهي المرأة القادرة على فعل أي شيء. وسبق لكافية أن سمعتها تعبّر عن كراهيتها للمولودات الإناث، وهكذا أصبح لديها سبب قوي للقلق، واعتقدت أن هذه المرأة مستعدة حتى لإيذاء طفلها إذا حدث أن وضعت بنتاً.

«انسلّت ذات يوم من المنزل أثناء استغراق مريم في النوم، وأرسلت رسالةً إلى والدتها في السليمانية، تقول فيها إنها ستلقي

بنفسها في نهر دجلة، إذا لم ترسل لها شخصاً لينقذها من والدة زوجها!».

تطلعت نحو شقيقتي علياء بعد أن سيطرت عليّ فكرة أنني كنت وشقيقتي في خطرٍ عظيم عندما كنا في رحم والدتنا. هدّدت حياة علياء بإغراق والدتي لنفسها، أما أنا فبالتسميم. أعتقد أن نجاتنا كانت نوعاً من المعجزة.

«تسببت رسالة كافية في اهتياجٍ كبيرٍ في السليمانية، مثلما يتوقع المرء. لم يكن تاريخ الختم البريدي للرسالة واضحاً، لذلك ذُعرت الوالدة من أن يكون الوقت قد فات.

«لم يكن لدينا متسع من الوقت لحزم أمتعتنا، ولهذا استقللت مع مهدي أول باص متجهٍ إلى بغداد. وصلنا خلال وجود محمد في عمله، ويا ليتكم رأيتن وجه مريم عندما أبلغناها بأننا قادمان لنأخذ كافية معنا. اعترضت بشدة، وأصّرت على إبقاء زوجة ابنها، التي تكرهها كثيراً، تحت سيطرتها. أظهر مهدي، وهو شقيقنا الحكيم، دبلوماسية كبيرة. لم يتهم مريم بالقسوة، وهو الشيء الذي كنت أنوي القيام به بنفسي، واكتفى بالقول إنه من الطبيعي أن ترغب عروس صغيرة في التواجد مع والدتها عندما تضع طفلها الأول. أذعنت مريم في النهاية، وإن بتردد.

«خشينا أن تُقدم مريم على تغيير رأيها ومنعها من السفر، وهكذا نسيت كافية كل ما يتعلق بمحمد».

انفجرت عمتي فاطمة في الضحك.

«رأينا عند خروجنا من المنزل أحد الباصات الحمراء اللون، التي تمر في العادة قرب بيت مريم. اعتبرت أن مرور الباص هو إشارة مشجعة لنا، وقلت «هيا، لنسرع!». ركض ثلاثتنا بأسرع ما يمكننا، وركضت كافية رافعةً فستانها، مثل بطة، بالرغم من أنها كانت في مرحلة متقدمة من حملها.

«شاء القدر أن يظهر محمد عند زاوية الشارع ويرانا. أظن أنه اعتقد أن كافية ستتركه، وأنها لن ترجع إليه أبداً.

«يتعيّن ألا ننسى أن محمداً كان عاجزاً عن الصراخ، وعن التوقف، وعن الانتظار. فعل محمد الشيء الوحيد الذي يبيّن قصده: ترك حزمته، وركض نحو مقدمة الباص المتوقف، ثم رمى نفسه تحت إحدى العجلات الأمامية».

ضحكت عمتي فاطمة بصوت خافت، وهزّت رأسها: «ذهب ذلك الرجل المسكين إلى حد أنه وضع رأسه تحت أحد دواليب الباص!

«ساد هرج ومرج على الفور. أخذ السائق الغاضب في إطلاق بوق الباص، على مداه. جهدنا كي نترجل من الباص. كبر حشد الناس، وراح الجميع يصرخون. لم يعرف أحد منهم أن ذلك الانتحاري المحتمل كان أصمَّ، وأنه لا يستطيع سماع أي كلمة يصرخون بها.

«استغرقَنا الأمر دقائقَ قليلة لنشق طريقنا عبر الحشد، لكننا استطعنا أخيراً رؤية محمد. شاهدنا، أيتها الفتيات، أغرب مشهد! رأينا والدكن مستلقياً على ظهره. وضع يديه على صدره

بشكل صليب، وأغمض عينيه هكذا». مثّلت لنا عمتي فاطمة الوضع الذي تتحدث عنه.

استغرق الجميع بالضحك، حتى أن أمي لم تستطِع إخفاء ابتسامتها، وارتسمت نظرة حالمة على عينيها.

«سمعتْ مريم في هذا الوقت الجلبة، ولا بد من أن يكون أحدهم قد عرف محمداً، فركض ليخبرها. بدت تلك المرأة مثل دبابة وهي تشق طريقها من خلال الحشد، كأنها الرجل القوي الخارج من السيرك، ورأيناها تُبعد الناس جانباً».

نهضت عمتي فاطمة بسرعة من مقعدها وقالت، «هكذا!». شعرت بأنني عاجزة عن التنفس عندما جذبتني من مقعدي وقذفت بي عبر الغرفة. اعتبر الجميع أن ما يجري كان مسلياً، ما عداي أنا.

«ماذا فعلت مريم عندما أدركت أن ذلك الانتحاري المحتمل هو ابنها بالفعل؟ بدأت تلك المرأة المجنونة في جذبه من ذراعيه!».

أسرعتُ بالابتعاد عن عمتي فاطمة، لأنني لم أعد أرغب في الوقوع ضحية شرح موقف آخر مجدداً.

تابعت عمتي فاطمة: «وجدت كافية صعوبة في الجلوس بوضع القرفصاء، وذلك بسبب بطنها المنتفخ. اشتركت الزوجة والوالدة في جذب محمد. الأمر الغريب كان رفضه أن يفتح عينيه. بدأت شفتاه في التحرك قليلاً. اعتقدت وقتها أن ذلك

الرجل المسكين كان منهمكاً بتلاوة صلواته الأخيرة، وأنه بدأ يستعد للقاء ربّه!

«حسناً! لم تتردد مريم دقيقة واحدة. قرّبت أصابعها القوية وأجبرت محمداً على فتح جفنيه.

«أطلق محمد نظرةً اتهامية عندما رأى أن زوجته موجودة من ضمن الحشد. بدا كأنه كان متيقناً من أنها ستهجره.

«كانت كافية تعرف ما يكفي من لغة الإشارات لتشرح له ما حدث، وقالت إن رحيلها ليس نهائياً. أضافت أنها ذاهبة كي تساعدها والدتها على ولادتها لطفلها الأول، وأنها ستعود قريباً. امتلأ محمد بالأمل فجأة فاستخدم مرفقيه وهبّ واقفاً.

«دفع هذا الحادث مريم إلى الشعور بمرارةٍ وغيرةٍ أكبر. أيقنّا حينها بوضوح مدى حب محمد الشديد لزوجته، وتأكدنا من أنه يفضل الموت على البقاء دونها».

أدركنا مغزى القصة التي روتها خالتي.

نسيت، ولو للحظةٍ وجيزة، أن والدي قد تركني إلى الأبد. شعرت بارتياح عندما فكّرت في السعادة التى جناها والدي ووالدتي من زواجهما. خلدت إلى النوم في تلك الليلة من دون أن أبكي قبل أن أنام، وذلك للمرة الأولى منذ وفاة والدي.

لم أبلغ مرحلة كافية من النضوج تساعدني على أن أفهم أن رياح الحظ تتغيّر باستمرار، وأن لقاءً ينتظرني، وسيُكتب له أن يكون أهم حدثٍ محوري في حياتي.

(٨)

مغامرة حب في بلاد ممزقة

بغداد: ١٩٧٧

اتصلت علياء ليلة الخميس بوالدتي لتشكو أحوالها الاقتصادية. عانت شقيقتي بسبب الإرهاق أكثر من أي شيء آخر، وهي أمٌ لولدين صعبَي المراس ومتقاربين في السن، بالإضافة إلى طفل ثالث ما زال يحبو. ما كان يحزّ في نفسها أن شعوراً بالإنهاك يتملكها وهي لا تزال شابة صغيرة. أعطت والدتي أكبر قسط من حبها لعلياء من بين بناتها الثلاث، لهذا أسرعت بإعطائها وعداً بأنها تستطيع أخذي، أنا ومنى. فهمت أننا سنكون هديتين! قالت والدتي إنه يتوجب علينا الذهاب لمساعدة علياء على العناية بأولادها، فقط للأيام القليلة التالية، بالرغم من أن ذلك سيعني خسارتنا يومين دراسيين.

سمعت أصواتاً عالية في مساء اليوم التالي بينما استغرق أولاد أختي الثلاثة في النوم. شعرت بالرعب. تمحورت أفكاري الأولى على أن الشرطة الأمنية هي التي عادت لتعتقل هادي ورعد مجدداً. بدأ قلبي يدق بسرعة، بينما استندت إلى الجدار كي أصغي. تردّدتْ في المكان ثلاثة أصواتٍ عالية. سمعت

صوت هادي، زوج شقيقتي، وهو يجادل بشأن التوترات المتزايدة التي تواجه الأكراد من نظام الحكم البعثي. سمعت بعد ذلك صوت علياء المبتهج أثناء اختراقه ما بدا لي أنه جدال ودّي.

تواجد الرجلان وعلياء في مطبخها.

شعرت بموجة من الارتياح، وبشرارة من الفضول. مشيت من خلال الرواق القصير كي أشاهد بنفسي صاحب الصوت الآخر الجهوري، والمتشدد.

وقفت على بعد خطواتٍ قليلة من الباب. عرفت الزائر. إنه شارباست، ابن شقيقة هادي. سبق لي أن رأيت الرجل مراراً وهو يحوم حول دائرة حياتنا العائلية في كردستان منذ أن كنت فتاةً صغيرة، وبالرغم من ذلك لم أعرفه عن قرب حتى هذه اللحظة.

صُدمتُ، فجأةً، بمظهره الوسيم. شعرت عندما حدّقت فيه، بأنني مسحورة. أحسست بالخجل يسيطر على وجهي، وشعرت بهزة كبيرة في أعماقي، وزادت ضربات قلبي كثيراً عن معدلها الطبيعي. ماذا يحدث لي؟

رجعت بي ذاكرتي إلى مقاتل «البشمركة» الوسيم الذي وقع في غرام تلك الفتاة الكردية الجميلة، وهي قصة الحب المأساوية التي انتهت بالسجن والموت. أحسست بشعور غامض، لكنه كان نوعاً رائعاً من توقع ما سيأتي.

حاولت أن أتذكر كل شيء أعرفه عن شارباست، لكنني لم أكن أعرف الشيء الكثير عنه. رأيته أحياناً خلال عطلاتنا الصيفية في السليمانية. أعرف أنه نشأ في كردستان، وأنه يكبرني بخمس، أو بالكاد ست سنين.

بدا وسيماً جداً. لم يكن طويلاً كفاية، لكنه ليس قصيراً، أما جسده فكان متناسقاً وقوي البنية، ورأيت صدره العارم وعضلاته المفتولة. شاهدت وجهه الوسيم، وبشرته بلونها الزيتوني، وشاربيه الكثيفين يغطيان شفته العليا. صعقني وجهه المنحوت والمحاط بخصلات داكنةٍ من الشعر. ولاحظت عينيه المتراقصتين اللتين استعارتا لون البندق تحت حاجبين مقوسين.

أخذ شارباست يعبّر عن أفكاره بصوتٍ عالٍ، وبشكلٍ متشدد. لاحظت، في المقابل، أن هادي كان يرد بطريقةٍ هادئة. بدا لي أن هادي يُظهر بعض الخشونة مع ابن اخته، لكني اكتشفتُ أن حماسته سحرتني بطريقةٍ ما.

أخذ يلوّح بيديه تأكيداً لأفكاره: «لستُ خائفاً من الحكومة العراقية. اسمع يا هادي، الحيلة هنا هي توقّع الموت، وإذا عاش المرء فستكون حياته بمثابة مكافأة له. قررت محاربتهم حتى الموت!»

تحوّلت حياتي بكاملها في تلك اللحظة بالذات.

نعم! وجدت أمامي مقاتل «بشمركة» حقيقياً!

اكتشفتُ، فجأةً، أن سعادتي معلّقة برجل بالكاد أعرفه.

رأيت، في هذه اللحظة بالذات، ملامح ابتسامة تنم عن معرفة صاحبها بما يجري. قررت تنفيذ انسحابٍ سريع، لكن علياء أمسكت يدي قبل أن أتمكّن من العودة إلى غرفة نومي. قالت لي: «تعالي يا جوانا، فأنتِ لم تُلقي التحية على شارباست بعد».

توقف الرجلان عن الحديث. أحسست بأن شارباست يتقصَّد النظر إليّ.

مسّدت بيديّ شعري الطويل المنسدل والمستقيم من دون أن أسرِّحه بطريقة معينة. تمسكتْ أصابعي بتنورتي. لم تكن هذه التنورة من بين التنانير المفضلة لديّ. لم أرغب في التحدث مع شارباست وأنا في حالتي المزرية هذه، وغير المرتبة.

أصّرت علياء: «جوانا؟».

دخل شارباست في هذه اللحظة، وما إن تكلم حتى استقرت كلماته المرتجلة في قلبي مباشرة، كما الخنجر: «علياء. هل هذه شقيقتك الصغرى؟». نظر نحوي وابتسم قبل أن يتابع: «آه؟ نعم! هذه جوانا نفسها التي كانت شقية على الدوام؟».

تفحصني ملياً قبل أن ينطلق في الضحك: «ما زالت جوانا الصغيرة نحيلة!». تطلع نحو علياء بحبور: «هل تقومين بتغذية هذه الفتاة الصغيرة جيداً؟».

بدأت دموعي في التجمع في حدقتي عيني. يصّر جميع

أقاربي على مضايقتي، ويقولون إنني لا أبدو بعمر يزيد على الثانية عشرة، أو الثالثة عشرة، برغم أنني بلغت الخامسة عشرة من عمري. أشعر بأنني أصبحت فتاة بالغة، ويؤلمني أنني نحيلة وطويلة جداً.

لم يكتفِ شارباست باعتباري طفلة فقط، لكنه يعتبرني طفلة نحيلة!

سالت الدموع من عينيّ، لكني أعتقد أن أحداً لم يلحظها. شكرت الله لأن هادي مشغول بالحديث، ولم ينتبه كلياً إلى وجودي. حرّك كرسياً من أمام الطاولة، ووجّه نصيحةً إلى ابن شقيقته: «فكّر في اقتراحي يا شارباست. يتعيّن عليك الانتهاء من دراستك الجامعية أولاً. وإذا تم توقيع معاهدة مقبولة مع بغداد، وزالت أسباب شن الحرب فستكون قد كسبت مهنة على الأقل. أما إذا لم يعم السلام، ففي إمكانك أن تحارب بعد تخرجك. فكّر في هذا». هزّ كتفيه قبل أن يتابع: «من الأفضل لك أن تتحضر لتعمير كردستان».

أعاد شارباست انتباهه إلى خاله، وربت على كتفه، ثم قال بتودد، لكن بصوتٍ عالٍ: «تخليتم، أنتم الذين يبدو أنكم طعنتم في السن، عن القتال».

ضحك هادي بحبور وهو ينظر نحو علياء: «اعلمي يا زوجتي أنه لا يوجد أشرس من رجل شابٍ، وغاضب».

تجاهلت علياء زوجها للمرة الأولى في حياتها. فضّلت أن تحدّق فيَّ أولاً، ثم في شارباست، قبل أن تعود لتنظر إليّ.

قربتني نحوها وعانقتني، ثم مسحت الدموع بظاهر يدها: «تعالي يا جوانا».

سمحتُ، بتردد، لشقيقتي بأن تُجلسني أمام الطاولة وقبالة شارباست. مسّدت كتفي بلطف وابتسمتْ، قبل أن تنصرف لتحضّر إبريقاً من الشاي. انصرفت بعد ذلك لترتيب الحلوى في طبقٍ كبير. انشغلت يداها، لكن عينيها تسمّرتا بي.

لم أستطِع التوقف عن التحديق في شارباست. لاحظت أن تقاطيع يديه المستندتين إلى الطاولة، على بُعد بوصات قليلة مني، أشبه بيدي عازف مُرهَف.

أردت لمس يديه، لكنني لم أجرؤ. لم أفعل ذلك بالتأكيد، واكتفيت بدلاً من ذلك بالاستماع إلى كل ما ينطق به.

نشأ شارباست، وهو ابن إحدى شقيقات هادي، في قرية هادي الصغيرة، قلعة ديزا، الواقعة في شمال العراق. تخرج من المدرسة الثانوية في الربيع، ونال علامات عالية في مدرسته بحيث قبلته جامعة بغداد كطالب هندسة فيها. أعلن هذا الشاب، بالرغم من ذلك، أنه سوف يحارب الحكومة في الجبال مع أصدقاء طفولته، بدلاً من الجلوس على مقاعد الدراسة.

علمت عندها أكثر الأنباء إثارة: سيأتي شارباست ليسكن مع علياء وهادي في وقت قريب، وفي غضون الأسبوع المقبل تحديداً! ازدحمت مخيلتي بكل الاحتمالات التي قد تمثلها خطوته بالنسبة إلي.

أعلم أن علياء منشغلة جداً، وأنها تحتاج إلى مساعدة لتنشئة أولادها الصغار الثلاثة. وضعت خططاً لأدرس بجد أكبر خلال ما بقي من أيام الأسبوع كي أحافظ على علاماتي العالية في المدرسة. أعرف أن والدتي ستُسَر إذا ما تطوعت بالاستمرار بمساعدة شقيقتي على تربية أولادها.

أردت أن أحوز اهتمام شارباست، فاستجمعت شجاعتي لأعلن أنني سأذهب يوماً ما إلى كردستان لأقاتل من أجل الحرية. سبقني شارباست قبل أن أبدأ في الكلام، واستأذن بالرحيل لأن عليه أن يُتم عملاً ما. انتقى شارباست قبل مغادرته قطعتَي حلوى من تلك التي أعدتها علياء، ثم دسهما في جيب سرواله. وجّه إيماءةً ودية نحو هادي: «سأعود بعد أيام قليلة حاملاً ملابسي وكتبي».

علقت مشاعري بدوامة. كم تمنيت أن ينتبه إلي، وأن يوجّه إليّ كلمة وداع واحدة. تمنيت مع ذلك ألا ينظر إليّ بانتباه شديد في وقت لا أرتاح فيه إلى هندامي، هذا إذا لم أقل إنني أشعر بالبشاعة.

فاجأني عندما وصل إلى الباب، واستدار. نظر نحوي أولاً ثم إلى علياء، وأعلن بشكلٍ غير متوقع: «إنها طفلة الآن، لكنها ستكون امرأة رائعة عندما تكبر».

ابتسم ابتسامةً عريضة، ثم التفت ليغمزني، وما لبث أن خرج بمرحٍ من الباب، واختفى مثل سراب رائع. اقشعر شعر بدني.

لحق هادي مسرعاً بابن أخته، واستمرا في الحديث.

نهضتُ مسرعة من أمام الطاولة، واستدرت بسرعة حول نفسي: «رائعة! رائعة! سأكون رائعة يوماً ما!».

هزت علياء رأسها وضحكت: «ماذا يحدث يا جوانا؟».

تابعتُ الرقص والاستدارة حول نفسي، لكني رفضت تأكيد الأمور التي خمنتها شقيقتي: وقعتُ في الحب!

أظهرت علياء أنها شقيقة مخلصة، لحسن حظي. ولم تُحدّث أحداً بسري على حد علمي، حتى هادي.

استجوبتُ علياء على مدى اليومين التاليين، فحدثتني عن كل شيء تعرفه عن شارباست بطيب خاطر. قالت لي إنه ينتمي إلى عائلة تضم اثني عشر فرداً. قالت لي إن سبب حماسته الشديدة وإخلاصه للقضية الكردية، يرجع إلى أن أسرته عانت كثيراً كونها كردية. اضطرت الأسرة إلى العيش في المنفى عدة أعوام، وفي إيران تحديداً، بعد أن أقدمت حكومة بغداد على مهاجمة القرية بقنابل النابالم. إنه ليس خاطباً، وهذا هو أهم ما في الأمر بالنسبة إلي. طمأنتني علياء إلى أن أسرة شارباست لم تبدأ بعد عملية انتقاء عروس له، وهو تقليد متبع في مجتمعنا الكردي، ويجري بعد تخرج الشاب من المدرسة الثانوية. قررت الأسرة، لحسن حظي، أنه من الأفضل لشارباست أن يركّز على دراساته أولاً. علمت أيضاً أنه ميوله فنيةً، حتى أنه بدأ يرسم لوحات وينظم القصائد. إنه رجلي المثالي.

مرّت الايام الباقية ببطء. بقيت صورة شارباست تحوم في مخيلتي. تمنيت أن يعود قبل أن أتوجه إلى المنزل لأعود إلى المدرسة.

حرصت على أن أبدو في أبهى صورة في حال عاد إلى منزل شقيقتي. حرصت على النهوض باكراً، وارتداء أفضل ثيابي، وتسريح شعري، وأن أعضّ على شفتيّ لأحافظ على لونهما الزهري. اعتدت دخول غرفة نوم شقيقتي، عندما أكون وحدي في المنزل، وقررت أن أقف طويلاً أمام المرآة لأتاكد من حسن هندامي. أعترف بأنني نحيلة جداً، وأنني استطعت أن ألاحظ، بسرور، وجود انتفاخ في صدري تحت قميصي الفضفاض (البلوزة). تأكدت من أنني سرعان ما سأصبح امرأة.

اكتشفت أمراً مؤكداً بشأن الحب الرومانسي: الحب هو عاطفة مقلقة. وجدت نفسي، في لحظة واحدة، ضعيفة وتعيسة من فرط اليأس. اعتقدت أن شارباست لن يراني امرأة جميلة، وأنني سأظل إلى الأبد شقيقة علياء الصغيرة، والطفلة. وعدت في لحظةٍ تالية أشعر بالإثارة نتيجة ثقةٍ مفعمةٍ بالأمل بأنني سأصبح جميلة ذات يوم، وعندما يأتي ذلك اليوم سيسارع شارباست إلى ملاحقتي كي أكون عروسه. لا بد من أن يحدث هذا!

بدأت أميل إلى العصبية. وصعُب التنبؤ بتصرفاتي، إلى درجة أن علياء بدأت تضايقني: «جوانا، انتبهي وإلا فستصبح حالتك

خطرة! إذا لم تفوزي بشارباست فسوف تموتين حزناً. وإذا تمكنتِ من الفوز بشارباست، فسوف تموتين من السعادة».

لم ألاحظ أن منى انشغلت بترتيب الأواني والمقالي في خزانة المؤن القريبة، فتهورت بالإدلاء باعترافٍ جريء. قلت لشقيقتي: «علياء، سأكون المرأة التي أريد، وسأفعل ما ينبغي عليّ أن أفعل، لكسب حب شارباست».

تدحرجت الأواني المعدنية واصطدمت بالأرض. وقفت منى بعد أن ظهرت علامات الاضطراب على محياها نتيجة اندهاشها. اتسعت عيناها واشتعلتا غضباً، ونظرت أولاً في اتجاه علياء، ثم في اتجاهي، قبل أن تصرخ: «ماذا؟ ماذا؟».

ضحكت علياء. ابتسمتُ أنا بدوري. بدا واضحاً أن منى اعتقدت أن أختها الصغرى أصبحت مجنونة تماماً. أعرف أن منى لم تعرف الحب من قبل، فكيف في إمكانها أن تفهم؟

قرصتُ خدها المتورد خجلاً، ومازحتها قائلة قبل أن أندفع خارج الغرفة: «الحب رائع بالتأكيد يا منى».

قلت إن الحب كان رائعاً، لكنه ليس سهلاً، لأنني وقعت في غرام رجلٍ لم يبادلني الحب بدوره.

عاملني شارباست باعتباري طفلة بالرغم من جهودي لأظهر أكبر من سنيّ عمري الخمس عشرة. وهكذا فشلت خططي بمساعدة علياء بتربية أولادها. كنت أرمي من خلالها إلى أن أتمكن من رؤية شارباست مراراً في منزل شقيقتي. حاولت مراراً

أن أتدخل في مجادلاته السياسية مع هادي، وصمّمت على أن أجذب انتباهه إلى حقيقة أن عقلي الفتيّ يتمتع بالعناد والتصميم اللذين يتميز بهما عقله هو.

استغرقت في أحلام يقظتي التي جمعتني به في الأوقات التي غاب فيها عني، ولم تبارحني لحظةً صورةُ وجهه الوسيم ولا شخصيته القوية. تسبب اندفاع شارباست في مشاهد مؤذية في العادة، لأنه لا يفتقد أبداً الدوافع التي تقف وراء مجادلاته السياسية. رأيته ذات مرة غاضباً وهو يلوّح بقبضته باتجاه هادي، وهو الرجل الذي لا يرفع صوته بالمرة. اكتشفت أن حماسة شارباست السياسية هي أمر مُغرٍ آخر في شخصيته. أما أنا، فبقيت بالنسبة إليه شقيقة علياء الصغيرة، لا أكثر.

أدركت أنني لن أحب أي شخص عدا شارباست، لكن كان من المؤلم جداً بالنسبة إلي أن هذا الرجل لن يبادلني الحب. جاءت تعزيتي الوحيدة في واقع أنه لم يذكر شيئاً عن زواجه بامرأة أخرى. ظلت ساعة خيالية تدق بصوتٍ عالٍ في ذهني بالرغم من ذلك. وصل شارباست إلى العمر الذي يُفترض فيه أن تبدأ عائلته بالإصرار عليه أن يفكر في الزواج. أعرف أن مجتمعنا هو من النوع الذي يطلب من أبنائه وبناته أن يتزوجوا، وينجبوا أطفالاً.

وبرغم ذلك، بقي لي أمل ضئيل. بدأت المرآة تعكس تغيّراً جسدياً عندي. وتلقيت تشجيعاً آخر من والدتي. حصل ذلك عندما اشتكيت بشأن جسدي النحيل، فأسرّت لي أمي أن عدداً

من خالاتي قد ذكرن أمامها أنني ازددت طولاً، وأضافوا أنني أصبحت أكثر جمالاً.

يُحتمل أنني سأصبح في يوم من الأيام بمثل جمال والدتي، وعلياء، ومنى. تأكدت من أنه في الوقت الذي سيحدث فيه ذلك فإنني سأجذب انتباه شارباست، لأنني لاحظت، بقلق، أنه يجذب انتباه النساء الجميلات.

فكّرت ملياً، وقررت أن أستخدم طريقةً أخرى مع شارباست. سأتظاهر بأنني لا أكترث له. مضت عدة أيام قبل أن أزور منزل شقيقتي علياء. تظاهرت بعدم الاكتراث عندما دخل شارباست الغرفة. تثاءبت واعتذرت لاضطراري إلى الخروج من الغرفة، بعدما كان شارباست وهادي قد انشغلا في جدالهما المعتاد، في ما يتعلق بالتمييز الذي يثير الجنون الذي يواجهه الأكراد العراقيون. تطلبت لامبالاتي المدروسة عزيمة قوية لتنفيذها.

مرت عدة أيام قبل أن يقدّم شارباست طلباً غير متوقع: فتح حديثاً مع علياء، ونظر نحوها أولاً، ثم نظر في اتجاهي: «علياء، هل لاحظتِ أن جوانا تتمتع بوجهٍ جذاب بشكل غير معقول؟».

سكت لبرهةٍ قبل أن يتابع: «أود أن أرسمها، من بعد إذنك بالطبع».

وقفت بسكون، ودُهشت في أعماقي أدركت أن خطتي قد نجحت! رحت أدندن بسعادة، فلعل الأحلام تتحقق أحياناً.

جاء يوم لن أنساه أبداً، وذلك بعد مرور عدة أسابيع. جمع شارباست دفتر الرسم والأقلام التي يستخدمها، ثم وضع مقعداً أمام جدار، ثم طلب مني أن أجلس.

فعلت ما طلبه مني. شرع برسم لوحة لوجهي. ركّز شارباست، للمرة الأولى، عليّ وحدي.

شعرت كأنني في الجنة. لم يسبق لي أن حصلت على اهتمام هذا الرجل الكامل. تمتعت بكل لحظة. مرت فترات صمتٍ طويلة كنت أقطعها حينما أحرك رأسي وكتفيّ قليلاً، ليعمد شارباست إلى توبيخي حيناً بعنف، وحيناً بكلمات رقيقة لن أنساها ما حييت. «جوانا. اجلسي من دون أي حركة». تنحنح وابتسم: «أتعرفين، الصبا لا يأتي مرتين».

اكتشفت أنه فنان موهوب. احتك كتفي به برفق بينما كنت أنظر إلى شبيهتي الغامضة في اللوحة، ووجدت صعوبة في التصديق أنها تمثلني أنا.

ابتسمت مشجعةً بينما كنت أمعن النظر في عينيه الحالمتين. ابتسم بدوره، لكن ابتسامته كانت من النوع الأخوي والودي. غمرتني، برغم ذلك، سعادة عظيمة.

تلاشت تلك السعادة التي لم تدم طويلاً عندما علمت من أقاربنا في الشمال أن الاضطرابات قد تجددت في كردستان.

بدأ شارباست يتحدث عن قَطْع دراسته الجامعية والذهاب إلى الجبال كي يحارب من أجل كردستان.

استغرقتُ في اكتئابٍ عميق. إن العيش في بلاد تمزقها الحروب ليس بذلك الأمر السهل، لكن المرور في تجربة الحب في بلاد ممزقة، يحمل تحديات مضاعفة في حد ذاته.

(٩)

الحرب

بغداد: تشرين الأول، ١٩٨٠

حدث الأسوأ، وبدأت إيران في قصف بغداد.

حدث ذلك عندما لم يعد يفصلني عن سنتي الجامعية الأولى، في كلية الهندسة الزراعية التابعة لجامعة بغداد، سوى أشهر قليلة. بدأ القصف أثناء زيارتي إلى الحرم الجامعي. أردت العودة إلى المنزل وسط الرعب الشديد الذي شعرت به، لكن تبيّن لي أن قراري هذا لم يكن بالقرار الحكيم. تحولت عملية شقّ طريقي، وسط حشود الناس الذين ملأوا طرقات المدينة، إلى نوع من عراك الشوارع. ازدحمت كل ساحات المدينة بحشود متدافعة من الناس، وبدأت جماهير هائلة من الناس تظهر من كل الجهات. حاولت شرطة بغداد في البداية السيطرة على الحشود، ثم يئست من هذه المهمة فتركت المكان. بدا رجال الشرطة غير مكترثين لجموع الناس الذين من المفترض أن يقدموا الحماية إليهم. وصل الأمر بأحد رجال الشرطة إلى أن يدوس على رجلي، وكاد حذاؤه الثقيل يسحق أصابع قدميّ.

وصلت أخيراً إلى مدخل بيتنا وأنا أعرج. تداخلت حبيبات العرق بين ثنايا شعري، ورسم الغبار والسخام خطوطاً على وجهي. شعرت بالاستياء عندما اكتشفت بعد وصولي أنني فقدتُ فردةً من حذائي. أخبرت والدتي بأنفاسٍ متقطعة، وأنا أشير إلى قدميّ: «علقتُ بالعراء عندما حلقت طائرات إيرانية كثيرة، وداس أحدهم على قدميّ».

صُدمت والدتي، وبدأت تتلفظ بكلمات غير مفهومة: «سأقول لك شيئاً يا جوانا. لا ينبغي لأحد في العراق أن يخرج من دون تنظيف منزله».

تطلعت بوالدتي وضحكتُ بعصبية. هل تشهد البلاد بأكملها أعظم الاضطرابات، ثم تتحدث والدتي عن تنظيف المنازل؟ ماذا يجري؟ هل فقدت أعصابها بالكامل؟

دخلت البلاد في حرب مع إيران منذ الثاني والعشرين من أيلول، لكننا لم نتوقع أبداً أن تُقصف عاصمتنا. لم يتطلب الأمر عبقرية كبيرة ليعرف المرء أننا نتّبع مساراً خطراً. إننا نحارب بلاداً يفوق عدد سكانها عدد السكان في بلادنا بثلاث مرات، وهي البلاد التي يحكمها رجال دين فقهاء شديدو التعصب، والذين لا يتوقون إلى شيء أكثر من أن يموتوا شهداء.

تعجبت، وغضبت، من حكومتنا. شعرت في أعماقي بأن صدّام حسين، الذي حلّ محل أحمد حسن البكر قبل سنة واحدة، هو الذي بدأ الحرب، برغم أن إعلام الدولة ادعى العكس. وراحت وسائل الإعلام هذه تصور الزعيم الإيراني، آية

الله الخميني، بطريقة كاريكاتورية ساخرة. لم أجرؤ على التعبير عن أفكاري، أو آرائي، على الأقل ليس خارج دائرة عائلتنا، لأن الحكومة كانت تسارع إلى إعدام أي شخص ينتقد هذه الحرب. وسبق أن سرت شائعات مفادها أن الحكومة أعدمت آباء العراقيين، الذين أُرسلوا ليموتوا في ساحات القتال، وذلك بعد أن شتموا الحكومة لهذا السبب.

رافقت الحربَ مشاكلُ عديدة أخرى، أهمها أن الشيعة يؤلفون معظم الأمة الإيرانية، ويؤلف المسلمون الشيعة، في الوقت نفسه، معظم أفراد الجيش العراقي. وبلغت التوترات مداها الأقصى، ما بين الحكومة البعثية، ورجال الدين الشيعة، في الأعوام الأخيرة. وصل الأمر بآية الله الصدر، وهو أكثر رجال الدين الشيعة شعبيةً في العراق، إلى إصدار فتوى ضد الحكومة البعثية. أفتى آية الله الصدر أن النظام البعثي ليس إسلامياً، وحرّم على أتباعه من الشيعة التعامل مع الحكومة. عمد صدام على إثر هذه الفتوى إلى حظر حزب الدعوة، وأتبع ذلك بإعدام العديد من أعضاء هذا الحزب، وذلك في الأشهر الأولى من عام ١٩٨٠.

هل يمتلك الشيعي، والحالة هذه، أي دافع ليحارب من أجل صدّام حسين؟

سرت شائعات، في الأيام الأولى من الحرب، بأن المجندين الشيعة، الذين يقاتلون في صفوف الجيش العراقي، قد صوبوا أسلحتهم ضد قادتهم العسكريين. أعتقد أننا سنخسر الحرب إذا استمرت هذه الحالات.

لا أستطيع نسيان الوضع الكردي. أعرف أن لدى جميع العراقيين أسباباً للقلق خلال هذا الوقت العصيب، لكن قلق الأكراد كان أكبر من الآخرين. تطلع العراقيون الأكراد، في مرات عديدة في الماضي، إلى إيران طلباً لحمايتهم من الحكومة القائمة في بغداد. تغيّر الوضع الآن مع قيام بغداد بمحاربة طهران، فخيّم الخطر على المدنيين الأكراد، وخصوصاً مع تواجد معظم القرى والمدن العراقية الكردية على الحدود مع إيران. وتقع السليمانية، وهي المدينة التي تعيش فيها جدتي وخالاتي، على بعد أميالٍ قليلة من هذه الحدود. وينطبق الشيء نفسه على حلبجة، حيث تعيش خالتي عائشة. يخيّم خطر شديد الآن على المدنيين الأكراد الذين يجدون أنفسهم على خط تماس خطير، بين جيشين كبيرين.

سمعت مرةً أخرى أصوات الطائرات التي تلقي بقنابلها. فأسرعت إلى الإمساك بيد والدتي، وركضنا جميعنا في اتجاه الحمام الصغير. وجدنا منى منبطحة على الأرض، وقد غطت وجهها بيديها كي تخنق صرخات الرعب التي كانت تطلقها. جلست أنا ووالدتي حولها. أمسكتُ يدَي منى الطريتين كي أطمئنها قليلاً. لا تتواجد في منطقتنا ملاجئ قريبةً منا، ونحن نعرف أن منزلنا المتواضع لا يقدّم لنا سوى القدر الضئيل من الحماية.

كبر قلقي على سعد، الذي كان قد أُرسل إلى الجبهة. علمنا أنه موجود في أكثر الجبهات اشتعالاً. عرفنا أيضاً أنه موجود في

جوانا في وظيفتها الأولى في مكتب سفريات في بغداد، وذلك قبل وقت قصير من تقدم شارباست لخطبتها

جوانا المراهقة ترتدي ملابسها الإسلامية المحافظة بناء على طلب شقيقها سعد

جوانا الطالبة الجامعية (الثانية من اليسار) أثناء حضورها محاضرة في جامعة بغداد

مقاطعة خوزستان الإيرانية الغنية بالنفط، وأن فرقته العسكرية تحاصر الأهواز. وسبق لسعد أن تلقى تدريباً خاصاً لتزويد فرق المدفعية العراقية، التي كانت تقصف الأراضي الإيرانية، بمعلومات عن المواقع العسكرية وسرعة الرياح. كنت أعرف أن حياة شقيقي سعد هي في خطر دائم، من دون شك، وهو أمر كان كافياً لأشتعل قلقاً عليه.

لم أكن لأصدق، قبل سنة من الآن، لو أخبرني أحد أنني سأتمتم الصلوات باستمرار من أجل سلامة سعد. لم تسِر علاقتي مع سعد على ما يرام منذ أن أصبحت في سن المراهقة. تميّز سعد بكونه شاباً ذا عادات بسيطة، وطموحات متواضعة. وبالرغم من ذلك فقد أعطى لنفسه الواجب المقدّس لصون شرف النساء في أسرتنا. يشبه شقيقي المحافظ الكثير من الرجال العراقيين في ما يتعلق بفرض سيطرتهم على الإناث في عائلاتهم، ولهذا السبب حصلت صدامات عديدة بيننا، لأنني كثيراً ما كنت أرفض إطاعة أوامره.

بقي سعد لأعوام عديدة يشرف على اختياري لملابسي. اعتاد أن يكون من الشدة بحيث كان يقيس طول فساتيني، كما أجبرني على عدم كشف ذراعيّ، بالإضافة إلى إجباري على وضع وشاح أسود اللون على رأسي بحيث يغطي شعري الطويل. لم يستطِع أخي أن يراقبني على الدوام. اعتدت، لهذا السبب، أن أرتدي ملابس محافظة في المنزل، لكنني كنت جوانا المتحررة في المدرسة. واعتدت أيضاً، عند مغادرتي

المنزل، أن أضع الوشاح على رأسي، وأن أُنزل تنورتي قليلاً، لكن ما أن أبتعد عن المنزل حتى كنت أخلع الوشاح، وأرفع تنورتي من جهة خصري ليتماشى طولها مع الموضة.

اصطدمت مع سعد جدياً قبل أشهر قليلة من التحاقه بالجيش. اضطررت في الواقع، نتيجة غضبه الشديد مني، إلى أن أترك منزلنا لأعيش في منزل علياء لمدة أسابيع عدة.

وقع ذلك الحادث المقلق عندما حصلت على تقدير عالٍ من مدرستي. نلت المرتبة الثانية في العراق بكامله في مسابقة في اللغة الفرنسية. تعاونتْ الحكومة العراقية وقتها مع وزارة التربية الفرنسية على منح الفائزين، الأول والثاني، جائزةً، هي رحلة إلى فرنسا مع تغطية كامل النفقات.

لم يسبق لي أن شعرت بإثارة كهذه. ولم يسبق لي أن سافرت خارج العراق. منعني سعد، بصفته المسؤول عن أسرتنا، من السفر، وقال: «لا، لا تزال جوانا صغيرةً جداً. لا تستطيع المرأة السفر من دون محرم يحميها».

لم أستطِع أن أصدق مثل هذا القرار الذي أصدره سعد. ها هو أخي يقول إنني لا أستطيع السفر إلى فرنسا! استشطت غضباً. صرخت، وبكيت، وأحدثت ضجة في المنزل. جهدت لأعوام كي أحافظ على علاماتي العالية، ولهذا فأنا أستحق جائزتي.

تضامنت والدتي معي بشدة، إلى درجة أنها تعاونت أخيراً مع علياء من أجل السماح لي بالذهاب في هذه الرحلة، واتفقتا على أن تخبرا سعد أنني موجودة في منزل علياء.

غادرت إلى فرنسا بحسب البرنامج المقرر، ولم يشك سعد في مسألة غيابي عن المنزل لأنه اعتقد أنني موجودة في منزل علياء. أحببت كل شيء رأيته في فرنسا: جمال البلاد، والناس، والتاريخ، واللغة. ستظل ذكرى سعادتي، التي شعرت بها أثناء هذه الرحلة، محفورة في عقلي وقلبي. لم تتأخر الكذبة بشأن سفري بالانكشاف لشقيقي سعد بأغرب طريقة ممكنة.

أُبلغ الفائزان بوجوب انتقاء أزياء وطنية، وذلك قبل وقت قصير من مغادرتنا العراق. وصلنا إلى باريس حيث التُقطت عدة صُوَرٍ لنا بملابسنا الكردية التقليدية. شاء القدر أن تُنشر صورتي في الصفحات الأولى لعدة صحف عراقية، وذلك في اليوم نفسه الذي عدت فيه إلى بغداد. أدركت أن سعد نادراً ما يقرأ الصحف المحلية، شأنه في ذلك شأن معظم العراقيين، لأنه ما من شيء يسبب ضجراً أكثر من الصحف المضطرة إلى نشر الدعاية الحكومية. صلّيت كي تمضي الحادثة بأقل خسائر ممكنة.

سبق لي وحذّرت والدتي، ومنى، وبقية أفراد أسرتنا وأصدقاء العائلة، كي يخبئوا ذلك العدد بالذات عن أنظار سعد. جرت الأحداث بعد ذلك كأن الله، أو الأقدار، تعمل ضدي.

خرج سعد، في ذلك اليوم بالذات، ليسبح في نهر دجلة، كعادته كل مساء. استلقى شقيقي على ضفة النهر كي يرتاح قليلاً. بدأت الصفحة الأولى لذلك العدد من الجريدة بالتدحرج، بطريقة ما، ولربما بفعل الريح، عبر الشارع. استمرت الصفحة

بالتقلب إلى أن استقرت على وجهه في آخر الأمر! أزاح شقيقي الجريدة عن وجهه من دون اكتراث. فتح عينيه، وماذا رأى حينها؟ رأى صورة شقيقته الصغرى، جوانا، وهي تعرض فستانها الكردي التقليدي بكل فخر، وأين؟ عرضته في باريس، عاصمة فرنسا!

استشاط سعد واقفاً على قدميه. شعر بقلقٍ شديد بحيث نسي أن يرتدي سرواله. شعر المتفرجون بالذعر عندما رأوه يركض باتجاه منزله بثياب السباحة. اندفع إلى المنزل، وأخذ يقرع الباب بعنف، وأخذ يلوّح بالجريدة.

سبق لي أن وصلت إلى المنزل قبل ساعات قليلة فقط. جمدت في مكاني، ورحت أحدّق برعب في الملامح التي ارتسمت على وجهه. فكّرت في الهرب، وأخذت أنادي والدتي التي كانت موجودة في المطبخ. أخذ سعد يركض خلفي.

هبّت والدت ومنى لنجدتي، وشكّلتا حاجزاً فصَل بيني وبينه، وهكذا منعتاه من القيام بعملٍ قد يندم عليه لاحقاً. بدا الأمر أشبه بموجة جنون كبيرة. حاول سعد أن يضربني، بينما انطلقتُ بالصراخ من جهتي، وأخذت منى تبكي، بينما راحت والدتي تصرخ بسعد طالبةً منه أن يتركني وشأني. دُهشت لاحقاً لأن الجيران لم يطلبوا تدخل الشرطة.

صرخت والدتي: «جوانا! اهربي! اذهبي إلى منزل علياء!».

أقدمت والدتي ومنى على منع سعد من التحرك، بينما اندفعت لألحق بالباص كي أصل إلى منزل شقيقتي.

أحمد الله لأن شقيقي رعد يأخذ موقفاً أكثر اعتدالاً بكل شيء يتعلق بالنساء. وقف رعد إلى جانبي إلى أن هدأ سعد، على الأقل في الظاهر، لأنه لا يستطيع أن يجابه شقيقه الأكبر منه.

وجد سعد نفسه في خندق عسكري بعد وقتٍ قصيرٍ جداً من هذه الحادثة، كي يواجه جيشاً من المحاربين الذين يرغبون في قتله. نسينا كل الجدالات السابقة، لأنني أدركت أنني أحب شقيقي إلى درجة أنني على استعداد لأن أقبل وصايته عليّ في ما لو عاد إلينا حياً.

غادرت الطائرات الإيرانية أخيراً المجال الجوي لبغداد، فتحلقنا حول جهاز التلفزيون لنشاهد وجوه مذيعي الأخبار المتجهمة، وهم يصبون جام غضبهم على أولئك الإيرانيين «الأشرار»: «طُرد هؤلاء المجرمون من المجال الجوي العراقي، لكننا نعد بأن كل عراقي سيضحي من أجل دفن أعدائنا!».

استمعت إلى لغوهم الذي لا معنى له، لأنني أعرف أن إيران ليست هي العدو الذي أخشاه أكثر من غيره. برهنت الحكومة البعثية على وحشيتها منذ اليوم الأول لتوليها السلطة، وأنها فارغة من الناحية الروحية، لكن أحداً لم يجرؤ بعدُ، عدا الأكراد، على الاعتراف بهذه الحقيقة، والجهر بها.

أعتقد أن التاريخ سيُظهر، يوماً ما، أنه ما من جماعة في العراق حاربت البعثيين بتصميم أكبر من ذلك الذي أظهره الأكراد. إننا لا نستسلم أبداً.

تركّز قلقي الأكبر في تلك اللحظة على نجاتنا، جميعاً، في ذلك الوقت العصيب. أدركت وجود رجال آخرين من عائلتي على وشك تعريض أنفسهم للخطر، عندما يحين الوقت ليُطلب منهم الانضمام إلى شقيقي المتواجد في خنادق الحرب.

تخرَّج رعد من جامعة بغداد التقنية، وأصبح مهندساً. بلغ شقيقي السادسة والعشرين من عمره، ولم يتزوج بعد، لكنه كان يدير عملاً تجارياً مزدهراً. أعرف أنه سيُجنَّد في يوم من الأيام. أما هادي، الذي يبلغ الثالثة والأربعين من عمره، وهو والد لثلاثة أطفال صغار، فسوف يعتبرونه شاباً يمكنه القتال. فكّرت في شارباست. بلغ شارباست الثانية والعشرين من عمره، وما زالت أمامه سنة قبل أن يتخرج من معهد الهندسة. دفعته عائلته، لحسن الحظ، كي يتابع دراسته، وأبلغته أن أكثر من حرب ستكون في انتظاره في كردستان. بقي شارباست في بغداد لهذا السبب.

أكّدت حكومتنا لمواطنيها أن الحرب لن تستمر أكثر من شهر آخر، وأن طلاب الجامعات سيحصلون على إعفاءٍ خاص، وسيُسمح لهم بالتخرج، لكن أحداً لم يعرف متى ستتغيّر هذه السياسة.

أعرف في داخلي ماذا سيكون عليه رد فعل شارباست عندما يُدعى إلى الخدمة العسكرية. أعرف أنه من ذلك النوع من الرجال، الذي يقاتل للنهاية من أجل المبادئ التي يؤمن بها. إن كرهه الشديد لأولئك البعثيين يمنعه من القتال إلى جانبهم.

أعرف أيضاً أنه إذا أُجبر على الانضمام إلى الجيش العراقي فهو سوف يلجأ إلى الجبال في أول فرصة تسنح له، وذلك كي ينضم إلى «البشمركة».

شعرنا بالإنهاك نتيجة أحداث هذا اليوم. أردنا أن نأوي إلى الفراش، لكنني لم أستطع أن أنام. سيطر شارباست على أفكاري بالرغم من أن شيئاً لم يتغيّر بيننا. أعرف أنني لا أضاهي والدتي وشقيقاتي بالجمال، لكنني لجأت أخيراً إلى توديع طفولتي. بلغت الثامنة عشرة من عمري، وكبرت لأصبح امرأة يجدها الكثيرون مغرية لهم. وجَدَني شارباست طويلة، ونحيلة، ذات شعر كثيف وطويل، ووجهٍ مثير للاهتمام، بشكل يدفعه إلى أن يرسمني. بقي شارباست ودوداً عن بُعد. لم يفاتحني مرةً بموضوع الغرام، بالرغم من التغيّر الجسدي الذي مررت به.

لا أستطيع، مع الأسف، أن أعبّر له عن مشاعري. أدرك أنه بالرغم من محاربتي الكثير من الأمور في مجتمعنا المحافظ، فما زلتُ عاجزةً عن القيام بالخطوة الأولى. إن تصرفاً من هذا النوع من شأنه الإساءة إلى سمعتي إلى الأبد. لم أجد أمامي سوى الانتظار.

أحمد الله لأنني امتلكت بعض الذكريات التي أعتز بها، وخصوصاً عندما أبلغ شارباست علياء ذات مرة أنني «أعطيه دفعاً»، وأن وجهي الجميل، وحركاتي المليئة بالحيوية، تحثه على الإمساك بقلم الرسم. اعتاد شارباست أن يجرني للاشتراك

في المناقشات السياسية، فأدركت في النهاية أنني أشاركه الحب لكردستان. أتذكر أيضاً أننا أمضينا ساعات طويلة معاً نناقش كتباً تبحث في مواضيع متنوعة، بحيث أصبحت قارئة نهمة بناءً على تشجيعه المتواصل لي كي أستمر في القراءة. أتذكر فعلاً أنني لمحت ومضةً من السعادة في عينيه، عندما علم أنني تلقيت قبولاً في كلية الهندسة الزراعية.

إنني أحتفظ بالمشاعر نفسها تجاه ذلك الرجل، حتى بعد مرور تلك السنين من الحب غير المتبادل.

اعتبرت علياء أن حالتي ميؤوس منها، حتى أنها وبَّختني ذات مرة: «جوانا! لقد آذيتِ نفسكِ! وحقَّرتِ ذاتك بصفتكِ امرأة كسيرة القلب. ما من خير يمكن أن يأتي من وضعكِ هذا».

وجدت شقيقتي أنه من السهل عليها التلفظ بهذه الكلمات. نالت أختي ما يكفي من الحظ كي يتزوج بها رجل يبجلّها ويعشقها إلى أقصى الحدود.

(١٠)

الخنادق

ساحة قتال الأهواز: ربيع العام ١٩٨١

أيقظتني صرخات مرعبة في منتصف الليل. ارتعبت إلى درجة أنني احتجتُ إلى لحظات عديدة كي أدرك أن مصدر هذا الصراخ هو منى. تعرضت منى في الآونة الأخيرة للعديد من النوبات العصبية، بحيث إنها نادراً ما كانت تتركها في هذه الأيام. ولاحظت أن صحتها الذهنية تتدهور باستمرار منذ بدء الحرب السنة الماضية.

قفزت من سريري لأرى والدتي ومنى تقفان إلى جانب سريري.

شاهدت والدتي وهي تحتضن رأس منى بذراعيها كي تهدئها، لكن شقيقتي لم تتوقف عن الصراخ، واستمرت في مناداة توأمها، «سعد!». تزايد اضطرابها إلى أن صرخت: «لا يستطيع سعد أن يتنفس! سعد يختنق!».

اجتاحتني قشعريرة رهيبة.

رأيت والدتي وهي ترتجف، ثم أطلقتْ تحذيراً لمنى: «لا! لا! حلمتِ كابوساً مزعجاً يا منى. لا! لا! سعد لا يختنق».

لم يُفلح أي شيء في تهدئة شقيقتي. راحت ترتعش، وتبكي، وعادت تكرر نداءها: «سعد! سعد!».

استمر اضطرابها الشديد خلال الليل، حتى بدأت أعتقد أنها ستُجنّ من شدة الحزن.

تمتعت منى «برابطة توأم» خارقة للطبيعة مع شقيقها التوأم. أعرف أنها شعرت دائماً بفرحه وحزنه بشكل قوي، كأنهما فرحها وحزنها هي. تعذبت منى بشكل فظيع منذ ذهاب سعد إلى الحرب، بحيث اعتقدتُ أنها قد تقرر التوجه إلى الجبهة، لتتواجد معه في الخنادق نفسها. شعرت بالأسى نحو منى المسكينة.

أطل الصباح أخيراً، واستطاعت منى الاستغراق في النوم.

رحت أذرع المسافة ما بين غرفتي وغرفتها جيئةً وذهاباً، وراقبت حركة صدرها صعوداً وهبوطاً كي أتأكد من أنها لا تزال تتنفس. وقفت إلى جانبها بهدوء، ورفعت لها عدة خصلات من شعرها الذي غطى وجهها، وأدخلت أصابعي بين ثناياه، ورحت أتأمل وجهها منبهرة بجمالها. احتفظت منى بجمالها الرائع، وعذوبتها الفائقة، وحركاتها الطفولية، برغم أنها تخطت الثالثة والعشرين من عمرها. التمعت بشرتها بهدوء برغم شحوبها الذي يشبه لون الخزف الصيني. لاحظت وجود مسحة من اللون الزهري على وجنتيها وشفتيها. تتمتع منى بسحر فاتن، ومشاعر رقيقة، بحيث إنني قلقت على صحتها منذ أن كنت فتاةً صغيرة.

تُعتبر منى فتاةً كبُرت نوعاً ما على الزواج بالنسبة إلى تقاليد

مجتمعنا، وبرغم ذلك كانت آية من الجمال والرقة، بحيث تلقت عروض زواج أكثر من معظم الفتيات الأخريات. عُرف عن منى أنها مُذعنة بطبعها، ومجتمعنا يقدّر كثيراً الزوجات المطيعات.

لم تقبل منى هذه الطلبات لأنها كانت تخجل من موضوع الزواج، كما أنها أرادت الاستمرار في العيش مع الوالدة. بدأ أقاربنا وجيراننا في التحدث، وقالوا إنه إذا لم تتزوج منى في وقت قريب جداً فستصبح عانساً، وستكون مضطرة إلى الاعتماد على أشقائها.

شاركت والدتي في التعبير عن شكوكها بصوابية السماح لمنى بتأجيل زواجها، لكن رأيي في النهاية كان ألا تتزوج أبداً.

أعرف أن معظم الرجال العراقيين يظهرون المحبة واللطف أثناء فترة توددهم من الفتيات، لكنهم عادةً ما يتحولون إلى أزواج أنانيين يتميزون بالمراس الصعب، أو حتى يتحولون نحو العدوانية بعد الزواج.

لم أرغب في أن تخضع منى لمثل هذه الترتيبات. أدرك أن أحداً لا يستطيع تقديم الحب، والحماية، والدلال، مثلما نفعل نحن. أحسستُ بأنه لدينا الكثير لنقلق بشأنه.

تلقينا صدمةً رهيبة في وقت لاحق من ذلك اليوم عندما سمعنا أن معركة ضارية تدور في الأهواز، وعلمنا أن آلاف الضحايا قد سقطوا نتيجة هذه المعركة. شعرت بأن قلبي قد قفز من شدة الخوف، خاصةً أن آخر رسالة تلقيناها من سعد قد أتت من ذلك المكان.

خيّمت علينا حالة من الذعر، ورحت أحدّق في والدتي، وهي فعلت الشيء نفسه. أنبأتني عينا والدتي أننا نفكّر في الشيء نفسه. هل كان حلم منى بمثابة إشارة تحذيرٍ لنا، أو كان نوعاً من الإحساس الداخلي؟ هل صحيح أن سعد يختنق؟ اندفعنا جميعاً لنعرف ما في وسعنا عن معركة الأهواز.

بُنيت الأهواز على ضفاف نهر قارون، وكانت جزءاً من الأراضي المحاذية للحدود مع إيران على طول شط العرب، ويُعرف أنها غنية بالنفط. بقيَ ذلك الشريط من الأراضي محطّ نزاعٍ ما بين إيران والعراق، منذ تأسيس دولة العراق. أقدمت ستّ فرق عسكرية عراقية على قصف منطقة الأهواز، وعدة مدن إيرانية أخرى. وقد اندفعت هذه الفرق العسكرية بسرعة نحو الداخل، واحتلت ما تزيد مساحته على ألف كيلومتر مربع من الأراضي الإيرانية. خيّمت حالة من التوازن العسكري ما بين الجيشين بعد الأيام الأولى للنصر العراقي، ولم تستطِع أي جهة إحراز اختراق عسكري حاسم.

أمضى سعد أيامه في الجبهة في خندق بسبب هذا الوضع، وعاش الحالة نفسها أيضاً ألوف وألوف من الجنود الإيرانيين والعراقيين الذين ربضوا في خنادق متوازية، منتظرين أول فرصة لقتل بعضهم بعضاً.

تحولت الحياة الإنسانية إلى سلعة رخيصة بالنسبة إلى حكومتنا. يعرف الجميع أن العائلات كانت تتلقى مبالغ مالية مقابل أفرادها الذين يموتون في مناطق القتال. قرّر صدّام حسين أن الحياة تساوي ما يوازي معاش شهرين، بالإضافة إلى معاش

تقاعد، وقطعة أرضٍ مجانية وجهاز تلفاز. رفع صدام المبلغ، مع استمرار الحرب، ليشمل سيارة تويوتا، وخمسة عشر ألف دولار نقداً.

لم نرغب في الحصول على أيّ من هذه المنافع برغم فقرنا، فكل ما أردناه هو عودة سعد.

هل سيخونه الحظ هذه المرة، وهو الذي نجا من ذلك الجحيم لمدة ستة أشهر، بينما مات الكثير من أصدقائه أمام عينيه؟

اعتاد سعد كتابة العديد من الرسائل، لكننا لم نستلم أي شيء منه منذ أسابيع عديدة.

أقلق صمته هذا الأسرة، ثم جاء ذلك الكابوس الذي حلُمت به منى، قبل أن تأتينا أخبار تلك المعركة الرهيبة. هل كان كابوس منى نوعاً من التخاطر والتواصل عن بعد؟

كدت أنهار عندما استُدعي رعد إلى مستشفى الرشيد العسكري، وهو المكان الذي يُنقل إليه المقاتلون الذين يصابون بجروح. تجمّعت العائلة لانتظار الخبر المقلق في منزل علياء.

رجع رعد بأخبارٍ سيئة، وأخرى حسنة، وبعض الأخبار المدهشة، وذلك بعد فترة انتظار طويلة وعصيبة. تضمنت الأخبار السيئة وجود سعد في المستشفى بحالة حرجة، بعد أن كاد يموت في الخنادق، أما الأخبار الحسنة فكانت أن سعد سيعيش. بقي أن الأخبار المدهشة تمثّلت في حلم منى الذي كان نوعاً من التخاطر في الواقع.

بدأ رعد يروي قصة سعد أمامنا. لاحظت أن يديه الناعمتين كانتا تتحركان من جهة إلى جهة: أصبح خط الجبهة في الأهواز خطِراً إلى درجة منعت سعد من مغادرة خندقه، حتى ليقضي حاجته، وبدأ حذاؤه العسكري بالتحلل في قدميه نتيجة تبلله في ذلك الخندق الموحل. اقتصر مرحاضه على صندوق صغير، أما مؤونته من الغذاء فنفدت.

أصيب صديق له، كان يجلس القرفصاء، على بُعد بوصات قليلة منه، إصابة مباشرة أثناء اشتداد القصف. أدت الإصابة إلى قطع رأس ذلك الصديق. أخذت القذائف بالتساقط بكثافةٍ منعت كل الموجودين في الخندق من رفع رؤوسهم إذا أرادوا رفع الذين ماتوا من الخندق. عاش سعد، لأيام عدة، جنباً إلى جنب مع جثث متحللة.

مرّ أسبوع، فمات جميع الموجودين في الخندق ما عدا سعد. نجا أخي وحده، ولم يكن هناك من شيء يُجبر الإيرانيين على التراجع. ذُعر سعد عندما سمع الجنود من حوله يتكلمون الفارسية في موقع قريب من موقعه. سمع سعد أحد الضباط الإيرانيين وهو يعطي أوامره بقتل كل جندي عراقي يرونه حياً.

أدرك سعد أنه أصبح معزولاً، وأنه تُرك من غير قصد وراء خطوط العدو الذي صمّم على عدم أخذ أسرى.

أغمض عينيه، واتخذ له وضعاً غير طبيعي وذلك ليخدع الإيرانيين، ويظنونه ميتاً. لم يتفحص الجنود الإيرانيون، لحسن حظه، خندقه بدقة، بل أسرعوا لتعقب الجنود العراقيين

الهاربين. قفز سعد من خندقه كي يهرب، ثم لاحظ حركة إنسان وراءه تماماً.

كان الهرب مستحيلاً، ولم يكن هناك من خيار غير الاختباء.

لاحظ سعد وجود كُوَم، على شكل أهرامات، من الجنود العراقيين المقتولين. اتخذ لحظتها قراراً سريعاً بالاختباء تحت الجثث المتحللة.

رجعت بي أفكاري إلى الليلة التي أيقظتنا منى فيها، عندما أخذت تصيح بأن سعد لا يستطيع أن يتنفس.

أخبرت سعد شيئاً من كابوس منى، فأكد لي أنه كافح بشدة كي يستطيع أن يتنفس في ذلك اليوم، كما أنه خاف أن يختنق.

صرخت أنا، ثم تبعتني والدتي، عند سماع كلماته هذه. شهقتُ، ثم وضعتُ يدي فوق حنجرتي، وشعرت بأنني أختنق أنا الأخرى. أدركت أنني لن أفهم في يومٍ من الأيام سر العلاقة الخفية التي تربط التوائم!

قال سعد إنه كان من الممكن أن يموت هناك، تحت تلك الجثث. وعندها كان من المحتمل أن لا نعرف مصيره بالتحديد، غير أن جنودنا قاتلوا باستماتة كي يسترجعوا الأراضي التي خسروها للتو. ساءت حالة سعد، وضعُفت قواه قبل أن يصل العراقيون إلى موقعه، وكان من الضعف والوهن، بحيث إنه لم يستطِع أن يُعلم الجنود عن مكان وجوده.

«مرّ بعض الوقت قبل أن تُسحب كومة الجثث ليتم دفنها. لاحظ جندي عراقي يقِظ حركةً بالقرب منه، وكان سعد هو الذي تحرك مكافحاً ليتنفس. حرّره ذلك الجندي قبل ثوانٍ قليلة من دفنه حياً في المقبرة الجماعية. نقلته سيارة إسعاف من ميدان المعركة إلى مستشفى الرشيد في بغداد.

علمنا من الأطباء أن صحة سعد قد تعرضت لخطرٍ شديد، وعلمنا أيضاً أن الجيش العراقي قد أعفاه من الخدمة العسكرية، وذلك عندما استلم التقارير الطبية عن حالته. شعرنا بالارتياح لأن سعد لن يعود إلى الخنادق، لكن بتنا نخشى أن يموت في عمرٍ مبكر.

وصلتنا أخبارٌ سيئة أخرى قبل أن نتمكن من استيعاب المعلومات المقلقة حول سعد.

أصبح رعد محور اهتمامنا عندما استلم أوامرَ تقضي بخضوعه لفحص جسدي لتقدير مدى صلاحيته للخدمة العسكرية.

(١١)

رعد يغادر المنزل

بغداد: ١٩٨٢ ـ ١٩٨٣

\ارتعشت يداي أثناء انشغالي بوضع أغراضي في الحقيبة. نستعد الآن جميعاً، رعد، ووالدتي، ومنى، وأنا، لمغادرة بغداد متوجهين إلى أوروبا. خيّم علينا خوف من أن تكون رحلتنا المزمعة كارثة علينا.

تسبب تسارع وتيرة الحرب مع إيران في زيادة الاضطرابات الداخلية في العراق. ومنعت السلطات العراقيين من السفر خارج البلاد، لكن الفساد المنتشر في العراق وصل إلى درجة استطعنا معها تخفيف الحظر عن عائلتنا لفترة محددة، وذلك عن طريق دفع رشوة كبيرة للموظف المختص. أراد معظم العراقيين في ذلك الوقت الخروج من بلادنا الخطِرة من دون أن يتمكنوا من ذلك، ولهذا السبب أثارت «إجازتنا» القادمة الحسد والشكوك في عقول جيراننا وأصدقائنا.

كان جيراننا وأصدقاؤنا على حق، لأننا في الواقع لم نكن ذاهبين في إجازة، كما زعمنا أثناء إجراء المقابلة مع المسؤولين الأمنيين، بل أردنا السفر لغاية غير قانونية. أدركنا أنه في حال

انكشاف خطتنا، وأُلقي القبض علينا أثناء مغادرتنا البلاد، فمن المحتمل أن نعرّض أنفسنا للإعدام.

قرر رعد مغادرة البلاد، وعدم العودة نهائياً إذا أمكنه ذلك. وضع شقيقي خططاً لبدء حياة جديدة في أوروبا. تطلب البدء في هذه الحياة الجديدة مبلغاً محدداً من المال. وعلمنا أن القانون العراقي يجيز لكل فردٍ من أفراد العائلة، الذي ينوي القيام برحلة خارج البلاد، أن يُخرج معه مبلغاً يساوي ١,٥٠٠ دولار أميركي. يستطيع سعد جمع مبلغ ٦,٠٠٠ دولار أميركي يكفيه لمصاريف معيشته إلى أن يجد عملاً، أو إلى أن يحصل على إذن لإكمال دراسته، وذلك إذا سافرنا معه.

لم نتوقع أن نبتهج برحلتنا التي وتّرت أعصابنا. عزمنا على تحمّل متاعب تلك الرحلة التي ستحط الرحال بنا في أوروبا، ثم نسلّم سعد المبالغ المالية التي نحملها، ونعود بعد ذلك إلى العراق حيث سنواجه مشاكل محتملة مع سلطات الأمن العراقية.

تساءلنا عن كيفية تفسير عودتنا المفاجئة إلى البلاد من دون أحد المشاركين في الرحلة. لكن الجميع أعربوا عن استعدادهم لتحمل كل المخاطر من أجل تمكين رعد من مغادرة العراق.

امتلك شقيقي سببين دفعاه إلى الهرب من العراق، أهمهما يتعلق بالحرب.

أعلن رعد، عندما مثُل أمام الجيش، رغبته في أن يصبح طياراً. وسبق لشقيقي أن سمع من سعد ما يكفي عن الخنادق كي يتجنب أن يكون في عداد الجنود المشاة. كشف الفحص

الطبي مشكلةً في عموده الفقري، لم يكن يعلم عنها شيئاً من قبل. حصل أخي بنتيجة التقرير على إعفاءٍ من الخدمة العسكرية لأسباب صحية، وهو الأمر الذي أحزنه كثيراً، لكنه جلب الفرح لأسرته.

لم تمر فترة الخطر بسهولة. فمع استمرار الحرب قلّ عدد الجنود. وأسرع الجيش بطلب التحاق شبان سبق له أن اعتبرهم غير صالحين للخدمة. أدركنا أن شقيقي، الذي لا يرضى بالقليل، غير مؤهل ليصبح طياراً، ولهذا سيُرسل في النهاية إلى جبهة القتال حيث سيعيش في خندق موحل، ويواجه حشوداً من الجنود المعادين.

فوجئنا كثيراً عندما علمنا أن الجنود الإيرانيين هم من صغار السن، واعتادوا التقدم إلى المعركة من دون الأسلحة النارية التقليدية. حملوا معهم سلاحهم الوحيد، وكان من النوع الروحي: مفاتيح الجنة التي تدلت حول رقابهم الغضة.

لم نستطِع إلا أن نشعر بالأسف لهؤلاء الجنود المزعومين، وبعضهم كان في التاسعة من عمره، ومعظمهم أولاد انتُزعوا من أحضان أمهاتهم ليُلقى بهم، بكل تهوّر، في أتون المعركة. حصدت نيران الرشاشات العراقية هؤلاء الفتيان الذين كانوا يسيرون أحياناً فوق حقول الألغام، وكانت أجسادهم الصغيرة تصبح هدفاً لقذائف المدفعية حيث تتمزق شر تمزّق.

لم تبلغ حكومتنا، برغم كل قساوتها، هذا الدَّرْك، بحيث ترسل الأطفال الصغار إلى أتون المعارك. ونحمد الله أننا، نحن العراقيين، لم نضطر إلى معايشة هذا الرعب بالتحديد.

تمثل السبب الآخر الذي دفع برعد إلى مغادرة البلاد، في عمله التجاري. درّس رعد في الجامعة لمدة عام واحد بعد تخرجه، ثم أسّس شركة كابلات مع أربعة من زملاء دراسته السابقين في مدينة الرمادي. تقع هذه المدينة على بعد ١٠٠ كيلومتر إلى الغرب من بغداد. اكتسب شقيقي مهاراته التنظيمية من والدنا الذي تلقى تدريبه في أوروبا، وهكذا تمكّن رعد من إدهاش شركائه، وخصوصاً عندما تمكن من الحصول على عقود عملٍ للشركة. يُذكر أنه من النادر أن ينجح أي شخص في العراق من دون الاستفادة من نفوذ أحد المقربين من صدّام، لكن شقيقي وشركاءه تمكّنوا من تحقيق المستحيل، على الأقل في البداية.

جاء وقت التحاق الشركاء الأربعة في جبهات القتال، فتقدم آباؤهم ليحلوا محلهم في الشركة. تبيّن أن هؤلاء الآباء لم يكونوا أخلاقياً في مستوى أولادهم المستقيمين. بدأ الشركاء الجدد بالتخطيط لسرقة أسهم رعد. رفض رعد التنازل عن حصته في الشركة، لكن الشركاء الجدد لجأوا إلى خال صدام حسين السيئ السمعة، خير الله طلبة (أو طلفة). استخدم خير الله نفوذ ابن أخته كغطاء لسرقة العراقيين وقتلهم. لم يلجأ خير الله إلى طلب التنازل بلطف، لكنه أمر رعد بالتنازل عن أسهمه وإلا فسيأخذها منه بالقوة. فهم رعد أن جزاء رفضه سيكون الحكم عليه بالسجن، أو حتى الإعدام.

يصعب عليّ نسيان ذلك اليوم الذي أتى فيه رعد إلى المنزل

يائساً، وهو يتساءل عن كيفية حماية حقه القانوني. أخذ يذرع ضفاف نهر دجلة ذهاباً وإياباً، وهو المكان الذي أحبه أكثر من بقية الأمكنة في بغداد. اكتشف رعد أنه فقد إيمانه ببلده، فلم يعد العراق بلداً يستطيع الرجل المتسلح بمبادئه أن يعيش فيه. اتخذ في نهاية المطاف قراره المحزن بمغادرة العراق، ولربما نهائياً.

بدأت وحدة عائلتنا بالتفكك. فبعد أن فقدنا والدي، وأوشكنا على خسارة سعد، وجدت أنه من الصعب عليّ أن أفقد رعد أيضاً. خشيت أن يكون قدري هو خسارة جميع الرجال الذين أحبهم في حياتي.

اختفى شارباست أيضاً، ولم أره منذ ما يزيد على السنة، لأنه فرّ إلى كردستان. تم استدعاء ذلك الطالب الجامعي إلى الخدمة العسكرية، مثلما كنت أخشى، بعد إجرائه الفحوصات الطبية العسكرية، لأنهم وجدوه في صحة تامة. أدركت حينها أن شارباست لن يحصل على إعفاء من الخدمة لأسباب صحية.

لم يتمكن شارباست من تجنب الخضوع للتدريب العسكري، لكن لا شيء يستطيع إجباره على الانضمام إلى صفوف أعدائه الذين يكرههم كثيراً في ميادين القتال. تسلّل الرجل بعيداً عن وحدته العسكرية وفرّ إلى كردستان. التحق شارباست هناك بالاتحاد الوطني الكردستاني، وهو المنظمة التي أنشأها جلال الطالباني، وهو عضو سابق في الحزب الكردستاني الديموقراطي، أول منظمة سياسية أنشأها «البشمركة» الأكراد.

لم يترك لي شارباست حتى ذكرى حلوة واحدة تجمعني معه. لم يترك أي ذكرى كان يمكنها أن تساعدني على تحمل أيام غيابه البائسة بالنسبة إلي.

أدهشني شارباست، قبل مغادرته بغداد، بطلب قدّمه إلي. طلب مني أن أحدثه على انفراد عندما تلاقينا في ردهة منزل علياء. بدا شارباست، ذلك الرجل الجدّي على الدوام، فرِحاً كأن شيئاً لا يهمه في هذا العالم، بالرغم من أنه سرعان ما سيصبح رجلاُ تطارده حكومة بغداد، وهو الأمر الذي سيضعه مع أسرته في خطرٍ شديد. علمت أن عائلة شارباست الشجاعة وأشقاءه قد شجعوه على القتال ضد نظام صدام، وقالوا له إنهم على استعداد للتضحية بكل شيء من أجل دعم القضية الكردية.

بدا شارباست في ذلك الصباح بالذات، فرِحاً مثل الأطفال.

همس لي بنعومة: «جوانا، يتعيّن عليّ أن أغادر بسرعة، لكن عليّ إنهاء بعض الأعمال في الجامعة قبل أن أذهب. أتحبين أن ترافقيني؟».

التمعت عيناه الواسعتان والداكنتان، وارتسمت ملامح ابتسامة مرحة على وجهه. لاحظت أن شعره قد طال قليلاً، وبدت خصله المتجعدة والجذابة مسترسلة على سجيتها. ظهرت هذه الخصَل كأن عاصفة ريح عاتية هبّت عليها.

حدّقت فيه مدة من الوقت من دون أن أقدّم جوابي، في حين منعت يدي اليد الأخرى من الاندفاع لمداعبة خصلات الشعر هذه. فكّرت في أن الأمر هو من الحلاوة بحيث يصعب

عليّ تصديقه، بينما اخترقتني جرعة من توقع ما سيحصل. تأكدت الآن من أن شارباست سيفاتحني أخيراً في موضوع الزواج.

قلت موافقةً: «نعم! نعم، بالطبع».

جاء ذلك اليوم السحري أخيراً، بعد سنين من التخيلات التي حلمت بها. سنسير معاً، وحدنا، بعد سنين من الاشتياق العاطفي الذي شعرت به. ضحكنا معاً عندما لاحقنا، ركضاً، باصات المدينة التي تسير في الشوارع المزدحمة. انحنى باتجاهي أثناء ركوبنا الباص متجهين نحو الجامعة، وراح يتطلع من خلال نافذة الباص، وأغنى اللحظة الراهنة التي نعيشها بملاحظاته الدقيقة، لافتاً انتباهي إلى غنى حياة الشوارع البغدادية. لم يسبق لي أن لاحظت تناقضات مجموعة الشخصيات البغدادية: تجار الشوارع البدينين وهم يخبئون نقودهم؛ ربات البيوت المستعجلات وهن يصرخن بأولادهن غير المطيعين؛ والفتيان الذي يحاولون إبقاء التوازن في صررهم المنتفخة؛ والمحبين الخجولين وهم يصدرون إشاراتهم السرية؛ والنساء العجائز والبدينات بشكل مذهل؛ والرجال المسنين الذين يجلسون في حرارة النهار وهم يفتحون أفواههم ويغلقونها، كأنهم أسماك المسكوف، وهي الأسماك التي تُعتبر طبقاً مميزاً في مقاهي بغداد المنتشرة على ضفاف النهر.

جعلني شارباست أضحك حتى انهمرت الدموع على وجهي، كما لو أن مرحنا خلق نوعاً من روح الدعابة في ما بيننا وبين

الغرباء الموجودين في الباص، الذين حدقوا فينا بتعاطف مميز. أعتقد أنهم ظنوا أننا زوجان جديدان عادا حديثاً من شهر عسلهما.

أعطتني كل حركة قام بها شارباست بهجة خاصة، ووجدت نفسي أبتسم، حتى عندما تركني وحدي ليُنهي عمله في الجامعة. تمنينا، أثناء رحلة عودتنا إلى منزل علياء، أن يطول هذا النهار، وهكذا دخلنا إلى مكتبة. توقفنا أمام قسم القصص الخيالية، ولامست أصابعي الكتب برفق لأن تركيزي انحصر عليه. وجدت صوته مغرياً وعذباً، إلى درجة أنه عندما اعترف لي بأنه يحب أن يكون شعري طليقاً وطويلاً، ظننت للحظة مثيرة أنه وقع في حبي.

لا تُعتبر بغداد المكان الذي يستطيع فيه المرء التحدث بصراحة. وهكذا اقترب مني وهمس بأذني. كان وجهه قريباً مني بحيث إنه لم يسبق لي أن رأيته بهذا الوضوح. حدّق فيَّ متأملاً، واختزنت عيناه، المركزتان عليّ، كل لهيب الحياة. سمعته يهمس بأنه لا يهاب الموت، وبرغم ذلك فهو يريد أن يعيش، وأن يعمل، وأن يحصل على منزل مريح، وأن يختبر معنى الزواج بامرأة جميلة، وأن يحمل ابنه بين ذراعيه.

إن كانت السعادة التامة موجودة في هذا العالم، فأنا أعيشها في هذه اللحظات.

اقتربت منه، وكادت أنفاسي تتقطع، منتظرةً أن أسمع الكلمات التي تأكدت من أنها لا بد آتية. إنه، بالتأكيد، على وشك أن يبلغني أنه لا يستطيع العيش من دوني.

سيكون ردي إيجابياً بالطبع. جعلتني مخيلتي المتحمسة أودّع الجميع في بغداد، وأسرع بإعداد حقيبةٍ صغيرة استعداداً لمغادرة بغداد مع شارباست، والتوجه إلى كردستان. أعتزم الرحيل معه إلى قريةٍ يعيش فيها «البشمركة». أعتزم أيضاً أن أساند هذا الرجل في جميع مهماته.

ابتسمت ابتسامة عريضة بحيث توقف عن تأملاته، لكنني شجعته: «هيا. هيا».

أعترف بأن هذه ليست هي الطريقة المتبعة في مجتمعنا لعقد خطوبة. أعتقد، برغم هذا، أن ارتباطاتنا العائلية قد جعلت كل شيء أقل تعقيداً. أعرف أنني متميزة عن بقية النساء في أنني أعرف شارباست منذ أعوام عديدة، وسبق لي أن اكتشفتُ أنني أحبه. استمررتُ منتظرة كلماته السحرية. انتظرت، وانتظرت.

بدا شارباست أخيراً أنه تعب من الكلام. أومأ لي لجهة الباب الذي يؤدي إلى الشارع وقال: «يتعيّن علينا أن ننصرف، تأخر الوقت كثيراً».

تبعته بعد أن سيطرت عليّ حالة من الجنون، وخرجنا من المكتبة من دون أن أتأكد مما حدث للتو. كنت قلقةً إلى الدرجة التي كدت أندفع فيها لأصرخ بأنني أحبه، وأنني لا أستطيع أن أدعه يترك بغداد من دوني، وأنني أرغب في الزواج به.

لم أستطِع أن أقول أي شيء. إنني أدرك أنه يتعيّن عليّ أن أكبح جماح نفسي إذا أردت المحافظة على شرفي. تستطيع الفتيات الكرديات إظهار الجرأة في أمور كثيرة، لكن عندما

يتعلق الأمر بالحب والزواج، فإننا لا نستطيع المضي قدماً والترويح لأنفسنا.

أدرك أنني فعلت كل ما في استطاعتي لأحمل شارباست على اليقين من مشاعري. أمضيت نهاري معه، وأصغيت باهتمام إلى كل كلمةٍ قالها. ابتسمت بوجهه، وضحكت معه. لا تستطيع الفتاة الكردية أن تفعل أكثر من هذه الأشياء.

بدأت الأفكار تتجاذبني. استنتجت، في محاولةٍ يائسة مني لإحياء آمالي، أنه يُحتمل أن يكون شارباست يخطط لخطفي بدلاً من مصارحتي بحبه وطلب يدي للزواج. يعرف الجميع أن الخطف ليس بالطريقة غير الشائعة لتسريع عملية الزواج. بدأت آمالي في التحليق مجدداً مع هذا الاحتمال.

فكّرت في أن أُبلغ شارباست أنه ليس مضطراً إلى خطفي. سأذهب معه بكل طيبة خاطر، لكن فقط إذا طلب مني ذلك. لم أُبلغه شيئاً، وهو لم يطلب مني شيئاً.

بقي مزاجه على تحفظه، حتى أنه كان فظاً بعض الشيء، أثناء رحلة العودة في الباص. ماذا حدث؟ أدركت أنه ما من شيء أستطيع قوله، أو فعله، يستطيع التأثير في مزاجه المتغيّر. حدّق في كل شيء، ما عدايَ أنا.

بماذا كان يفكّر يا ترى؟ هل ظنّ أنه وقع في الحب، لكنه اكتشف بعد كل شيء، أنه لا يحبني، وأنني أقل قيمةً مما ظنه في البداية، وأنه عرف هذه الأمور دفعة واحدة، فقط، خلال خروجنا معاً؟

انحنيت إلى الأمام. وضعت ذقني بين يدي لأنني وقعت فريسة هذا النوع من المعاناة التي يحوطها الشك. ترنحت أفكاري وتهاوت واحدةً بعد أخرى. سيغادر بغداد في اليوم التالي، ويُحتمل ألا أراه ثانية.

يتعيّن عليه أن يطلب أن أتزوج به. يتعيّن عليه ذلك! لكنه لم يفعل.

أبعد قلبي القلِق النوم عني، فبقيت وحيدة في ساعات الليل الساكنة. غادر شارباست بغداد صباح اليوم التالي بعد وداع بارد.

لم أره منذ ذلك الحين. حتى أنني لم أستلم أي رسائل منه. جرت في ذلك الوقت معارك متفرقة، لكنها عنيفة، ما بين «البشمركة» والجيش العراقي. لم تتوفر أي وسيلةٍ لي لأتأكد مما إذا كان شارباست حياً أو ميتاً، لكن حبي له لم يضعف أبداً.

(١٢)

نهاية الأمل

بغداد: ١٩٨٤

سار كل شيء على ما يرام بالنسبة إلى رعد وهروبه من العراق. لم يُقبض على أحدٍ منا بعد عودتنا من أوروبا بدونه، وذلك بعد انقضاء ثمانٍ وأربعين ساعة فقط عل مغادرتنا. سادت الاضطرابات الكثيرة العراق بعد أربعة أعوام مرّت على الحرب، ولذلك لم ينتبه أحد إلى مغامرة هروبنا. حالفنا الحظ هذه المرة، وهو الأمر الذي كان نادراً ما يحصل في حياتنا.

استطاع رعد أن يحقق نجاحاً في سويسرا. وفي غضون سنة واحدة فقط، استطاع أن يتوظف في شركة كبيرة، وأصبح على وشك الحصول على إقامةٍ في ذلك البلد الأوروبي. اجتمعت عنده الدقة في التفاصيل، التي ورثها عن والدنا، مع دقة السويسريين الشهيرة في العالم أجمع.

أدركت أخيراً أن مغادرة رعد بلادنا المضطربة هي أفضل له، برغم أنني اشتقت إليه. إن جمود الوضع العسكري على ما هو عليه صَعّب من تخمين الطرف الذي سيخرج منتصراً من هذه المعمعة. دعم الأميركيون صدّام في السنة الأولى من الحرب،

ويعود دعمهم هذا إلى غضب الولايات المتحدة وشعورها بالمرارة إزاء عملية احتجاز الرهائن الأميركيين في إيران. اطمأن الكثير من العراقيين إلى ثقتهم الشديدة بأن الأميركيين لن يسمحوا للإيرانيين بتحقيق فوزٍ في هذه الحرب، لكن الحرب استمرت بضراوتها.

أعرف أن شارباست ما زال على قيد الحياة، لكنه جرح قلبي ومزقه شر تمزيق. تلاشت عندي نهائياً الآمال التي بنيتها على الزواج به في يوم من الأيام، والعيش معه حياة المحاربين، وإنجاب الأطفال. تفكك كل ما يربطني بشارباست سريعاً، وبشكل غير متوقع.

مرت سنة، وما زلت أتابع دراستي في الجامعة. مرّ عام على عدم رؤيتي شارباست، لكن لم أتوقف أبداً عن الشعور بالحزن على غيابه. صمد حبّي له، بالرغم من أنني تلقيت أثناء دراستي الجامعية أكثر من عرض واحد بالزواج، لكن عن طريق عائلتي. تلقيت هذه العروض من رجالٍ وسيمين، ومرحين جداً، وجميعهم وعدوا بمستقبل زاهر، لكني رفضت كل هذه العروض، وهو الأمر الذي سبّب القلق لعائلتي.

احتار الجميع، ما عدا علياء ومنى، برفضي العنيد لكل هذه الطلبات. عرفت شقيقة واحدة من شقيقتيّ، أي علياء، سري، وهو أنه يستحيل عليّ أن أتزوج برجل في الوقت الذي لا أزال أحب فيه شخصاً آخر. أمضيت سنيّ دراستي الجامعية في انتظار المجهول، وهو الأمر الذي كان يتنافى مع عادات بلادنا وثقافتنا.

وصلت في أحد المساءات إلى منزل علياء، ووجدته هناك!

بدا واضحاً من ملامحه الجسدية أن الحياة في الجبال كانت صعبة ومليئة بالتحديات بالنسبة إليه. وقف أمامي بوسامته التي أتذكرها جيداً، لكنه أصبح نحيلاً بعض الشيء، ولاحظت أن خطوط التجاعيد العميقة قد أحاطت بعينيه وفمه.

سعدت لرؤيته بحيث لم أستطِع الامتناع عن الابتسام، وأدركت أن انجذابي نحوه ما زال قوياً كما كان دائماً.

لاحظت بعض التغيرات الأخرى التي طرأت عليه، فشخصيته أصبحت أكثر تحفظاً. بقي ودياً بما يكفي، لكنه ليس ودياً جداً، وادّعى بغموض أنه حضر إلى بغداد لدواعٍ سياسية.

اتصل كثير من الأكراد بالمقاتلين الإيرانيين أثناء أعوام الحرب الطويلة. بلغ كرهنا لحكومتنا العراقية حداً جعل هؤلاء يفضلّون الإيرانيين، وهم الشعب الذي يحاربه العراقيون، من أجل بقائهم. وجد صدام حسين هذا الوضع مهيناً وغير محتمل. حاول الرجل إيجاد تسوية مع الأكراد لمنعهم من التحالف مع الإيرانيين، فأقدم على الموافقة على وقف إطلاق نار، نادر جداً مع الأكراد. حدث ذلك في أواخر العام ١٩٨٣، واستطاع الاتفاق الصمود لمعظم أشهر العام ١٩٨٤. نال مقاتلو «البشمركة» عفواً خلال فترة وقف إطلاق النار، وهو الأمر الذي سمح لهم بمغادرة الجبال والتجول في المدن. ولولا هذا الأمر لما تمكّن شارباست من القدوم للزيارة.

تأكدت، بالرغم من سلوكه غير المبالي، من أن شارباست

قد حضر إلى بغداد من أجل هدفٍ واحد فقط: جاء من أجلي. غمرتني أجواء احتمال عرضه للزواج بي، فبدأت بوضع خططي.

لن أسمح لشارباست بمغادرة بغداد هذه المرة من دون إجراء حديث جدّي معه عن مستقبلنا. بلغتُ الثانية والعشرين من عمري في ذلك الوقت، وبدأت أتهيأ للتخرج من الجامعة. تحضّرت للزواج، بشرط أن يكون زوجي شخصاً معيّناً فقط: شارباست. قررت أنه من بين أكثر من ٤ مليارات ونصف مليار شخص، الذين يعيشون على الكرة الأرضية في العام **١٩٨٤**، والذين نصفهم، تقريباً، من الرجال، يبقى هو المؤهل فقط للزواج بي.

حاولت في البداية أن أستدرجه إلى إجراء حديثٍ بيننا، وطلبت منه أن يروي لي عن مغامراته القتالية، لكنني استغربت بقاءه على صمته. يتكفل الحب بالعفو عن كثير من الأخطاء. هكذا فسّرت تردده بسرد مغامراته بقساوة حياته كمحارب، وهي من القسوة بحيث لا يستطيع التحدث عنها.

جلس ذات مساء أمام الطاولة التي أعدتها علياء، ورأيته يحمل كوباً من الشاي بيده، فاعتبرت أن هذه هي فرصتي. انضممت إليه من دون أن يدعوني، وقلت مستقصيةً: «شارباست، هل سترجع إلى الشمال إذا انهار السلام القائم؟».

أجابني بشيء من التحفظ: «نعم».

مرّت فترة صمت طويلة.

شرب الشاي، وبدأ يحدّق في يديه اللتين امتلأتا بالخدوش

الكثيرة. ساءني وضع يديه، ورحت أتساءل عن نوع العمل الذي قامت به هاتان اليدان الجميلتان.

نظرت بعيداً، لكني حذّرت نفسي كي لا أقع ضحية اليأس. أخذت نَفَساً عميقاً. أتت اللحظة المناسبة أخيراً. سأقول أي شيء من أجل الحصول على ما أريده.

أعلنت أمامه: «أريد الذهاب أنا أيضاً، وباستطاعتي القتال. أريد أن أقاتل».

أدركُ أنه على امتداد التاريخ الكردي، أخذت المرأة الكردية، وليس العراقية، دورها في القتال إلى جانب الرجال، لكنني قررت أنه إذا أُتيحت لي الفرصة فباستطاعتي أن أتعلم كيفية إطلاق النار من البنادق، وباستطاعتي التبرع بنقل الرسائل، وهكذا أجعل من نفسي امرأة نافعة.

تطايرت خصلات شعر شارباست عندما دفع رأسه إلى الوراء، واستغرق في الضحك. أشّر بسبابته عندما أيقن أنني جادة، وقال: «أنت لا تعرفين عما تتحدثين يا جوانا. إنها حياة خطِرة. يستعد المرء لخوض معركة في كل لحظة، ويتجنب الجنود، أو يختبئ من «الجحش» (المخبِر). يحيطنا الموت من كل جانب. وقد اختطف بعض أصدقائي المقربين».

أعرف أن ما يسمى «الجحش» هو واحد من المرتدين الأكراد الذين قبلوا الرشى من حكومة بغداد ليتجسسوا على إخوانهم الأكراد، وذلك من أجل التهرب من الخدمة في الجيش

العراقي. إنهم التافهون من الأكراد، الذين يتسببون في اعتقال العديد من مقاتلينا ومقتلهم، بالإضافة إلى المتعاطفين معنا.

رفضت الاستسلام بهذه السهولة: «أعرف منذ طفولتي يا شارباست، أنني منذورة لدعم «البشمركة» يوماً ما».

امتزجت كلماته بالحدة: «لا. لا يا جوانا. إنها ليست الحياة المناسبة لك. إنك تنتمين إلى المدينة، واعتدت حياتها، والحصول على كل إغراءاتها». أشار بخفة إلى كل وسائل الراحة الحديثة الموجودة في منزل علياء في بغداد. تابع قائلاً: «لا تعني الحياة الجبلية شيئاً غير التضحية. اسمعيني جيداً. إنني أتناول الطعام نفسه كل يوم، ويمكنكِ أن تعرفي أنه طعام سيئ. وليس من النادر لي أن أنام في العراء، وفي الطقس البارد، ومن دون دثار. تقصفنا الطائرات كل يوم، والقصف ينزل علينا كالمطر دوماً. نصاب بجروح في أحيان كثيرة، ويُمنع على الأطباء معالجتنا، لذلك يموت الكثير من الناس بسبب إصابتهم بجروحٍ يُمكن الشفاء منها، وكل ذلك بسبب قلة الأطباء».

وجدت صعوبة في منع يديّ من الارتعاش عندما التفت مقترباً مني ليشدّد على وجهة نظره. قاومت عندها رغبتي في تمسيد وجهه.

قال معاتباً بصوت يكاد يعلو ليقارب الصراخ: «جوانا. سأقول لك الحقيقة كاملة: إن الانضمام إلى «البشمركة» يعني أن الكثير من الرجال الأشرار سيفعلون كل ما في وسعهم لقتلك».

أحسست بأنني سأخسر هذا النقاش، وأنه سرعان ما سيذهب، وأنني سرعان ما سأعود إلى التثاؤب في أيام الانتظار التي لا تُحتمل. رددت عليه بحزم وأنا أكرّر ضاربةً قبضتي على الطاولة: «لا يهمني. لا يهمني».

قال: «لا، يكفي!».

أرجع كرسيه إلى الوراء، وأسرع إلى حوض الجلي (المجلى) ليهرق فيه آخر النقاط المتبقية من الشاي في كوبه. وضع الكوب بقوة كانت كافية لتسحقه. غادر الغرفة من دون أن يلتفت إليّ.

انهار وقف إطلاق النار، كما توقعت تماماً. شعر الأكراد بأنهم يتعاملون مع قائد غارق في المشاكل، ووصل الأمر بهم إلى الاعتقاد أنه سيُطاح به قريباً. لم يجد هؤلاء ضرورة للتنازل أمام مطالبه، فهو سرعان ما سيترك الحكم. وثق القادة الأكراد كثيراً بقرب تنحية صدّام عن السلطة إلى درجة أنهم ضمنوا مفاتيح النصر، وقبعوا ينتظرون.

أسرع شارباست إلى مغادرة بغداد ليعود إلى ساحات القتال، لكنه لم يكلّف نفسه عناء توديعي.

رجعت إلى المنزل لأنضم إلى والدتي. أدركت أن حبي لشارباست هو ضرب من الجنون. لم أعرف كيف يمكنني أن أتوقف عن حبه، بالرغم من سلوكه الذي جرحني.

مضت ثلاثة أيام. تركت علياء أولادها الثلاثة برعاية جارة

تثق بها، وركبت الباص عبر شوارع المدينة لتراني. وجدتني وحيدة في المنزل. كانت والدتي قد ذهبت إلى سوق الخضار، بينما غادرت منى لزيارة صديقة لها.

انشغلتُ بكيّ فستان كنت أجهزه لأرتديه في صفي الجامعي في اليوم التالي، بينما تصاعدت أصوات جهاز التلفاز في غرفة مجاورة. تميّز تلفزيون بغداد في تلك الأيام ببرامجه المكررة التي لا تطاق، تركز جميعها على الحرب، وعلى البروباغندا لصدام حسين. أتذكر أن البرنامج حينها كان إعادة لخطاب ألقاه صدّام، وطلب فيه من الجنود العراقيين «قطع رؤوس الإيرانيين». عبس الرجل وراح ينصح جنودنا «بالضرب بأشد قواهم، لأن الرؤوس التي يضربونها تتآمر مع الخميني المجنون». وصف صدّام رجالنا «بسيوف الله على الأرض».

تطلعت نحو شاشة التلفاز فرأيت صدّام جالساً وراء مكتبه. إنني أكره هذا الرجل كثيراً، فهو السبب في عدم تواجد رعد معنا، كما أنه سبب معاناة أخي سعد من مشاكله الصحية. إنه سبب اختيار شارباست أن يعيش حياة «البشمركة» بعيداً عني.

تمنيت في مرات كثيرة، أن يحسّن صدّام حسين أوضاعنا بموته. توقفت عن الكيّ لأتفحص صورته للحظات قليلة. اكتشفت، لأسفي، أن ديكتاتورنا الدائم يتمتع بصحة جيدة.

حدث هذا عندما دخلت علياء إلى المنزل من دون أن تقرع الجرس.

ابتسمت لأحييها، لكن ابتسامتي تلاشت بسرعة. أرعبتني

الملامح المتجهمة التي ارتسمت على وجه شقيقتي. تدافعت أسوأ الاحتمالات إلى ذهني.

شارباست! هل مات شارباست؟

«اجلسي يا جوانا».

أمرتني علياء بالجلوس، بينما كانت تدفعني إلى الوراء حتى لامست ساقاي الأريكة. دفعتني برفق على كتفيّ. جلست على الأريكة.

وجدت شقيقتي صعوبة بتبليغ رسالتها: «جوانا. شارباست...».

لم أستطع تحمل شكّي، ولو للحظة أخرى. صرختُ: «هل مات شارباست؟».

«مات؟ لا. أوه، لا. إنه حي». توقفت علياء قليلاً، وتطلعت بي بتأمل: «إنه على قيد الحياة... لكن».

«إذاً، هل جُرح؟».

«لا، يا جوانا».

انحنت علياء إلى الأمام، ثم أمسكت ساعديّ بيديها قبل أن تتطلع إليّ مباشرة، وتعثرت كلماتها غير المفرحة في فمها: «جوانا، أصغي إليّ. طلب شارباست من فتاة أخرى أن تتزوج به».

أرجعت رأسي إلى الوراء. لا بد من أنني لم أسمع جيداً.

«ماذا قلتِ؟».

«كان ذلك هو سبب قدوم شارباست إلى بغداد. أتى إلى هنا ليطلب من فتاةٍ أخرى أن تتزوج به».

ماذا؟».

«يريد شارباست أن يتزوج يا جوانا، لكنه لن يتزوج بك أنت».

رحت أتمتم: «بمن سيتزوج إذاً؟».

«لا تعرفينها أنتِ يا عزيزتي. كانت معه في صفه، في الجامعة».

«وما اسمها؟».

«لا أعرف اسمها يا جوانا. أعرف فقط أنه طلب من زميلته السابقة، وهي فتاة كردية، أن تتزوج به».

شعرت بأن ذهني علِق في دوامة، بحيث إنني بالكاد استطعت أن أستوعب الأشياء التي تخبرني إياها علياء.

«جوانا؟ هل أنتِ بخير؟».

لم أشعر بأنني بخير. حاولتُ أن أنهض، لكنني عجزت عن النهوض.

احتضنتني علياء وقالت لي: «لربما كان هذا أفضل. كان شارباست بمثابة عذاب بالنسبة إليك منذ اللحظة الأولى للقائكما. أدركتِ الآن أن الله لا يريدكما أن تجتمعا معاً. تستطيعين اختيار رجلٍ آخر الآن».

رحت أتمتم: «مات شارباست، بالنسبة إلي على الأقل».

ارتدّت علياء إلى الوراء لتتطلع نحوي، واستطعت أن ألحظ شبح ابتسامة على وجهها: «أنتِ جميلة جداً يا جوانا. كم هو عدد عروض الزواج التي رفضتِها؟ قولي لي الآن، هل هي خمسة؟ عشرة؟».

بدأت دموعي تنهمر واحدة بعد أخرى، انهمرت حتى شكّلت غشاوة على عينيّ، لكنني وجدت ما يكفي من القوة في نفسي لأنهض وأقف، ورحت أهزّ كتفيّ، وأحاول الفكاك من معانقة علياء حتى تركتني. ركضت نحو المدخل، ثم نزلت إلى الشارع.

توقفت عن الركض عندما وصلت إلى ضفاف دجلة. رميت نفسي على ربوة مكسوة بالعشب. رحت أحدق في المياه المتموجة لنهر دجلة الذي يشق طريقه عبر المدينة المعذبة، ومن دون أن أكترث لمسح دموعي. شاهدت عدداً من الفتيان المراهقين الصغار يسيرون في طريقهم لممارسة هوايتهم اليومية في السباحة. حوّلت وجهي عنهم.

سيتزوج شارباست بفتاة أخرى. لم يشأ أن يتزوج بي أنا. أعرف الآن أنه لم يرغب في أن يتزوج بي في وقتٍ من الأوقات. أنا لا أعني شيئاً بالنسبة إليه. وأنا لم أكن أعني شيئاً بالنسبة إليه على الإطلاق. عرفت الآن سبب ابتعاده النفسي عني في آخر زيارة قام بها إلى بغداد. انشغل بها كلياً، حتى في الوقت الذي كنت أندفع كالمجنونة في اتجاهه.

انكمشت في عار ذكرياتي. تذكرت على الأخص ذلك اليوم الذي جلسنا فيه في المطبخ عندما كدت أطلب منه أن يتزوج بي.

من هي تلك المرأة التي أحبها يا ترى؟ كيف استطاعت الاستحواذ على قلبه؟ ومتى وقع في غرامها في وقت كان يستطيع فيه الحصول عليّ أنا؟

اخترقتني موجة من الغضب. ألا يُفترض به أن يدرس خلال وجوده في الجامعة؟ أعرف كل شيء الآن. التحق بالجامعة كي يستطيع الالتقاء بعرائس محتملات له!

سيطرت عليّ أسوأ أنواع الغيرة. من تراها تكون؟ من تراها تكون؟ هل تبادله الحب؟

أعرف شيئاً على وجه التأكيد: لن تستطيع هذه المرأة أن تحب شارباست كما أحبه أنا. لن تعرفه كما عرفته أنا. تمكنت من التعرف إليه على مدى السنين، واختبرت أمزجته كلها، وقاسمته كل أحلامه. وحدث أكثر من مرة أن يبدأ جملةً، وأقوم أنا، بصمت، بإنهائها عنه. كان ذلك الرجل الذي يستطيع شخص أوحد آخر «حفظه» غيباً، وأنا هي ذلك الشخص!

انحنيت إلى الأمام، ووضعت رأسي على ركبتيّ، ورحت أتأوه. إنه لا يحبني! هو يحب امرأة أخرى. وقفت بسكون تام، وشعرت بالانهيار.

غمرني شعور بالوحدة، حتى ولو أنني محاطة بكل ضجيج بغداد التي تعج بالحياة، ومشاهدها.

مرّت بقربي امرأة عجوز ذات وجهٍ متغضن. حملقت بي باستياء. استطعت قراءة أفكارها: ماذا تفعل شابة تقف وحدها على ضفة النهر؟ هل ستقدم على إيذاء نفسها؟ حدقت فيها بدوري، وكافحت دافعاً نشأ عندي لأقفز وأصفع وجهها، كَي أمحو شكوكها غير المستندة إلى واقع. مرّ شبان بمحاذاة النهر، ولاحظت تماوج «دشداشاتهم» مع النسيم. شعرت بالحنق لأنهم ليسوا في جبهات القتال كي يدافعوا عن وطنهم. شاهدت رجالاً يقودون عربات تجرها الحمير المثقلة بالأحمال، وهم يحثونها بصراخهم على المسير. تمنيت أن تقبض الشرطة عليهم بسبب إساءة معاملتهم تلك الحيوانات المسكينة. مرّت بقربي أيضاً مجموعة من فتيات المدارس مشين مثل سرب من البط. لاحظت أن أزياءهن المدرسية لا تزال على حالها بعد يوم دراسي طويل. نظرت الفتيات بخجل في اتجاه الشبان اللطفاء الذين تجمعوا في النهر، لكنهن التفتن بعيداً وضحكن عندما بدأ الفتيان يتطلعون نحوهن باهتمام.

أعتقد أن هؤلاء الفتيات حمقاوات، مثلي أنا بالضبط! كرهت كل شخص وقع عليه نظري في ذلك اليوم.

لم أجد القوة الكافية للنهوض قبل أن تهدد الظلمة بالانتشار، وقبل أن يعكس دجلة ضوء القمر الأصفر. دفعت نفسي بجهد بعيداً عن ضفة النهر كي أعود من حيث أتيت. وجدت والدتي، وعلياء، ومنى، في انتظاري بقلق بالغٍ بعدما عدت إلى المنزل.

افترضتُ أن علياء قد أخبرت والدتي، أن ابنتها الصغرى وقعت في غرام رجل لا يبادلها الحب.

نظرت بسرعة في اتجاه النساء الثلاث اللواتي قدّمن إلي أكبر قدر من الحب من بين كل الناس. همست لهن عندما مررت أمامهن، ووضعت إصبعاً فوق شفتيّ: «لا أستطيع اليوم التحدث عن هذا الموضوع». تسللت إلى غرفتي برغم صرخات الاحتجاج المحبطة التي صدرت عن علياء ووالدتي. أقفلت الباب ووضعت أمامه صندوقاً معدنياً ثقيلاً. وقفت أحدق في صورتي المنعكسة في المرآة.

ظهر الشحوب الشديد على وجهي، أي بعكس البياض الذي تتميز به منى، وهو الشيء الذي تمنيته منذ زمن طويل. لاحظت أن بياض وجهها، الذي يميل إلى لون الخزف الصيني، هو لون محبب، بينما اكتسى وجهي الأبيض بمظهر متبقع غير صحي. لم تعكس مرآتي أي أثر للجمال.

استمررتُ مع ذلك في التحديق في صورتي الحزينة. أدركت أنني خسرت كل شيء. لا أمتلك الخيارات في وضعي هذا، لأنه يتعيّن عليّ أن أتحمل الأشياء التي لا أطيقها. تمثلت الحقيقة التي لا يمكن دحضها في أن شارباست طلب من امرأة أخرى أن تتزوج به. لم أنسَ أن آمالي وأحلامي في الفوز بقلب شارباست، كانت القوة الرئيسية التي تدفع حياتي منذ أن بلغت الخامسة عشرة من عمري، أي منذ سبع سنوات مضت.

لم يعد عندي ما أخسره.

(١٣)

البوليس السري

بغداد: ١٩٨٥ ـ ١٩٨٦

بدا كل شيء تقريباً في حالة بؤس دائم لمدة عامين. امتلكت الكثير من العوامل المشجعة، فأنا ما زلت في الثالثة والعشرين من عمري، وبصحة ممتازة، وأنهيت دراستي الجامعية، وكنت محط أنظار عددٍ من الخطّاب المؤهلين والمناسبين، لكني لم أستمد أي قَدْر من السعادة من أيّ منها. ميّز الحزن والكآبة، في الواقع، فترة هذين العامين إلى درجة أنني صلّيت طلباً للموت في بعض الأحيان.

لم تظهر نهايةٌ بعدُ للحرب الجهنمية مع إيران، بل إنها كانت تسوء من يوم إلى يوم. أخذ شبابنا يموتون بأعداد هائلة بحيث إن البلاد بأكملها قد امتلأت بالتوابيت.

توالت علينا كوارث أخرى، مثلما حدث حين اعتُبر صادق عثمان مفقوداً في جبهة القتال، وصادق هو ابن أحد أقارب والدي المفضلين عندي، العم عثمان. خشينا أن يكون من عداد أسرى الحرب.

ادّعت إيران أنها تمتلك ٥٠ ألفاً من شبابنا أسرى حرب عندها، بينما لا نحتجز من جهتنا أكثر من ١٠ آلاف من جنودها. يكمن سبب مهم وراء انعدام التوازن في عدد الأسرى. سرت شائعات مفادها أن الجنود الإيرانيين يرفضون الاستسلام، وهم يبتسمون بنشوة غامرة عندما تهاجمهم الدبابات، التي يواجهونها بأيدٍ فارغة مرفوعة نحو السماء طالبين الموت المحتّم.

تزايد الحقد على الرئيس صدّام حسين، بحيث دفع هذا الحقد الكثيرين من أعدائه في البلاد إلى محاولة اغتياله. تكررت هذه المحاولات كثيراً، ما دفع بالقوات الأمنية العراقية إلى تحويل البلاد كلها إلى معتقلٍ كبير. عاش جميع العراقيين تقريباً في رعب دائم من حكومتهم.

أطلقت إيران والعراق حرب المدن في شهر آذار من العام ١٩٨٥، التي كان المدنيون ضحاياها في البلدين. تعرضت بغداد، وكركوك، والبصرة، ومدن إيرانية مقابلة، لغارات وقصف من الجو، ولهجمات بصواريخ أرض ـ أرض. وبرز الثأر عنواناً للأمر اليومي. وهكذا تعرضنا، نحن المدنيين، لوابل من الموت النازل من السماء.

بقي شارباست مصدراً لخيبة أملي وغضبي. أدركت أنه ما من امرأة ستحبه بالقدر الذي أحبه أنا.

أتاحت لي الصدف أن أرى من يهواها شارباست، وهو الأمر الذي أضاف عذاباً آخر إلى عذاباتي. حدث ذلك ذات

مساء عندما كنت في الجامعة مع إحدى قريباتي. لم تعرف قريبتي هذه بقصة حبي لشارباست، لكنها وكزت كتفي برفق وأشارت برأسها، بسبب من معرفتها بقرابته مع أختي عليا، وقالت: «هناك، يا جوانا، ها هي الفتاة التي طلب منها شارباست أن تتزوج به».

أسرعت ملتفتةً لأراها. تمتعت غريمتي بجمالٍ أخّاذ. لاحظت أن بشرتها بيضاء ورائعة، ورأيت شعرها الأشقر الطويل، الذي كان نادراً في هذا الجزء من العالم. غمرتني موجة من الحقد.

اقتربت قليلاً، لكني جفلت عندما سمعتها تتكلم. جاء صوتها خشناً على مسامعي، بحيث إنني جمدتُ من الدهشة.

سمعت على الدوام أن الله لا يُظهر نعمه كلها في شخصٍ واحد، وها قد وجدت برهان هذا القول في صوت تلك المرأة الخشن. اختفت عندي غيرتي من كل مفاتنها الأنثوية، بما في ذلك شعرها الأشقر، وبشرتها الجذابة. اختفت مشاعر الغضب عندي لتحل مكانها مشاعر الدهشة لأن شارباست قد وجد أن هذه المرأة جذابةً، برغم نبرة صوتها المزعجة.

سمعت بعد مدة أن عرض شارباست بالزواج بتلك الفتاة قوبل بالرفض. رفضت تلك الفاتنة الشقراء أن تتزوج به إلا تحت شروط معينة فرضتها عليه. طلبت بعض الأشياء غير المتوقعة من رجل كردي. أصّرت عليه أن يتخلى عن حياة

«البشمركة». طلبت منه أيضاً أن يدير ظهره لكردستان. واشترطت عليه أخيراً أن يحصل على إذنٍ لمغادرة العراق، وأن يطلب جنسية أحد البلدان الأوروبية. وإذا لم يستجب لهذه الطلبات فسيكون جوابها سلبياً.

لم أُفاجَأ لأن شارباست رفض عروضها النهائية التي تتصف كلها بالأنانية، لأنني أدرك جيداً أنه لن يدير ظهره للقضية الكردية مطلقاً. لن يترك الرجل الذي أُحبه كردستان باختياره.

أعترف بأن مزاجي تحسن قليلاً بهذه الأخبار. وبرغم أنني لم أدّعِ أنني تمنيت لهما بركات الزواج، فإنني لا أدّعي أن فشل شارباست في زواجه المقترح هذا قد أنعش آمالي بالعيش معه. صممت، في واقع الأمر، على أن أزيحَ شارباست من ذهني تماماً. ووصلت إلى استنتاج حقيقي في النهاية بأنه لا يحبني، وأنه لم يحبني في يوم من الأيام. لن أذّل، إذاً، نفسي أمامه، أبداً!

تخرجت من الجامعة، لكن بدلاً من العمل في وظيفة تقع في مجال اختصاصي، أي الهندسة الزراعية، بدأت العمل في وكالة سفريات. وجدت أن عملي هناك يسمح لي بالاختلاط مع الناس، وهو العمل الذي يناسب شخصيتي الاجتماعية، بالإضافة إلى ارتفاع الراتب. استطعت الحصول على ضعف المعاش الذي يتقاضاه المهندس. استطعت أن أكسب مالاً، بعرق جبيني، يخصني وحدي، للمرة الأولى في حياتي، بالرغم من أنني اعتدت أن أعطي معظم المبلغ الذي أتقاضاه لوالدتي لتدفع

مصاريف المنزل. ارتفعت أسعار السلع كثيراً إضافةً إلى ندرة وجودها، وكل ذلك بسبب الحرب المشتعلة.

اكتشفت أن وظيفتي هي سعادتي الوحيدة في هذه الحياة، في ذلك الوقت على الأقل. لم يكن هناك من وجود للصناعة السياحية في البلاد بسبب استمرار الحرب. مُنع العراقيون من مغادرة البلاد إلا إذا كان سفرهم يتعلق بأعمالٍ تخص الحكومة. وانحصر عمل مكاتبنا في إعداد ترتيبات السفر للعمال الأجانب الذين يأتون إلى العراق من أجل القيام بالوظائف التي تشغر بسبب انشغال العراقيين بالحرب.

تلقيت ذات يوم استدعاءً مرعباً.

وصلت ذات صباح في أواسط العام ١٩٨٦، إلى مكان عملي. دُهشت عندما التقاني رب عملي عند المدخل. لاحظت أنه مضطرب قليلاً. أشار إلي أن أدخل مكتبه. أغلق الباب عندما دخلت، وهمس ببلاغه المشؤوم: «جوانا، أتاك زوار قبل قليل. زارك البوليس السري، وطلب حضورك إلى مكاتبه يوم غد».

وقف بصمت ووضع يديه فوق منطقة القلب، وهز رأسه دلالةً على قلقه. سألني أخيراً: «ألديك فكرة عن سبب هذا كله؟»

هززتُ كتفي: «لا. لا أمتلك أدنى فكرة عن السبب».

قلت الحقيقة عندها. لم أرتكب أي جريمة، وكنت مواظبة

على القيام بعملي، واعتدت التوجه إلى منزلي بعد انتهاء العمل. كنت أقوم بالزيارات برفقة أسرتي، ما عدا مرات قليلة كنت أزور فيها إحدى صديقاتي. اعتدت الذهاب إلى السينما برفقة أسرتي.

لم أذهب إلى كردستان في الصيفين الماضيين، وسبب ذلك أن شمال العراق أصبح منطقة خطرة جداً. انتشرت الحواجز على الطرقات، وفي كل منعطف، وسمعنا أخباراً عن وضع عراقيين أبرياء في السجون، لا لسببٍ، إلا لذهابهم إلى تلك المنطقة التي تفلتت من كل ضوابط.

هزتني تلك الأنباء المشؤومة عن البوليس السري، وأنا التي أعتبر نفسي نصف كردية. اعتدت تمضية الكثير من الأوقات في الشمال الكردي، وهي المنطقة التي تُعتبر عرين العدو الذي تكّن له حكومة بغداد أشد الكراهية. فرّ شقيقي من البلاد كي يعيش في أوروبا، من دون أن يعتزم العودة مطلقاً. وارتبطت، عن طريق علياء، بالرجل الذي يُعتبر مجرماً متوحشاً، أي «بشمركة». تبدو كل هذه المعطيات مريبة تحت عدسة البوليس السري المكبرة.

ارتعدت خوفاً وأردت أن أهرب، لكن لم يتوفر لي مكان للاختباء فيه. لم أستطِع عمل أي شيء، غير الاستعداد للحضور إلى مركز البوليس السري في اليوم التالي، مثلما طُلب مني.

أعرف أن رب عملي هو من النوع الذي يراعي شعور الآخرين، وأظهر قلقه الشديد على سلامتي إلى درجة أنه تبرع

بمرافقتي إلى المركز، وهو أمر لا يُقدم عليه إلا القليل جداً من العراقيين. أعرف أنه بعثي، لكنني أعرف أيضاً أنه انتسب إلى الحزب للسبب نفسه الذي دفع الكثير من العراقيين إلى الانتساب إلى ذلك الحزب: لم يكن أمامهم أي خيار آخر. لا أعتزم السماح له بأن يعرّض نفسه للخطر بسببي.

أكّدت له، بالرغم من أنني غير مقتنعة بكلامي: «لا، سأكون بخير».

أخبرت علياء وهادي عن مقصدي غير المتوقع، وذلك في حالة عدم عودتي. لم أخبر والدتي، لأنني أردت أن أتجنب التسبب في قلقها. وإذا أقدم البوليس السري على اعتقالي فسيكون لديها متسع من الوقت لتعرف. يعرف كل شخص يعيش في العراق قصصاً عن سجون صدّام، لكنني استطعت، بالرغم من ارتباطاتي الكردية، ولحس حظي، أن أتجنب الدخول في مشاكل مع رجال الأمن. لكن، لربما يكون الحظ قد تخلى عني هذه المرة.

لم أستطِع أن أنام لأن عقلي اجتاحته احتمالات الأمور التي قد تحدث في الصباح التالي. فكّرت في أن هذه الليلة قد تكون آخر ليلة أستطيع أن أستمتع فيها بالراحة التي يعطيني إياها سريري. أدركت وجود عراقيين كُثُر، أبرياء مثلي، في السجون التي تنتشر في أنحاء البلاد، في حالة يرثى لها.

توجد أنواع كثيرة من السجون في البلاد. سمعت عن سجون حيث يُحتجز العراقيون في حفرٍ بالأرض، مثل السجن

الذي خبره رعد وهادي. وتوجد معتقلات رهيبة مؤلفة من توابيت، حيث يُحتجز المساجين في توابيت لا يتوفر فيها سوى ثقب واحد لمرور الهواء، ولا يُسمح لهم بالخروج منها إلا لساعةٍ واحدة في الساعات الأربع والعشرين. سمعت أيضاً عن زنزانات رطبة لا يُمكن السجناء أن يروا الشمس فيها إطلاقاً. لا توجد في العراق سجون جيدة. وحتى السجون العادية التي تخلو من الزنزانات الغريبة، هي رعب بحد ذاتها نظراً إلى اكتظاظها الشديد، ولممارسات التعذيب فيها.

سأُحتجز، في أحسن الأحوال، في زنزانة ضيقة، وأُحشر مع نساء كثيرات أخريات. أعرف أنني لن أجد مساحة كافية لأمدّ ذراعيّ، أو لأقف في وضع مستقيم. سأُرغم أيضاً على النوم على أرض إسمنتية رطبة من دون استخدام أغطية. أفترض كذلك أنه لن يتواجد إلا مرحاض واحد، هذا إذا وُجد، وفي تلك الحالة فسأختار المرحاض في أي مكان أستطيع استخدامه.

فكّرت كثيراً في أنواع العذابات التي يُحتمل أن أتعرض لها، وذلك لأنني سبق أن سمعت عن الصدمات الكهربائية، وعن الخطّافات المعلقة، بالإضافة إلى سَحْب الأظافر. سمعت همسات تتحدث عن غرف المرايا يحيث يُعتدى على النساء بوجود أقاربهن من الذكور الذين يُجبرون على مشاهدة ما يجري.

أحسست برعشة. ماذا سيحدث لي؟ وماذا فعلت لأجذب انتباههم؟ عدت بذاكرتي إلى كل شيء عشته في الشهور القليلة

الماضية. لم أستطِع أن أتذكر شيئاً قد يدفعهم إلى محاسبتي. لم أزر كردستان، ولم أستلم أي رسائل من أي شخص يعيش في الشمال.

أتى الصباح سريعاً جداً. استقللت سيارة أجرة بعينين متورمتين، وقلبٍ مثقل بالهموم. وصلتُ طائعةً إلى مركز قيادة «سعدون» الأمني.

يبلغ سائق سيارة الأجرة أواسط عمره ويتميز بلطفه. سألني إذا كنت أريده أن ينتظرني، وعبّرت عيناه العابستان عن القلق الذي يشعر به تجاه سلامتي. قال لي إنه والد لثلاث بنات، وهو لا يسمح لأي واحدة منهن بالدخول إلى تلك البناية وحدها.

طلبت منه أن يعود بعد ساعتين إذا أمكنه ذلك. اتفقت معه على أن يتوجه إلى منزل علياء وهادي ويخبرهما بأنني اعتُقلت، هذا في حالة لم أرجع من تلك البناية. راقبني ذلك الرجل اللطيف حتى أصبحت داخل أبواب ذلك المركز الأمني. ذكّرني اهتمامه بي بأنه ما زال هناك عراقيون طيبون

تصاعدت رائحة العرق المزمن، وانتشرت مثل البخار، في تلك البناية. افترضت أنها رائحة الخوف المنتزعة من أجساد المعذَّبين من الأبرياء.

دخلت المبنى، وأعطيت اسمي للكاتب الذي يجلس وراء مكتب معدني كبير. دوّن اسمي على ورقة مسطرة مثبتة على لوحٍ كتابة قديم. ألقيت نظرة خاطفة على القائمة عندما خفض الكاتب رأسه. لاحظت وجود أسماءٍ كثيرة فوق اسمي، وبرغم

ذلك كنت الشخص الوحيد الموجود في قاعة الانتظار. أين ذهب الباقون؟

شغل الكاتب نفسه بالهاتف الذي لا يكفّ عن الرنين. تطلع نحوي بغضب ظاهر، ثم أشار إلى مجموعة من ستة مقاعد خشبية، وطلب مني أن أجلس.

فعلت ما طلبه مني.

بدت قاعة الانتظار الفارغة كئيبة بما يكفي. ولاحظت أن تجهيزات البناء من الداخل هي في حالة رثة. أعرف أن العراق يمتلك ثاني احتياطي نفطي معروف في العالم، لكن الحرب استنزفت خزينة العراق. صُرفت أموال النفط بأكملها على شراء الدبابات، والطائرات، والقنابل.

تأوهت. تطلعت حولي لعلّي أجد شيئاً يثير اهتمامي. لم أجد أي شيء يحيط بي جذاباً. لاحظت أن الدهان البني الداكن الذي يكسو الجدران بدأ بالتقشّر، وأن المقاعد البلاستيكية ذات اللون الأزرق الفاتح بدت بالتشقق، وأن أشياء قذرة منها قد بدأت بالبروز. رأيت طاولةً خشبية صغيرة عليها منفضة سجائر مكسورة، لكنها تفيض بأعقاب السجائر.

يتعلق الجميع في بغداد، عملياً، بتدخين السجائر. ما هو السبب الذي يدعو أي شخص، يعيش في بلد يطل منه الموت من كل زاوية، إلى الإقلاع عن التدخين؟ لم أجد أنا هذا السبب!

رغبت في تدخين سيجارة. بدأت هذه العادة بعد وقتٍ قصير من معرفتي أن شارباست طلب من امرأة أخرى أن تتزوج به، لكن التدخين كان عادةً سرية عندي. لم يعرف أي من أفراد عائلتي بهذا، برغم أن علياء ووالدتي قد وجهتا إلي الاتهام بأنني أدخن، وذلك بعد قيامهما بشمّ شعري الطويل، الذي اجتذب، مع الأسف، رائحة دخان التبغ.

لا يسمح المجتمع العراقي لسيدة محترمة بأن تدخن في مكان عام، وهكذا لم امتلك شيئاً يمكنه تهدئة أعصابي. تمنيت فقط لو أنني لا أنهار بعد انتهاء الاستجواب. يتعيّن عليّ ألّا أنهار!

أعرف أن الرجال الذين سيحققون معي سيكونون رجالاً شرسين يحكمون بإرهاب الآخرين. إنني أدرك، بعد كل القصص التي سمعتها من رعد، وهادي، وشارباست، ومن أقربائي الأكراد، أن أعظم السرور عندهم يأتي من إرهاب الأشخاص الأبرياء.

وعدت نفسي بالمحافظة على رباطة جأشي برغم كل ما يفعلونه، أو يقولونه. شعرت بالقلق، فلطالما عانيت مشاكل في ضبط لساني الساخر. اعتاد أصدقائي وأفراد أسرتي أن يسخروا من نزعتي المرحة والذكية، لكنني أعرف أن الرجال الموجودين في هذا المبنى سيبتهجون عندما ينقضّون على رقبتي النحيلة.

تحولت بأفكاري نحو الكاتب الذي يجلس وراء طاولة الاستقبال، ورحت أتساءل كيف برّر لنفسه أن يعمل في مثل هذا

المكان، وحاولت أن أتصور ما إذا كانت عائلته راضية عن عمله في مثل هذا المقر.

فكّرت، برغم هذا، في أن مراقبته هي أمر مثير للاهتمام. وخصوصاً أنه يعطي الانطباع بأنه شخص مهم جداً، انشغل كثيراً بأعماله المكتبية بحيث لم يجد لنفسه وقتاً لإعطاء أي زائر نظرةً مشجعة، أو أي لفتة لطيفة من جانبه لن تكلفه شيئاً.

دخل الغرفة في تلك اللحظة، رجل بدين وقصير يرتدي زياً متجعداً لرجل أمن، ونادى اسمي. أخذت نَفَساً عميقاً، ووقفت باستقامةٍ، ثم تبعته من دون أن أرتجف. كنت مستعجلة للخروج من ذلك المكان الكئيب، بحيث إنني تمنيت لو أن الأمور تبدأ بسرعة.

طلب مني الرجل الدخول إلى غرفة صغيرة خافتة الإضاءة. وجدت رجلين بدينين جاثمَين جنباً إلى جنب على كرسيين قريبين جداً، بحيث إنني ظننت أن مقاعدهما ملتحمة ببعضها. لاحظت وجود كرسي واحد أمامهما. لم يدعواني للجلوس، لكنني تهالكت عملياً على الكرسي من شدة خوفي أن تنهار رجلاي.

بدا ضابطا الأمن على طرفَي نقيض. لاحظت أن شارب الرجل الجالس إلى يساري طويل وكثيف، بينما بدت الشعرات النابتة فوق شفة الرجل الآخر متباعدة. كان الرجل الذي يمتلك شارباً كثيفاً أصلعَ، بينما بدا رأس الآخر ممتلئاً بالشعر الأسود المصبوغ، والمرفوع بإتقانٍ إلى الوراء. كاد يذكّرني بإلفيس برسلي.

شعرت برغبة في الاستفسار عن «سر» شعره اللافت للنظر، لكن في غير هذا الظرف.

اعتمدت على مظاهر وجهيهما القاسية، ومكان عملهما، للحكم عليهما، فتوقعت أن يكونا غير مؤدَّبين، لكنهما كانا لطيفين ومهذبين بصورة مذهلة.

افتتح الرجل الأصلع الحديث بتمهل: «مرحباً. نعرف أنك من عائلة العسكري».

جربت، عبثاً، أن أسيطر على شفتيّ المرتعشتين، فابتسمت ابتسامة عريضة كأن حياتي ليست في خطرٍ مميت، وكما لو أنني أزور هذين الرجلين لدعوتهما مع عائلتيهما إلى مشاركتي في مناسبةٍ ما.

سألني الرجل الذي سميته «إلفيس» بأدب: «كيف حالك اليوم؟».

«أنا بخير».

«هل أنتِ مرتاحة في عملكِ؟».

«نعم، بالطبع».

فتح «إلفيس» ملفاً كان يحمله بيده: «آنسة عسكري، لدينا تقرير عنك».

جلست ملتصقةً بذلك الكرسي الصلب بحيث إن ظهري بدأ يؤلمني. تحركت في مكاني، ووضعت ساقاً فوق أخرى.

«يقول التقرير إنك تعملين في مجال السياحة والسفريات».

«نعم، هذا صحيح».

«جاء في التقرير أيضاً أن اختصاصك هو الهندسة، فأنتِ متخرجة جامعية في الهندسة الزراعية».

«نعم، هذا صحيح».

«يقول التقرير إنك كنت طالبة مقبولة».

«نعم، هذا صحيح».

«يقول التقرير أيضاً إنك لا تعملين في حقل اختصاصك. هل هذا صحيح؟».

«نعم، هذا صحيح».

«أخبرينا، آنسة عسكري، هل من سبب معين دفعك إلى اختيار العمل في وظيفة تجعلك تلتقين بالأجانب بشكل دائم؟ إننا مندهشون. لماذا أمضيتِ أعواماً في الدراسة في مجال معينٍ، ثم تركته بعد ذلك؟».

التمعت في ذهني صورة لوجه شارباست. لا أستطيع قول الحقيقة لهؤلاء الرجال، حقيقة أنني اتخذت قراراً غبياً لأنني وقعت في غرام رجل أصبح الآن من عداد «البشمركة». إذا قلت لهم هذا، فهم سيعتقلونني بالتأكيد، ويأخذونني رهينة عندهم حتى يأتي شارباست ويبادلوني به. سيقدمون بعد ذلك على إعدام شارباست.

كنت غاضبة منه، لكن ليس إلى هذه الدرجة.

لم أستطِع الاعتراف بحقيقةٍ أخرى، وهي أنني اكتشفت أنني لا أحب المواد التي اخترتها، وحصل ذلك بعد وقتٍ قصير من بداية سنتي الدراسية الأولى. شعرت بأنني أميل إلى الأدب أكثر. أدركت أنه في العراق لا يستطيع المرء التراجع عن قرار بعد اتخاذه.

تأكدت من أنهم يسجلون المقابلة، فعزمت على أن يكون ذهني صافياً، وأن أفكر بسرعة، والأهم من ذلك كله ألّا أدعهم يلاحظون خوفي. «جاء القرار بسبب المعاش فقط، فمعاشي في مكتب السفريات هو أفضل بكثير. توفي والدي عندما كنت في سن المراهقة، ووالدتي لا تعمل. لهذا، فأنا مضطرة إلى المساهمة في دفع مصاريف منزلنا».

مضى «إلفيس» بتقليب صفحات ملفي: «آه، فهمت. يقول التقرير هنا إن لك شقيقاً يدعى سعد العسكري، وهو الذي يتكفل بمصاريف المنزل. هل هذا صحيح».

«صحيح أن شقيقي ما زال في المنزل، لكنه يعاني مشاكل صحية خطيرة، كما أن لديه زوجة ويتحمل مسؤوليات أخرى. إني بالغة، ويتوجب عليّ المساعدة».

«هممم، وُلدتِ أنت في الثالث عشر من شهر أيار من العام ١٩٦٢، هل هذا صحيح؟»

«نعم، هذا صحيح».

«إذاً، فأنتِ تبلغين الثالثة والعشرين من عمرك، وبعد قليل تبلغين الرابعة والعشرين، هل هذا صحيح؟».

«نعم، هذا صحيح».

«أخبرينا، آنسة عسكري، لأننا فضوليون قليلاً، لماذا لم تتزوجي برغم أنك بلغتِ هذا العمر؟».

«لا أعرف».

تبادل «إلفيس» نظرات عدم التصديق مع شريكه.

«أنتِ لا تعرفين؟».

«نعم. لا. نعم، هذا صحيح. أنا لا أعرف السبب. لا أعرف لماذا لم أتزوج بعد».

عبس «إلفيس»، وحدّق فيَّ.

تنحنحت، وخفضت رأسي متظاهرة بأنني ألقي نظرة على تنورتي، ثم وجهت ضربة باتجاه شيء وهمي عليها.

«هل أنتِ كردية آنسة عسكري؟».

«والدتي كردية، أما والدي فهو عربي».

«هل تشعرين بأنك كردية؟ أم هل تشعرين بأنك عربية؟ أم تشعرين بأنك كردية وعربية في الوقت نفسه؟».

رحت أفكّر، «ها قد عدنا من جديد». يتحوّل المرء إلى مشتبهٍ فيه إذا كانت الدماء الكردية تجري في عروقه.

«نعم، هذا صحيح».

«ما هو الصحيح؟».

كذبتُ، فأنا أشعر بأنني كردية دائماً، لكنني أعرف المخاطر التي تجلبها الحقيقة في هذه القضية بالذات.

«أشعر بأنني عربية وكردية في الوقت نفسه».

«أخبرينا، يا آنسة عسكري، لماذا لم يسبق لك الانضمام إلى حزب البعث؟».

آخ! ها هو «إلفيس» الرقيق يطرح عليّ أكثر الأسئلة حساسية، كما لو أنه مجرد سؤال مهم.

أنا واعية لكل شيء، لأنني حضّرت ردّي مسبقاً بسبب معرفتي بأن الاستفسار عن عضويتي في الحزب، هو سؤال حاسم يواجه كل الناس.

«كنت مشغولة جداً بأمور المنزل. توفي والدي، واستمرت والدتي في الكفاح، وشقيقتي كانت مريضة. وتواجد شقيقي في جبهات القتال في الوقت الذي تحولت الحرب فيه إلى حرب خنادق. لم أجد وقتاً لعمل أي شيء غير دراستي وأعمالي المنزلية. لم أرغب في أن أكون مشاركة كسولة في الحزب من دون أن أقدر على المساهمة في نشاطات الحزب بشكل كامل. لو انضممت إلى الحزب في تلك الأوقات لما استطعت أن أكون ذات فائدة له».

«أخبرينا، يا آنسة عسكري. جاء في التقرير أن أفضل

صديقاتك في الجامعة، وهي شابة تدعى جنان، هي عضو نشطة جداً في الحزب. هل هذا صحيح؟».

«نعم، هذا صحيح».

لم أستطِع طبعاً أن أخبرهما أن جنان تكره حزب البعث في الحقيقة، أما السبب الوحيد لانضمامها فكان عدم امتلاكها عذراً مناسباً لعدم انضمامها إلى الحزب. انضمت جنان إلى الحزب بعد أن تعرضت لضغوط كثيرة. علقت صديقتي العزيزة بالمصيدة، وانتهى بها الأمر لتصبح واحدة من آلاف الأشخاص المترددين الذين يحملون بطاقات الانتساب.

سخرت مراراً مع جنان بشأن أولئك البعثيين، وسخرنا من «خطابهم البعثي»، ومن الأهمية التي يعلقونها على أنفسهم، ومن عقولهم المتشككة على الدوام، ومن سلوكهم المتصلب، ومن ثقتهم الممزوجة بالغرور بأنهم يمتلكون الحق لمضايقة الطلاب الآخرين.

أراد الطلاب البعثيون انتداب عضو من بينهم ليضغط عليّ بالانضمام، فتطوعت جنان لهذه المهمة. اعتادت في مساءات كثيرة أن تعترضني في أروقة الجامعة لتهمس لي: «دعينا نتناول القهوة معاً يا جوانا، لأنه من المفترض أن أضغط عليك اليوم».

اعتدنا تناول القهوة معاً، وكثيراً ما كنا نناقش أخبار الثياب، والزواج، والأقارب، لكن كنا نتظاهر بأننا نناقش مواضيع جدية. كنا نتعمد هذه «المراوغة» لعلمنا بأنه يوجد مخبر في مكان ما من المقهى. أعرف أن المخبر هو عضو آخر في

الحزب يكلّف مراقبة جنان، للتأكد من أنها أمضت وقتاً كافياً لإقناعي بالانضمام إلى الحزب. اعتادت جنان أن تبلغ أعضاء الحزب في الاجتماع التالي، بكل إطاعة ممكنة، أنني أعتني بشخصين مريضين في العائلة، وأنني أتوجه مباشرة من الجامعة إلى المنزل، من أجل العمل في الحديقة حتى الظلام، وذلك للاعتناء بالخضار التي أزرعها، ثم أنصرف إلى دروسي فقط. دأبت جنان على التأكيد أنني لا أرغب في أي شيء أكثر من الانضمام إلى حزب البعث، وسوف أفعل ذلك في أقرب فرصة ممكنة.

استمرت حياتنا على هذا المنوال طوال أيام دراستي الجامعية.

لم أجد نفسي مضطرة إلى الانضمام إلى أولئك البعثيين المزعجين، وكل ذلك بفضل جنان.

«آنسة عسكري، أنتِ تعملين في مجال عملٍ حساسٍ جداً، وتقابلين زواراً لبلدنا. يتعيّن عليكِ أن تنضمي إلى الحزب».

«لكن، ماذا بشأن والدتي؟».

«ستكون والدتك بخير آنسة عسكري. ستفخر والدتك بابنتها التي ستصبح عضواً في الحزب».

انحنى الضابط الأصلع إلى الأمام: «إلا إذا كانت تعتبر الحزب لا قيمة له».

تقوّس حاجبا «إلفيس» السوداوان نحو الأعلى، وتمايل شعره

المسرّح إلى الخلف، وهمس: «هل والدتك ضد الحزب يا آنسة عسكري؟».

تدخَّل الضابط الأصلع، وارتفع صوته من الدهشة: «إن كان الأمر كذلك فواجبك يقضي عليك الإبلاغ عنها بصفتك عراقيةً مخلصة، حتى وإن كانت والدتك. . .».

شعرت بالعرق يتصبب من ظهري. لاحظت أن عقولهم الصغيرة أصبحت خطرة. يتوجب عليّ الآن أن أظهر بمظهر الحدةّ.

«لا. لا. والدتي ليست ضد الحزب، فالرئيس نفسه هو عضو في الحزب. إنها تحترم الرئيس، والحزب، لكنها تحتاج إلي في المنزل. إنها امرأة عجوز، وهي مريضة أيضاً».

«تعيش شقيقتك في المنزل. هل هذا صحيح آنسة عسكري؟».

«نعم، هذا صحيح».

«تستطيع أختك، بالتأكيد، أن تهتم بوالدتك العجوز. أليس هذا صحيحاً؟».

أظهر المحققان فطنة كبيرة. كانا ماهرَين في نصب الأفخاخ، فجاء كل سؤال محسوباً، وشكلاً من أشكال الخداع. رحت أتساءل عن كيفية معرفتهما بأمر منى.

«صحيح أن شقيقتي تعيش في المنزل، لكن ليس من الصحيح أنها تستطيع مساعدة والدتي. إن شقيقتي منى هي معاقة عملياً، من عدة نواحٍ».

«هل شقيقتك معاقة؟». سمعت حفيف أوراق عندما بدأ «إلفيس» في ترتيب أوراق ملفه. جاء صوته مفعماً بالقلق: «لا يتضمن ملفك هذه المعلومات».

«نعم، هذا صحيح تماماً. إن شقيقتي ليست بصحة جيدة. إنها لا تستطيع الاهتمام بنفسها. تهتم والدتي بها وبطفلها أثناء غيابي عن المنزل، وتساعدها زوجة شقيقي في ذلك. ووالدتي امرأة عجوز، ولا تستطيع الاهتمام بها طوال اليوم، لهذا أتولى أنا المسؤولية عندما أعود في المساء».

وضع «إلفيس» ملفي على الطاولة، وأسرع في تناول قلمٍ، ثم بدأ في الكتابة على الهوامش.

آخ! أُدرجت حالة منى العقلية في سجلات البوليس السري. تحركت بقلقٍ في مكاني.

يا لمنى المسكينة. رافقها سوء الطالع حتى عندما كانت في الرحم الذي قاسمته مع توأمها سعد. كبُر سعد متمتعاً بصحة سليمة وأصبح قوياً، لكن منى جاءت إلى العالم بشكل كتلة من العظام. أقامت أسرتنا احتفالاً عندما أكملت منى عامها الأول، وهي التي كانت تظن أنه لن يُكتب لها البقاء. لم تتحسن حالة منى مع مرور الأعوام، بل ساءت حالتها الجسدية والعقلية مع مرور كل عام. كان العامان الماضيان الأسوأ في حياة منى.

نجت شقيقتي، بالكاد، من زواج مرتّبٍ سلفاً، وبدأت حالتها العقلية تسوء أكثر فأكثر بعد زواجها عندما ابتعدت عنا لتسكن في منزل عائلة زوجها.

عارضتُ زواجها في البداية، لكني لم أتمكّن من القيام بأي شيء. يفرض مجتمعنا الزواج على كل شخص، حتى على الذين لا تناسبهم مؤسسة الزواج مثل منى، وهي التي أعاقتها نوبات الاكتئاب الشديد، التي لازمتها منذ أن كانت فتاةً صغيرة. يؤمن الناس بأن «الفتاة يجب أن تتزوج»، وأنه من العار على المرأة أن تكون عانساً، وهكذا تفوّت عليها فرصة أن تصبح زوجة وأماً. تزوجت منى لهذا السبب.

بدا الزواج مشكوكاً فيه لأسباب تتعدى صحة منى الهشة، لأن زوجها كان متقدماً في السن، ولأن والدة زوجها كانت قاسية جداً تجاهها. ظهر هذان الطاغيتان بشكل شخصين عاديين، ثم انطلقا باستغلال شقيقتي المطيعة كأنها عبدة.

أصبحت منى حاملاً في غضون أسابيع قليلة، وعانت صعوبات كثيرة في حملها الذي وضعت في نهايته طفلة جميلة أسمتها ناديا.

انهار الزواج بسرعة بعد وقت قصير من ولادة ناديا الصغيرة. أصرت والدة زوجها السادية على أن تستمر منى بالقيام بكل الأعباء المنزلية بعد ولادة ابنتها. بدأت والدة زوجها في ضربها عندما فشلت في القيام بجميع واجباتها المنزلية، بشكل يُرضيها مع ابنها.

لم تتعود منى، وهي الفتاة اللطيفة، سماع الأصوات الغاضبة، أو التعرّض للضرب. حاولت ذات يوم أن تتفادى صفعاتهما، فهربت من المنزل. شعرت حينها بالرعب

وبالاضطراب الشديدين إلى درجة أنها تركت طفلتها أثناء توجهها إلى منزل عائلتها. لم تجبر والدتي منى على العودة إلى منزل زوجها، لكنها أدركت أن الطفلة قد تُركت وحدها. ادّعت أسرة زوجها في هذه الأثناء أن لها الحق في الاحتفاظ بها، ويعود ذلك إلى أن الآباء في العراق درجوا على الاحتفاظ بوصايتهم على أطفالهم. تمكنت أمي، بطريقة ما، بعد توجهها إلى منزل زوج منى، من إقناع الوحشين بالتخلي عن الطفلة.

رجعت منى مع طفلتها إلى المنزل، وصارت بمأمن من سوء المعاملة. وبرغم ذلك بقيت تحت وطأة الأمور التي تعرضت لها في منزل زوجها. تقوقعت شقيقتي على ذاتها بشكل كامل تقريباً، باستثناء الأوقات الحلوة التي كانت تلاعب فيها طفلتها ناديا، العزيزة على قلبها.

بدا «إلفيس» مصدوماً. أدركت أن ملفي الناقص هو سبب انزعاجه. وبدا أن حالة الملف الناقصة تعمل لصالحي، وذلك لأنه نهض فجأة، واقفاً على قدميه، وصرفني مع إنذار مشؤوم: «آنسة عسكري، أمامك شهور قليلة لتسوية أوضاعك. يتعيّن عليكِ بعدها الانضمام إلى حزب البعث لتصبحي عضواً فاعلة فيه. وإن لم تفعلي ذلك فلن يكون في وسعك الاستمرار في عملك في قطاع السياحة».

صرخ بي ناسياً أصول اللباقة والتهذيب: «تستطيعين الانصراف».

أومأت وقلتُ: «شكراً على لطفك». تحركت بأقصى سرعتي

مبتعدة عن هذين الشخصين الغامضين، وعن تلك الغرفة المظلمة. اجتزت الرواق، وخرجت إلى حيث ضوء النهار، وأسرعت في إخراج الهواء الفاسد من رئتيّ.

لم أُعتقل، ولن أدخل السجن، على الأقل في ذلك النهار بالذات! شعرت، في واقع الأمر، برغبة في الرقص.

شاهدت سائق سيارة الأجرة العجوز أثناء انتظاره لي في سيارته المركونة إلى الجانب الآخر من الطريق.

بدا عليه الارتياح بمقدار ما أنا سعيدة. أعرف أننا، نحن العراقيين، تعلمنا أن نكون حذرين عند التحدث مع الغرباء، لكني أعرف أن ذلك الرجل العجوز ليس منهم. تحدثت بصراحة معه أثناء انشغاله بالقيادة وأخبرته شيئاً من تجربتي المفزعة، وأخبرته بأنهم أعطوني ثلاثة شهور فقط كي أنضم إلى حزب البعث، وإلا فسأواجه عواقب وخيمة.

فتح الرجل فمه للحد الأقصى، فبانت أسنانه الصفراء، وقال بحبور: «لا تقلقي، فأيّ شيء يمكن أن يحصل في ثلاثة أشهر».

استدار برأسه إلي ليتطلع بعينيّ مباشرة، وسألني: «هل تتذكرين قصة الملك الذي عرض أموالاً طائلة على أي شخص يستطيع تعليم حماره الكلام؟».

شعرت بسعادة كبيرة بحيث إنني بدأت أضحك معه، لكني اضطررت إلى الاعتراف: «لا. لا أعرف تلك القصة».

أبقى الرجل يداً على عجلة القيادة ، لكنه رفع الثانية في الهواء: «سأخبرك إذاً. عرض الملك دفعة مسبقة على أي شخص مستعد لقبول مهمة تعليم حماره الكلام، وفي هذه الحالة يستطيع الشخص الاحتفاظ بالمال. أضاف الملك شرطاً آخر يقضي بأن يخسر المتطوع لهذه المهمة حياته إذا استمر الحمار بالنهيق.

«قبل رجلٌ عُرف عنه أنه أكثر الناس حكمة في المملكة هذه المهمة، فأخذ المال. قال هذا الرجل إنه سيعلّم الحمار الكلام بالفعل. حذّره أصدقاؤه، وراحوا يتساءلون ما إذا كان قد فقدَ رشده، لأنه ما من دليل يقول إن الحمار يستطيع أن يتعلم الكلام.

«كان الرجل متفائلاً. رأى أن عدة أمور يُمكن أن تحدث في غضون سنة. يُحتمل أن يموت الملك، ويُحتمل أن يموت هو، أو أن يموت الحمار. ويُحتمل أخيراً أن تحدث معجزة تسمح للحمار بتعلم الكلام».

رحت أقهقه.

تطلع السائق العجوز نحوي في مرآته، وأشرق وجهه بابتسامة حكيمة. غمزني خلسة، وقال بصوت خافت كأنه الهمس: «من يدري؟ قد يموت الرئيس، أو يموت هذان الضابطان، وقد يحتل الإيرانيون بغداد، أو يحترق مبنى أمن البوليس السري. يُحتمل أيضاً أن تنتقل عائلتك إلى السكن في مكان آخر، فأيّ شيء يمكن أن يحدث خلال هذه الأشهر الثلاثة!».

سأتذكر، في وقت لاحق، كل كلمة قيلت في هذه المحادثة.

لم أستطِع حينها معرفة أن كل شيء كان على وشك التغيّر في حياتي. سأترك بغداد إلى الأبد في النهاية، ولن أنضم مطلقاً إلى حزب البعث. ويبقى أكثر الأشياء غموضاً هو أن قَدَري سيكون متعلقاً بحمار، وبطريقةٍ هي في غاية الأهمية!

تصادف أنه في ذلك النهار بالذات الذي استقللتُ فيه سيارة الأجرة التي نقلتني عبر شوارع بغداد المزدحمة، كان حمارٌ يجتاز طريقه الطويل الشديد الانحدار فوق سفوح المناطق الجبلية من كردستان، متوجهاً إلى مقصده النهائي في السليمانية. نقل الحمار في ذلك اليوم أكياساً، وصرراً ثقيلة. دُسّت في داخل أحد الأكياس رسالةٌ موجهةٌ إلى جوانا العسكري في بغداد. كُتبت الرسالة غير المتوقعة قبل أشهر عدة، وهي الرسالة التي ستضعني في ما بعد في مسارٍ مختلفٍ جداً، وستغيّر حياتي إلى الأبد.

(١٤)

رسائل حب

بغداد والسليمانية: ١٩٨٦ ـ ١٩٨٧

حبيبتي جوانا،

أشعر بكآبة معينة تحوم في الأجواء مع قدوم هذه السنة الجديدة. أقمنا حفلة صغيرةً هنا في الجبال. رجعت بعدها إلى قلمي لتحية السنة الجديدة. حلمتُ دوماً باستقبال السنة الجديدة وقد حققت أمنية غالية عندي، وهي أن أبدأ حياتي معك.

أنتِ العالم كله بالنسبة إلي.

رجاءً، اقبلي عرضي هذا.

رجاءً، كوني زوجتي، فتكتمل حياتي.

شارباست (رأس السنة)

أخذتني الدهشة وصرخت عالياً: «ماذا». زممت شفتيّ وقلّبت، متشككةً، هذه الصفحة الرقيقة بين يديّ. تفحصت أولاً الجانب الخلفي من الرسالة، ثم تفحصت المظروف الأسمر اللون من جهتيه الأمامية والخلفية. لم أعثر على أيّ أثر، ولو صغير، على ختم البريد.

اندفعت شقيقتي علياء من الباب الأمامي قبل قليل، وصاحت بصوتٍ عالٍ: «جوانا! هذه رسالة! هذه رسالة لك! إنها من كردستان!».

انطلقت أجراس القلق بالرنين في رأسي. هل قُتل شارباست حتى يبعث إليّ أحد الأشخاص بهذه الرسالة كي يُخبرني بالأمر؟ لكن، لماذا أهتم للأمر؟

مددت يدي، متجاهلةً كل شيء، وقلت لها: «أعطيني إياها!».

داومت علياء على مقاطعتي بعبارات التعجب، والشرح، والأسئلة، أثناء انشغالي بفض المظروف: «لا بد من أنها من شارباست يا جوانا. سلمها لي يداً بيد أحد أقارب هادي، الذي يعيش في السليمانية، هذا الصباح. هل هي من شارباست؟

«أبلغ هذا الشخص القريب هادي أن هذه الرسالة أُحضرت إلى منزله بيد امرأة غامضة لا يعرفها. سمع طرقة على الباب، وعندما فتح الباب وجدها أمامه. قال إنها بدت خشنة المظهر، كأنها كانت تسير عبر الجبال. أعطته هذه الرسالة الوحيدة من دون أن تتفوه بكلمة واحدة، ثم ابتعدت. لم تتوفر له فرصة طرح أسئلة عليها، هل تصدقين أنها لم تتكلم أبداً؟

«هل هي من شارباست؟ كان في إمكانها أن تقول شيئاً!».

تسببت شقيقتي في شعوري بصداع: «علياء! من فضلك! امنحيني لحظة».

قلقت علياء على صحتي كثيراً في الأسابيع الماضية. لم أُفلح في إقناعها بأنني نجحت، فعلاً، في إبعاد شارباست عن ذهني. أظهرت لي علياء قناعتها بأنني لن أكون سعيدة مع أي شخص غير شارباست. أدركت أنها تتمنى في قرارة نفسها أن نعود إلى بعضنا بعضاً.

قرأت الرسالة مجدداً. هل هي نوع من المزاح؟ ومن بعث بهذه الرسالة؟ كُتبت الرسالة قبل أشهر عديدة، أي في بداية العام.

لم أستطِع التصديق أنها من شارباست، بالرغم من أسلوبها المرهف الذي يوحي بأنه صاحبها، لأنه كان شاعراً. تذكرت أنني عندما شاهدت شارباست في آخر مرة، كان قلبه غافلاً عني، في حين أنه كان منفتحاً لامرأةٍ أخرى. لا يمكن ذلك الرجل أن يكون هو صاحب هذه الرسالة... مطلقاً!

أصبحت متشككة جداً بعد استجوابي في مركز البوليس السري. هل يمكن أن يكون «إلفيس»، وشريكه الأصلع، هما من أرسلا هذه الرسالة. ومن يدري، لعل منزلنا تحت المراقبة؟ لعلهم سيقبضون عليّ إذا كتبت جواباً على هذه الرسالة، وبعد ذلك يحكمون عليّ بالسجن لمدة طويلة بسبب الاتصال مع أعداء العراق، أي «البشمركة». أمسكت بالرسالة وأبعدتها عن وجهي، فلعلها تحتوي على مسحوق سامٍ. لا يستبعد المرء أي شيء في العراق.

أبقيت الرسالة بعيدةً عن وجهي، ورحت أقرأ كلماتها مرة أخرى. أعترف بأن خط الرسالة يشبه خط يد شارباست فعلاً.

سبق لشارباست أن سخر مني واستبدلني بامرأة أخرى، وها هو يطلب مني الآن، من دون أن نلتقي، ومن دون أي اتصالات مرتقبة، أن يتزوج بي.

لا، لا أظن أن الأمور ستجري هكذا.

إذا لم تكن هذه الرسالة من شارباست، فمن هو يا ترى الذي يحاول جلب المزيد من العار إلي؟ ومن ذا الذي يكرهني إلى درجة أنه يريدني أن أجيب على عرض زواج زائف؟

شعرت بالغضب. حملقت بعلياء. اعتراني شعور بغضب شديد غير مبرر، وشعرت بالحاجة إلى إلقاء اللوم على شخصٍ ما: «ما الذي يجري هنا؟».

رسمت علياء ملامح الاستغراب على وجهها وهي تهز كتفيها: «لا أعرف شيئاً غير الذي قلته لك يا جوانا. أحضر الرسالة قريبٌ لهادي، وصل البارحة من السليمانية». تناولت الرسالة من يدي وتابعت: «يشبه خطها خط يد شارباست فعلاً يا جوانا». تفحصت الرسالة بعناية أكبر بعد أن قرّبت الورقة من الضوء، وقربتها من عينيها ثم أبعدتها.

أشارت شقيقتي إلى التوقيع وقالت: «لا أرى أي رسائل مخفية فيها. لا بد من أنها أتت من شارباست. انظري. وقّع الرجل اسمه. لماذا يُقدم أي شخص على مثل هذه المخاطرة يا جوانا؟».

تهالكتُ على الكرسي الموجود قرب الطاولة، ثم وضعت الرسالة والمظروف فوقها، ورحت أفكّر في المسافة الطويلة والمعقدة التي قطعتها هذه الرسالة قبل أن تصل إلى يديّ، هذا إذا كانت فعلاً من شارباست. توجد تحركات سرية نشطة في كردستان، حيث يتحرك المهربون باستمرار، ناقلين الأموال، والبريد، والمواد الغذائية، والمعدات العسكرية. لا يستطيع مقاتلو «البشمركة» الصمود شهراً واحداً من دون هذه التحركات السرية.

تحولت بلاد كردستان إلى ميدان قتال شرس مع استمرار المواجهة ما بين الجيشين العراقي والإيراني، وعلى الأخص بعد أن تحالف الاتحاد الوطني الكردستاني مع الإيرانيين. تمكن الاتحاد الوطني الكردستاني حديثاً من الاستيلاء على مساحات واسعة من الأراضي الريفية، وهو الأمر الذي استدعى الاحتفال بهذا النصر، لكن بقيت مساحات كبيرة من المناطق الحضرية تحت سيطرة الجيش العراقي. انتشرت الحواجز على الطرقات التي يسيطر عليها العراقيون بكثرة، بحيث يستحيل على أي كردي أن يقوم بأقصر رحلة ممكنة من دون أن يخاطر بحياته. سمعنا في الآونة الأخيرة أن صدّام غضب كثيراً للنجاحات التي حققها الإيرانيون والأكراد، بحيث إنه خطّط لتحريك تعزيزات عسكرية من الجنوب في اتجاه الشمال. سيُقضى على كردستان إذا تحقق هذا الأمر.

إن مجرد استلامي رسالة من مقاتل ينتمي إلى «البشمركة»

يعيش في منطقة قتال خطرة، يساوي عندي استلام هدية قيّمة، لأن التنقل في الجبال الكردية كان بمثابة مغامرة كبيرة. أعتقد أنه لا يوجد مقاتل «بشمركة» واحد يرضى أن يعرّض حياة أيّ مهرّب للخطر لمجرد رسالة، إلا إذا كان يشعر بأن محتوياتها مهمةٌ جداً.

هل هذه الرسالة حقيقيةٌ إذاً؟ هل جاءت من شارباست نفسه؟ وإذا كان الأمر كذلك فما الذي جعله يقتنع بأنه بات يحبني؟

ذكّرت نفسي بقسوة بأنه حتى لو كان الأمر كذلك، فسأبقى الخيار الثاني له. أنا الخيار الثاني له. يتعيّن عليّ ألّا أنسى هذا الواقع! بقيت مليئة بالفضول برغم ذلك. تلمست الورقة بأطراف أناملي وأنا أفكّر. أدركت أن الرسالة التي أحملها بيدي، هذا إن كانت حقيقية، قد قطعت رحلة شاقة. لا بد من أن هذه الرسالة قد غادرت يدي شارباست قبل أشهرٍ من إخفائها على ظهر حمار يسوقه مهرِّب ما.

أعرف أن المهربين هم من الرجال في غالب الأحيان، لكن قد تقوم امرأة أحياناً بنقل البريد، لأنه ثبت أنه للنساء قدرةً على التخفي. وتفرض التقاليد العربية إبقاء النساء بعيداً عن جبهات القتال، لذلك لا يدرك الجنود العراقيون أن النساء الكرديات يخاطرن بحيواتهن في سبيل القضية.

يتحتم على المهرب وحماره شق طريقهما عبر الجبال، والمرور بالحواجز الموجودة على الطرقات، والدخول في المدن. تتطلب هذه المهمة الخطرة أعصاباً فولاذية. إذا حدث

أن اكتُشفت الأشياء المهربة، مثل بريد «البشمركة»، أو الإمدادات القتالية، أو حتى الأطعمة، في أحد الحواجز، فسيعني ذلك مواجهة المهرب للموت. وإذا حدث هذا فلن يقوم أحد بإبلاغ عائلته، وهكذا ستتحمل هذه العائلة نوعاً خاصاً من عذاب عدم معرفة أي شيء عن مصيره.

يبدأ المهرّب فور وصوله إلى المدينة بالبحث عن عائلة مقاتل محدد من «البشمركة»، وستقوم هذه العائلة بإجراء الترتيبات لإيصال الرسالة إلى عنوان صاحبها. تبدأ حينها عملية معقدة أخرى.

تخضع بلادنا الممزقة لحصار كبير. أعرف أن تسليم البريد من مقاتلٍ ينتمي «إلى البشمركة»، هو من ضمن المهمات الخطرة التي تجري فيها.

إذا كان وجود بعض الأوساخ على الرسالة هو الدليل على أن الرسالة حقيقية، فلا بد من أن الرسالة أتت من شارباست بالتأكيد. لاحظت أن الغبار ملأ طيات هذه الرسالة.

رفعت المظروف نحو أنفي. أطلقت صوت تعجب لأن رائحة حمل الدواب فاحت من الرسالة. سبق لي أن كنت قرب بعض الحمير والبغال خلال الأيام التي كنت أزور فيها كردستان، ووجدت أن رائحتها نتنة، وخصوصاً بالنسبة إلى أنفٍ تعوّد على روائح المدينة. تأملت كثيراً هذه الرسالة بعد أن غادرت شقيقتي علياء أخيراً، وقالت إن عليها الانصراف إلى منزلها وأولادها.

قالت لي وهي تغلق الباب وراءها: «أخبريني إذا كانت الرسالة من شارباست».

أمسكت الرسالة بيديّ، ثم خرجت إلى الحديقة، واسترخيت على كرسي كي أقرأ الرسالة للمرة الثالثة.

عادت والدتي، ومنى، وسعد، وزوجته، إلى المنزل، فأسرعت إلى إخفاء الرسالة في جيبي. بالطبع لم أخبرهم أي شيء عنها. استخرجت الرسالة من جيبي عندما حان وقت النوم وقرأتها مرات عديدة قبل أن أرتدي ثياب نومي.

تمددت على فراشي، لكنني لم أستطِع النوم.

إذا كانت هذه الرسالة من شارباست فعلاً، فأين هو تبريره لذلك اليوم الساحر الذي قضيناه معاً في الجامعة؟ التقى قلبانا في ذلك اليوم. ماذا حدث؟ لماذا لم يطلب مني الزواج عندها؟

وأين ذهب تفسيره للبرودة التي أظهرها في ذلك اليوم الذي قلت له فيه إنني أود الرجوع معه إلى كردستان؟ وأين تبريره لطلبه من امرأة أخرى الزواج به؟ لم يعطني أي تفسيرات، بل اكتفى بإعلان حبه.

اعترفت أخيراً بأن الرسالة جاءت من شارباست فعلاً، لأنني أعرف خط يده جيداً.

شعرت، برغم ذلك، بحزن هائل. أدركت أن هذه الرسالة كانت ستجعلني أسعد امرأة في بغداد، لو أنها جاءت في ظروف أخرى. لم أستطع نسيان أنني كنت خيار شارباست الثاني، فلو قبلت تلك الشقراء عرضه لكان تزوج بها، وأصبح أباً.

تناسيت حزني، لكني وجدت أنه من الصعب عليّ أن أتناسى كبريائي. تجاهلت الرسالة ولم أرد عليها.

وصلتني قصيدة بعد مرور عدة أشهرٍ أخرى بطريقة مشابهة. لاحظت أن شارباست هذه المرة، لم يوجّه رسالته إليّ ولم يوقّعها.

«لعلّي أخطأت في حقك.
ولعلّي أخذت قراري متأخراً جداً.
كانت لدي شكوكي
لكني أدركت، الآن، كم كنت مخطئاً
أنا متأكد الآن من حبي لك.
لا يعرف حبي حدوداً.
أنتِ تسحقين قلبي بصمتك.
لا تكوني صامتة.
لا تكوني قاسية.
أنت موجودة في كل صفحة أقلّبها
وفي كل كلمة أكتبها
كل الطيور هنا تشدو باسمك.
أنا لاشيء بدونك».

هل أصبحت الطيور تشدو، الآن، باسمي؟ أثارت هذه القضية اهتمامي.

بقيت معاندة بالرغم من توسلات شارباست القلبية، ولم أرغب في ملاقاته، في منتصف الطريق.

فوجئت حينما تطلعت بالمرآة بملامح جدية وصارمة. شعرت بالحزن عندما اكتشفت أنني أصبحت جدّية، ولم أعد جوانا المرحة التي كنتها على الدوام.

خبأت القصيدة في مكان سرّي إلى جانب رسالته الأولى. لم أردّ هذه المرة أيضاً.

وصلتني بعد عدة أشهر رسالة ثالثة، تحمل بدورها رائحة الدواب.

«عزيزتي جوانا:

لو كان للحزن حجمٌ لكنت أستيقظ كل يوم على جبل من الأحزان. وإذا كانت للشوق لغة ونغمات، لكنتِ سمعتِ معزوفات موسيقية تصدر عني. لا أعرف جغرافية لي غير جهة الجنوب. أجد أنني، من قمة الجبل هنا، أتمتع ببصر جليّ مثل ذلك الذي كانت تتمتع به زرقاء اليمامة، وبصري هذا يخترق المسافات ليصل إلى بوابات بغداد، قبل أن يصل إلى نافذتك.

يسأل الشمال الجنوب عنكِ، وقمم الجبال تسأل بنايات بغداد عنك، وأشجار الجوز تسأل أشجار البلح عنك، لكن لا جواب. أقطع المسافات، وأتسلق الجبال منتظراً سماع كلمة واحدة منك، لكن الكلمات لا تصل، فأشعر بأن المسافات تقتلني.

أخبريني كيف أصل إلى الطريق التي تؤدي إلى قلبك، أعطيني إشارة، وسأكون عندك. لا أريد أن أكذب عليك، لكني سأضحي بحياتي من أجلك إذا قلت لك ذلك».

شارباست

ضحكتُ بصوتٍ عالٍ لأول مرةٍ منذ أشهرٍ عديدة نتيجة

السرور الذي أدخلته إلى قلبي رسالة شارباست الغرامية. وإذا كانت قمم الجبال أخذت بالتحدث عني، فذلك يعني أن المسألة باتت جدية.

أخذ جميع أفراد أسرتي علماً بورطتي التي أمرّ بها، ويرجع ذلك إلى أنه يصعب إبقاء مثل هذا السر مكتوماً في دائرة المنزل الضيقة. اكتفيت بإعطائهم بعض التفاصيل القليلة، أما علياء وهادي فكانا على علمٍ، وحدهما، بمدى الإلحاح الذي يتصف به سعي شارباست إلى نيل حبي.

أبلغتني علياء أنه يجدر بي أن أكون سعيدة لأنني محط الأنظار، لكني لم أستطِع الشعور بالرضا كون الوضع قد انعكس الآن. ظل شارباست متحفظاً تجاهي في الوقت الذي كنت فيه يائسة لأفوز بقلبه. يبدو الآن أنه وقع في حبي، بينما تحولت أنا لأكون الجهة المترددة.

شعرت بأنه بدّد فرصتنا للوصول إلى السعادة، وبرغم ذلك سيطرت تعاسة كبيرة على قلبي.

تذكرت مجدداً الأسى والألم المرتبطين بالحب الرومانسي. صمّمت على أن أكون قوية، وألا أعود أبداً إلى تلك الحالة الجارحة.

وصلتني، في خضم تلاطم هذه الأجواء، رسالة رابعة:

«لا تعلني حربكِ عليّ

لأنني لن أكون في هذه الحال

سوى غريب متعب في هذه المدينة.
لا تعذبيني
لأنك إذا فعلتِ، فسيلحقني الألوف.
إن حربك ضدي ليست بطولية
ابقي معي واجعليني سعيداً
لأنني لا أمتلك سوى عينيك لأشعر بالسعادة،
وحيث لا يُسمع شيء غير نبضات قلبي
لم تعد الجبال والأشجار تكلمني
مثلما كانت تفعل من قبل.
وغربت الشمس
وغمرت وحدتي يوماً آخر.
أنا حزين ومتعب في قمم هذه الجبال
ومع الطبيعة الساكنة
أقمت مراسم الحداد».

ارتسمت أمامي فجأة صورته المفعمة بالحياة، وغمرتني مجدداً الذكريات التي تسببت في بداية وقوعي في حب شارباست.

انسلّت والدتي إلى الغرفة وجلست قربي على السرير. بدأت والدتي بنزع الدبابيس عن شعري المرفوع فوق رأسي، فسمحت له بالانسدال على ظهري، ثم رفعت خصلات منه بأصابعها وقرّبتها من أنفها، ثم تنشقّت رائحتها. قبّلت خدّي قبل أن تعمد إلى رفع ذقني بإصبع واحدة، ثم جذبتني كي أواجهها، وقالت لي: «تبدين حزينة جداً يا ابنتي».

أسندت رأسي إلى كتف والدتي، وبدأت بالنشيج.

شعرت بوجود منى في الغرفة، لكن شقيقتي العزيزة وقفت بهدوء ولم تنطق بشيء.

دأبت والدتي ومنى على مراقبتي عن قرب منذ أسابيع عدة، لكنني أدركت أن كل من في المنزل كان يعاني معي. عادت جروحي إلى التفتح من جديد، ونالت مني رسائل شارباست وقصائده. شعرت بأن جسدي محطّم ومسحوقٌ بأكمله، وتحولت إلى فتاةٍ عصبية وصعبة الإرضاء. بدأ سعد وزوجته في تجنب الحديث معي، واعتقد زملائي في العمل أنني أعاني أزمة عائلية.

سيطرت عليّ تعاسة مبهمة منذ اليوم الذي أهملني فيه شارباست، لكنني استطعت عزل هذه التعاسة في مكان ناءٍ من روحي. نجحت رسائله في إطلاقها من جديد. تذكرت العذاب الذي يتسبب فيه رفض الجانب الآخر للحب، وخشيت أن يعود ليسيطر عليّ من جديد.

طلبت والدتي مني في صباح اليوم التالي أن أجالسها قليلاً. شربنا الشاي معاً، وتحدثنا عن أمور عادية.

وجّهت والدتي نظرة صارمة نحوي، ثم ذكّرتني بقولها: «ابنتي، هناك أناس حقيقيون يخاطرون بحيواتهم من أجل إيصال هذه الرسائل التي لا تكلفين نفسك عناء الرد عليها. أعتقد أنه من العار علينا أن يُقتل بعض الرجال والنساء الشجعان من أجلها».

جفلت قليلاً. لم يسبق لي أن فكّرت في كل المخاطر التي يتعرّض لها الآخرون من أجل نقل هذه الرسائل إليّ.

مسدّت والدتي ركبتي، ثم قبّلتني وقالت: «جوانا، اكتبي إليه بالموافقة، أو بالرفض. أنا لا أريدك أن تتزوجي بهذا الرجل وتعيشي حياة المقاتلين. أما إذا كنتِ تحبينه، وتعرفين أن حياتك معه ستجلب لك السعادة، فسأساندك في قرارك».

حدّقت في والدتي. أحسست بأن حبي لها قد تضاعف لأنها عرضت عليّ هذه التضحية.

أعرف تماماً، في خضم هذا الجو السائد الذي يحرص فيه الجيش العراقي على زيادة مدافن «البشمركة»، أن عائلات قليلة جداً مستعدة للسماح لبناتها بالزواج من مقاتل، حتى لو كانت هذه العائلة هي عائلة كردية تساند القضية. يعرف الأكراد أنهم يخسرون الكثير من شبانهم، وهم لا يريدون أن يخسروا بناتهم أيضاً.

أدرك أنني لو ارتحلتُ شمالاً وعشت حياة «البشمركة» فستعيش والدتي في جو من القلق الذي لا نهاية له، وهي لن تعرف ما إذا كانت ابنتها الصغرى قد اعتُقلت، أو تتعرض للتعذيب، أو إذا كانت ميتةً أو على قيد الحياة.

بدأت في الارتعاش. شعرت بشوقٍ حقيقي إلى شارباست. أخذت قراري أخيراً. ارتميت بين ذراعي والدتي، وقلت: «أمي! لقد اتخذت قراري».

الجزء الثالث

غرام ومأساة في كردستان

(١٥)

غرام وزواج

من السليمانية إلى سروان:
من ١٧ أيار إلى ٢٠ حزيران، ١٩٨٧

افتقد عرسي العريس. أشعر بأنني محرومة من كل شيء عادي. همستُ لوالدتي عن خيبة أملي عندما ألقيت رأسي على كتفها، لكنها ذكّرتني بأنه يتعيّن عليّ أن أشعر بالسعادة لأنني حصلت على عرس وسط هذه الظروف.

أعرف أنه مرّت علينا أسابيع من الشكوك. حدثت أمور كثيرة منذ ذلك اليوم الذي اعترفت فيه لوالدتي بأنني لم أتوقف يوماً عن حب شارباست، بالرغم من تصميمي على اقتلاع آخر الجذور التي غرسها هذا الحب في قلبي قبل عشر سنين.

لكني وقعت أسيرة رسائله وقصائده. غمرني الحب الذي اعترف لي به، فانتعش بذلك حبي تجاهه. امتلكتني الرغبة لأصبح المرأة التي صوّرتها لي خيالات الطفولة، أي المرأة التي تتزوج ببطلها الذي يعمل من ضمن «البشمركة»، والمرأة التي تعيش في جبال كردستان، حياة مناضلة من أجل الحرية.

عملت بنصيحة والدتي، فبعثتُ، أخيراً، بردّي على رسائل شارباست. لم يكن ردّي برسالة الحب التي يأملها. أفضيت، بدلاً من ذلك، بمكنونات قلبي، وأخبرته بمشاعري، وبإحباطاتي، وغضبي الذي كان يتقد ببطء.

وجّهت استيائي كله إلى المرأة التي طلب يدها للزواج. كتبت له كلمات تقطر بالكراهية تجاهها، وأخبرته بأنه اختار، في غمرة غبائه وحماقته، امرأة غير مؤهلة وضعت مطالب تتصف بالأنانية، وهي المرأة التي تتميز بصوت الرجال عندما تتكلم. أخبرته، بكل ضغينة استطعت أن أشعر بها، أنه لو قبلتْ لكان وجدها خشنةً في فراشه.

اكتشف شارباست في هذه الرسالة جانباً جديداً لحبيبته الحلوة والسعيدة، جوانا. إنها شخص جديد طوّره هو بالفعل، لأن الألم الذي شعرتُ به نتيجة تجاهله لي، هو الذي جعلني أشعر بالمرارة.

لم يشعر بالإحباط برغم غضبي، لكنه أصبح، في الواقع، أكثر تصميماً في جهوده على إقناعي بالقبول. ها هو القدر يتسبب في تبديل موقفَينا.

دسّت علياء رسالة قصيرة مع رسالتي، من دون علمي. قالت شقيقتي في رسالتها إن هناك رجالاً آخرين يطلبون يدي للزواج، وإنني لست مضطرةً إلى تحمل فترات انقطاع الاتصالات الطويلة من جانب شارباست.

عذّبتني فكرة وجود رجال آخرين يطلبون يدي للزواج، لكني

استلمت رسالةً أخرى وصلتني في وقتٍ قياسي من الجبال البعيدة. جاء في الرسالة أنه لن يستطيع الاستمرار في الحياة إذا لم أقبل.

نسيت مع مرور الأيام مدى حماسته الشديدة لكل شيء يحبه، سواء أكان بلداً، أم قضيةً، أم عائلة. اكتشفت الآن أن حماسته موجهة نحوي، ولا شك في أن كل امرأة تشعر بسعادة كبيرة عندما تتلقى الحب من الرجل الذي أُغرمت به لأعوام طويلة من دون طائل.

انتهى كل شيء كما كنت أتمنى.

قلت «نعم» أخيراً، ووافقت على زواجي به، بما يعنيه ذلك من تركي الحياة في بغداد كي أنضم إليه في الجبال، حتى لو اشتمل الأمر على أن أعيش كمطارَدة.

لم أشعر بالرعب، بل شعرت بالإثارة لأنني استطعت بقرار واحد تحقيق حلمين: سأتحول إلى أن أصبح زوجة مقاتلٍ من «البشمركة»، ومناضلةً من أجل الحرية تساند زوجها وبلادها الجميلة.

بدأت بتحضير نفسي لمغادرة بغداد إلى الأبد. أبلغت رئيسي في مكتب السياحة والسفر أنني سأترك العمل، وأنني سأتزوج، لكني لم أقل له الحقيقة بكاملها، وهي أنني أنوي الزواج بمقاتل في صفوف «البشمركة». ودعت صديقاتي الحميمات بشكل سري، وهن الصديقات اللاتي أحببنني إلى درجة أنهن ارتعبن عندما علمن أنني على وشك الزواج بمحارب ينتمي إلى صفوف

الاتحاد الوطني الكردستاني. سبق لي أن سمعت في بغداد أن جنود صدّام لم يعودوا يفرقون بين مقاتلي «البشمركة» وزوجاتهم. تعرض هؤلاء للذبح من دون تمييز عند إلقاء القبض عليهم. أخبرت صديقات أخريات من اللواتي ربطتني بهن علاقة أقل حميمية، أنني سأنتقل إلى السليمانية كي أعيش مع أسرة والدتي.

استجاب شارباست القلِق، فبعث برسالة عاجلة مفادها أنه يتحتم عليّ أن أغادر بغداد بسرعة، وأن كل شيء يتغيّر نحو الأسوأ في كردستان. أضاف أن نيران الحرب بدأت بالانتشار بطريقة تستعصي على السيطرة.

تحالف الاتحاد الوطني الكردستاني قبل سنة واحدة من هذا التاريخ، أي في العام ١٩٨٦، مع الإيرانيين، من أجل القتال ضد صدّام باعتباره العدو المشترك. وتحوّل الرئيس العراقي إلى رجلٍ شرسٍ مليء بالغضب، وراح يصرّح بأن زعيم الاتحاد الوطني الكردستاني، والمقاتلين الذين يعملون بإمرته، هم «عملاء إيران»، وأقسم على قتل كل أفراد هذا الاتحاد.

ينتمي شارباست إلى الاتحاد الوطني الكردستاني، وسرعان ما سوف أُعتبر عضواً في هذا الاتحاد في أعين أعدائنا.

يحتل الجيش العراقي كل المدن في كردستان، لكن مقاتلي «البشمركة» الذين يحاربون في صفوف الاتحاد، احتفظوا بسيطرتهم على المناطق البعيدة عن المدن. بدأ «البشمركة» في مهاجمة قوات الجيش العراقي في مدينة كركوك الشمالية. ولهذه

المدينة قيمة تاريخية واقتصادية، وهي محط أحلام الأكراد. إنها مدينة يطالب بها جميع الأطراف نظراً إلى احتياطات النفط الهائلة الموجودة فيها. ويعرف الجميع أن رد بغداد على هجمات قوات الاتحاد الوطني الجديدة كان شديداً.

أصدر مجلس قيادة الثورة في الاجتماع الذي عقده في ٢٩ آذار ١٩٨٧، قراراً حمل الرقم ١٦٠، أعطى بموجبه علي حسن المجيد، وهو قائد المنطقة الشمالية، صلاحية المضي قدماً لإنهاء المسألة الكردية. عُرف علي المجيد بقسوته الشديدة، وكان هو الرجل الذي يحتفظ بيده بتقرير ما إذا كان سيُسمح للأكراد بالحياة، أو يُحكم عليهم بالموت. فضّل هذا الرجل أن يموت جميع الأكراد.

بدأ الرجل بعد أسبوعين من هذا التاريخ حملة إبادةٍ كسب من ورائها لقبه المشين: «علي الكيميائي». قُصفت في الخامس عشر من نيسان، مراكز الاتحاد الوطني الكردستاني الموجودة في سيرغالو، ومركز اتصالات تابع للاتحاد في برغالو، بالغازات السامة، بأوامر مباشرة شخصية منه. فقد بعض الأفراد حياته نتيجة لهذا القصف، ونجا معظم المقاتلين بسبب خطأ بمزج الغازات الكيميائية، كان بمثابة رحمة إلهية. وبسبب أن الرياح لم تهب بالاتجاه المناسب. زادت الحاجة الملحة الآن لقهر صدّام بعد أن أصبحت الحرب الكيميائية أمراً واقعاً.

لا يستطيع «البشمركة» الفوز في حرب غازَي السارين والخردل غير المرئيين، بسبب قلة الأقنعة المضادة للغازات المتوفرة للمقاتلين، وانعدام وجودها بين أيدي المدنيين. منع

صدّام الأكراد من امتلاك هذه الأقنعة فترتب على هذا المنع نتائج كارثية لم تتأخر في الظهور.

لم يستطع الاتحاد الوطني الكردستاني تقديم الحماية للمدنيين، وهكذا اضطر القرويون إلى الفرار. وإذا ما هجر القرويون قراهم فسيخسر «البشمركة» ممراتهم الجبلية السرية التي توصلهم إلى مخابئهم. سيُقضى على «البشمركة» وكردستان، إذا قهر العراقيون الجبال.

خطر مثلٌ كرديٌ قديم في ذهني يقول: «إذا تسطحت الجبال، فلن تصمد كردستان يوماً واحداً». شعرت بالغيظ بسبب الوجهة التي أخذتها الحرب، وشعرت بتوق شديد كي أكون هناك، وأن أتقاسم مع شارباست الخطر الداهم والمتزايد.

صُدمت قبل ثلاثة أيام من الموعد المقرر لمغادرتي بغداد باستدعاءات جديدة تلقيتها من البوليس السري. تلقيت أوامر بالعودة إلى مكاتبهم، في غضون أسبوع، من أجل إبلاغهم عما فعلت بقضية انضمامي إلى حزب البعث. نسيت كل شيء عن «إلفيس» و«الأصلع» في غمرة الإثارة التي شعرت بها نتيجة خطوبتي، لكن يبدو أن الرجلين لم ينسياني قط.

مرّ وقت طويل منذ أن منحني الرجلان أشهراً قليلة للانضمام إلى حزب البعث، لهذا توقعت أن يتم استدعائي في وقتٍ أبكر، لكن من الواضح أنهما انشغلا بأمور أكثر إلحاحاً من قضية امرأة تعمل في وكالة سياحة وسفر.

وصلت الفرصة إلى نهايتها الآن.

أرعبتني الاستدعاءات السابقة، لكني وجدت أن استدعائي هذه المرة يمثل خطراً أقل. ابتسمت قليلاً، وتذكرت ما توقعه سائق سيارة الأجرة من إمكانية حدوث أي شيء.

حدث هذا الـ «أي شيء» فعلاً. وها أنا أستعد لمغادرة بغداد وللهرب إلى الجبال حيث سيكون «إلفيس» و«الأصلع» هما المطارَدين إذا ما اختارا، بغباء، أن يتبعاني إلى هناك. سأعيش في منطقة محرَّمةٍ عليهما حيث يسير المقاتلون الأكراد وحدهم في تلك الأراضي، بعيدين عن متناول مراقبة شرطة هذه البلاد هذا ما فكّرت فيه على الأقل.

حضّرت رسالةً تبرع رئيسي في العمل بإيصالها إلى «إلفيس» وزميله ما إن أغادر بغداد متجهةً إلى الشمال. ذكرت لهما في رسالتي هذه أنني قررت أن أتزوج، وأغادر بغداد بدلاً من بحثي عن وظيفة تناسب اختصاصي.

افترضت أن اهتمامهما بي سوف يتلاشى فور تلقيهما رسالتي هذه.

صحتُ عدة مرات يومياً، «وداعاً يا إلفيس!»، وتركت صيحاتي هذه تعابير مستغربة على وجوه الأصدقاء والأقارب الذين راحوا يتساءلون عن صحتي العقلية.

تقرر أن يكون يوم الخامس من شهر أيار من العام ١٩٨٧، هو آخر يوم لي في بغداد. وتقرر أن أغادر في اليوم التالي برفقة والدتي إلى السليمانية، حيث ستستقبلنا عائلة شارباست. سنمضي أسبوعاً هناك لترتيب مسألة الزفاف. سيتبعنا سعد،

بصفته المسؤول عن عائلتنا، إلى السليمانية من أجل إنهاء عقد الزواج.

مضى وقتٌ طويل منذ رؤيتي شارباست. لهذا، أردت أن أبدو جميلة في عينيه فقط. أنفقت في اندفاعتي هذه مالاً أكثر مما يجدر بي إنفاقه لشراء مستحضرات من أرقى المتاجر الموجودة في حي المنصور، وفي سوق النهر. ساعدتني صديقاتي الحميمات على انتقاء أحدث التصاميم والمبتكرات، وعلى انتقاء أحذية ذات كعوب عالية، وأكثر ثياب النوم إغراءً، بالإضافة إلى كميات إضافية من مستحضرات التجميل والعطور.

لم أكن أعرف المدة التي سأعيشها في قرية جبلية تفتقر إلى كل الأشياء اللازمة للحياة العادية. اجتاحتني موجة من الفرح أثناء وضعي كل هذه الكنوز النسائية في كيس كبير. انتهيت من تجهيز نفسي.

حرصت قبل يوم واحد من مغادرتي بغداد على الخروج وحيدة. انتقيت بعض الأماكن التي كانت محببة عندي، وبعض المراكز التي أقدّرها، وودعتها بحرارة. أوحى إليّ شيء في أعماقي بأنني لن أعود إلى مدارج طفولتي. أدركت أنني أغادر بغداد إلى الأبد، بالرغم من أن جزءاً كبيراً من مستقبلي ما زال مجهولاً.

تثير فينا بعض ممتلكات العائلة القيّمة ذكرياتٍ جميلة، لكن لا يستطيع أيّ من هذه الكنوز أن يضاهي صندوق ثياب والدتي. بقيَ هذه الصندوق المليء بالملابس الجميلة محفوظاً في غرفة

نومها. لطالما اختالت والدتي كأميرة بارتداء هذه الملابس الجميلة عندما كانت تنعم مع والدي بالثروة، ولطالما تلقيا دعوات إلى زيارة القصر الملكي في تلك الأيام.

كنت طفلة مليئة بالحيوية والحركة، وهو الأمر الذي دفع أمي المتعبة إلى أن تشجعني مراراً على البحث في ذلك الصندوق، وأن أتناول فساتين الحفلات والأحذية ذات الكعوب العالية. اعتدت أن أرتدي عباءة مزخرفة، وأن أنتعل حذاءً أحمر اللون بمقدمة مدببة، بحيث كان يتسبب بظهور علامات على الجدران عندما أصطدم بها. اعتدت أن أضع أحمر شفاهٍ زاهي اللون من تلك العائدة إلى والدتي، وكنت أعلّق حقيبة مسائية صغيرة مشكوكة بالخرز على مرفقي، قبل أن أبدأ بالتبختر في أنحاء المنزل. كنت أقنع نفسي في تلك الأوقات بأنني وسط حفلة رائعة حيث يتواجد الملوك، والملكات، والأميرات، والأمراء الصغار.

جلست على مقعد مكتب والدي المصنوع من خشب الجوز. كان بسيطاً ورائعاً في الوقت نفسه. صمّم والدي بنفسه هذا المقعد بالإضافة إلى طاولة المكتب المحفورة بدقة، وصنعها في معمله المخصص لصناعة قطع الاثاث. لم أستمتع برؤية هذا المعمل أبداً، لكني سمعت رعد ووالدتي يتكلمان عنه مرات عديدة، بحيث بت أشعر كأنني عملت فيه بنفسي.

رأيت والدي المسكين المجهد من العمل، وهو يجلس مراراً باستقامة أمام تلك الطاولة، وكنت ألاحظ ظهره المستقيم الذي

يضغط على الكرسي، بينما يُسند مرفقيه إلى سطح طاولة المكتب. اعتدت رؤيته وهو يتفحص الوثائق والأوراق، وينشغل بجمع أعمدةٍ طويلةٍ من الأرقام، وطرحها، في محاولة يائسة منه لإطعام عائلتنا الكبيرة يوماً إضافياً آخر.

لم يستطع والدي أن يُنقذ أي مصنوعات خشبية غير هاتين القطعتين يوم اجتاحت النيران المعمل بأكمله ودمرته خلال ثورة العام ١٩٥٨. ويستطيع أي شخص، حتى لو لم يتمتع بالخبرة والمهارة، أن يخمن أن الطاولة والمقعد المصنوعين من خشب الجوز هما من صنع مصمم مفروشات موهوب.

بقيت أشعر بمدى فداحة الخسارة التي تعرضت لها بفقدان والدي حتى بعد مرور أحد عشر عاماً على غيابه. تركت البيت وخرجت إلى الحديقة، ووقفت تحت أكبر شجرة نخيل. كانت ملاذي المفضل، حيث كنت أختبئ مراراً عندما كنت طفلة صغيرة. جلست باسترخاء في بقعة معتادة لديّ، وهي ثغرة اتسعت في التراب نتيجة أعوام عديدة من الاستخدام. أسندت رأسي إلى الجذع الصلب للنخلة، ثم تطلعت نحو السماء الزرقاء المتألقة. رحت أردد في نفسي «وداعاً، يا سماء بغداد».

ودّعت أعوامي الخمسة والعشرين: «وداعاً!». وجدت نفسي في ذروة السعادة التي شعرت بها على امتداد ما مضى من عمري، لأنني امرأة شابة على وشك أن تحقق أغلى أحلامها.

أطل صباح اليوم التالي، وأصبح في إمكاني مغادرة بغداد برفقة والدتي. تجمّع كل أقاربنا كي يودعونا، وبدأت النساء في

البكاء، بينما بقي الرجال هادئين وجديين. بدا الأمر كأنهم سمعوا نبأ موتي للتو.

سخرت من مخاوفهم، لأن المناسبة عندي كانت مناسبة سعيدة!

لو عرفت أنني سرعان ما سأواجه الموت والفوضى، وأنني سأشهد المجازر المرعبة التي ستحصد حيوات الكثيرين من الأكراد، أو لو عرفت أنه ستمضي أعوام عديدة قبل أن أرى عائلتي مجدداً، لكانت شجاعتي قد خانتني حقاً، ولم أستطِع المغادرة، ولا حتى أن أرتمي في أحضان الرجل الذي أحببته.

رحت أطمئن علياء الحزينة: «تذكري فقط أنه توجد بداية جديدة مع كل نهاية. أنا الآن مستعدة لهذه البداية الجديدة».

ابتسمت علياء ابتسامتها المتفهمة. تواجدت معي علياء وحدها منذ بداية رحلتي مع الحب، وعلياء فقط هي التي تستطيع أن تفهم تماماً سنيّ العذاب التي عشتها، وهي التي تختفي الآن وراء نهايتي السعيدة مع شارباست.

لم أشعر بالأسى لأنني أشهد آخر موجة من غبار بغداد، بالرغم من واقع أننا سنرتحل إلى حيث نواجه مخاطر مجهولة. لم نكن مهيئين لرؤية التغيرات الصارخة التي حدثت في الشمال، وذلك بعد أعوام عزلتنا في بغداد. تعرضت البلاد التي أحببناها لهجمات من الجو والأرض. وملأت السماء طائرات حوامة لا حصر لها، وانطلقت لتحوّم فوق رؤوسنا مثل جماعة غاضبة من النحل. وملأت الحواجز العسكرية الطرقات السريعة الممتدة ما

بين بغداد وكركوك، وصولاً إلى السليمانية، وذلك للتأكد من أن المواد التموينية والاتصالات لا تأخذ طريقها إلى مقاتلي «البشمركة»، أو القرويين الأكراد.

أعدّ صدّام خططاً ليميتنا جوعاً.

تحملت مع والدتي رعباً غريباً على الحواجز العسكرية، لأن هذه الحواجز كانت تعتبر كل زائر يأتي إلى هذه المنطقة جاسوساً. جلسنا نراقب عدة رجال أكراد وهم يُسحبون من سياراتهم قبل أخذهم إلى جهة مجهولة. أدركنا عندها أنه قُضيَ على هؤلاء المساكين. وسبق لنا أن سمعنا شائعات تفيد أن الأكراد يُقتلون من دون تمييز. اجتزنا كل حاجز، وكنا مجرد امرأتين نمتلك أوراقاً سليمة. استطعنا إقناع الجنود، أثناء استجوابهم الروتيني لنا، بأننا متوجهتان لزيارة أقاربنا في السليمانية. وهكذا سُمح لنا بالمرور.

بدأت والدتي بتحريك خرزات سبحة صلاتها، وأحدثت بذلك صوتاً عالياً. حدّقتُ في عينيها القلقتين وسألتها: «هل تحاولين إيجاد نغمة خاصة بواسطة هذه السبحة يا والدتي؟».

همست لي باضطراب: «سيكون هذا اليوم مجرد نزهة إذا ما قورن بحياتك الجديدة يا جوانا».

صحيح، لكني لا أرغب في أن تأخذ الأمور منحى آخر.

أعتزم، بعد إنهاء مراسم الزواج، أن أتوجه مع شارباست كي أعيش في برغالو، وهي مخبأ حيوي يستخدمه الفدائيون

التابعون للاتحاد الوطني الكردستاني. ويحتضن وادي جافاتي الضيّق هذه القرية. ويُعتبر الوادي شريطاً طويلاً من الأراضي الوعرة، ويقع في جنوب غرب كردستان العراقية.

سكن المحاربون هذه القرية، التي اعتُبرت مركزاً موقتاً يضم محطة إذاعية تابعة للاتحاد الوطني الكردستاني، بالإضافة إلى مستشفى ميداني تابع للاتحاد. تحولت برغالو إلى هدفٍ مغرٍ بالنسبة إلى حكومة بغداد، وذلك بسبب أهميتها للمقاومة الكردية. وهكذا بدأ الجيش العراقي في قصف القرية بشكل روتيني من الجو والبر.

اجتاحني شعور غريب بعدم الاهتمام بسلامتي الشخصية.

رحت أحدّق من خلال النافذة، وبدأت أفكّر في شارباست. ملأتني الحماسة كي أبدأ حياتي الزوجية، واستعجلت كي أبدأ في لعب دورٍ صغير في مساندة الأكراد للحصول على حريتهم.

لقينا ترحيباً قلبياً في منزل شقيق شارباست، عثمان، الذي يعيش في سارشنار، وهي ضاحية سكنية من ضواحي السليمانية. شعرت أنا ووالدتي، بأننا في بيتنا لأكثر من سبب، أهمها أنه متزوج بنوبهار، وهي ابنة شقيقة والدتي، أي ابنة خالتي المفضلة عائشة.

فوجئت عندما قدمّت إلي عائلة شارباست هدية الزواج، وهي عبارة عن أربع أساور ذهبية.

يقدّر الأكراد الذهب كثيراً، وعادة ما تقدم عائلة العريس

هدايا ثمينة إلى العروس، من مصوغات ذهبية، وتصبح ملكها إلى الأبد في حالة ترملها، أو إذا طلب زوجها الطلاق منها. وجدت نساء كثيرات أن الذهب الذي حصلن عليه يوم زفافهن قد ردّ عنهن وأطفالهن غائلة الجوع.

لم أتوقع تلقي أي شيء بالرغم من ذلك كله. وسبق لشارباست أن سألني ما أطلبه لمهري، وذلك بعد موافقتي على عرضه بالزواج بي. أجبته كتابةً: «لن أقبل أي شيء منك، عدا خاتم زواج ذهبياً بسيطاً». أعرف أن هذه العائلة قدمت الكثير من التضحيات المالية في سبيل القضية الكردية. وقد أقدم الجيش العراقي على الانتقام من هذه العائلة لأنها تضم اثنين من أبنائها في عداد مقاتلي «البشمركة». خسرت العائلة، لهذا السبب، منزلها الأساسي.

اخترت أن نبدأ حياتنا معاً على قدم المساواة، فلن يمتلك أحد منا أي شيء ثمين. سنبني مستقبلنا معاً، كنا واثقين من تحسن أحوالنا المادية بعد تحرّر كردستان. وقال شارباست إنه أسعد رجل في العالم، لأنه علم أنني سأتزوج به عن حب حقيقي.

تساءلت إن كان شارباست قد قارن عاطفتي الصادقة التي أظهرتها مع مطالب المهر الجشعة التي وضعتها من اختارها لتكون زوجته في البداية، لكني لم أسأله فعلاً. تمنيت أن يكون قد فعل ذلك، وأن يكون شعر بالسعادة لأن عرضه الأول قد قوبل بالرفض، ولأن ذلك مهّد له الطريق ليتزوج بي الآن.

سعدت كثيراً لاستلام هذه الأساور الذهبية برغم كونها رمزية، فقد أدركت أنها الطريقة التي استخدمتها عائلة شارباست لتعلمني بسعادتها لانضمامي إليها.

راحت السيدات المتجمعات في المنزل بالتساؤل عندما بدأت في إفراغ حقيبتي الكبيرة. تزاحمت السيدات من حولي، وشكّلن حلقة ودودة بينما كنت أعرض عليهن بفخر محتويات خزانة ثيابي الجديدة.

دُهشت عندما بدأت أسمع صيحات إعجابهن المترافقة مع ضحكات عالية مع كل شيء أعرضه عليهن.

«ماذا؟ ماذا؟».

تطلعت في اتجاه النسوة، ورفعت يديّ، واتسعت عيناي نتيجة الدهشة.

راقبت والدة شارباست، وهي سيدة تتمتع بوجه لطيف، بحيث إنني بدأت أحبها سلفاً. أخذت تعابير وجهها تميل نحو التجهم، فشعرت بالاضطراب. دفعتني بلطفٍ عندما وضعت يديها على كتفيّ، وقادتني إلى طرف السرير ثم جعلتني أجلس: «يا فتاتي العزيزة، لن تكون برغالو مدينة للحفلات. إنك ذاهبة لتعيشي الحياة التي يعيشها مقاتلو «البشمركة». ينبغي لثيابك أن تحميك في هذه الجبال القاسية».

رفعت طرف أحد فساتين الساتان التي اخترتها، ويتميز بلونه الأحمر الساطع: «اعلمي أن هذا الفستان هو سلاح مميت!

سوف تومضين به مثل منارة». هزّت رأسها وتابعت: «سيسر الجيش العراقي إذا ارتديت هذا الفستان يا جوانا. ستجعلين من مراقبته لنا أمراً سهلاً، وسيمثل كل شخص موجود في ذلك الجبل إلى الله مباشرة إذا ارتديت هذا الفستان». دفعت يديها الاثنتين عالياً في الهواء وصاحت: «بووم!»

أشارت إلى بلوزة خفيفة بلون «البيج»، وتنورة مخرمة هي من بين آخر صيحات الموضة من باريس: «جوانا. ستتجمدين من البرد إذا ارتديت هذه. وما هذه أيضاً؟ هل ابني سيتزوج بسندريللا؟».

انفجر الجميع بالضحك بابتهاج عندما دسّت إصبعها في عباءة إيطالية مخرمة سوداء، ومخططة بألوان ذهبية طويلة.

شعرت بالصدمة إلى درجة فقدت معها كل إحساس بالواقع، لأنني حرصت على إثارة شارباست عندما أظهر بأبهى حلة. عضضت شفتي وتطلعت يميناً وشمالاً، وتمنيت لو يختفي الجميع من حولي.

ساءت الأمور أكثر عندما تناولت إحدى شقيقات شارباست الصغيرات إحدى أجمل عباءات نومي، وبعض الثياب الداخلية التي تتناسب معها، ثم بدأت ترقص في مكانها. شهقت، واختطفت ثيابي من بين يديها. أحسست بأن الدم يتصاعد في وجنتيّ.

ضحكت جميع النساء الموجودات ما عداي أنا.

بدت والدة شارباست متعاطفة معي بعد أن استعادت

أنفاسها. احتضنتني، ثم تحولت إلى الجدية معي: «إن ما ستحتاجين إليه يا جوانا هو سروال سميك، وزوج أحذية عالية وثقيلة، وسترات معقولة. تستطيعين ترك كل ثيابك الحريرية هنا لتستخدميها مستقبلاً، أي بعد أن تستقر الأمور».

بانت خيبة الأمل على وجهي.

هزت كتفيها، وربتت على كتفي: «كل الحروب تنتهي، في النهاية».

أتى المساء، فركبنا جميعاً سيارة أجرة قديمة وتوجهنا إلى سوق محلية. ساعدتني النساء على انتقاء ملابس جبلية مناسبة، لكني صُدمت عندما علمت أن هذا يعني اختيار ملابس الرجال.

اشتريت أصغر قياس من السراويل الرجالية المتوفرة، وهي السراويل الفضفاضة الشائعة جداً في كردستان. بدت هذه السراويل واسعة عند الخصر بحيث كانت تسقط عندما أرتديها. سأضطر إلى ربطها بخيطان في ما بعد. فكرت بحزن في أنه لربما كنت مخطئة في ظني أنني لن أشتاق إلى شيء من حياتي القديمة. لم أكن معتادة على ارتداء ملابس لا تتماشى مع الموضة. أدرك أن كل عروس شابة ترغب في أن تبدو جميلة في عيني زوجها. وأنا لا أعتبر نفسي استثناءً من هذه القاعدة.

لاحظت إحدى شقيقات زوجي التجهم الذي بدا على وجهي، فبدأت في مضايقتي، وقالت ضاحكة: «ستكون هذه السراويل يا جوانا ذات قيمة كبيرة لكِ. تستطيعين ارتداءها لركوب الحمير، وتسلق الجبال... والقفز إلى ارتفاعٍ يقرب من

طولي أنا، ثم انظري. . . إلى هذه الجيوب الطويلة. تستطيعين أن تضعي أرغفة خبز في هذه الجيوب الواسعة!».

لاحظت أن هذه الجيوب تمتد فعلاً على طول ساق السروال، ولذلك سأستطيع الاستفادة منها عندما أسير على الطرقات الجبلية.

أسرعت بحزنٍ إلى ترتيب ملابسي المحببة وطيها ووضعها بعيداً، قبل أن أعود وأملأ حقيبتي من جديد. أصررت، برغم ذلك، على عدم التخلي عن غطاء سريري الجديد والزهري اللون، بالرغم من التحذيرات التي تلقيتها بأنني سأتنقل على ظهر بغل في مكان ما، وذلك في طريقي إلى برغالو. قالوا لي أيضاً إنني لن أجد مكاناً لهذا الغطاء الرائع في الجبال. ووصل الأمر إلى درجة العراك بالأيدي مع إحدى شقيقات زوجي من أجل غطاء السرير ذاك. ورفضت التخلي عن لحافٍ ووسادة. صممت على أن أمتلك شيئاً من الجمال في منزلي الجبلي الجديد.

قمنا في وقتٍ لاحق بجولة في سوق الذهب من أجل شراء خواتم الزواج. ضحك الجميع عندما تناولت غصناً طرياً من حقيبتي وأخبرت مالك المتجر: «أرسل لي خطيبي هذا. إن حجم خاتمه هو بقياس هذا الغصن».

اعتبرنا الأمر مسلياً عندما وضع مالك المتجر خواتم الزواج المتعددة التصاميم في ذلك الجزء من الغصن، وسط فضول الحشد الذي تجمع ليراقب ما يجري.

بقي عليّ أن أتغلب على بعض العقبات الإضافية قبل أن أتمكن من الزواج بشارباست. أصدر صدّام قانوناً منع فيه النساء من الزواج بمقاتلي «البشمركة». وامتنع الموظفون الحكوميون في كامل السليمانية، عن المخاطرة بحياتهم بإعطائنا الأوراق الرسمية المطلوبة، كما أن القليل جداً من رجال الدين امتلكوا شجاعة إضفاء الصفة الرسمية على مثل هكذا عقود.

بدأت أميل إلى الاعتقاد أن زواجنا لن يتم، وأنني مضطرة إلى الاعتراف بالفشل المرير والعودة إلى بغداد. تدخل شقيق شارباست لحل المشكلة. رتّب ذلك الشقيق مسألة الأوراق الرسمية، وقال إنه يعرف رجل دين كردياً شجاعاً يدعى إبراهيم صالح، وهو مستعد لإجراء الاحتفال.

برزت عقبة ثانية فور الانتهاء من هذه، فبدأت أتساءل ما إذا كان الله نفسه يقف في طريق زواجي.

شعرت بألم مرير عندما أتت رسالة من شارباست تفيد بأنه غير قادر على الحضور من الجبال إلى السليمانية. شعرت بأنني غير قادرة على الوقوف. عرفت أن السلطات رصدت جائزة لمن يدلي بمعلومات تؤدي إلى القبض عليه، مثلما هي الحال مع بقية محاربي «البشمركة». علمت أيضاً أن حكومة بغداد قد كثّفت حملاتها في المنطقة، وهكذا صار من المستحيل على أفراد «البشمركة» مغادرة الجبال، والدخول إلى المناطق المحرمة عليهم، بما في ذلك اجتياز الحواجز العسكرية ودخول مدينة محتلة. إن من شأن هذه الرحلة أن تكلف شارباست حياته.

جلست في عزلة صامتة، ورحت أتأمل الوضع. شعرت بتحسن طفيف في مزاجي عندما ذكّرني أحدهم بأن تقاليدنا لا تتطلب أن يحضر العريس والعروس معاً احتفال الزواج. أعرف، في الواقع، أنه في عددٍ من البلدان الإسلامية تفرض التقاليد أن يتم الفصل عمداً ما بين الرجال والنساء أثناء الاحتفال بالزفاف. يستطيع رجل الدين (الملّا) أن يُنهي مراسم الزواج مع شارباست أولاً، ثم يُنهي ما تبقى من هذه المراسيم معي. سنُعتبر زوجين ما إن تنتهي مراسيم الزواج هذه.

دُهشت عندما علمت أن رجل الدين الشجاع ذاك، قد تطوع بالذهاب في تلك الرحلة الخطرة إلى الجبال، كي يصل إلى مكان شارباست، وينهي المراسم المتعلقة به هناك، وهكذا أصبحت مَدينة له إلى الأبد.

وجدنا الحل أخيراً لهذه المشكلة المقلقة.

شعرت بأنني كسيرة القلب، بالرغم من كل ذلك، لأن شارباست لن يستطيع حضور الزفاف. حاولت أن أتحمّل الوضع أمام عائلة شارباست، لكني فشلت في كبح جماح دموع الإحباط التي سالت من عينيّ.

جاء، أخيراً، اليوم المنتظر.

تأرجحت بين الأمل والإحباط في تمكّن شارباست من الظهور في آخر لحظة. وأمضيت اليومين السابقين على زفافنا في صالونات تجميل السليمانية. صففت شعري الطويل الأسود،

وخضعت للمسات تجميل للوجه، وإزالة الشعر بالشمع، وتجميل للأظافر، وكذلك العناية بقدميّ وأظافرهما.

لكن شارباست لم يظهر.

وصل شقيقي سعد قبل ساعات من حفل الزفاف، وقال إنه لم يمر بصعوبات عند اجتيازه للحواجز العسكرية. جعلني هذا الأمر أشعر بارتياح كبير. كان سعد هو الرجل المؤهل الوحيد في أسرتي الذي يستطيع الموافقة رسمياً على زواجي من شارباست، نظراً إلى وجود رعد في سويسرا.

أيقنت أخيراً أن شارباست لن يفاجئني بحضوره في اللحظة الأخيرة، فاخترت أن لا أرتدي الفستان الرائع الزهري اللون الذي اشتريته خصيصاً كي أرتديه في هذا اليوم بالذات. قررت، بدلاً من ذلك، أن أرتدي بذلة ذات ألوان رمادية وزهرية مقبولة. لم أستطِع التصديق أنه بعد هذه السنين الطويلة من الانتظار، سيتم حفل زفافي من دون وجود عريس. لكن هذا هو ما حصل بالفعل.

تجمّع المحتفلون في غرفة جلوس عثمان، وهي غرفة دافئة وتبعث على البهجة، حيث الجدران مكسوة بالأقمشة الحمراء، والأرضية الخشبية التي تحمل السجاجيد المصنوعة يدوياً. لاحظت أن لوحة تمثل خيولاً برية معلقةً خلف الأريكة، كما أن بعض التحف الزهيدة الثمن تنتشر في الغرفة.

جهّزت قريبتي بعض الحلويات المصنوعة في المنزل

للاحتفال بهذه المناسبة، لكن توتري منعني من تذوقها. شعرت بأن شيئاً ما لا بد من أن يحدث لإفساد هذا الاحتفال.

ماذا لو أطلق أحدٌ النارَ على رجل الدين على أحد الحواجز العسكرية. أعرف أن مثل هذه الكوارث تحدث في كردستان بشكل يومي. لم يحدث هذا المشهد الافتراضي المخيف، ووصل الملّا إبراهيم صالح أخيراً. لاحظت على الفور أن شفتيه الرفيعتين كانتا مزمومتين، كأنه يجد صعوبة كبيرة في الابتسام. أعرف أن مجرد كون المرء رجل دين كردياً قد أصبح مهمة خطرة هذه الأيام.

أسرع والد شارباست وشقيقه لشكره. بادلته بدوري بابتسامة تدل على الامتنان.

لم يتحدث الملا إبراهيم كثيراً عن مغامرته الجبلية، لكنه أشار إلى أنها كانت مرعبة. أبرز لنا، بفخرٍ، وثيقة تحمل توقيع شارباست تؤكد سماحه بإجراء مراسيم الزواج بغيابه.

تطلع في اتجاهي، أخبرني مبتسماً أن شارباست يتمنى لي رحلة آمنة عبر الجبال.

فسّرت كلماته هذه على الشكل التالي: أيتها العروس، كوني هنا بأسرع ما يمكنك.

لاحظ سعد في هذه اللحظة أن رأسي لا يحمل اي غطاء، وهو الشيء الذي كان لا يتسامح به بوجود رجل دين. أحدث

أخي بعض الجلبة التي لا داعي لها قبل أن يتطوع أحدهم لمناولتي شالاً أبيض اللون.

وضعت الشال الرقيق فوق رأسي من دون أن أربطه جيداً. راح سعد يهمهم من شدة انزعاجه، لكنه تمكّن من منع نفسه من الإفصاح عن أفكاره الساخطة الحقيقية.

نظرت باتجاه سعد وابتسمت. شعرت بأنني أحبه حقاً. أعرف أن شقيقي رجل وسيم ولطيف جداً، على الأقل في الأمور التي لا تتعلق بكيفية ارتداء النساء ملابسهن.

أومأ وبادلني ابتسامتي. بدا لي أنه أصبح أكثر سعادة مما كان منذ وقت طويل. خطرت في ذهني فكرة مفاجئة مفادها أنه سعِدَ كثيراً بفكرة زواجي أخيراً. أعرف أن التقاليد الكردية تعتبرني عروساً كبيرة بعض الشيء، لأنني بلغت سن الخامسة والعشرين. لن أكون عبئاً عليه بعد زواجي.

بدأ الاحتفال، وظهر على الفور جهلي بالأمور الدينية. قرأ الملا إبراهيم المقاطع المطلوبة من القرآن، وطلب مني أن أعيدها من بعده. وجدت صعوبة كبيرة في فهم اللغة الكردية الفصيحة (الرسمية)، لأنني كنت أتقن اللغة الكردية المحكية.

شعرت بأنني على وشك أن أُصاب بالدوار، وتعثرت في نطق كل عبارة. لاحظت أن سعد ووالدتي تحركا كليهما في مقعديهما، وظهرا في غاية الانزعاج.

اعتدت رؤية رجال الدين الذين يوحون بالصرامة، لكن رجل

الدين هذا كان مختلفاً ولطيفاً. كرّر لي كل عبارة مرات عديدة، واختصرها قليلاً، وحاول أن يسهّل المواقف التي وجدت فيها إحراجاً.

شعرت بأن حالتي ميؤوس منها، وكدت أستسلم، ثم حاولت أن أكبت ضحكاتي، لكنني أدركت أن سعد لن يغفر لي إذا ضحكت بصوتٍ عالٍ في احتفال زفافي. ظهرت في حالة يُرثى لها، حتى أن أقارب شارباست اللطفاء تبادلوا نظرات الاندهاش في ما بينهم.

حملق سعد بي. أعرف أنه يحفظ القرآن عن ظهر قلب. دُهش كثيراً لأنني أجهل أبسط التعاليم الدينية.

انتهى الاحتفال. بدت بذلتي الزهرية اللون رطبة بسبب ما تصببت عرقاً. إن اليوم الذي كان من المفترض أنه أسعد يوم في حياتي، تحوّل إلى أن يصبح إخفاقاً محرجاً لي. خشيت أن أكون أخفقت في هذا الاختبار.

ماذا سيحدث لو أن الملا أعلن أنني أفسدت فرصتي بالزواج؟

أيقنت أن الملا إبراهيم اعتبر أن أدائي مقبول، لأنه لم يقل شيئاً سلبياً عندما قدّم بعض الوثائق كي أوقعها. أصبح زواجي رسمياً، وأصبح شارباست زوجي أخيراً!

أستطيع القول إن وجود العريس ليس ضرورياً لإجراء مراسم زواج كردي، لكن وجود العريس هو أمر ضروري لإتمام شهر عسلٍ ناجح.

أردت الإسراع في مغادرة السليمانية كي أنضم إلى عريسي، لكني لا أستطيع القيام بهذه الرحلة وحدي. سنحتاج إلى وجود أدلاء على طول الطريق، وسأضطر إلى وضع مصيري بين أيدي أشخاصٍ لم أتعرف إليهم بعد.

تمتع الجميع بتناول غداء خفيف وشهي بعد انتهاء الحفل. لم نستطِع الوثوق بأي من الزائرين، الذين قد يتحدثون عن احتفالنا بزفافي. لم نستطِع أن نكون حريصين جداً لأن هؤلاء الزوار كانوا من معارفنا من الأكراد. أعرف أن كلمةً تُلقى جزافاً قد تؤدي إلى اكتشاف أن الملا قد خرق أحد قوانين صدام بإجرائه زواجاً لأحد عناصر «البشمركة». وإذا ما حدث هذا الأمر فسيتعرض الجميع لعقوبات قاسية.

سرت الأخبار في وقت متأخر من ذلك المساء في أنحاء السليمانية، بأن جيش صدّام يحضّر لهجوم كبير ضد مقاتلي «البشمركة». ودّعت على عجل في وقت مبكر من صباح اليوم التالي كل أقربائي الجدد، بالإضافة إلى سعد.

رافقتني والدتي وإحدى شقيقات شارباست من السليمانية وحتى قرية قلعة ديزا، حيث سأُنقل، مثل رزمة، بواسطة مرشدة. سيكون لدينا بالطبع سائق ذكر، لأنه لا يُسمح للنساء في تلك البلاد بالتنقل في الطرقات من دون حماية من الرجال.

ارتسمت أمام ناظريّ السهول الخصبة المحيطة بقلعة ديزا. لاحظت أن المزارعين الأكراد، الذين يرتدون سراويل فضفاضة، قد استطاعوا، بالرغم من الاضطرابات الراهنة، زراعة الحقول

بالقمح. ارتفع جبل قنديل بمهابة من وراء القرية، ورأينا قمته التي ما زالت مكسوة بالثلوج، وسفوحه الجميلة المغطاة بالأشجار، التي تنحدر لتحتضن القرية.

تُعتبر قلعة ديزا واحدة من أجمل قرى كردستان. أحب كثيراً هذه القرية، لأن شارباست أمضى معظم فترة طفولته فيها، مع أن حياته شهدت تغيّراً ملحوظاً هناك.

بقيت كردستان معقل الثورات والمذابح على الدوام. وبين سنتَي ١٩٧٤ و١٩٧٥ اشتعلت الاضطرابات من جديد. عمدت الحكومة العراقية إلى إسقاط قنابل النابالم على المدنيين القاطنين في قلعة ديزا من دون سابق إنذار، فقُتل المئات من سكانها. شهد شارباست الشاب فوضى الموت المفاجئ التي عمّت المكان. وصف لي ذات مرة قلقه المفعم بالحزن أثناء محاولته إنقاذ جيرانه وأصدقائه.

هربت عائلة شارباست إلى إيران بعد الهجوم الذي تعرضت له قلعة ديزا، وعاشت هناك في مخيّم للاجئين لمدة سنتين تقريباً. اختزنت العائلة داخلها، في وقت رجوعها من المنفى، حقداً لا يزول تجاه الحكومة في بغداد، وهو الحقد الذي سيقود شارباست في النهاية ليصبح مقاتلاً في صفوف «البشمركة».

نجت قلعة ديزا، لحسن الحظ، من ماضٍ صعب. تمنيت في هذا اليوم أن تكون الأيام الصعبة وراءها. أحسست مع ذلك بأن شيئاً ما يتلبد في الأجواء.

وصلنا سالمين إلى قرية قلعة ديزا، وهناك اكتشفت أن دليلتي

في رحلتي هذه كانت شخصاً مميزاً جداً. تُدعى المرأة زكية خان، وهي قريبة شارباست وزوجة أحد قادة «البشمركة» التابعين للاتحاد الوطني الكردستاني، ويُدعى قادر، وهو أمير من أمراء الحرب الأكراد يعطيه الأكراد التقدير الذي يليق بأسرة مالكة. تطوعت زكية، بكل جسارة، لتلك المهمة الخطرة، التي تقضي بمساعدتي على عبور منطقة كردستان المحرَّمة، التي يسيطر عليها «البشمركة».

ودّعتُ والدتي في قلعة ديزا. كان وداعاً مؤثراً لي ولها، وعلى الأخص بسبب ما عرفناه، من خطورة الحالة في كردستان. فكّرت في أنه لربما لن نرى بعضنا بعد الآن.

حزنت للفراق، لكني كنت مستعجلة لأبدأ مسيرتي الخطرة في المنطقة المحرمة. يتعيّن عليّ الوصول إلى شارباست.

زاد احترامي لزكية خلال هذه الرحلة، واكتشفت أنها امرأة شجاعة وذكية. وبينما كنت أرتعد من الخوف، استطاعت أن تناور بدهاء عندما اعترضتنا مواقف صعبة على الحواجز.

شعرت بالرعب عندما عرفت أن بعض الذين يتواجدون على هذه الحواجز هم من الأكراد الخونة، وهم من العملاء الذين يُطلق عليهم اسم «الجحش». استخدم هؤلاء الرجال مهاراتهم من أجل الإيقاع بمقاتلي «البشمركة» الشجعان، وهم الذين كان يجدر بهم القتال إلى جانب أشقائهم الأكراد. يمثّل «الجحش» خطراً أكبر علينا مما يمثله جنود صدّام. إنهم من بني قومنا، ومن الصعب علينا أن نميزهم لأنهم كانوا يندسون في صفوف «البشمركة»، ويعملون كجواسيس.

باع هؤلاء العملاء كردستان والأكراد للحكومة، وهي التي ستسعد بالقضاء عليهم عندما تنتفي الحاجة إليهم. يصعب عليّ التصديق بوجود رجال أكراد على استعداد لقتلي وزكية، إذا ما اكتشفوا أنني العروس الجديدة لمقاتلٍ من «البشمركة».

لكن زكية أكدت لي أن هذا هو الواقع تماماً.

وصلنا أخيراً إلى الشعور بالحماية والأمان الذي يوفره غطاء الأشجار في الجبال العالية، شعرت بأنني حرة وغير خائفة للمرة الأولى منذ أيام. انبهرت بجمال الطبيعة من حولي، وبقمم الجبال العالية، ولاحظت وجود النباتات المتسلقة التي تغطي جذوع الأشجار الضخمة. ورأيت الجداول بمياهها المتسارعة، التي اتسعت بفضل ذوبان الثلوج. ساعدتني هذه المشاهد الخلابة على نسيان القوى المعادية لنا، التي خلّفناها وراءنا.

وصلنا أخيراً إلى قرية صغيرة تدعى «مرجة»، في نهاية رحلة استمرت ست ساعات فوق طرق صخرية غير معبدة ومليئة بالمطبات، بحيث إن رأسي ظل يرتطم بسقف سيارة «الجيب». شعرت بصداع شديد في رأسي، لكني نسيته تماماً عندما أخبروني أن شارباست ينتظرني في هذه القرية.

تقسم طريق رئيسية قرية «مرجة»، الصغيرة والفقيرة جداً، إلى قسمين. وتحيط البيوت الصغيرة المشيدة من الأحجار الإسمنتية بهذه الطريق. لم تحظَ «مرجة» بأي حصة من الثروات التي نالتها ذات مرة جارتها القريبة «بحيرة دوكان»، وهي منطقة منتجعات

سياحية مشهورة تقع في وسط كردستان، وتشتهر بالكرمة والتين والرمان.

عرفت أن شارباست كان هناك، في مكان ما ينتظرني، لكني تساءلت كيف سنتمكن من الالتقاء.

نفد صبري، ورحت أتفحص مدخل كل بيتٍ مررنا به. لاحظت حركة مفاجئة، وسرعان ما ظهر شارباست من أحد البيوت. التقت عيناه بعينيّ، فانطلق يركض بأقصى ما يستطيع، وبدأ شعره الطويل يتطاير حول رأسه. التمعت عيناه وحاول أن يلحق بسيارة «الجيب».

صرخت بالسائق كي يتوقف. مددت يديّ خارج «الجيب» وتمنيت أن يجذبني شارباست إليه، ويضمني بين ذراعيه. أسرع السائق ولم يتوقف، لسبب لا أعرفه.

رحت أتطلع حولي بيأس. لم يسبق لي أن عرفت أن شارباست كان عدّاءً سريعاً، لأنه استطاع اللحاق بالجيب!

خشيت أن يستمر هذا السائق الأرعن بالسير عبر القرية بكاملها من دون أن يخفف سرعته. قررت عندها أن أخاطر بكل شيء، وأقفز من سيارة «الجيب» لأستقر بين ذراعَي شارباست الممدودتين. جهزت نفسي للقفز، لكن السائق لاحظ ما أنا مزمعة عليه، فانحرف أخيراً إلى جانب الطريق الترابية وتوقف. قفزت من سيارة «الجيب» قبل أن يتمكن السائق من إيقاف محرك السيارة.

احتضنني شارباست بين ذراعيه وبدأ في الدوران مرة بعد أخرى. شعرت بأنني أطير في الهواء. ضحكت بصوتٍ عالٍ، لأنني تحملت ألف محنة ومحنة كي أصل إلى هذه اللحظة.

فتحت عينيّ لأتطلع إلى ما وراء كتفَي شارباست، فرأيت وجوهاً باسمة. تجمّع حشد صغير من حولنا، فالقرية لا تشهد كل يوم مقاتلاً من «البشمركة» وهو يتزوج بامرأةً آتية من بغداد.

تسبب أحد مقاتلي «البشمركة» في حرجٍ شديد لشارباست عندما كشف لي أن شارباست لم يتناول طعاماً، ولم ينم، من فرط قلقه طوال فترة سفري. قال إن شارباست أخذ يراقب الطريق طوال الليل، وإنه كان يتقدّم ليتفحص كل سيارة تمر في القرية. وزاد رفاقه من عذاباته في تلك الأثناء عندما أطلقوا نداءات إنذار كاذبة بين ساعة وأخرى، وعمدوا إلى إخباره بأن «الجيب» الذي تستقله عروسه قد مرّ في القرية. أعتقد أن هذا هو ما كاد يحدث فعلاً!

استدرت لأتطلع نحو السائق، ورحت أتساءل بماذا يفكّر بحق الجحيم. أدركت حين رأيته وهو يضحك من أعماق قلبه أنه اشترك في اللعبة هو الآخر. انتهى كل شيء على ما يرام، وهكذا بادلته الابتسامات من كل قلبي.

نزلت زكية من سيارة «الجيب» لتقف معنا مفتخرة بما حصل. وراحت تومئ لقريبها شارباست، وتقبلّت شكره العميق لأنها أوصلتني إليه بأمان.

جوانا في السليمانية في شهر أيار من العام ١٩٨٧، أثناء الاحتفال بزفافها من دون وجود العريس. ويبدو من اليسار إلى اليمين: والد زوجها حسين محمد أمين، وشقيق زوجها عثمان حسين، جوانا، سعد، نوبهار محمود وهي شقيقة زوجها وابنة خالتها عائشة

جوانا وشارباست في اليوم الأول من شهر عسلهما الذي أمضياه في شروا

جوانا وشارباست في اليوم الخامس من شهر العسل

ضحكتُ وشعرت بالإثارة والسعادة أكثر مما شعرت بهما طوال حياتي. أدركت في أعماقي أنني أنتمي إلى هؤلاء الناس الطيبين. شعرت بأنني عدت إلى موطني أخيراً.

لم أستطع برغم ذلك أن أرفع عينيّ عن شارباست. ما زلت أعتبره أكثر الرجال وسامةً في العالم. بدا شارباست، بالرغم من ذلك، مختلفاً عما عرفته سابقاً. لم يعد ذلك الشاب الجسور الذي وقعت في حبه. بدا كأنه في حاجةٍ إلى أن ينام ليلة كاملة. لاحظت أنه أطلق العنان للحيته، وأن شعره أصبح أطول مما كان عليه، وأن خصلات شعره التفّت أكثر على بعضها. شعرت برغبة في تسريع اللحظات، لأنه سرعان ما سأصبح حرة بمداعبة هذه الضفائر الملتفة بيديّ. انتظرت فرصتي كي أداعب ضفائره تلك منذ عشر سنوات. وهكذا اقتربت فرصتي كثيراً من التحقق.

تذكرت عندها مظهري الذي يدعو إلى الرثاء. خططت منذ زمن طويل كي أبدو بأجمل هيئة أقدر عليها، لكن زكية لاحظت حقيبتي الكبيرة، فأمرت على الفور بإبعادها عني. شرحت لي عندها أن هذه الحقيبة الكبيرة سوف تثير الشبهات عند مرورنا على الحواجز العسكرية.

قالوا لي أيضاً إنني أستطيع أن أحمل معي بدلاً واحداً من الملابس، وعباءة نوم واحدة، ومشطاً. وُضعت جميع هذه الأغراض في كيس بلاستيكي ممزقٍ ورث الهيئة. أضافوا أن بقية أمتعتي الشخصية سوف تُنقل إلى منزلي على ظهر بغلٍ في الأسابيع القليلة القادمة.

تلقيت صدمة أخرى عندما أخبروني بضرورة إزالة كل مساحيق التجميل عن وجهي، وأن أجمع شعري الطويل على شكل كعكة فوق رأسي. رفعت زكية يديّ لدقائق قليلة، وتأملت بإعجاب أظافري الجميلة التي اعتنيت بها ولمّعتها وطليتها حتى أصبحت في أجمل صورة ممكنة. قالت إنها لم تر مثل هذه الأظافر الرائعة في حياتها، لكن من الضروري أن يجري قصّها.

«جوانا، إذا رأى أحد الجنود الواقفين على الحواجز هذه الأظافر الجميلة، فسوف يعلم على الفور أنك لستِ فتاة جبلية».

لم أستطع أن أتحمل رؤية هذه الأظافر الطويلة وهي تسقط على سطح الطاولة بعد قصها. جُمعت بعد ذلك ووضعت في كيسٍ ورميت في سلة المهملات.

لم تنته الأمور السيئة بعد. زودتني زكية بفستان بسيط باللون الأزرق الداكن، وبعباءة سوداء، وشالٍ أسود، وبخف قديم بسيط مسطح النعل. قالت لي وقتها إنه من الضروري أن أبدو كفتاة قروية بسيطة.

لم أحلم أبداً في ما مضى من حياتي بأنني سأضطر إلى ارتداء حجاب وعباءة. تمثّلت تعزيتي الوحيدة في أن سعد لم يكن حاضراً ليشهد إذلالي هذا. كافحت بشدة كي لا أنخرط في البكاء.

لم أرغب في أن ألقى زوجي بهذا الزي، لكن زكية كانت عنيدة في هذه الأمور. قالت لي إنها غير مستعدة للمخاطرة بحياتها في حالة أصررتُ على جنوني المتمثل في المفاخرة بهذه

الأشياء المتنوعة، التي جلبتها معي من بغداد. أدركت أخيراً ما تعنيه.

تطلعت نحو شارباست، ثم نظرت إلى الأسفل نحو فستاني والخف الذي انتعلته، ثم همست في أذنه: «أنا آسفة لأن عروسك اضطرت إلى القدوم إليك بهذا الهندام. أنا خجولة من مظهري».

ومضت عينا شارباست بسعادة لا حد لها: «أنت جميلة يا جوانا». دفع بعدها رأسه إلى الوراء وأخذ يضحك، ثم رأيت صفين من الأسنان البيضاء المنتظمة، ما زالت سليمة لحسن الحظ. سألني: «هل أبدو لك على صورة عريس أحلامك؟». وهز كتفيه وقوّس حاجبيه، ثم مرّر يديه فوق ثيابه الرثة، ثم أشار بإصبعه إلى لحيته الكثة.

غمرتني موجة عارمة من السعادة، ولمست لحيته بلطف بإحدى أصابعي. اعترفت له: «نعم، أنت عريس أحلامي». قلت مع ابتسامة واعدة: «سأحلقها لك».

راقَبَنا جميعُ من تحلّق حولنا وأصغوا إلينا بسعادة تامة. أعرف أننا، كأكراد، يندر أن نُظهر مودتنا علناً، لكن مجتمعنا المحافظ يسمح للشاب وللفتاة الواقعَين في الحب، وللعريس والعروس المتزوجين حديثاً، بإظهار بعض المودة. وجد أصدقاء شارباست في تفاعلنا الرائع مع بعضنا بعضاً تسلية كبرى لهم.

قاطعتنا زكية بلطف: «حان وقت الذهاب الآن. ودّع أصدقاءك يا شارباست. ستراهم مجدداً في غضون شهر».

شعرت طوال الرحلة بنشوة عارمة بعد أن علمت أننا لن نتوجه إلى برغالو فوراً، وأن رؤساء شارباست في قيادة «البشمركة» قد منحوه إجازة من القتال لمدة شهر. سأمضي مع شارباست شهر عسل في منزل زكية وزوجها قادر آغا. كدت أصرخ من الفرح، لكن لحسن الحظ لم أندفع بتصرفات تزيد من إحراجي أمام الآخرين.

استعجلت المغادرة برغم ذلك. علمت، من خلال ما وصفته لي زكية، أنهم يعيشون وسط موقع جبلي خلاب، وفي منزل كبير يقع في قرية شروان، التي لا تبعد كثيراً عن قرية «مرجة». أبدت زكية وزوجها كرماً فائقاً دفعهما إلى دعوتي إلى قضاء شهر العسل في ذلك المنزل الكبير. قالت زكية إننا نستحق بعض الأيام السعيدة المليئة باللهو قبل أن نبدأ في ممارسة واجباتنا في برغالو.

لم أحلم في حياتي مطلقاً بأنني سأستمتع بشهر عسل حقيقي في الجبال.

شعرت بأنني أعيش قصة خيالية حيث تتحقق كل الأحلام، وأدركت فوق ذلك كله أنني استطعت أن أتحقق من حب شارباست بعد أعوام طويلة من التردد.

مررت بالرغم من كل هذه الأجواء، بلحظة عابرة من الشك. تساءلت عن الأسباب التي غيّرت مشاعر الصداقة عنده إلى مشاعر الحب، وهل استطعت كسب قلبه بإظهار الرقة التي يطفح بها قلبي تجاهه؟

وضعت جانباً كل التساؤلات التي تُشعرني بالاضطراب. سأمتلك مستقبلاً الوقت الكافي لإيجاد أجوبة عن كل تلك الأسئلة.

جلست إلى قرب شارباست تماماً في الجيب. انحنت زكية إلى الأمام لتتكلم مع السائق، فتطلع شارباست من حوله ليتأكد من أحداً لا يتطلع نحونا، ثم فاجأني بطبع قبلة سريعة على شفتيّ.

شعرت برعشة رائعة، واستمتعت بالإحساس الذي أحدثته قبلته على شفتيّ.

أمضيت ساعات بأكملها في أحلام اليقظة. ساعات طويلة وأنا أنتظر ذلك اليوم عندما يصبح فيه زوجي، لكني لم أستطِع أن أتخيّل مدى الفرح الذي سأشعر به لمجرد الجلوس إلى جانبه.

يا لتلك القبلة! يا لعذوبتها.

شعرت بدافع إلى تقبيله بدوري، على مرأى من زكية والسائق، لذلك شبكت يديّ فوق حضني، واستدرت كي أحدّق وأفكّر في شيء آخر، أي شيء آخر. رأيت في تلك اللحظة روعة الغابات التي تحيط بنا. ألقت أشجار الكستناء والفستق ظلالها على الطريق المتعرجة، في قلب هذه البساتين. واصطفّت الأزهار البرية الملونة على منحدرات الجبال. أستطيع القول، إن كردستان هي قطعة من السماء على الأرض.

وصلنا بعد وقتٍ قليل. بدا لي أن منزل زكية لم يتأثر بمرور الوقت، وهو الذي يبعد قليلاً عن الطريق، ويقف شامخاً في ظلال الأشجار التي بدت ضخمة وقديمة. شعرت بالارتياح على الفور في هذا المنزل الذي يمتلئ بالأطفال. لاحظت أن المنزل مزود بنظام شبكة قساطل مياه معقدة، تجري فيها مياه الينابيع من الجبال. شعرت بالارتياح إلى وجود مثل هذه الشبكة لأنني احتجت إلى أخذ حمام فوري.

اصطحبتنا زكية في جولة حول المنزل. شاهدت حديقة فاكهة وخضار ضخمة. ولاحظت وجود حظيرة كبيرة تكاد تكون بمثل ضخامة المنزل نفسه، تحتوي على كثير من الأبقار، والأحصنة، والحمير، والدجاج، والبط. تستطيع هذه الأسرة أن تموّن نفسها ذاتياً.

تورَّد خدّاي خجلاً عندما عرّفتني زكية إلى الغرفة التي سأمضي فيها شهر العسل مع شارباست. ارتحت كثيراً لأن غرفة نومنا تتمتع بخصوصية كبيرة، وتبعد عن وسط المنزل حيث تجتمع العائلة.

يتمتع زوج زكية، قادر آغا السديري، بشخصية قوية لا تُقاوَم. يدل لقب آغا الذي يحمله على امتلاكه مساحات شاسعة من الأراضي، وعلى أنه زعيم عشيرته. حافظ الرجل على هدوئه الذي يعكس الثقة، كأن لا شيء يُقلقه في هذا العالم، بالرغم من أنه خاطر بكل شيء يمتلكه عندما انضم إلى الاتحاد الوطني الكردستاني.

استولت عليّ بسرعة رهبة شديدة أمام هذا الرجل، وتأثرت

بالصفاء والحبور اللذين يتمتع بهما. سبق لي أن رسمت في ذهني صورة مختلفة لهذا لرجل المهم، وتخيلت أنه متجهم الوجه، وربما مغرور. أظهر الرجل اهتمامه بنا جميعاً، ولم يُخفِ لطفه ومراعاته لمشاعر زوجته، وضحك مع ضيوفه ولعب مع أولاده السبعة. رأيت أصغر أبنائه المستهتر جداً وهو يلعب بمنظار والده الثمين والنادر، لأن صدّام قرر أن يحكم بالإعدام كل شخص من الأكراد يمتلك مثل هذا المنظار.

بدأ الفتى يتفحص هذا المنظار كأنه لعبة. قلقت وشعرت بأن هذا المنظار يجب أن يوضع في مكانٍ عالٍ، وعلى رفٍ آمن، لكن الآغا ضحك من كل قلبه، وقال: «يمتلك أطفالي كل شيء في هذا المنزل، بمن في ذلك والدهم».

أحسست بالغيرة من علاقة أطفال هذا الرجل به، وتذكرت كيف أن إعاقة والدي قد أبعدته عنا.

تناولنا عشاءً خفيفاً لأن سيدة المنزل كانت بعيدة عنه. لاحظت زكية مدى تعبي فاقترحت أن أنسحب مع شارباست باكراً لنرتاح في غرفتنا.

تورد خداي خجلاً عندما تركنا مضيفانا، بالرغم من أنهما فعلا كل ما في وسعهما كي نشعر بالراحة. وجدت نفسي، أخيراً، مع شارباست... وحدنا.

فاقت ليلتنا الأولى معاً، عندما أصبحت زوجته، بروعتها، كل ما تخيلته سابقاً. سأتذكر في المستقبل، بعد مرور أعوام كثيرة، وبعد أن يكبر أطفالي، ويتراكض أحفادي الصغار أمامي، سأتذكر السحر الذي حفلت به ليلة زفافنا.

(١٦)

تحت سماء برغالو

برغالو، كردستان، شمال العراق: حزيران، ١٩٨٧

بلغتُ أقصى حدود أحلامي. استيقظت فجأة لألاحظ اهتزازاً خفيفاً، لكنه اهتزازٌ غريب. يبدو أن لا شيء يأتي كاملاً في هذه الحياة.

عجز ذهني، بسبب تشوشه الشديد والدائم، عن تحديد طبيعة هذا الشيء الذي رأيته، لكن ما إن فتحت عيني حتى بدا لي أن سقف كوخنا الصغير بدأ في الاهتزاز. كان سقفاً بدائياً. لم يكن في الواقع أكثر من شبكة من الجذوع والأغصان الصغيرة. ضيّقت حدقتي عينيّ كي أستطيع الرؤية بوضوح أكبر، فتأكدت من أن السطح يتحرك بالفعل.

كان شارباست مستغرقاً في نوم عميق في سريرنا الزوجي.

اقتربت منه وهمست: «شارباست، استيقظ، استيقظ!».

فتح شارباست عيناً مترنحة: «ماذا جرى؟».

همست في أذنه: «انظر. انظر، السقف يتحرك».

جاء صوته متعباً ومتباطئاً: «لا يا جوانا، السقف لا يتحرك».

«بلى إنه يتحرك!». استيقظت تماماً في هذا الوقت، وانحنيت كي أضيء مصباحنا الصغير الذي يعمل على الكاز. انبعث ضوء خافت جداً من المصباح، واستطعت برغم هذا أن أرى ما يكفي، كي أتأكد من أن جانبَي السقف يهتزان بفعل شيء ما.

«شارباست!».

بقيت عينا شارباست شبه مغمضتين، لكنه رفع مفرش السرير الزهري اللون عنه وحرّك رأسه، ثم تفحص السقف متذمراً.

زادت حماستي كثيراً: «أترى بنفسك! هناك! السقف يتحرك فعلاً!».

نهض شارباست عن الأرض من دون أن يتفوه بكلمة، ومشى إلى الباب الأمامي، ثم تناول خفّه البلاستيكي بيده، ووقف على أطراف أصابعه، وأطبقه بقوة على الجدار بالقرب من السقف. سقطت عندها عدة عقارب ضخمة على الأرض.

كدت أصرخ، وشهقت. وضعت يديّ الاثنتين فوق فمي.

انطلق يضرب هذه العقارب حتى توقفت تماماً عن الحركة.

«عقارب؟»، همست بخوف. تطلعت إلى الأعلى، وأدركت سر اللغز المرعب وراء السقف المهتز. اكتشفت أن السقف بأكمله من فوقي يعجّ بالعقارب!

بدا صوتي مرتعشاً: «أوه، لا يا شارباست. أوه، لا. لا أستطيع أن أنام تحت وكر للعقارب». كررت قولي: «لا، لا».

تهالك شارباست بقوة إلى جانبي، ووضع يده بلطف حول ظهري: «حبيبتي، تفضّل العقارب الانسحاب على المواجهة».

شعرت بعدم ارتياح بالنسبة إلى هذه النقطة: «لا يا شارباست. لا أستطيع النوم مع العقارب تحت سقف واحد».

«لن تزعجك إذا لم تزعجيها».

فهمت بعد ذلك ما الذي قصده المقاتلون الآخرون من تلميحاتهم، عندما ودعهم شارباست تلك الليلة. بدأ عدة رجال في الضحك وقتها، بينما تمتم أحدهم: «صيداً موفقاً».

لم يمضِ على وجودي في برغالو أكثر من عدة ساعات قبل أن تطاردني أفعى من حمّام المنزل. جاء الآن دور العقارب المتدلية من فوقي. أفضّل، والحالة هذه، النوم في الغابة!

حدّقت بخوف إلى الأعلى لأكتشف أن السقف ما زال يتمايل. تمتلك هذه المخلوقات الزاحفة طاقة هائلة وغريبة.

طبع شارباست قبلة لطيفة على شفتيّ، ثم انسل في الفراش القطني. جذب المفرش إلى ما تحت إبطيه: «عودي إلى النوم، وانسَي أمر العقارب».

شهقت مستنكرةً: «أتريدني أن أنسى؟ أتريدني أن أنسى تلك العقارب؟ مطلقاً!».

اعتبرت نفسي طفلةً جسورة على الدوام. لا شيء يمكنه أن يخيفني غير الأفاعي والعقارب. أتذكر ذات مرة، عندما كنت في السليمانية، أن أحد أقربائي الأكراد ظلّ يلاحقني ممسكاً بيده

أفعى تتلوى. كنت وقتها في السادسة من عمري. أمسك تلك الأفعى من ذيلها فأصبح رأسها قريباً من وجهي، ورأيت أنيابها التي تهددني، ومن وقتها تملَّكني خوف دائم من الأفاعي.

حافظت أثناء تواجدي في كردستان على حذري المفرط من الأفاعي منذ ذلك الحادث.

رأيت عقرباً كبيرة في حديقة جدتي أمينة ذات صيف، بعد مرور أعوام عديدة على ذلك الحادث. سمعت جدتي صرخاتي، فركضت إلى حيث وقفت مذعورة. أشرت لها إلى ذلك المخلوق المخيف ذي الأرجل العديدة، والدموع تنساب على خدّيّ. راحت جدتي تشرح لي أخطار عضة العقرب. لفتت نظري إلى ستة أزواج من الأقدام، ووصفت لي مدى الفعالية التي تتمتع بها. قالت إنه عندما يمسك زوج منها بإصبع إنسان، يستطيع الزوج الآخر أن يبدأ بالتقطيع. يقوم ذلك المخلوق المميت بامتصاص السوائل من جسم الضحية. تعمّدت جدتي أن تتلو عليَّ ما يشبه النشرة الطبية عن العقارب. هي تحبني وتريد أن تبقيني في أمان. ويبدو أني توارثتُ عنها خوفي الدائم من العقارب.

لطالما هجست بالتهديد الذي تمثله لي القنابل والجنود المعادون، وذلك قبل أن أتزوج بشارباست، فكان طبيعياً أن يرافقني الإحساس بالرهبة والرزانة. لم تمثّل لي العقارب والأفاعي يوماً أي قلقٍ، ما دامت بعيدة عني. أما أن تسكن معي في المنزل نفسه، وتقاسمني غرفة نومي نفسها، فذلك ما لم

أفكر فيه من قبل. قرر «ضيوفي» العقارب تذكيري، دوماً، برهبة المكان الذي قصدت العيش فيه، وبأن برغالو، حيث أعيش، محاطة بالجبال والغابات، وموطن لجميع صنوف الأخطار. ذكّرتني هذه المخلوقات أيضاً بأنني أتطفل في منطقة مسكونة بمخلوقات برية. هذه هي طريقتها في تذكيري بهذه الحقيقة.

تحركت واستدرت، وبدأت في التفكير في أشياء أخرى، مثل شهر عسلنا الرائع.

أنهيت مع شارباست ثلاثين يوماً رائعة، أمضيناها في ضيافة زكية خان وقادر آغا الرائعين. تقاطر الأقرباء والزوار الذين يعيشون بالقرب من المنطقة، لتهنئَتنا بزواجنا. سُررت كثيراً لأنه لم يعد ممنوعاً علي وضع مساحيق التجميل، ولا أن أسرّح شعري بأحدث القصّات. الغريب أنه في هذا المكان القصي من العالم، استطعت ارتداء فستان عرسي الجميل بلونه الزهري، وهو الفستان الذي لم أستطع ارتداءه يوم زفافي. أي شعور يراود امرأة وهي تختال بفستان عرسها أمام فارس أحلامها. لا أستطيع وصف أحاسيسي وأنا أرى شارباست يهيم بعينيه وهو يراني ألبس له وحده فستان عرسي، كما لو أنه عريسي وأهلي وزوجي وصديقي وكل شيء جميل وهبت حياتي له، وكل أمل انتظرته.

كادت العقارب تنغص حياتنا، لكن حظينا برغم ذلك بأوقات هادئة تبادلنا فيها المرح والبهجة، والتخطيط لمستقبلنا، وسنحت لي الفرصة كي أكتشف كل ما حدث في السنين التي تركني فيها شارباست في بغداد.

مررنا أيضاً في أوقات مثيرة، فالحرب لم تنته لمجرد أننا تزوجنا حديثاً. تعلمت الكثير من زكية خان في ما يتعلق بواجبات زوجة مقاتل «البشمركة».

تعلمت طريقة نتف الدجاج، وحلب البقر، وتمييز وجود الطائرات العراقية قبل قصف قرانا. تعلمت منها أن أول شيء يتوجب عليّ فعله عندما أصل إلى موقع جبلي جديد هو التعرف إلى أقرب ملجأ، وأن مواجهة عدو مشترك يخلق روحاً رفاقية مشتركة بين الناس، حتى لو كانوا من أعمارٍ وخلفيات مختلفة ومتناقضة. علمت منها أيضاً أن زوجات مقاتلي «البشمركة» لسن عاطلات عن العمل أبداً، وأن زوجة «البشمركة» الحقيقية هي التي تعمل بجهد لمساندة زوجها وقضية أمته. أخبرتني أنني سأعيش طريقة حياة بدائية، وأنني اتخذت أفضل قرار في حياتي حينما قبلت عرض شارباست للزواج بي، وانضممت إليه في كردستان من أجل أن أعيش عن قرب طقوسَ حياة المناضلين من أجل الحرية. وأن أعيش معهم في ميدان الحروب. تعلمت منها أنني أصبحت في موقع يمكّنني من تحقيق هدف حياتي في دعم القضية الكردية. قالت لي إنه من المستحيل أن تتمكن امرأة عازبة من العيش في برغالو، لأنها قرية يسكنها المقاتلون، وكلهم من الرجال، بالرغم من وجود بعض المحاربات العازبات اللاتي يتميزن بشجاعة نادرة، ولولاها لما قدمن إلى بلاد يخشى الرجال القدوم إليها، وبعضهن لديهن شقيق في عداد مقاتلي «البشمركة». علمت أن وجودي كان سيُرفض في هذا المكان، لكنهم رحبوا بي بحرارة بعد أن تزوجت بشارباست.

أقدم شارباست على نزع غطاء السرير الزهري اللون عني عندما تقلّب في الفراش، لكن من دون قصدٍ منه. لاحظت أنه يغط في نوم عميق. كيف يمكنه أن ينام هكذا؟

ذكّرت نفسي بأن شارباست عاش حياة مقاتلي «البشمركة» لمدة تزيد على خمس سنين. أدركت أن هذه الحياة هي، في الواقع، أكثر خطورة وصعوبة مما توقعت، لكنني سأتعلم، وسأتمكن من إحداث تغيير في حياته. صممت على تحقيق هذا الهدف.

شعرت بثقل في جفنيَّ، لكن يتعيّن عليّ الاستسلام للنوم لأنني سألتقي في اليوم التالي مع أصدقاء شارباست من مقاتلي «البشمركة»، وسأتعرف إلى برغالو. لم يتوفر لي الوقت للقيام بذلك هذا اليوم، لأننا وصلنا بعد حلول الظلمة بوقت قصير، وكنت وقتها قد هدَّني التعب بعد رحلتنا الطويلة عبر الجبال.

أغمضت عينيّ، ثم فتحتهما مجدداً كي أراقب العقارب التي تتلوى في تحركها. رحت أتساءل كيف تعيش هذه المخلوقات في تلك الغصون، وما الذي يبقيها مشغولة هناك. انقلبت لأنام على بطني، وغطيت رأسي بغطاء السرير. كنت أحاول تناسي وجودها. لا أحب النوم على بطني. ثمة شعور غريب لا أحبه يخالجني حين أترك ظهري مشرَّعاً للقدر. شعور يشبه الهرب من معركة وترك ظهري مكشوفاً للعدو. لا أعرف لماذا كلما غفوت على بطني ينتابني هذا الشعور. قلت لنفسي إنه يتعين عليّ أن

أتعلم تحمل رؤية هذه المخلوقات، والتأقلم مع وجودها في غرفة نومي، لأنني قد أعيش في هذا الكوخ لسنين عديدة.

استمرت ذكريات الشهر الماضي في خيالي أثناء صراعي الليلي مع النوم، واستجدائه. وأنا أكاد أغفو مفتحة العينين بسبب وجود هذه العقارب.

اكتشفت في شروان أنني غير مهيَّأة إطلاقاً للتحديات العادية التي ترافق حياة مقاتل «البشمركة»، وأنه بالرغم من أنني أمتلك القلب الجسور الذي يمتلكه المناضلون من أجل الحرية، فإنني أفتقد المهارات الضرورية، أو الأيدي البارعة. وجدت نفسي أفتقد الكفاءة في أبسط الأمور، بشكل أخجلني، وهي المتعلقة بالطبخ والتنظيف. شعرت بالخجل من نفسي في مناسبتين على الأقل.

وصل إلى شروان، بشكل غير متوقع، في صباح أحد الأيام عدة ضيوف ليتناولوا معنا الغداء. تطوعت للمساعدة في الطبخ، وأصررت على أن تكلفني زكية مهمةً ما.

أشارت زكية سريعاً إلى الحديقة الخلفية: «نعم يا جوانا، تناولي من فضلك ثماني دجاجات وحضّريها لنا».

وقفت عاجزة، «حضّريها لنا»! كيف أفعل ذلك وأنا لم يسبق لي أن أمسكت بدجاجة حية واحدة في حياتي، لكنني عجزت عن الاعتراف بهذه الحقيقة أمام زكية، التي كانت قد غادرت الغرفة لتنهي بعض الأعمال العاجلة، وفي بالها أن ما طلبته مني

مجرد أمر «عادي» يجدر بأي زوجة معرفته. لم أجد شارباست قربي كي يساعدني. كان قد غادر من أجل إتمام مهمة صغيرة. وهكذا، وجدت نفسي وحدي، في مواجهة المهمة «الصعبة»: إلقاء القبض على الدجاجات.

مشيت ببطء نحو الخارج. الحديقة الخلفية ممتلئة بالدجاجات السمينة التي تتجول في المكان، كأنه عرينها تشغل نفسها بالتقاط الديدان، وإثارة الغبار بأرجلها.

تساءلت بيني وبين نفسي عن المهمة الصعبة التي أنا مقدمة عليها، وأنا أسير الهوينا بانتظار الانقضاض على تلك الطيور. وجدت نفسي بعد خمس دقائق منبطحة على الأرض، من دون دجاجة واحدة في يدي، بالرغم من تناثر ريش الدجاج في كل مكان. نجحت على الأقل في تسلية ذلك الحشد الصغير من ضيوف زكية، الذين أثارت الجلبة انتباههم فحضروا جميعاً لمعرفة سبب هذا الصخب في الحديقة.

خشيت أن أخيّب ظن زكية بي بسبب جهلي بالأمور المنزلية، لكن تلك المرأة اللطيفة فوق أي وصف، علمتني بصبرٍ كبير كل ما أحتاج إلى أن أتعلمه عن ذبح الدجاج، وطهوه. ولم يمر وقت طويل قبل تمكّني من تعلم ذبح الدجاج، ومساعدتها على تحضير الغداء.

مرّت أيام عدة ساعدتها في خلالها على إعداد الدجاج للمرة الثانية، وأصررتُ على التطوع لأسوأ جزءٍ من المهمة، على أمل استعادة كبريائي. وقفت أمام طنجرة تغلي المياه فيها، وبدأت

في وضع الدجاج في داخلها لأستطيع نزع الريش عنها لاحقاً. أي عندما يغادر جميع من حولي في اتجاه الحظيرة.

أمسكت زكية بالدجاجة التي في يدي، وألقتها في الطنجرة، ثم أمسكتني من رسغي وصاحت: «اركضي! هيا أسرعي نحو الملجأ!».

ركضت بأسرع ما يمكنني.

دفعتني زكية بعد لحظات قليلة نحو ملجأ طيني صغير يقع قرب الحظيرة. سمعت أصواتاً هائلة، وما لبثت الأرض أن مادت فجأة تحت أقدامنا: إننا نتعرض للقصف!

لم أتوقع أن يكتشف أعداؤنا جنتنا الجبلية بهذه السهولة، برغم أنني شهدت، عندما كنت أعيش في بغداد، عدة غارات إيرانية منذ بداية الحرب مع إيران.

تطلعت نحو زكية وقلت لها: «لم أجرؤ على التفكير في أن يقوم الإيرانيون بقصف قرانا الكردية! لم أسمع صفارات إنذار. على أي حال، ما أدراك، ربما كانت هذه هي أصوات طائرة مدنية؟».

انطلق كل من في الملجأ في الضحك بصوتٍ عالٍ، حتى أنني رأيت امرأة مبتهجة تخبط فخذها بيديها، وتكاد من شدة ضحكها تنقلب على ظهرها.

ماذا قلتُ حتى أستحق، كل هذه السخرية. شعرت باحمرار خديّ خجلاً، أنا الفتاة الساذجة القادمة من بغداد.

مرة جديدة، تتبرع زكية في القيام بدور المنقذ، وإنقاذ ما يمكن إنقاذه، بسبب جهلي بطبيعة ما يحصل. شرحت لي بلطف: «جوانا، لم تكن تلك الطائرة إيرانية، بل كانت عراقية. لا تطير الطائرات المدنية على علو منخفض، ليس فوق هذه الجبال على الأقل. إن كل طائرة تسمعين صوتها هنا، لا بد من أن تكون طائرة تتبع سلاح الجو العراقي. كل الطائرات التي تُغير فوق هذه الجبال تأتي من جهة واحدة: بغداد، وليس طهران».

«أوه». مرّت علي لحظة من الارتباك. أعرف أن الإيرانيين يتحالفون مع الأكراد لمحاربة صدّام حسين، لكني اعتدت أن أكون هدفاً للإيرانيين عندما كنت في بغداد. كان يلزمني بعض الوقت كي أعتاد على هذا التحول هنا. تصرفت كأنني لم أعرف قبل مغادرتي بغداد أن الجيش العراقي بدأ يستهدف القرى الجبلية المعزولة بحماسة متزايدة. كنت أحاول تبرير جهلي. بدا كأن ما أقوم به لم ينطل على أحد. فعمدت إلى «بلع» لساني.

شعرت بالارتباك إلى درجة رغبت معها في البكاء.

ربتت زكية على كتفي: «جوانا، تذكري ما سأقوله لك: عندما نعمل، أو نقوم بأي شيء، يجب علينا توجيه نصف تركيزنا على المهمة التي بين أيدينا، بينما نوجّه النصف الآخر على الأصوات التي نسمعها من السماء. ستتعودين على هذا سريعاً، لأن الوضع سيكون دائماً هكذا. ستتمكنين سريعاً من تمييز أصوات الطائرات من بعيد، حتى قبل أن تتمكن الطيور من سماعها».

شعرت بهبوط شديد في دقات قلبي عندما همست في أذني: «سمعنا أن صدام بدأ يجرب أسلحته الكيميائية». تطلعت من حولها لتتأكد من عدم سماع الأطفال كلامها: «من يعلم ماذا سيفعله ذلك الرجل المجنون». جذبتني نحوها وعانقتني قليلاً، ثم قالت محذرة: «كوني حذرةً يا ابنتي. تيقظّي على الدوام. إننا قادمون على فترة خطرة جداً».

أعترف بأن إقامتي في شروان علمتني أشياء ودروساً قيّمة، وأعرف أنه لا يزال لدي دروس أكثر كي أتعلمها، لكني سأمضي بحذر، وسأراقب، وسأصغي، لأنني لا أريد ان أصبح أضحوكة في برغالو.

أدهشني شارباست، خلال شهر عسلنا، عندما روى لي القصص التي عايشها، وبعضها واجهه في برغالو، بالرغم من أنه خسر عدة أشخاص عزيزين على قلبه، عدا أنه تعرّض هو الآخر لمخاطر عديدة كادت تودي بحياته.

سأكتشف يوم غد منزلي الجديد، وسألتقي بالمحاربين الشجعان الذين أخبرني شارباست الكثير من القصص عنهم. كنت كمن يستعد لطقوس جديدة في أجواء اختار الحياة فيها من دون أن يعرف عنها شيئاً. أنا دائماً في هذا المكان «هدف» للمفاجآت. استعجلت لقاء النساء في برغالو، بالرغم من أنني شعرت بخيبة أمل عندما أبلغني شارباست أنه من أصل مئتي محارب، لا تتواجد إلا عدة نساء وطفلان فقط، يعيشون في القرية. قال إن القرية غير آمنة بالنسبة إلى النساء والأطفال.

برغالو هي واحدة من سلسلة من القرى القليلة التي يحتضنها وادي جافاتي. تتواجد في هذه القرى أهم البنى التحتية للاتحاد الوطني الكردستاني. تحتضن برغالو محطة الإذاعة والمستشفى الميداني الرئيسي، لكن سيرغالو، وهي قرية قريبة جداً منها، تضم مقر القيادة الإقليمية. وتنتشر في القرى المجاورة عدة مؤسسات تابعة للاتحاد تضاهي الإذاعة والقيادة الإقليمية في الأهمية.

سبق لي أن سمعت المحازبين الأكراد خلال كل تلك الأعوام، وهم يتساءلون عن السبب الذي يمنع الاتحاد الوطني الكردستاني من إقامة مركزٍ للقيادة في السليمانية، وهي المدينة التي تُعتبر كردية كلياً. أفهم الآن منطق قيادة الاتحاد الوطني الكردستاني. السليمانية مدينة كبيرة مزدحمة بكثافة بالمدنيين، وليس بالإمكان حماية المدنيين بسهولة في ما لو اختار «الاتحاد» التواجد فيها.

في المقابل، تحمي الجبال العالية وادي جافاتي، حيث تتواجد القرى التي تضم القيادات المحلية، وتفصله عن بقية مناطق كردستان بتضاريس طبيعية صعبة. لقد جعل الموقع الآمن لهذه المنطقة من شبه المستحيل على جنود صدام حسين أن يصلوا إلينا.

بسّط شارباست الوضع لي عندما أراد أن أتفهم أهمية برغالو، وبقية قرى الاتحاد الوطني الكردستاني الموجودة في وادي جافاتي. قال لي: «جوانا، فكّري في الأمر هكذا. بغداد هي عاصمة العراق. وتتواجد فيها القيادة المركزية للجيش

العراقي. هكذا هو وادي جافاتي، حيث تتواجد القيادة المركزية للاتحاد الوطني الكردستاني. إن قرى برغالو، وسيرغالو، وهالادين، ويكسمار، ومالوما، وزيوا، هي من الأهمية بالنسبة إلينا مثلما هي بغداد بالنسبة إلى صدام حسين. إن وادي جافاتي هو عاصمة الاتحاد الوطني الكردستاني، أي المركز الرئيسي للاتحاد».

شعرت بسعادة كبيرة لأنني أصبحت جزءاً من مثل هذه الحركة المهمة، واستطعت بعد ذلك أن استسلم لنوم عميق تلك الليلة. لم أتعرض، لحسن حظي، لعضة عقرب مميتة خلال الليل.

أيقظني شارباست في الصباح التالي بضحكته الخافتة وقبلته الحلوة: «استيقظي، استيقظي يا جوانا. أهلاً بك في منزلك الجديد».

تمطيتُ بسعادة، ونهضت. تطلعت إلى السقف بعد أن تذكرت المخلوقات التي تتدلى منه.

عرف شارباست ما يدور في ذهني: «لا تقلقي، فعادة ما تكون العقارب هادئة خلال النهار. إنها تحب الحرارة التي تبعثها الشمس على السقف، فتنام طوال ساعات النهار». استغرق في الضحك وأضاف: «عليكِ ألا تتحركي في الليل، لأنه الوقت الذي تنشط فيه العقارب».

«أتقول لا تتحركي؟ هل تريدني ألا أتحرك في نومي يا شارباست».

«إذا عوّدتِ نفسك على عدم الحركة، فستتجاهلك».

بدأت أرتجف بعصبية، وسألته: «هل تعرضت لعضة عقربٍ ذات مرة؟».

«لا، مطلقاً».

أدركت في تلك اللحظة أنه ليس في إمكاني فعل أي شيء غير القبول بالأمر الواقع. لن أُقلق نفسي بعد الآن مجدداً بتلك العقارب، وسأسمح لها بأن تبقى حيث هي، وأنا سأبقى في مكاني بدوري.

ذكّرت نفسي بأن هذا اليوم هو يوم جميل. أعرف أن عدداً قليلاً من الأشخاص العقلاء يختارون ترك منازلهم المريحة في بغداد، ليعيشوا في قرية لا يسكنها إلا المقاتلون، ويحيط بها أعداء شرسون من كل جانب. أما أنا، فأعتبر أن برغالو هي حلم يتحقق، وهي تجسد أحب تصوراتي إليّ.

ومضت ذكرى بعيدة في ذهني، أعادتني إلى وجوه الفتيات الجميلات الثلاث. قفزت هذه الذكرى إلى ذهني بعد سبع عشرة سنة مضت. رأيت الشقيقات الكرديات الثلاث عندما أقدمن على بيع مجوهراتهن في سوق السليمانية. سرق ذلك النظام الوحشي القائم في بغداد مستقبلهن المنتظر، وأطاح بأحلامهن بالزواج برجال لطالما أحببنهن، وبعيشهن حياة محاربات «البشمركة»، والقتال من أجل كردستان.

لم تبارح مخيلتي ذكرى الشقيقات الثلاث. أعتقد أن أغلب الظن أن الشقيقات قد قُتلن على أيدي المشرفين على سجنهن.

شعرت بالغيرة من أولئك الشابات عندما كنت فتاة صغيرة. إنني الآن أعيش حلمهن، وحلمي أنا. أعتقد، بطريقة ما، أن وجودي هنا أبقاهن على قيد الحياة، أقله بالنسبة إليّ، في عالمي المتخيَّل. تمازج عندي الفرح والأسى، وحضّرت نفسي لأول يوم من حياتي الجديدة وسط انهمار الدموع.

قررت أن أستكشف منزلي الجديد قبل البدء في تناول الإفطار، وقبل إفراغ حقائبي. أصررت على أن يعرّفني زوجي إلى أقسام المنزل، لكني لاحظت أن ملامح القلق قد ارتسمت على وجهه عندما انطلق يحذرني: «تعرفين يا عزيزتي أن الثورات لا تأتي بالراحة، صحيح؟».

شعرت بسعادة كبيرة بحيث لا يستطيع أحد انتزاعها مني. تعلقت بذراعه وأجبته: «أنت على حق».

أشار شارباست بيده عندما وقفنا أمام غرفة جلوس صغيرة: «نستطيع أن نتناول طعامنا هنا».

جلتُ بعينيَّ على أثاثنا المتواضع. شرعت أتساءل عما يمكنني أن أفعله ليصبح المكان أكثر إشراقاً. لاحظت وجود طاولة صُنعت على الطراز الياباني في وسط الغرفة، وشاهدت وسادتين باليتين وُضعتا تحتها، وسلاح شارباست: رشاش الـ «كلاشينكوف» والمسدس.

يحرص شارباست على الاحتفاظ بسلاحه قريباً منه، حتى في شروان. أخبرني أن أول درس ينبغي على المناضل من أجل

الحرية تعلمه، هو أن يحتفظ بسلاحه محشواً على الدوام، لأن معظم المعارك تنفجر بسرعة البرق.

رفض شارباست أن يعلمني استخدام السلاح خلال شهر العسل الذي أمضيناه، وقال إنه يمكن هذا الأمر أن ينتظر حتى نصل إلى برغالو.

كان بارعاً في قراءة ما يجول في ذهني من أفكار، حتى لو تعمّدت إخفاءها: «غداً، سأعلمك كيف تحمين نفسك».

أومأتُ بالموافقة.

انشغلت في التفكير في منزلنا في هذا الوقت. لا يتسع المنزل لكل أمتعتنا، التي هي عبارة عن القليل من الكتب، والصور، وبعض الملابس. أحاطت الغابة بهذا المنزل. رحت أفكر في كل الاحتمالات. ليس هناك ما يمنعني من الحصول على مكتبة، وبعض الطاولات الصغيرة التي يمكننا صنعها من واحدة من آلاف الأشجار المنتشرة هنا.

فوجئت بوميض ينبعث من إحدى الغرف، رأيت بعدها جهاز تلفاز مرفوعاً على أحد الجدران.

«أوه! هل هذا الجهاز صالح؟».

«يصعب استقبال البث هنا. لكني أستطيع التقاط محطة واحدة أحياناً، كما أن الجهاز قديم، قد تكون هذه مشكلة».

هممم. سأحرص على التقاط أي محطة، لأنه يسليني،

لكني سأحتفظ به على أي حال. إن مجرد وجوده يوحي بأن هذا المكان ينبض بالحياة.

شُيّد منزلنا من أجل أن يكون محطة عابرة، وليس مكاناً يمكن أن يشعر فيه أحد بالاستقرار. لذلك، فهو يخلو من عناصر الرفاهية. بُنيت جدرانه من جذوع أخشاب غير مطلية. المنزل عبارة عن غرفتَي معيشة صغيرتين، ومساحة صغيرة قُصد منها أن تكون مطبخاً مزوداً ببرادٍ سبق لشارباست أن استخدمه بمثابة خزانة لحفظ الأغذية. امتلكنا كذلك لوحة صفيح معدنية تصلح للتسخين عندما يصلنا التيار الكهربائي، المحرومة منه هذه المنطقة. هو نوع من أنواع العقاب على تمردها على سلطة بغداد. فالتيار لا يصل إلى هذه البقعة من العالم إلا عندما تعمل المولدات الكهربائية بين وقت وآخر. لم نستطع استخدام البراد، ولا لوحة التسخين بشكل منتظم. لاحظت أن أرضية المنزل إسمنتية وتمتلئ بالأخاديد البارزة. لن أعدم وسيلة لمعالجة الأمر. أستطيع انتعال خف كي أتمكن من السير براحة في أرجاء المنزل.

غطَّيت النافذتين بشبكة من الأسلاك الشوكية للحماية. علمت أن منازل قليلة في المناطق الكردية مجهزة بنوافذ زجاجية. هو نوع من أساليب الحماية، فالزجاج المتطاير أثناء القصف المتكرر للمنطقة، يشكل خطراً دائماً.

قال شارباست بفخر: «المياه عذبة، وحلوة على الأقل. إنها مياه ينابيع جُلبت إلى منازلنا بواسطة أنابيب المياه».

قلق زوجي العزيز من أن أعتبر المنزل غير صالح للسكن، لذلك يحاول دائماً الحديث عن «الإيجابيات».

عوّدت نفسي على التكيف مع حياتي الجديدة في منزلنا. كنتُ حينها أفكر في ما هو أرحب وأعمق: التضحية من أجل القضية الكردية. لم يكن يهم أين أسكن. فأنا أصلاً حين قررت الزواج بشارباست، لم أكن أفكر في مكان إقامتنا. ما كان يهمني حينها هو شارباست نفسه، والأفكار التي يؤمن بها. أعرف أنه يتمنى لو أن منزلنا أجمل بيوت العالم. طمأنته بالقول: «إنه منزل رائع، لا تُتعب نفسك في إرشادي إلى الحمام». أشرت بذلك إلى ما حدث في الليلة السابقة، وإلى الحالة الكئيبة لتلك الحفرة البائسة في الغرفة، وإلى الأفعى التي تكومت على نفسها في الزاوية، وركزّت عينيها المذعورتين عليّ أنا، المتطفلة.

هربت وقتها، وسحبت معي ملابسي على الأرض، بينما ركض شارباست ليتحقق من الأمر. خرج بعد قليل وقد احمرَّ وجهه وبرزت ذقنه، وقال لي إن غصناً صغيراً يحتفظ به في الداخل لقتل الحشرات، وهو الذي حسبته أفعى. تظاهرت بأنني صدقته، لكني ظننت أن زوجي أرادني أن أحافظ على هدوء أعصابي، واعتقدت أنه قد قتل تلك الأفعى، وطرحها بعيداً على العشب.

أصررت على أن أعاين الملجأ الذي يحمينا من القصف، بعد نجاتي من القنابل التي تساقطت علينا في شروان. وافق شارباست على طلبي هذا. أخبرني عن ملجأ إسمنتي كبير موجود

في وسط القرية، يعتبره مريحاً أكثر. فكّرت في أنه مع تزايد القصف الجوي والمدفعي، فإننا لا نمتلك الوقت الكافي للنزول من التلة، لأن منزلنا يقع على أبعد مسافة من وسط القرية.

أخبرني شارباست أن ملجأنا الخاص ملاصق للمنزل. مجرّد مخبأ تحت فوهة من التراب المتجمع. انحنيت لأتطلع إلى الداخل، فسرت إلى أنفي رائحة الهواء الرطب، التي تشبه رائحة حيوان نتن.

لاحظت أن مساحة الملجأ صغيرة جداً، وشككت في قدرته على استيعابنا نحن الاثنين. شكرت الله، للمرة الأولى في حياتي، كوني نحيلة. فكّرت في أنني أستطيع الاستلقاء في هذا الملجأ، لكني رحت أتساءل بصمت عما إذا كان شارباست يستطيع الدخول، ببنيته الضخمة، إلى تلك الحفرة.

لم أستطع التفكير في شيء مناسب كي أقوله عن الملجأ. لم أنبس بحرف. لاحظت في عيني شارباست أنه أدرك عدم رضاي. لم يفعل شيئاً، اكتفى بأن طوق بأصابعه يدي، وقفلنا عائدين إلى المنزل.

«أحب هذا المكان».

قلتها لزوجي ما إن بدأتُ في إفراغ حقيبتي. وضعت بعناية مشطي، وفرشاتي، ومرآتي اليدوية، وأحمر شفاهي، وصابونتي، والمستحضر (اللوسيون). رتبتها كلها فوق المفرش الزهري اللون. ناضلت كي يُسمح لي بالاحتفاظ بهذا المفرش عندما كنت في بغداد، وعندما مررت بقلعة ديزا، إلى أن وصلت إلى

شروان، وأخيراً إلى برغالو. حذرني الجميع من هذه المجموعة عندما رأوها. قالوا لي إنها تأخذ حجماً، كما أنها فاخرة جداً. شكّك شارباست فيها أيضاً، وادّعى أن ملاذ المناضل ليس بالمكان المناسب لمثل هذا «التبذير»، لكني أصررتُ على الاحتفاظ بها. استطعت بعد جهد إقناعه بأن المحارب أيضاً، يستحق أن ينال بعض الراحة في منزله. عجبت عندما لاحظت أن شارباست يستمتع بالنوم تحت هذه المجموعة الأنثوية الزهرية اللون.

أحسست بحبور في قلبي، وابتسمت بكل ثقة: «سنجعله منزلاً رائعاً».

ابتسم شارباست ابتسامةً عريضة. شعر بارتياح كبير لأن عروسه أظهرت ارتياحاً حقيقياً. ضمني ورفعني في الهواء وأبقاني معلّقة بين ذراعيه ما بين الأرض والسماء. أحسست للحظة أنني طائر يفرد جناحية في فضاء هذا المنزل، غير آبه لما يحمله له المستقبل.

عرّفني شارباست بعد ساعات قليلة إلى برغالو.

أعرف أن كوخنا الصغير ليس بذلك المنزل المثالي، لكنني لا أستطيع قول الشيء نفسه عن بقية المنازل المجاورة لنا. إننا محميون بطريقة جيدة.

تُعتبر برغالو إحدى أكثر المناطق عزلةً في كردستان. تقع في وادٍ أخضر وجميل تحيط به قلعة طبيعية من الجبال. يشكل هذا الوادي مكاناً مثالياً لشن حرب العصابات.

أخبرني شارباست عن وجود كهوف عديدة في تلك الجبال العالية، وهي الكهوف التي توفر مخابئ مثالية للمقاتلين في حالة استطاع الجيش العراقي قهر هذا الوادي وغزوه.

توقفت لأتطلع من حولي، فشعرت بالأمان في ذلك الملاذ الجبلي. بدت القمم الشامخة التي تكلل تلك الجبال الشاهقة، من العلو بحيث ظهرت كأنها تلامس السماء. هل يستطيع أي جيش في العالم أن يغزو تلك الجبال؟ وثقت، بكل سذاجة، بأن هذا الأمر هو ضرب من المستحيل.

رافقتنا أثناء مسيرنا خلال هذه الجبال الصخرية، أصوات تغريد الطيور المتنوعة، كأنها أوركسترا موسيقية، إلى أن هبطنا في اتجاه القرية. تطلعت باستغراب نحو سلسلة من الأكواخ الصغيرة التي تزيّن سفح الجبل. لاحظت أنها تشبه كوخنا الصغير كثيراً، وتساءلت عن طبيعة الحياة التي يعيشها الناس في تلك البيوت.

بُنيت هذه الأكواخ المتواضعة كي يعيش فيها مقاتلو «البشمركة»، وهي تحيط بالقرية وتمتد حتى أسفل الجبل. بُنيت الجدران الخلفية لمعظم هذه المنازل ملاصقةً للتلال. وتقدم تضاريس الأرض حماية طبيعية من القصف والقنابل، في جانب واحد على الأقل من هذه البيوت.

شعرت بالتعب الشديد. كنت قد سرت في تلك الجبال بالأمس في طريقي إلى برغالو. أكاد لا أقوى على الوقوف، فقد نال مني التعب بعد يوم كامل من تعاقبي على المشي والركوب

على ظهر حمار، للمرة الأولى من حياتي. لم يكن الحمار راضياً، وحاول أن يرميني عن ظهره في أكثر من مناسبة، ظللت مشتتة طوال رحلتي بين خوفي من وقوعي عن الحمار وانبهاري بجمال ما أرى. حرمني هذا الوضع من الاستمتاع بجمال الوادي.

اختار الاتحاد الوطني الكردستاني قرية ناوزانغ كمركز لمحطة الإذاعة، وذلك قبل نقلها إلى برغالو. تلاقى الجيشان الكبيران، الإيراني والعراقي، هناك، في معركة شرسة جرت بينهما عند بداية الحرب في العام ١٩٨٣، لذلك اضطر مقاتلو الاتحاد الوطني الكردستاني إلى البحث عن موقع جديد ليكون مركز قيادتهم. انتقل المقاتلون من ناوزانغ إلى قرية تدعى سارشيو، لكن سرعان ما امتد لهيب الحرب إلى تلك القرية أيضاً. انتقل مقاتلو الاتحاد الوطني الكردستاني في ذلك الحين إلى برغالو، التي كانت قرية مهجورة، بعد أن كانت ذات يوم قاعدة لمحاربي القائد الكردي المنافس الملا مصطفى البرزاني.

أصلح مقاتلو الاتحاد الوطني الكردستاني المباني المهجورة، وأضافوا إليها منازل جديدة. تضم برغالو في هذه الأيام ما يقرب من مئتي مقاتل. كما يستخدم مقاتلون آخرون يسكنون في أماكن أخرى من الوادي، هذه القرية كمحطة موقتة أثناء ذهابهم وإيابهم من جبهة القتال.

تضم ساحة القرية عيادة طبية، ومطبخاً مشتركاً، وملجأً كبيراً. وقد شُيدت هذه المنازل الجماعية من أحجار إسمنتية،

وسُقفت بأسطح من القش. ما تتميز به هذه المنازل، هو سهولة بنائها وسهولة هدمها، في آن.

بنى المقاتلون محطتهم الإذاعية في الجبال بعد استقرارهم في برغالو، ووضعوا هوائي الإذاعة على صخرة في أعلى نقطة في الجبل، تبعد مسيرة عشرين دقيقة عن القرية. وتُعتبر محطة الإذاعة وسيلة مهمة من وسائل الاتحاد الوطني الكردستاني التي يستخدمها لتجنيد «البشمركة»، والدعوة إلى إسقاط صدام، وتُنذر القرويين الأكراد بالمواقع التي يتواجد فيها جيش صدام. يذهب شارباست إلى ذلك المكان يومياً ليعمل هناك.

أعرف أن شارباست يقصد يومياً ذلك المكان للعمل فيه. وعلمت في ذلك الوقت أنه يحظر على النساء العمل في تلك المحطة، نظراً إلى أن موقعها يُعتبر خطراً، ولأن طياري صدّام يحاولون قصفه على الدوام. اضطررت لهذا السبب إلى أن أعمل انطلاقاً من منزلي.

يُعتبر شارباست واحداً من عدة كتّاب ومذيعين، من الذين يبثون خطاباتهم من هذه المحطة السرية، التابعة للاتحاد الوطني الكردستاني، المسماة «صوت المناضلين من أجل الحرية». أدركت من رسائله أنه كاتب موهوب، بالرغم من أنني لم أسمع، أو أقرأ، خطاباته السرية حتى الآن. يستجلب العمل في محطة إذاعة الاتحاد الوطني الكردستاني حقد صدام حسين، وهكذا يعمد كل المذيعين إلى استخدام أسماء وهمية مستعارة لإخفاء هوياتهم الحقيقية. اختار شارباست اسماً مستعاراً له هو «ناباز»، الذي يعني «المنيع».

رأيت، في يومي الأول الكامل والممل في برغالو، عدة جنود من «البشمركة» ينتشرون في كل مكان، ويتحركون جيئة وذهاباً بكل سهولة.

نظر شارباست حوله بانزعاج: «جوانا، هناك حركة أكبر من تلك التي كانت عندما غادرتها لألتقيك في «مرجة». تردد قليلاً قبل أن يخمن: «هناك أمر مهم يحدث الآن».

«ماذا؟ ماذا يحدث باعتقادك؟».

«سنعرف بعد وقتٍ قليل جداً. يقع خط الجبهة حول جبال دوبان، وهو مكان لا يبعد كثيراً من هنا. اعتاد المقاتلون أن يمروا من هنا في طريقهم إلى الجبهة، لكن حركتهم زادت منذ بداية هذه السنة». ركّز شارباست نظره عليّ بعد ذلك مبدياً ملامح جدية، وتابع قائلاً: «إنهم يعلمون أننا هنا يا جوانا. إن صدّام يكرهنا نحن الأكراد أكثر من كل أعدائه مجتمعين. يعاني صدّام هذه الأيام دمامل كثيرة، ويتعيّن عليه أن يتخلص منها، لكن الدملة الكردية هي أشدها إيلاماً بالنسبة إليه. إننا نذيع أفعاله الشنيعة على الملأ، ونحن نشجع الآخرين على الثورة عليه».

بلع شارباست ريقه، ثم قال: «إنه يعرف مكان وجودنا بالضبط، وهو ينوي أن يقتلنا جميعاً. سينصرف صدّام إلى أن يفقأ الدملة الكردية فور توقيعه معاهدة سلام بينه وبين إيران. علينا أن نتوقع مرحلة صعبة جداً، بدءاً من هذا التاريخ».

بقيت هادئة، واستغرقت في التفكير. لطالما صليت كي

تنتهي الحرب مع إيران منذ اليوم الأول لانطلاقها، لكن صلاتي تصبح كارثة على شعبي إذا كان ما يقوله شارباست صحيحا. سيستطيع صدّام في هذه الحالة توفير قوات قليلة لتتواجد على الحواجز، وليلقي القنابل علينا من طائراته، وليقصفنا بمدفعيته. وإذا انتهت الحرب مع إيران، وفور بدء المحادثات لإنهائها، سيجد الرجل تحت تصرفه قوات كبيرة من جنود المشاة المسلحين والجاهزين للقتال. المخيف هو وجودهم في مكان قريب من مكان سكننا، لأن معظم أراضي كردستان تجاور الحدود مع إيران، أي حيث تستعر الحرب.

سعل شارباست، وتنحنح ثم قال: «نستطيع أن نشعر بالضغط علينا حتى في هذا الوقت. إننا نتعرض كل يوم لقصف الطائرات والصواريخ». تطلع إلى ساعته قبل أن يضيف: «أنا مندهش لأنهم لم يبدأوا بعد. أريدك أن تكوني مستعدة للركض معي».

دخلنا في هذه اللحظة المطبخ المشترك. رأيت الكثير من الطباخين الذين يعملون في الداخل، لكن شارباست همس لي بأنه لا يوجد بينهم طباخ ماهر واحد. أسّر إلي عندما كنا في شروان، أن أحد المظاهر المزعجة في حياة المقاتلين هي افتقاد الطبخ الشهي. قال لي وقتها إن جيش صدّام يسد معظم الطرقات المعروفة التي تؤدي إلى الجبال، بحيث يصبح من المستحيل تقريباً نقل المواد الغذائية من خلالها. ويركّز المهربون على نقل المعدات العسكرية والذخيرة، تاركين للمحاربين

وعائلاتهم تناول حصص قليلة من الأطعمة العادية. فكّرت في نفسي في أن هذا الوضع هو من سخرية الأقدار، لأن الأطعمة الكردية هي الأفضل في العالم.

بدا شارباست كأنه يريدني ألا أندم على تركي بغداد، عندما همس بخبث: «لا تتوافر هنا الأطعمة اللذيذة التي تتميز بها بغداد».

ضحكت من كل قلبي. كنت أشعر بالسعادة لأنني أتقاسم كل شيء مع هذا الرجل... حتى الطعام الرديء.

وجدنا الطعام رديئاً بالفعل عندما قدموا إلينا وجبة عادية من الأرّز الأبيض والفول العريض مطبوخين مع صلصة البندورة. ملأنا أطباقنا ثم جلسنا إلى طاولة مشتركة لنتناولها على مضض. تلقى شارباست التحيات الحارة من أصدقائه، ثم عرفني إليهم.

عبّر بعض المقاتلين عن دهشتهم التامة عندما علموا أنني تركت بغداد كي أعيش في برغالو.

أجبتهم بصدق: «إن لي نصيباً في هذه الحرب، أنا أيضاً».

لم نكن قد انتهينا من تناول غدائنا بعد، عندما دخل أحدهم كالسهم ليصرخ بأن الصواريخ هي في طريقها إلينا. تدافعنا أنا وشارباست والرجال الموجودين، بجنون، كي نصل إلى الملجأ المخصص للغارات الجوية. كانت المرة الأولى التي ينقبض فيها قلبي منذ قدومي إلى برغالو.

سمعت قرقعة عظيمة في الوقت الذي دفعني فيه شارباست

إلى داخل الملجأ الذي كان عبارة عن غرفة كبيرة شُيّدت جزئيا في بطن الأرض. يُعتبر هذا الملجأ الإسمنتي فاخراً جداً، إذا ما قورن مع تلك الحفرة الترابية الصغيرة الموجودة وراء كوخنا. تمنيت عندها لو أن منزلنا كان أقرب قليلاً إلى وسط القرية. لم أستطع قط الوصول إلى هذا الملجأ المركزي من ذلك البُعد، لذلك كنت أنتهي في تلك الحفرة الترابية في معظم الأحيان.

أدركت أن غيري من القرويين لم يستطِع الوصول إلى هذا الملجأ الجماعي، لأنني كنت المرأة الوحيدة من بين عدد كبير من المقاتلين. صمت الجميع خلال ذلك الهجوم، وأسندوا رؤوسهم إلى الجدران، ووضعوا أيديهم في أحضانهم، ثم أنصتوا إلى دوي أصوات انفجار القذائف القادمة التي اعتادوا عليها.

خيّم القلق على وجوه معظم الحاضرين. أعتقد أنني أعرف السبب. سبق لشارباست أن أخبرني عندما كنا في شروان أن بعض القنابل التقليدية هي من الضخامة بحيث إن شيئاً لا يمكنه حمايتنا منها. وإذا أصيب الملجأ إصابة مباشرة فسيقضي الجميع نحبهم. رفضت وقتها أخذ هذا الاحتمال بعين الاعتبار. أعرف أنه لا يمكنني أن أكون سيئة الحظ إلى هذه الدرجة... على الأقل ليس بهذه السرعة.

تصاعدت أصوات القصف. سبق لشارباست أن أخبرني أيضاً أن الجنود الحكوميين اعتادوا على إلقاء القنابل العنقودية بين حين وآخر، وتتسبب في جروح بليغة لكل من يتعرض لها

في الخارج. كنت أفكر حينها بحزن تجاه الآخرين ممن لم يستطيعوا القدوم إلى الملجأ. ماذا يفعلون، وكيف يحمون أنفسهم من الموت الذي تحمله حمم الطائرات.

طمأنني شارباست عندما وضع ذراعه حول كتفي، وراح يربت على ذراعي، لكني لم أكن خائفة فعلاً. كنت أفكر في أن البقاء تحت القصف تحت سماء برغالو ليس مرعباً مثل التعرض للقصف تحت سماء بغداد. تحلقت في مرات عديدة، أنا ووالدتي، ومنى، وناديا الصغيرة، وسعد وزوجته، واحتشدنا جميعاً في غرفة الحمام الصغيرة، التي لم تكن مجهزة لتكون ملجأً يقينا من القنابل. كنا ننتظر في ذلك المكان الصغير أن تصيبنا ذات مرة القنابل الإيرانية المميتة. ها أنا هنا مجدداً أختبئ الآن من الخطر المتساقط من السماء، هذه المرة بطائرات عراقية، يُفترض بها أن تحميني، لا أن تزرع الموت بين أهلي. أيقنت أن بعض الأقدار لا يتغيّر أبداً.

بدأ جميع الموجودين في الملجأ بالمغادرة ما إن توقف القصف. شرعوا بالتطلع من حولهم لمعرفة مدى الخراب الذي وقع. اكتشفت، لحسن الحظ، أن دماراً قليلاً أصاب المباني، بالرغم من أنني لاحظت إصابة مبنيين يُستخدمان كمستودعات. تبيّن لنا أن معظم القذائف والقنابل قد أخطأت أهدافها. أخبرني شارباست أن أعداءنا قد اكتسبوا سمعة سيئة في توجيه نيرانهم. وقعت بعض الإصابات في برغالو، لكنها كانت أقل مما يتوقعه المرء.

تابع سكان برغالو حياتهم العادية كأن شيئاً غير عادي لم يحصل. أدركت أن الإنسان يستطيع التكيّف مع كل شيء تقريباً، حتى مع الحرب والموت.

رافقني شارباست إلى المنزل، قبل أن يعود مجدداً إلى برغالو ليتوجه إلى محطة الإذاعة. وعدني بأنه سيعود ليتناول العشاء في المنزل، وبعد ذلك سألتقي مع بعض النسوة.

نسي شارباست أن يخبرني بحقيقةٍ مهمة جداً، وهي أن الجيش العراقي اعتاد أن يختم كل يوم بإطلاق ثلاث قذائف على القرية. حافظ الجنود على دقة مواعيدهم إلى درجة أن سكان القرية بدأوا يشعرون بأن هذه القذائف الثلاث ما هي إلا نوع من الاحتفال الرسمي اليومي.

لم يغير الجنود العراقيون من روتينهم «الدموي» في أول يوم كامل لي في برغالو. كنت وحيدة في المنزل عندما تساقطت القذائف. تساءلت إن كانت هذه القذائف هي بداية لهجوم جدي جديد. أسرعت إلى حشر نفسي في إحدى زوايا المنزل، وضعت يديّ فوق رأسي، وبقيت في هذا الوضع الذي اعتقدت أنه آمن.

دخل شارباست بسرعة في هذه الأثناء. بدا أنه قلقٌ جداً. فوجئ عندما رآني هادئة، وأنني اكتفيت بأخذ الاحتياطات اللازمة. اندفع بعد ذلك ليعانقني، وهمس لي: «يا لكِ من محاربة «بشمركة» شجاعة يا حبيبتي». انطلق ضاحكاً بعد ذلك وقال: «تحققت الآن كل أحلامك. أهلاً بك إلى عالم الأكراد الحقيقي، يا جوانا».

لم يكن العشاء الذي لم نكن نملك شيئاً آخر لتناوله، إلا بقايا غدائنا الذي كنا أحضرناها معنا.

قال لي شارباست إننا سننضم إلى مقاتلي «البشمركة» الآخرين المتجمعين على سفح التلة، وذلك بعد أن يحل الظلام. اعتاد أهالي القرية، بعد أن يرسل إليهم الجنود العراقيون آخر قذائفهم، أن يتجمعوا ليرقصوا، ويرووا قصصهم، وأن يتزاوروا ليحتفلوا بنجاتهم في كل يوم جديد. جذبت انتباهي الأحاديث الممتزجة بين الألم والرجاء لبعض الأشخاص.

انتظرت أن يكون هذا المساء هو على مثال ما حلمت به على الدوام.

بقي بعض المحاربين في مراكزهم لتأدية واجباتهم في حماية القرية، وتجمّع الباقون من سكان برغالو، وجلسوا على العشب الأخضر. شعرت بأن النسيم الهابط علينا من الجبال العالية هذه الليلة بارد قليلاً، برغم أننا كنا في شهر تموز. لاحظت أن القمر، شبه المكتمل، أضاء الأمكنة المجاورة وجعل حشدنا يتألق أكثر.

لفتني وجود ثلاث نساء من بين حشد الرجال. شعرت بأنهن يلاحقنني بعيونهن. قال لي شارباست إنه توجد زوجة رابعة تعيش في القرية، لكنها ليست معنا في هذه الأمسية.

أدركت أنني أعيش في قرية يعيش فيها ما يقرب من مئتي مقاتل، مقابل خمس نساء فقط. يا للغرابة. حدّقت بتركيز أكثر في ملامح النسوة الثلاث، وأبقيت نظري على شابة تحمل صبياً

صغيراً في حضنها. أخذت هذه الأم تصفّر لوليدها وتغني لـ. أسرتني المرأة ووليدها الوسيم، ورحت أتساءل عن قصتها، لأن لكل «بشمركة» قصته.

شعرت بخجل غريب لوجودي وسط هؤلاء الأبطال، فاكتفيت بالجلوس قرب شارباست، لأنني عروس جديدة، وقليلة الخبرة.

أحسست بالارتياح عندما نهضت مجموعة من الرجال لتؤلف صفاً، وانطلق أفرادها بالرقص بلباسهم العسكري. أحضر أحد الأشخاص دفاً صغيراً وبدأ في مرافقة إيقاع الرقص. استخدم بعض الراقصين قضباناً لينفذوا مشهد معركة. قفز شارباست لينضم إليهم.

أخذت أصفق مع الحشد، وبادلت أولئك الذين يرحبون بي ابتساماتهم. انطلق عدة راقصين في تأدية أغنية شعبية بلهجتنا «السوراني» الكردية.

انتابتني مشاعر غريبة من السعادة إلى درجة أنني اضطررت إلى كبح دموع الفرح في عينيّ. وجدت نفسي أقوم بما حلمت به على الدوام، وفي المكان عينه الذي أردت أن أكون فيه. شعرت بأنني موجودة في موطني أخيراً، في كردستان.

(١٧)

الكرديّ «الصالح»، والكردي «السيّئ»

برغالو، كردستان: تموز، ١٩٨٧

الأربعاء، **٢٢** تموز، **١٩٨٧**

والدتي العزيزة

أبعث إليك بقبلاتي وتحياتي. أرجو أن تكوني أنت وبقية أفراد العائلة بخير. أعترف بأنني اشتقت كثيراً إلى قريباتي وأقربائي، وعلى الأخص رانج، لأنني أعرف أنني سأشتاق كثيراً إلى طفولته الغالية. لا يسعني أن أصدّق أنه وُلد منذ عام مضى تقريباً. أرجوكِ قولي لعلياء أن لا تدع أطفالها ينسونني مطلقاً.

أعرف أن رسالتي هذه متأخرة قليلاً، لكنك تعرفين الوضع هنا، وتدركين مدى صعوبة المحافظة على تراسل منتظم. لا أستطيع أن أعرف ما إذا كنتِ ستستلمين هذه الرسالة أم لا، لأنها ستترك يدي لتنتقل إلى يدٍ أخرى، ثم سترتحل من يدٍ إلى يد في طريقها لتصل إليكِ.

أمي العزيزة، عشت في هذه القرية مدةً تكفي لأعرف أنني اخترت الطريق الصحيح. لست نادمة لأنني اخترت شارباست،

وحياة «البشمركة» التي أعيشها. إنه الرجل الذي أريده أن يكون شريكي، وهو يتمتع بإرادة قوية، وسلوكه يناسبني، ويحبني. اختار شارباست لنفسه حياة مليئة بالمغامرات، والمخاطر، والأخطار. إنها حياة رائعة تجعلني فخورة به، وبي، لأنه ضحى بحياته من أجل القضية التي يؤمن بها. أشعر بأنني تشرفت، لكل هذه الأسباب، لأنني زوجة هذا المناضل، ولأنني أقاسمه الصعوبات التي يمر بها. ولا غرو في ذلك، فكلانا تجمعنا قضية واحدة.

تغيرت حياتي كثيراً بالطبع. لا أتذكر تلك الفتاة التي كنتُها في بغداد إلا لماماً؛ تلك الفتاة التي اعتادت تناول المآكل الفاخرة، وشراء الملابس الجميلة، والتي كانت تشرب الشاي والقهوة أثناء زياراتها أصدقاءها وأقاربها.

من كانت هذه الفتاة؟

فهي لم تعد موجودة.

تختبر «جوانا الجديدة» يومياً حرباً قاسية لا ترحم. اعتدنا أن نسمع، عندما كنا في بغداد، قصصاً عن الشناعات التي تُقترف في حق إخواننا وأخواتنا في كردستان، لكني أقول لك إن الواقع أسوأ بكثير مما كنا نتخيّل. تُشّن هذه الحرب الوحشية ضد شعبنا الذي يناضل ليعيش حراً في بلاده، وبرغم ذلك فنحن نشعر بالسعادة لأننا مصممون على كسبها.

إن صغيرتك جوانا واثقةٌ من قرارها، لذلك أطلب منك، في حال قُدّر لي أن أقدّم التضحية القصوى، أن تشعري بالراحة في

قلبك لأنني أكون قد متّ في سبيل القيام بما أردت أن أقوم به على الدوام. لا تدمري حياتك بالحداد يا أمي.

أريد الآن أن أخبرك بكل شيء حدث منذ افترقنا.

ارتحلتُ من قلعة ديزا إلى قرية «مرجة» برفقة زكية. انضم إلينا شارباست في «مرجة»، وتابعنا المسير إلى شروان، حيث قضينا شهر عسلنا. مررنا بعدة حواجز معادية، وفي أماكن متعددة على الطرقات. تغيّر الوضع منذ السابع والعشرين من نيسان، أي بعد أن شنت قوات «البشمركة» هجومها الكبير (كربلاء العاشر)، الذي سمعنا أنه كلّف ما يقارب خمسة آلاف إصابة في صفوف الجيش العراقي الخامس. استطاع مقاتلون أن يحتلوا بعض المساحات بالاشتراك مع القوات الإيرانية. أعتقد أنك سمعتِ عن هجوم كبير آخر أسميناه «نصر»، استهدف مقاطعة السليمانية. سمعت أننا استطعنا كسب الكثير من الأراضي، وهو الأمر الذي أسعدني كثيراً. أتمنى أن تكون الحياة قد أصبحت أسهل بكثير بالنسبة إلى أحبائنا في تلك المنطقة. سمعنا خطاباً مدوياً مباشرة من طهران حيث ادّعى رفسنجاني أن «السليمانية هي بوابة الدخول إلى بقية مناطق العراق». افترضنا، بعد سماع هذا الخطاب، أن الإيرانيين سيركزون قواتهم في تلك المنطقة المهمة، وهو الأمر الذي قد يسهّل، أو لا يسهّل، أوضاعنا هنا في وادي جافاتي.

أريد أن أخبركِ الآن عن حياتي هنا. يقوم شارباست بمهمة هامة، وهذا يعني أنني وحدي هذا اليوم، ويعني أيضاً أنني

أمتلك وقتاً نادراً من الوحدة التامة، وهو الوقت الذي سوف أمضيه بالتحدث إليك عن طريق صفحات هذه الرسالة.

لن أُخفي عنكِ أي شيء، وسأكون صادقةً على الدوام. لا يوجد هنا ما يسمى الحياة الطبيعية. إنني أعيش في كوخ صغير يرتاح في أحضان قرية بدائية. وبرغم ذلك، أعتبره أغلى من قصرٍ في بغداد. إن منزلنا المتواضع بسيط وغير معقد، ويحتوي على أثاث شديد التواضع. نتقاسم الحياة فيه مع فئران عديدة. أكاد (وسوف تضحكين علي) أنتظرها لرؤيتها وهي تتمدد على الأرض، كما لو أن المنزل منزلها. منظرها شديد الروعة وهي تتمطى فوق ارض الدار، وتظل عيونها الصغيرة تراقب كل حركة من حركاتي، وتُبقي مخالبها في وضع من يُبقي سلاحه «صاحياً». اعتدت أن أُلقي إليها بكسرات خبز، وأحياناً بعض الجبنة، بالرغم من اعتراضات شارباست، الذي أخبرني ساخراً بأن الجميع يتحدث عن القلب الرقيق الذي يعيش في هذا المنزل. لا تستطيع هذه الفئران الصغيرة أن تؤذينا في الواقع، ما دمنا نُبقي حصتها من الطعام محفوظة في البراد. إننا نستخدم هذا البراد بمثابة خزانة عملية لأطعمتنا، لأنه لا يعمل، لسوء حظنا، ولأن الكهرباء نادراً ما تزورنا.

لا أستطيع أن أقول الشيء نفسه عن المخلوقات الأخرى، بالرغم من أن الفئران غير مؤذية، لأن الأفاعي، على وجه الخصوص، تبقيني على حذري الدائم مع كل خطوة أخطوها.

نعم. توجد أفاعٍ هنا، وتوجد عقارب أيضاً.

أفضّل أن لا أقول أي شيء في ما يتعلق بنوعية طعامنا. إن الحواجز المنتشرة بكثرة تمنع مهرّبينا من إحضار كميات كبيرة من المواد الغذائية، وهكذا لا يتسرب إلا القليل عبر حواجز عدونا. أشعر بأنني سجينة لا تحصل يومياً إلا على وجبة من الخبز اليابس والقليل من الماء، كالفئران تماماً. ولهذا فأنا أشتاق دائماً إلى أطباقك الكردية المميزة.

لكني أشكر الله دائماً لأننا لا نموت جوعاً.

يشفع لحياتنا هنا، برغم قساوتها، أن منزلنا يخفق بالحب على الأقل. ولا يساوينا في سعادتنا هذه إلا قلة من الأزواج. أقول لك إنه حتى أحلام صباي لم تصل يوماً إلى الفرح الذي أحس به، لأنني أعيش حياة «البشمركة» قرب زوجي.

أقول هذا بالرغم من واقع حياتنا المنذورة للموت والقتل في أي لحظة، بسبب القصف المستمر الذي تتعرض له قريتنا الصغيرة.

دعيني أخبرْك شيئاً عن القصف والقذائف.

لم تستطع التحذيرات التي تلقيتها، أن تحضّرني لمستوى الهجمات التي تتعرض لها برغالو. اعتادت أذناي وعيناي ترقُّبَ الخطر. فهمت أخيراً ما قصدته زكية، عندما حذّرتني في شروان من أنه يتعيّن على المرء أن يعطي نصف تركيزه للمهمة التي بين يديه، والنصف الآخر للأصوات والمناظر التي تأتي من السماء. اعتدت أن أصغي إلى أصوات القذائف الصافرة والمدوية، وهدير الأصوات القوية التي يصدرها محرك طائرة كبيرة، أو

طائرة هليوكوبتر (حوامة)، في وقت تكون فيه يداي مشغولتين بتحضير الفطور. يصدق الشيء نفسه عندما أكون منهمكة في قراءة النصوص الإذاعية التي يكتبها شارباست، أو عندما أكون في الحمام، أو حين أقوم بغسل الثياب، أو أزور نساء «البشمركة» الأخريات، أو حتى عندما أكون في طريقي إلى القرية.

لا أتخلى عن حذري على الإطلاق. أصبحَ أنيساً لا يفارقنا، ولا يدعنا لحظة لوحدتنا.

لم نتعرض لخسائر بشرية كبيرة إلى الحد الذي توحي به الهجمات الكثيرة التي تسمعون عنها، لكن حادثاً واحداً يلازم مخيلتي على وجه الخصوص.

فقدنا حديثاً اثنين من مقاتلي «البشمركة» في مقتبل العمر. كانا صديقين حميمين لنا، وخاصة لشارباست، وصغيرين في مقتبل العمر، لكنني لا أعرف أعمارهما على وجه التحديد. سبق لي أن رأيتهما عدة مرات في القرية. حزنت لأنهما لا يذهبان إلى المدرسة، لكن بدا لي أنهما سعيدان بالعيش حياة مقاتلي «البشمركة». أصيبا ذات يوم إصابة مباشرة عندما كانا يعملان على مدفع مضاد للطائرات. قُتل الاثنان على الفور. أشعر بالأسف الآن لأنني رأيت جسديهما المكوّمين، وها أنا لا أستطيع أن أطرد صورتيهما من خيالي. أتذكر أنني رأيتهما ذات يوم يضحكان ويتمازحان. بدوا كملاكين، لكنهما قُتلا في اليوم التالي. هل قَدَر الملائكة أن تموت في هذه البلاد، وتحترق

جثثهما. وُضعا في كيسين، ودُفنا في مقبرة المحاربين قرب القرية.

التعزية الوحيدة التي أجدها هي أن حياتيهما انتهتا من أجل حرية بلدنا. أتمنى أن تساعد تضحياتهما على نيلنا الحرية.

إن ما يثير أعصابنا هنا، ويجعلنا في حالة قلق دائم، هو عدم معرفتنا إن كانت ستسقط قنبلة أو قذيفة علينا ما بين دقيقة وأخرى. يريدني شارباست أن أتوجه إلى ملجئنا الطيني في كل مرة أسمع فيها صوت طائرة، لكنني لا أستطيع أن أجبر نفسي على هذا إذا لم يكن موجوداً معي في المنزل. أكره هذا النمط من الحياة، لكنني مجبرة عليه بسبب وحشية النظام الذي تمرّدنا عليه، وتشفّيه في قتلنا. اعتدت أن التجئ إلى زاويةٍ من زوايا المنزل بدلاً من التوجه إلى الملجأ، أي كما اعتدت أن أفعل في بغداد في أوقات الغارات الإيرانية. يجبرني شارباست على التوجه إلى تلك الحفرة الطينية عندما يكون في المنزل وقت حدوث القصف.

أفضّل الموت أحياناً على العيش لاجئة ما بين المخبأ والمنزل. تصبح الحياة أشبه بحالة انتظار للموت. لطالما فضلت أن أغامر بالتعرض لقصف القنابل. سأصف لك تلك الحفرة الطينية. لا شك عندي في أنك ستتفهمين موقفي. أضطر إلى الاتكاء على يدي وركبتي كي أستطيع الدخول إلى الفتحة، وعندها يكون شارباست ورائي. لا أعرف كيف يسعنا هذا الملجأ. مجرد قبو ضيق، بالكاد يتسع لهر، ضيّق جداً وصغير

جداً بحيث لا أستطيع الجلوس بوضع مريح. وأجد نفسي مضطرة إلى الزحف في وضع مزعج، وأطأطئ رأسي دوما. وبرغم ذلك أصطدم مرات ومرات بهذا السقف الواطئ للحفرة. ما أبشع أن يطأطئ المرء رأسه.

أتعلمين يا والدتي أن كل أنواع الحشرات تستوطن في كردستان؟ أتعلمين أيضاً أن معظمها يعيش في برغالو؟

تصرّ أنواع الحشرات هذه على زيارتي عندما أكون في الملجأ. تحب أن تندس في شعري. فاجأتني إحدى الحشرات يوماً، بشكلها المخيف وقوائمها المرعبة. صحوت عليها وهي تستوطن في أنفي.

أجد نفسي أتمنى الموت على الدوام عندما أكون في الملجأ، لأنني لا أجد الراحة فيه. وأُعجب كثيراً لشارباست، الذي يتكور على نفسه وينام مثل طفل راضٍ.

سألت شارباست البارحة كيف استطاع أن يتحمل هذا الوضع لخمس سنين. ضحك طويلاً، وقال إن الحالة لم تكن أسوأ في الماضي، وإن الهجمات كانت قليلة، وإن كانت القرية اعتادت التعرض للقذائف والقنابل بين حين وآخر. هل تعلمين أن القصف والقذائف لم تتوقف منذ اليوم الأول الذي وصلت فيه إلى برغالو. راح شارباست يضايقني أكثر، حين مازحني بأنني جلبت هذا الوضع معي، إلى برغالو.

أحمد الله لأننا محميون جداً في الجبال العالية التي تجعل من المستحيل على أعدائنا مواجهتنا وجهاً لوجه.

التقيت مع الكثير من الأكراد الطيبين. يا لحظهم العاثر. إن تضحية هؤلاء تجعل كل المتاعب التي عرفها الأكراد الذين يعيشون في بغداد تبدو تافهة جداً.

لست المناضلة الوحيدة من أجل الحرية التي تعيش في هذه القرية. هناك أربع نساء غيري، من بينهن زوجة مسؤول رفيع في «البشمركة» تصلح لأن تكون قدوة لنا جميعاً. ويعيش في هذه القرية طفلان: طفلة رضيعة، وصبي أكبر سناً.

قوّيت صداقتي في المدة الأخيرة مع والدة الصبي الصغير. أريد أن أخبرك شيئاً عن هذه المرأة. لقد اعتادت التضحية منذ طفولتها. عاشت هذه المرأة حياة صعبة في الوقت الذي كنت أدرس فيه في جامعة بغداد. تساءلتُ كثيراً في السابق، عندما فكّرت في هذا الأمر، إن كان من الأجدر بي لو أنني وضعت نفسي في خدمة القضية عندما كنت أصغر سناً. لم أساهم في خدمة القضية، ولا يكفي أنني كنت متعاطفة معها. ألم يكن في إمكاني أن أترك الجامعة كي أتوجه إلى الشمال لأتسلم مسؤولياتي. أشعر بالذنب كثيراً عندما أفكر في هذه الأمور، وخصوصاً عندما أتذكر أنني ادّعيت، بكل أنانية، انتمائي إلى أصلي العربي، وأصلي الكردي، في الوقت نفسه.

أعتقد أنك ستعتبرين «آشتي» بمثابة ابنتك، وستُعجبين بها. إنها طيبة جداً، وأكثر شجاعة وذكاءً من معظم الرجال. امرأة صغيرة، لكن شجاعتها تضاهي شجاعة أسد الجبال. قالت لي إن والدها مقاتل مشهور من مقاتلي «البشمركة»، وقد قُتل غيلةً

على يد واحد من الأكراد الأشرار. هل تعرفين ماذا نسميهم. سوف تضحكين كثيراً. يجدر بك ذلك. فهم ليسوا أرفع شأناً. إننا ندعوهم «الجحش». تسمية مضحكة. لكن «الجحش» مظلوم فيها. أكيد أنه لا يغدر أصحابه، ولا يشي بهم.

تنتمي هذه المرأة إلى عائلة مقاتلة. ليس من المفاجئ أن يكون دم المحاربين قد وُلد معها. انضمت «آشتي» إلى القضية ما إن أصبحت في سن تخوّلها ذلك. أصبحت عميلة سرية تعمل في «هولر». عندما بلغت الخامسة عشرة، أو السادسة عشرة، من عمرها، حاول «جحش» أن يقتلها، مثلما سبق لـ «جحشٍ» آخر أن قتل والدها. قام كردي شرير، وهو مخبر «جحش»، بالوشاية بها، فاضطرت إلى ترك منزلها والهرب إلى الجبال. توجهت «آشتي» على الفور إلى قاعدة الاتحاد الوطني الكردستاني في «توجحالا». كان شقيقها آزاد يتمركز فيها. ساعدها ماضيها، ووجود أخيها هناك، على أن يُعهَد إليها منصب حساس. أعطيت بسبب ذكائها وظيفة في دائرة الاستخبارات، وأخذت تعمل في تحليل التعليقات السياسية التي تذاع من بغداد، وطهران، ومن دول غربية أيضاً.

سبق لي أن علمت أنه من غير المعتاد أن تعيش امرأة عازبة وتعمل في قريةٍ يسكنها المحاربون، لكنها قُبلت هناك بسبب وجود شقيقها فيها.

أعرب بعض رجال «البشمركة» العازبون عن رغبتهم في التقرب من هذه الفتاة الجميلة والذكية، لكن «آشتي» بقيت

حريصة على سمعتها. فضّلت أن تظل وحدها كي تعيش حياة عزلة اجتماعية: إلا أن جمالها الأخاذ لم يتركها لوحدتها. فسرعان ما وقع أحد المهندسين، وهو أحد رجال «البشمركة» المهمين، وصاحب نفوذ، ويدعى ربوار، في غرامها منذ وقتٍ ليس ببعيد. كان صديقاً لأخيها. طلبها منه، من دون لف ولا دوران، وقد أُغرمت به، ولقيت قصة حبهما نهايتها السعيدة: زوجاً وزوجة.

انتقل المركز الإعلامي التابع للاتحاد الوطني الكردستاني إلى برغالو. كانت «آشتي» وربوار من بين أوائل الواصلين إلى المركز الجديد. سمعت أنهما عاشا في الخيَم والكهوف في بداية الأمر.

رُزقت «آشتي» بطفل رائع أسمته «هيما»، عندما كانت تعيش حياة المقاتلين. ستحبين هذا الطفل الصغير حالما ترينه، وهو سيغزو قلبك مثلما استطاع أن يغزو قلبي أنا. إنه يبكي كثيراً لأن أصوات القنابل والمدافع تخيفه، لكنه يجلب الفرح والأمل لجميع الذين يعيشون في هذه القرية الصغيرة.

يذكّرنا «هيما» بالسبب الذي نقاتل لأجله. نعرف أنه لربما سيبقى كي يعيش حياةً حرة في كردستان، حتى ولو متنا.

نجا ذلك الطفل المسكين من هجوم بالغازات السامة في وقتٍ مبكر من هذه السنة. وسأقول لك، في حالة لم تسمعي هذه الأخبار، إن برغالو أصيبت بالقنابل الكيميائية عندما كنتُ في شروان أقضي شهر العسل. أحمد الله لأن خللاً أصاب

تركيبة هذه الغازات الكيميائية، فبطل مفعولها. هذا ما عرفناه لاحقاً، برغم أن البعض خمّن أنه لعل الرياح هي التي تسببت في نجاتنا، حينما وقفت إلى جانبنا، وغيّرت مسار الغازات. لكأن الله لطف بنا، فلم يسقط ضحايا بالكثرة التي خطّط لها القتلة في بغداد. سمعت أن مئتي محارب قد قُتلوا. لا تجزعي، العدد كان يُمكن أن يصل إلى الآلاف لو كانت المواد الكيميائية أكثر تركيزاً. كنت أقضي مع شارباست شهر العسل، ولولا ذلك لكنت واجهت، أنا العروس، تلك الغازات القاتلة. خدمَنا القدر لأنه سُمح لشارباست بقضاء بعض الوقت بمناسبة زواجه، بعيداً عن الجبهة أثناء وقوع تلك الغارات.

لا أريد أن أزيد من قلقك علي. ليس هذا هدف رسالتي، لكنني أريد إخبارك بما يتعرض له شعبنا، وموته البطيء الذي يراه أمام عينيه، وهو «هدف» على الدوام لهجمات كيميائية لا توفر أحداً من أهله، لا طفلاً ولا كبيراً. أعتقد أن سبب هذه الهجمات يعود إلى أن صدّام حسين عيّن قريبه علي المجيد، وأعطاه كامل الصلاحية لإنهاء المشكلة الكردية. لعلك سمعتِ عن هذا التعيين؟ إن تسلّم علي المجيد منصبه يتسبب لنا في قلقٍ إضافي، لأنه أكثر الناس تعصباً لصدّام، ولإراقة دمنا.

سمعنا أن ثورتنا المستمرة دفعت صدّام ليشعر بغضبٍ مرير. إن حالته هذه جعلت الهجمات الكيميائية أكثر خطورة إلى درجة أننا تزودنا جميعاً بالأقنعة المضادة للغازات.

يحمل كل محاربي «البشمركة» أسلحتهم على الدوام، كما

تعلمين، لكنني انزعجت بسبب القرار الذي اتخذه قادتنا، والذي يقضي بعدم السماح للنساء بالتوجه إلى جبهات القتال. هل حياتي أغلى من حياة شارباست؟ أعتقد أن حياتينا متساويتان في القيمة، ولهذا أشعر بأن قلبي يضطرب في خفقانه في كل مرة أقبع فيها في البيت، وأراقبه وهو يغادره لتنفيذ مهمات خطيرة. وأستمر رهينة القلق والغضب في آن، إلى حين عودته. اسمعي، أريد أن أفاجئك بشيء. أصبحت ابنتك الصغيرة، الرقيقة، تقارع رجال البشمركة في استعمال السلاح. أعرف أن الخبر سيفاجئك. فهو قد فاجأني أنا أصلاً.

صممت على تعلم استعمال السلاح، لأنه يتعين عليّ أن أظل متحضرة ومستعدة للدفاع عن نفسي، وعن أبناء شعبي، في حال حصول هجوم ما على القرية، حتى لو لم يُسمح لي بمرافقة زوجي، ولا رجال «البشمركة»، إلى جبهة القتال. أفترض أننا سنكون أول من يواجه أعداءنا في حال عبورهم الجبال والوديان، وذلك بسبب المسافة الكبيرة التي تفصل منزلنا عن القرية.

أريد أن أزوّدك ببعض الأخبار المهمة عن كاماران حسن، الذي لا بد من أنك تذكرينه. والدته نازارا، شقيقة والدة شارباست، «خضرة». إنه ابن خالة شارباست. كبر شارباست مع هذا الرجل منذ طفولتهما التي أمضياها في قلعة ديزا. عاشا لمدة سنتين مع عائلتيهما في معسكر للاجئين في إيران، وذلك بعد الهجوم بقنابل النابالم الذي تعرضت له القرية. ارتبط الرجلان بصداقة يصعب فكّها.

لا أعرف إن كنتِ تتذكرين أن كاماران اندفع بحماسته تجاه نصرة قضية شعبه، فالتحق بالاتحاد الوطني الكردستاني ما إن تخرّج من الجامعة حاملاً شهادة في الاقتصاد. سُررت كثيراً عندما علمت أنه سيعمل بالقرب منا. لم نبلّغ بعد متى سيفرغ من دورة تدريباته الحالية، لكننا سنحتفل عندما نراه بيننا. أعتقد أنه سيفيد قضيتنا كثيراً.

أريد أن أخبرك شيئاً آخر عن عملنا هنا. فبالرغم من استعداد المحاربين الدائم للتوجه إلى جبهة القتال من أجل المشاركة في المعارك، لكن المساهمة الأساسية التي تقدمها برغالو تأتي من الكتّاب والصحافيين. يتواجد هنا عدد من الكتّاب الذين يكتبون مقالات وطنية تمجّد النضال من أجل تحرير بلادنا. ويشكل عمل شارباست جزءاً من هذا المجهود. تساهم هذه الكتابات والخطابات الإذاعية في إبقاء المقاتلين والمدنيين على اطّلاع دائم على ما يجري في جبهة القتال، ويحددون لهم المناطق التي يجب عليهم أن يتجنبوها. هل تعرفين أننا نحن من يذيع خطابات قادتنا، وخصوصاً «العم» جلال الطالباني. يرى البعض أن عملنا يوازي في أهميته القتال العسكري. يعتبرنا البعض «إعلاماً حربياً»، نشرح الجانب العسكري والسياسي لقضيتنا. آخر ما شرعنا في عمله، هو شرح أهداف تمردنا وثورتنا، لجهة حصول الأكراد على حرياتهم الشخصية والسياسية. كما أننا خصصنا برامج تحثّ الشبان والشابات على التجند لخدمة القضية والانضمام إلى مقاتلي «البشمركة». أعتقد أن التركيز في هذا الوادي يجب أن يبقى

على قضايا الحياة والموت، بالرغم من أنه من الرائع أن ننتج البرامج المسلية المعتادة، مثل تلك التي يستمتع بها المستمعون في البلاد الأخرى.

ما يميز عملنا هو بساطته وصدقه: فبينما تستمر حكومة بغداد في بث الأكاذيب، نستمر نحن في بث الحقائق.

أسأل نفسي على الدوام، أين بقية العالم؟ هل هناك أحد في العالم يعلم ماذا يحدث للأكراد؟ وهل يعرف، أو يكترث أحد لحقيقة أن بغداد تستمر في قتل المواطنين الأكراد الأبرياء منذ عقود من الزمن؟ أو أن تعطشها إلى الدماء العراقية هو في تزايد مستمر؟ وهل يعرف أحد أن الأكراد يعامَلون كما لو أنهم حيوانات، وأن النظام يشجع على سرقة الأكراد، وضربهم، وقتل شعبنا؟ وهل يعرف العالم أن حكومة بغداد دأبت على إفراغ قرى كردية بأكملها، وتطهيرها، وأنها تُبعد الرجال إلى أماكن لا يعلمها إلا الله، وترسل النساء، والأطفال، والمسنين، ليعيشوا في مخيمات اللاجئين في الجنوب؟ وهل يعرف العالم أن العرب يُجلَبون ليعيشوا في منازلنا، وليستولوا على ممتلكاتنا؟

هل يكترث العالم إذا ما عرف هذه الحقائق؟

يبدو لي أن الأكراد ينزفون من آلاف الجراح، ولا يعرف أحد، برغم ذلك، بمعاناتنا.

تسيل الدموع من عينيّ، يا أمي، فلا تلوميني إن بلغ الغضب داخلي ما بلغ.

أخبرك بأنني شعرت بإحباط يوازي الخزي، عندما اضطررت إلى الاعتراف بوجود أكراد طيبين، وأكراد أشرار. أعتقد أنه ما من شيء أساء إلى قضيتنا أكثر من هؤلاء الأكراد الأشرار المتعاونين والمخبرين.

ينضم هؤلاء إلى الاتحاد الوطني الكردستاني، ويتظاهرون بأنهم يكرهون النظام في بغداد. ثم لا يلبثون أن يختفوا بعد اكتشافهم معلومات مهمة، ويبلغون عن مواقعنا. إنهم يتسببون في موت الكثير من مقاتلينا. يدفعني هذا الأمر إلى الاعتقاد أن إخلاصنا للأكراد بدأ يتفكك. أتمنى أن يكون الواقع على غير ما هو عليه، لأن وحدتنا كانت إحدى نقاط قوتنا على الدوام.

يقول شارباست إن إحدى نتائج الحرب مع إيران، كانت أن يبيع بعض الرجال شرفهم بأن يأخذوا المال من بغداد من أجل خيانة رفاقهم الأكراد، وذلك بدلاً من العيش في الخنادق، كما كانت الحال مع سعد.

أعتقد أن بعض الرجال مستعدون لفعل أي شيء، مهما كان دنئياً، كي يتجنبوا العيش في جهنم هذه الخنادق.

إن تجسسهم على إخوانهم الأكراد سيوصلهم إلى جهنم في النهاية.

وفئة «الجحش»، مهما تفعل، فإنها لا تقوم إلا بتأخير الوصول إلى جهنم، ولن توصل أبداً إلى الجنة.

تعلمت أن أكره الإيرانيين عندما كنت أعيش في بغداد،

مختبئةً من القنابل المتساقطة، لكن الإيرانيين هم أصدقاؤنا الوحيدون هنا في كردستان.

يحاول الإيرانيون في بغداد قتلي أنا ووالدتي، وشقيقي، وشقيقاتي. أما في برغالو فيحارب الإيرانيون من أجل حمايتي أنا، وشارباست، وكل الأكراد الآخرين.

إن مشاعري ممزقة وتائهة بشأن الإيرانيين.

يا لها من ورطة حقاً!

استمررنا، نحن الأكراد، في القتال ضد بغداد منذ ما يزيد على ستين سنة. هل سأبقى في هذه القرية المقاتلة لمدة ستين سنة أخرى؟

أعطاني الماضي حافزاً كبيراً كي آتي إلى هنا. أما هنا فإنني أجد حافزاً كبيراً لي في المستقبل، وهو المستقبل الذي سيكون فيه أولادي أحراراً بالتحدث باللغة الكردية، وبتعلم التاريخ الكردي، وأن يتجولوا بحرية ما بين أعالي هذه الجبال وأسافلها، من دون الخوف من الوقوع في كمين.

إذاً، علينا أن نكسب هذه الحرب! لن نستسلم لليأس أبداً! مطلقاً!

أرى، يا والدتي العزيزة، شمس المساء تتحرك نحو الأفق. سيبعث الأعداء بدفعتهم الأخيرة من القنابل والقذائف بعد وقتٍ قصير، وستبدأ الضفادع في عزف سيمفونيتها، وسيرجع زوجي إلى المنزل، ثم سنتناول طعام العشاء معاً، وبعد ذلك ننضم إلى

رفاقنا المقاتلين المتجمعين على سفح التلة، أو في منزل أحدهم. سنستغرق في الضحك هناك بحبور يصدر من أعماق القلب، لأننا ما زلنا نتمتع بحظ البقاء على قيد الحياة. سوف نتذكر أيام طفولتنا، كما سنتشارك بالحديث عن أحلام مستقبل تظلّله الحريات. . . أو هكذا نتمنى.

أتمنى أن تكوني آمنة في بغداد.

صغيرتك جوانا

(١٨)

الهجوم الكيميائي

برغالو: خريف العام ١٩٨٧

«طلب جلال الطالباني قناة خاصة للتواصل. أعطيته إياها. ذهبت إلى السليمانية وقصفتهم بنوع خاص من الذخيرة. أعطيته ردّي. تابعت عمليات الطرد في الوقت نفسه. أخبرت عملاءنا في القرى الكردية أنني لن أدع قراهم تنجو، لأنني سأهاجمها بالأسلحة الكيميائية. قالوا لي إنهم يحبون قراهم. أبلغتهم بما يلي: «إذاً، ستموتون أنتم وعائلاتكم. عليكم المغادرة الآن لأنني لا أستطيع أن أبلغكم باليوم المحدد لبداية الهجوم بالأسلحة الكيميائية».

سأقتلهم جميعاً بالأسلحة الكيميائية. ومن سيجرؤ على قول أي شيء؟ هل هو المجتمع الدولي؟ سحقاً له! سحقاً للمجتمع الدولي، ولمن يصغي إليه.

لن أتفاوض مع الطالباني، ولن أوقف عمليات الإبعاد، حتى ولو انتهت الحرب مع إيران، وانسحب الإيرانيون من كل الأراضي التي احتلوها.

هذا هو مقصدي، وأريدكم أن تأخذوا علماً جدياً به. سنبدأ في مهاجمتهم في كل مكان وفقاً لخطة عسكرية منظمة، وذلك ما إن تكتمل عمليات الإبعاد. سناهجم حتى مراكز قياداتهم. سنسترجع ثلث الأراضي التي يسيطرون عليها خلال هذه الهجمات، أو حتى نصفها. وإذا حاولنا استرجاع ثلثي الأراضي التي يسيطرون عليها، فسنتمكن من محاصرتهم في جيبٍ صغير. وسنهاجمهم بالأسلحة الكيميائية. لن أهاجمهم بالأسلحة الكيميائية ليوم واحد فقط. سأستمر في مهاجمتهم بالسلاح الكيميائي لمدة خمسة عشر يوماً. سأعلن بعدها أنه سيُسمح لأي شخص بتسليم سلاحه إذا أراد ذلك. سأوزع مليون نسخة من هذا المنشور في مناطق الشمال الكردية، وسيكون مطبوعاً باللغات الكردية، والبادينانية، والعربية، والسورانية. لن أقول إن هذا المنشور هو من الحكومة العراقية. لن أورط الحكومة في هذا العمل. سأقول إنه من الدائرة الشمالية. سنرحب بكل شخص يريد التوبة، أما الذين لا يريدون التوبة فسنهاجمهم بالأسلحة الكيميائية المدمرة. لن أذكر كلمة «كيميائية» لأنها أمور سرية. سأقول لهم إنهم سيُهاجَمون بأسلحة جديدة سوف تدمرهم. ستدفعهم تهديداتي إلى الاستسلام. سترون أن مركبات الله بأكملها لن تكفي لنقلهم. أقسم إننا سنهزمهم.

أبلغت رفاقنا أنني أحتاج إلى مجموعات فدائية تتوجه إلى أوروبا بهدف قتل من تقع عليه الأعين من هؤلاء المخربين الأكراد. سأفعل ذلك، وسيساعدني الله. سأهزمهم، وسألاحقهم إلى إيران».

علي حسن المجيد، الأمين العام للدائرة الشمالية، (من مقطع مسجل لاجتماع عُقد في عام ١٩٨٧، لا يُعرف تاريخ الاجتماع بالضبط).

* * *

بقيت أنا وشارباست صامتين وحائرين أثناء تناولنا الغداء في ذلك اليوم. اعتدنا مؤخراً إحضار وجباتنا إلى المنزل، وأن نستمتع بتناولها وحدنا. بقيت الأحوال متوترة بشكل يصعب على المرء أن يشعر فيه بالاسترخاء. كانت المنطقة تغلي بالكثير من الأحداث التي تجري بين الجيوش الثلاثة: العراقي، والإيراني، والمناضلين الأكراد.

دأب شارباست ورفاقه في محطة الإذاعة على بث نداءات خاصة من أجل تجنيد المزيد من المتطوعين الأكراد. وسادنا اعتقاد أننا سرعان ما سننتصر على نظام بغداد بسبب دعم الإيرانيين لنا، ويتطلب ذلك منا مجرد اندفاعةً قوية. هذا ما اعتقدناه، لكننا نحتاج إلى مقاتلين أكثر من أجل تحقيق هذا النصر. يا لسذاجتنا.

أسرعت في غسل الأطباق بعد مغادرة شارباست، ووضعتها جانباً. ذهبت لزيارة «آشتي» و«هيما» الصغير. كانت مثل هذه الزيارات تسليتي الوحيدة خلال الأوقات التي تخلو من القصف.

سعدت برؤية نساء ينتمين إلى «البشمركة» عند وصولي إلى المنزل. رأيت «بخشان»، وهي زوجة أحد كبار قياديي «البشمركة»، وقد وضعت ابنتها الصغيرة «لاسيك» في حضنها.

شاهدت أيضاً «باهار» و«كازال». كانتا زوجتين من دون أولاد. مثلي تماماً، بالرغم مما عانيته من بعض الغثيان في الفترة الأخيرة، وهو الأمر الذي قلقت لأجله، لأنه قد يعني أنني حامل. انصرفت «آشتي» لملء وعاءٍ بلاستيكي كبيرٍ بالماء، ولتتحضر كي يستمتع «هيما» بحمامه. أدركت، بالرغم من الارتياح الذي تبديه «آشتي»، أن الحياة مع طفل هنا في برغالو تضاعف من الصعوبات التي يعانيها واحدنا.

اقتربت منه أكثر، وكلما اقتربت كلما رأيت مدى سعادة «هيما» الذي كان يستمتع بوقت قصير في الشمس، في الوقت الذي أحاطت به نساء أعطينه الكثير من الانتباه.

رفعته بين يدي وطبعت قبلة على خدّه. استمتعت كثيراً بمداعبة ذلك الطفل الرائع، لكني قلقت على صحته العامة منذ الأمسية الأولى التي رأيته فيها بين ذراعَي أمه. تضاعف القلق على سلامة «هيما» و«لاسيك» معاً بعد تساقط القذائف وانفجارها بصورة دائمة تقريباً. أدركت أن «آشتي» و«بخشان» قلقتان باستمرار على سلامة طفليهما الصغيرين. قلقت لأجلهما أنا أيضاً.

محزن أن يخاف الأطفال كثيراً عندما تتعرض برغالو للقصف. وأكثر ما يظهر هذا الخوف في عيونهم أثناء استماعهم إلى أصوات القنابل والقذائف.

تناولت «آشتي» «هيما» من ذراعَيَّ ووضعته في حوض حمامه

المليء بالصابون. زحفت «لاسيك» واقتربت من الحوض، ثم بدأت في رش الماء بيديها. أخذ الجميع يضحك لحركاتها هذه.

شعرت بالارتياح لوجودي مع النساء الثلاث.

قالت «كازال»، وهي زوجة أشهر مذيع في العراق بكامله: «سمعت أن سيرغالو ستستلم شحنة من اللحم غداً».

دبّت الحماسة في المنزل. يُعتبر اللحم نوعاً من الرفاهية هنا. ويحدث في المرات النادرة التي تصل فيها شحنات الأطعمة إلى متجر في سيرغالو، وهي القرية الشقيقة التي تجاورنا في الوادي، أن تتوجه مجموعة من ساكني القرية إليها لتشتري كل الأطعمة المتوفرة. اعتدنا الاحتفال بهذه الأوقات بإقامة احتفال صغير، وحفلة شواء.

سال لعابي لسماع هذه الأخبار. أدمنت على تناول الحبوب، وصلصة البندورة الخالية من اللحم، طوال الشهر المنصرم، ولم تدخل فمي قطعة لحم واحدة، بالرغم من أن شقيق شارباست زارنا بصورة مفاجئة وسريعة قبل يوم واحد، وأحضر لنا معه بعض الحلويات، وبعض الأشياء الأخرى التي خبزتها والدته. خططت أنا وشارباست لتناول وجبة لذيذة في ذلك المساء.

حملت «آشتي» طفلها «هيما» الذي كان يداعب الماء بيديه في حوض استحمامه الصغير. تطلعت نحوي، ثم ابتسمت وقالت: «متى سيحضّر لنا شارباست الكعكة؟».

أعرف أن شارباست خبّاز مدهش. وعندما يصل إلى يديه بعض الطحين والسكر، يسارع إلى إعداد كعكات صغيرة، في محاولة منه كي يرتاح من متاعب الحرب. تتوق «آشتي» إلى تذوّق هذه الحلويات، مثلما أتوق أنا إليها.

أبلغتها: «وعدني بأنه سيحضر لنا شيئاً منها في القريب العاجل».

انتهت زيارتي الممتعة قبل وقتها المحدد. كان زوج «باهار» قد بعث بخبر عاجل: شحنة الأطعمة قد وصلت إلى سيرغالو، لكن قبل يوم واحد من موعدها المحدد. علمت أن أحد الأشخاص سيغادر في غضون دقائق قليلة، ليبدأ الرحلة التي تستغرق ساعة مشياً على الأقدام في اتجاه سيرغالو. أخبرني أحدهم أن شارباست قد انتهى من إعطاء بعض المال لتأمين مشترياتنا. لقد غادر الجميع المكان في غمرة هذه الحماسة التي دبت فجأة.

لم أشعر بمزاج طيب للرجوع إلى المنزل، فقررت أن أقوم بنزهة. يندر أن أقوم بنزهة وحدي، من دون شارباست. كان التنزه متعتنا المفضلة لنسترخي معاً، ويبوح كل منا للآخر بما يختلج داخله. اعتدنا أن نقوم بنزهة سريعة، نستمتع فيها بتنشق هواء الجبال، وذلك بعد انتهاء القصف المسائي المعتاد.

شغلت عقلي أمورٌ كثيرة. سبق لشقيق شارباست أن أخبرنا أن حديثاً مرعباً يدور حول تخطيط علي المجيد لشن المزيد من الهجمات الكيميائية. ولا تعوز المرء عبقريةٌ كبيرة ليعرف أن

الرجل يخطط لجعل كردستان أرضاً قفراء، خاليةً من الحياة. وانتشرت تقارير تتحدث عن التدمير الوشيك شبه الكلي للبنية التحتية، والممتلكات الكردية، وعن قتل الفتيان والرجال الذين تتراوح أعمارهم ما بين الثانية عشرة والستين، وتشريد المدنيين الأكراد في مناطق معزولة. أعتقد أن شيئاً ما أكثر وحشية يجري التخطيط له في معسكر أعدائنا.

إننا نحتاج إلى مقاتلين من الاتحاد الوطني الكردستاني، بصورة عاجلة. تمنيت أن تشجع نداءات شارباست المزيد من الرجال الأكراد على الانضمام إلى مجهودنا الحربي.

رحت أتأمل أثناء نزهتي نوع الحجج والذرائع الوطنية اللازمة لدفع الأكراد إلى الالتزام الكامل بالقضية. بدأت أفكاري في التسارع، لكنني توقفت قليلاً لأتنفس هواء الجبل المنعش بعمق. أدركت أنه لن يمضي وقت طويل قبل أن يكتسي هذا الوادي بالثلج والجليد. سأمتنع عن هذه النزهات الممتعة، ما إن يحل الشتاء.

جفلتُ عندما تساقطت علينا القذائف المدفعية بغتةً، نحن الذين اعتدنا برنامج قصف معتاداً مسائياً، وضعه أعداؤنا، وانتظموا عليه. لكنهم خرجوا حينها على هذا البرنامج. اعتدنا على المواعيد الدقيقة للقصف، إلى درجة أننا كنا نضبط ساعاتنا على هذا القصف الذي يأتي مع فترتي العصر والمساء.

شعرت باندفاعة من الاضطراب. تواجدتُ حينها على مسافةٍ بعيدة من منزلي. تعذّر عليّ إيجاد مكان أحتمي فيه، فاضطررت

إلى الابتعاد عن الطريق. انحنيتُ منتظرةً فرصة تتيح لي التوجه إلى منزلي، كي أجد مكاناً آمناً أحتمي فيه.

لاحظت شيئاً غريباً. بدت لي قذائف المدفعية هذه مختلفة تماماً. كانت تسقط من الجو بسكون، لكنها تنفث في طريقها غيوماً من الدخان المتسخ المتصاعد في الجو. جمدت في مكاني، أراقب هذا المنظر الغريب. شعرت بجفافٍ في حلقي، وقلقٍ شديد كان يهزني بكليتي، حرصت على أن لا أدع لمخيلتي العنان بتصوّر أسوأ مشهد يمكنني تخيله. أيُحتمل أن تكون هذه العُلب غير مؤذية؟

حدث بعدها شيء غريب آخر: بدأت الطيور تتساقط من السماء! صرخت بشكل عفوي: «إنها تمطر طيوراً!».

أثار مشهد تساقط القنابل «الصامتة» دهشتي. ما هذا الأمر الغريب الذي يجعل كل هذه الطيور تتساقط من السماء. أدرتُ رأسي من جانب إلى جانب لأعرف ماذا يدور من حولي. ملأت الأفق في ذلك العصر ومضاتٌ من الألوان، ونقاط مبهرجة، مندفعة نحو الأرض. بدت لي هذه النقاط الملونة أكثر من مجرد طيور. لقد رفرفت هذه الطيور البائسة بأجنحتها بيأسٍ، وسقطت كما تتساقط الأحجار نزولاً، نزولاً، نزولاً إلى الأرض.

جفلتُ في مكاني عندما سمعت أصوات طَرَقاتٍ متتالية من حولي.

لطالما أحببتُ الطيور، ولطالما حلمتُ بنفسي أحلق مثلها، بعيداً بعيداً... صوب حريتي. لهذا، لم أتحمّل رؤية هذه

الكارثة المحزنة. أدركت أنه يتعيّن عليّ التحرك بعيداً. عليّ أن أتحرك... أن أتحرك بسرعة، وأركض بحثاً عن ملجأ. رأيت نفسي جامدة في مكاني، كأنني أحد معالم هذا المكان.

تفحّصت الطريق بحثاً عن زوجي. أعرف أنه سيسرع إلى نجدتي حالما يعلم أنني في خطر داهم. هل افترضَ أنني في الملجأ؟ أم أنه سارع نحو الملجأ الجماعي الموجود وسط القرية بسبب الخطر الداهم، الذي برز فجأة.

عضضتُ على شفتي السفلى أثناء متابعتي البحث في الطريق عن شارباست. قررت لوهلة أن أصرخ منادية باسمه لعلني أجده. اجتاحتني موجة عارمة من الخوف على سلامته.

لم أشعر بالشك للحظة في أن برغالو هي الآن وسط هذا الخطر المريع والطارئ.

سقط، في هذه اللحظة بالذات، طائرٌ أمام قدميّ مباشرة، فدفعني الارتطام إلى إطلاق صرخةٍ مكتومة. رأيت الطائر يتلوى أمامي من الألم. أي ميتة بشعة هذه، لا آثار فيها للدماء. جمدت عيناي على منقاره يطبق ثم يفتح ثم ينغلق من جديد. ماذا يريد أن يبوح لي. انغرزتُ في مكاني وأنا أراقب موته البطيء، والحزين... أي شَبَه بين هذا الطائر وشعبي.

استمرت تلك العلب الصامتة في التساقط من السماء. استطعت سماع طَرَقات قلبي الصاخبة، وأنا أتابع هذه العلب الغريبة تستمر في نفث دخانها، الذي سرعان ما سيتحول إلى غيمة وسخة بنية اللون غطت سطح الأرض.

سقط طائر آخر إلى جواري.

تمتعتُ بما يكفي من الذكاء كي أعرف أن الطيور هي التي تقدم أول دليلٍ على هجوم كيميائي. هل هذا الهجوم بالغازات السامة هو الذي توعّد به علي المجيد؟

دفعتني هذه الأفكار المرعبة إلى التخلي عن حذري، والنهوض. تملّكني الخوف على حياتي، فأسرعت في النزول ركضاً في الطريق المؤدية إلى منزلي.

بدت الأشياء ضبابيةً، لكني استطعت رؤية بغلٍ غير مربوط بحبل. شاهدته يتقافز بحالة هستيرية. مرّ ذلك البغل مسرعاً من أمامي واندفع في الطريق، وأخذ يجري بأسرع ما يمكنه ذلك، حتى خلت أنه يرقص. لم أشاهد في حياتي كلها بغلاً يعدو بهذه السرعة.

تابعتُ الركض. حاولت أن أتجنب الطيور المتناثرة في طريقي. وثبتُ أخيراً إلى منزلي وأنا ألهث طلباً للهواء. وصلت أخيراً إلى الأمان!

اندفع زوجي من خلال الباب المفتوح. وبعد مضي ثوانٍ قليلة على وصولي، تفرست فيه. فتحت فمي، على مداه، لاهثةً باحثة عن هواء أتنفسه، ولم أتفوه بكلمة.

صرخ بي: «جوانا، أقسم إنه هجوم كيميائي!».

أجل! عرفت ذلك! بدأت أميّز الآن تلك الرائحة الكريهة المماثلة لرائحة الموت، وهي تلك الرائحة نفسها التي سمعت

الناجين من هجمات كيميائية سابقة يتحدثون عنها: إنها رائحة التفاح، والبصل، والثوم الفاسد. إننا نواجه هجوماً كيميائياً بالفعل!

تحرّك زوجي بسرعة. مدّ يده إلى رفٍ عالٍ فوق بابٍ جانبي. رحت أفكّر في أنه يتحرك ليتناول أقنعتنا. سمعته يصرخ: «جوانا! ضعي هذا على وجهك!».

ناولني قناعاً مضاداً للغازات السامة، ثم أسرع ليتناول قناعاً ثانياً ليضعه على وجهه، وأسرع يشد الأربطة الصغيرة التي تثبّت القناع حول رأسه.

أمسكتُ أنفاسي أثناء بحثي اليائس عن الشريط. بدت تلك المهمة البسيطة عملاً بالغ الصعوبة بسبب لحظات القلق الهستيرية. سبق لي أن تحدثت مع زوجي عن هذه الأقنعة أكثر من مرة. قال لي عندها إنه يريدني أن أعوّد نفسي على هذا الجهاز، لكني فشلت، في مهمتي هذه.

سحب زوجي، أخيراً، القناع من بين يديّ، ووضعه على وجهي. ركضنا، يداً بيد، في اتجاه ملجئنا الطيني، وزحفنا نزولاً إلى آخر نقطة تصل إليها تلك الحفرة.

أدركت أنني لم أتنفس طوال المدة التي استغرقها وصولنا إلى الملجأ. سحبت أكبر كمية ممكنة من الهواء عبر فمي، لكن كل ما استطعت فعله هو إيذاء عضلات حنجرتي. لم أستطع الحصول حتى على نَفَسٍ واحد!

لم يعرف زوجي بمشكلتي هذه. شعرت باليأس، ورحت أشدّ قناعي حتى انزلق عن وجهي، وصرختُ: «لا أتمكن من التنفس عن طريق هذا الشيء!».

تمكنت أخيراً من جذب انتباهه الكامل، فأسرع نحوي. تناول القناع من يدي وراح يتفحصه.

أحسست بأن رأسي على وشك الانفجار، فاضطررت إلى تنشق الغازات الملوثة. بدأت عيناي في تحسس تأثير الغازات فيها. شعرت كأنهما قد احترقتا. بلغ الألم من الشدّة، بحيث لو أن محجريهما تعرضا لوخز إبرٍ ساخنة، لما كان الألم أسوأ. لم أستطع احتمال الألم، ولو للحظة إضافية. بدأت في فرك عينيَ بيديّ، ولم أكترث للتحذيرات التي تلقيتها في السابق، بتجنب فرك الأعين أثناء هجوم كيميائي، ولا لصراخ شارباست في وجهي، ومنعه إياي من فرك عيني.

شعرت بأنني أكاد أختنق نتيجة تنشقي الغاز السام الذي ملأ الملجأ. صرختُ: «وصل الغاز إلى عينيّ!».

بدأت الغازات السامة في التجمع فوق سطح الأرض مباشرة، وهكذا امتلأت حفرتنا. تحرّك زوجي بسرعة، وزحف خارج الملجأ، ثم سحبني وراءه. حملت قناعي بيد، بينما أمسك شارباست يدي الأخرى، حتى تمكن من سحبي إلى المنزل مجدداً.

فكّرت في الصعود إلى الجبال. تذكرت جيداً تلك التعليمات التي تأمر بالتوجه إلى ملجأ منخفض، أثناء التعرض لهجمات

القصف المدفعي. وتأمر التعليمات في الوقت نفسه بضرورة تسلّق أكثر الأماكن ارتفاعاً أثناء الهجمات الكيميائية.

تعيّن عليّ أولاً إيجاد قناعٍ صالح، وغير تالف.

شعرت بألم في حنجرتي، ثم بدأت عيناي توخزانني. تهالكتُ على الأرض، فركع زوجي إلى جانبي. سيطر ضباب لزج على حواسي فأعاقها، وتسبّب في التشوش في تفكيري. فكّرت بيني وبين نفسي: حسناً، مرحباً أيها الموت.

اضطررت إلى أخذ نَفَسٍ آخر، فتنشقت المزيد من الهواء الفاسد. زاد وضعي سوءاً، لكنني تمنيت أن تأتي النهاية بسرعة. ارتعبت لمجرد التفكير في أن معاناتي ستطول أكثر.

أدركت، في خضم شعوري بالاختناق، وجود شيء محجوب عني في الغرفة. ظهرت امرأة بثيابها السوداء وطافت أمامي. لم أستطع الشعور بالخوف بسبب التشوش الذي شعرت به. لم تكن المرأة سوى خالتي عائشة!

هل جاءت خالتي لتزورنا؟ كان ذلك شيئاً مستبعداً، بالرغم من أن حلبجة ليست بعيدة عن برغالو. انتقلت خالتي عائشة لتسكن في حلبجة منذ ما يقرب من عشر سنين، أي بعد أعوام قليلة من وفاة والدي. أعرف أنها امرأة متدينة، وقالت إنها تريد عندما تتقدم في السن أن تعيش بالقرب من ضريح الشيخ علي أبابيلي، وهو رجل دين موقّر مدفون هناك.

اعتبرت دائماً أن خالتي عائشة هي الخالة المفضلة لدي منذ

أن كنت طفلة، ولطالما شعرت بالرهبة أمام قدرتها على إزالة كل مخاوفي. أدركت عندما كبرت أنها تتلقى رسائل من الله بصورة أحلام.

بقيت خالتي امرأة مرحة بالرغم من التزامها الديني. كان من المثير والمحبَّب أنها تستمتع بوجود الكثير من الأطفال حولها. وكانت تضحك بسهولة لتصرفاتنا السخيفة. لم تضحك خالتي أثناء الهجوم بالغازات السامة. رأيت، بدلاً من ذلك، تعابير متجهمة ارتسمت على وجهها.

ماذا كانت تفعل في برغالو؟ إنه وقت غير مناسب للقيام بزيارة. شعرت برغم ذلك بتحسن في حالتي لمجرد وجودها إلى جانبي، وغمرني شعور طفولي واطمئنان بأن كل شيء سيتحسن بوجود خالتي عائشة قربي.

ظلت تحوم حولي. شدت انتباهي، بحيث لم أتمكن من التفكير في أي شيء آخر سواها، ورحت أتساءل متى تعلمت أن تحوم هكذا. بدت لي امرأة مجبولة ومخلوقة من سحر، وبرغم ذلك لم يسبق لي أن رأيتها مرتفعة عن الأرض بهذا الشكل. إنها امرأة «مبروكة».

انحنت خالتي عائشة نحوي. أصبح وجهها قريباً جداً من وجهي، وهمست لي، بتأوهٍ، كلمات مرعبة: «أنا ميتة الآن».

جفلت وهمستُ: «أنتِ ميتة؟».

بدا كل شيء مخيفاً. هل ما رأيته كان شبح خالتي عائشة؟

تزود المحاربون بأقنعة ضد الغازات السامة، لكن لم يكن في الإمكان تزويد الشعب الكردي بأكمله بهذه الأقنعة. لم تكن خالتي عائشة من عداد المحاربين، ولهذا لم تحصل على قناع ضد الغازات.

هل قريتها استُهدفت بالغازات السامة في الوقت نفسه مع برغالو؟ هل ماتت؟ هل أنا ميتة؟

تمنيت ألا أكون كذلك. كنت لا أزال صغيرة على الموت. ولم يكن عمري يتعدى الخامسة والعشرين، وما زالت أمامي أعوام كثيرة لأعيشها. أردت أن أتقاسم أعواماً طويلة من الحياة مع شارباست، وأعواماً أخرى غيرها أنجب أطفالنا فيها. أدركت أن الحياة الآن هي أثمن من أي وقت مضى، لكنني شعرت بالدلائل الأولى للحمل، بالرغم من أنني اتفقت مع شارباست على ألا ننجب أولاداً في هذا العالم المليء بالمخاطر، والمنذورين فيه للموت.

أجّلتُ إبلاغ شارباست أي شيء عن الموضوع، لأن لديه في الوقت الحاضر ما يكفيه من الأمور التي تقلقه.

بدا كل شيء مشوشاً. رفعت يديّ فوق رأسي كي أحمي عينيّ، لكنني استرقت النظر ما بين أصابعي لأرى ما ستفعله الخالة عائشة.

شعرت بالإحباط عندما اختفت. أدركت بسرعة أنها ظهرت لي لسبب واحد فقط: أرادت أن تتأكد من أنني أعرف مخاطر الغازات. أرادتني أن أعيش. أرادتني أن أعرف أنها تحرسني في سمائها.

جعلتني تلك الفكرة أكثر تفاؤلاً. أعرف بالتأكيد أن خالتي عائشة كانت امرأة قوية. كيف يمكن هذه المرأة القوية التي تحرسني أن تدعني أموت؟

تطلعت نحو شارباست الذي كان يتفحص قناع الغاز المعطل، ويحاول انتزاعه عن وجهي. بدا مضطرباً لأنه لم يستطِع اكتشاف الخلل في هذا القناع.

بدأت أحتضر. تطلع نحوي وبدأ في نزع قناعه، وناولني إياه. هززت رأسي بالرفض. لن آخذ قناعه: «لا!». لا أريد العيش من دونه، ولا بأي طريقة.

أمسكتُ أنفاسي مرة أخرى، وأغلقت عينيّ بشدة من فرط الألم، وغطيت وجهي بيديّ، ثم تحركت إلى الأمام. دفنت رأسي بين ثنايا ملابسي.

شعرت بأنني على وشك أن أفقد وعيي، لكن شارباست استطاع في هذا الوقت بالذات أن يحل المشكلة، بعدما نزع الغطاء الصغير الذي يشغّل مجرى التهوئة في القناع. أسرع في وضع القناع، بعدما أصبح صالحاً الآن للعمل، فوق وجهي.

أخذت أستنشق الهواء بيأس. استمتعت بأكثر أنفاسي حلاوة في حياتي. وجدت أنفاسي هذه أكثر حلاوة من أي طبقٍ تذوقته في حياتي، وأشهى من جميع أطباق أمي، بالرغم من رائحة المطاط الممتزجة معها.

يا إلهي! شعرت بأنني سعيدة! ما أحلى الحياة!

انتشر ارتياحي هذا في أنحاء جسدي، ثم انتقل نزولاً نحو ساقيّ، وقدميّ، وأطراف أصابعي. خطرت في ذهني أعداد لا تُحصى من الأفكار. أنقذتني خالتي عائشة! أنقذني شارباست! سأعيش! وضعت جانباً الفكرة المرعبة عن هاجس موت خالتي عائشة في هجوم مماثل للذي تعرضنا له. أقنعت نفسي بأنها حية تُرزق في منزلها في حلبجة. أعتقد أنها زارتني عن طريق أحد أحلامها الخيالية.

استغرقت في الضحك. يظهر أن بهجتي غير المتوقعة قد أرعبت شارباست. نعرف أن الناس، الذين يتعرضون لإصابات خطيرة من غازات كيميائية، عادةً ما يصابون بالجنون قبل وفاتهم مباشرة.

سبق لقادة «البشمركة» أن قلقوا لاحتمال أن يتعرض وادينا لهجمات بالغازات الكيميائية. وأصدر القادة تقريراً يتحدث عن التأثيرات الجسدية التي لوحظت بعد الهجمات السابقة. قيل إن الرجال والنساء البالغين يأخذون في الضحك والرقص في الشوارع والساحات، مثلما يفعل البلهاء.

أعرف في أعماقي أنني لم أُجن، وأنني كنت أعبّر فقط عن فرحي كوني ما زلت على قيد الحياة. قطع عليّ رجلان من «البشمركة»، يضعان قناعين مضادين للغاز، احتفالي هذا، عندما اقتحما الباب المفتوح. لاحظت أن مناشف مبللة تتدلى من رأسيهما وأكتافهما.

وضع أحد الرجلين قناعه الواقي من الغاز جانباً ليخبرنا بأن القصف قد انتهى، بالرغم من أن الغازات الكيميائية السامة ما

زالت تفعل فعلها المميت. أخذ الرجل يصيح بنا: «اخرجوا من هنا! اخرجوا من هنا! إن تركيزات الغازات عالية جداً، وسيبدأ الغاز في الاستقرار في المناطق المنخفضة. لستم آمنين هنا!».

سقطت منشفة مبتلة عن كتف أحد الرجلين عندما استدارا لينصرفا من أجل تنبيه جيراننا الآخرين. أسرع شارباست بتناول المنشفة عن الأرض ووضعها على رأسي، ثم جذبني معه نحو الباب.

بدأت أرى كل شيء بلون رمادي قاتم أثناء إسراعنا المضني للتوجه نحو الجبال العالية. بدت القرية بكاملها غارقة في الفوضى، والموت. رأينا الجميع يتوجهون نحو الجبال.

جهدت أنا وشارباست للمضي صعوداً.

تحركت بأقصى طاقة عندي برغم سخطي وألمي اللذين بدآ يتزايدان. شعرت بمادة حارقة ولزجة تنز من عينيّ الاثنتين، وتجمّعت على خدي من تحت القناع. ذُعرت أكثر لأن الغاز ما زال يعيق قدرتي على التفكير، وعلى التفاعل. بدا لي فجأة أن كل خطوة أخطوها تتطلب جهداً كبيراً مني. بدا كل حجر صغير في طريقي بمثابة صخرة هائلة، وبدا كل منحدرٍ بسيط بمثابة سفح جبل عالٍ. لن أستطيع الوصول إلى ذلك الجبل.

وصلنا أخيراً إلى قمة صخرية في الجبل، لكنها مرتفعة بما يكفي لتكون ملاذاً آمناً لنا من الغازات السامة المركزة. انهارت ساقاي، فتهاويت على بقعة ترابية رطبة.

نزع شارباست قناعَي الغاز عن وجهينا. قال محاولاً طمأنتي: «أنتِ آمنة يا حبيبتي. أنتِ آمنة الآن».

تحركت كي أعانقه، لكنه ابتعد عني وحذّرني: «جوانا، لا تلمسيني. ولا تلمسي نفسكِ أيضاً. أنا وأنت ملوثان بالغاز».

انتفخت عيناي في هذا الوقت وأُغلقتا. حدّقت في شارباست من خلال حدقتي عيني شبه المغلقتين، وتساءلت كيف يمكنني أن ألوّث شخصاً سبق وتلوّث تماماً.

سمعت صوت طائرة عراقية تطير فوق الوادي قبل أن أتمكن من طرح هذا السؤال. هل اكتشفوا وجودنا في هذا المكان؟ صاح شارباست: «انبطحي أرضاً!».

تفجرت أصوات الانفجارات المدوية حولنا، بينما بقينا نحتضن أرض الجبل الصخرية. تسببت القذائف المتفجرة في تطاير الأحجار والأتربة عالياً في الهواء، التي عادت لتتساقط وتتناثر على أجسادنا.

رفعني شارباست فوق ذراعيه، وقبل أن أفهم ما يفعله، هبطنا مسافة كبيرة معاً في الفراغ. فعلنا ذلك كأننا عاشقان لاهيان يقفزان نحو الأمواج الهادرة. لم تكن تلك الغطسة بالذات وثبةً مبهجة في بركة سباحة. رحنا نتدحرج، بدلاً من ذلك، على سفح ذلك الجبل. تدحرجنا، وتدحرجنا حتى أعاقت صخرة كبيرة هبوطنا هذا.

ذُهلت نتيجة سقطتنا هذه، لكننا بقينا صامتَين، وبقي جسدانا متداخلين بلطف.

يا إلهي! كاد شارباست يتسبب في مقتلنا معاً بقفزته هذه في سفح هذا الجبل. أردت أن أصفعه، لكني لم أتمتع بالقوة التي تمكنني من التحرك.

ابتعدت تلك الطائرة أخيراً.

أحسست بأنفاس شارباست القريبة مني جداً، كما أحسست بأنفاسي أنا.

همس شارباست: «آسف يا حبيبتي، آسف. هل أنتِ بخير؟». بدأ ينزع الأغصان الصغيرة، وحبيبات التراب عن شعري وفمي، وهمس: «جوانا؟».

رحت أتنفس بجهد كبير بسبب السقطة والارتطام بالصخرة، وجهدت كي أتكلم. أردت أن أوبخه على قفزته الخطرة. لم تسفر جهودي إلا عن بضع أصوات غير مفهومة. رحت أتساءل عما إذا كانت دمائي تتسبب في اختناقي.

أبعدتُ ذراعيّ ببطء عن رقبة شارباست، ورحت أحرك يديّ فوق جسدي، وأمررهما من رقبتي حتى ركبتيّ. قصدتُ أن أبحث عن جروح محتملة عندي. أدركت في هذه اللحظة بالذات أن عالمي أصبح داكناً تلفه ظلمة كاملة.

شعرت بثقلٍ في لساني أيضاً. اضطررت إلى بلع ريقي ثلاث مرات، أو أربع مرات، أو أكثر، قبل أن أستطيع التلفظ بكلمات قليلة: «شارباست. ثمة خطبٌ ما في عينيّ».

غطى شارباست وجهي بيديه: «هل تستطيعين أن تري شيئاً؟».

رمشت بعينيّ قبل أن أجيبه: «أرى القليل. أرى أموراً مغبشة فقط».

تأكدت من أن شارباست ارتعب كثيراً لما قلته له، لأننا نعرف أن العمى هو من بين التأثيرات الجانبية الأكثر شيوعاً للغازات السامة. شعرت به يتنفس بعمق، لكنه لم يقل شيئاً بعد ذلك. رفعني فوق ذراعيه، وبدأ يهزني جيئة وذهاباً.

صعُب عليّ منع دموعي من الانهمار. شعرت بخوفٍ لم أعرفه من قبل، في حياتي كلها. تخلّت مخيلتي عني. ماذا لو لم ينته الهجوم بعد؟ لا أستطيع أن أرى. وإذا ما كان الهجوم الشامل وشيكاً، وانتقلت جبهة القتال نحونا، فلا بد من أن قتالاً عنيفاً هنا، لا يزال ينتظرنا، ولربما تطور الأمر إلى هجوم على قرانا، بهدف طردنا منها. فكّرت في أن شارباست سيكون مقيداً بزوجة عمياء. سيتركونني مع شارباست كي نُقتل، وسيقومون برمي جسدينا الميّتين في مقبرة مكشوفة.

أعرف أن مثل هذه الأمور كانت تحدث في جميع أنحاء كردستان، ولعل دورنا قد جاء الآن.

تبنى شارباست وجهة نظر مختلفة: «جوانا، لا تقلقي، سننظف جسدينا من هذه الغازات. توقف القصف، وسنعود إلى القرية الآن».

كان شارباست محقاً، لأن الهجوم توقف، ولم يتحقق المشهد السيئ الذي تصورته. لم يبدأ الهجوم المسلّح الشامل

بعد القصف بالغازات السامة. شعرت بالامتنان لأنني لم أضطر إلى الدفاع عن نفسي، وأنا شبه عمياء.

سمعت وقع أقدام القرويين الذين مروا قربنا عائدين إلى برغالو، لكني لم أستطِع رؤيتهم بسبب الورم الذي أصاب عينيّ، ومنعني من رؤية أي شيء. أبلغنا أحد المقاتلين أن الدخان بدأ في الانقشاع. علمت أن عودتنا الآن أصبحت آمنة، وشعرت بأن هناك إمكانية لوجود بعض الناجين ممن ينتظرون إنقاذهم.

أعلن أحد المقاتلين أمامنا: «يتعيّن علينا أن نحذّر الجميع في كردستان. إنهم يستخدمون موادَّ كيميائية سامة، أقوى هذه الأيام من كل المرات السابقة».

فكّرت في أقاربي، وأقارب شارباست، الذين يعدون بالمئات في أنحاء كردستان. أعتقد أن خطراً شديداً يتهدَّدهم.

غطيت عينيّ المتورمتين، والمتوجعتين، بيديّ. شعرت بشيء من الخجل، بأن بصري المعطّل سيمنعني من تقديم المساعدة إلى القرويين الذين سقطوا جرحى.

بدأ الغثيان القوي والعنيف يُشعرني بضعف عام في جسدي. بدأت في التقيؤ مرة بعد أخرى. كانت الغازات قد بدأت في التغلغل في مجرى دمي وأعضائي الحيوية التي استجابت لهذا الغزو. أدركت فجأة أنه من المحتمل أن أموت.

ماذا لو كنت حاملاً؟ هل تأذى الجنين؟ حتى ولو وُلد

طفلي، أو طفلتي، بحالة سليمة، فهو سيفتح عينيه الصغيرتين على الحرب. هل أستطيع، فعلاً، أن أعرّض طفلاً لهذه الحياة الخطرة التي اخترتها لنفسي؟

قررت وقتها، في ذلك المكان، أنني لا أستطيع أن أقوم بذلك. إن حياتي خطرة جداً، وإذا لم أكن حاملاً، فسأكون أكثر حذراً منذ الآن فصاعداً.

طلبت من شارباست أن يصف لي ما يجري، لأنني ما زلت غير قادرة على الإبصار. أخبرني كيف أن جنود «البشمركة» بدأوا يعودون إلى منازلهم مستخدمين الطريق القديمة. قال لي إنهم يحملون رفاقهم الجرحى على ظهورهم، أو فوق أذرعهم. الكثيرون منهم التزموا الصمت، وبان الشرود في أعينهم، أثناء سيرهم المتخبط في تلك الطريق المليئة بالتجاويف والأخاديد والحفر نتيجة انفجارات القنابل.

بقيت مكوّمة على الأرض الرطبة، فاكتفيت بالإصغاء إلى تمتمات الرجال الذين يمرون قربنا، وإلى شارباست يصف لي حالتهم. أعطاني شارباست قناع الغاز، ثم رفعني عن الأرض. وقفت بصلابة، ووثقت من أن يده القوية ستقودني بأمان أثناء نزولنا من الجبل.

رفعني وحملني بين ذراعيه كأنني طفلة صغيرة. حملني كل الطريق نزولاً من الجبل، وأخذ يهمس بألطف الكلمات في أذني: «يا حبّي، يا مليكتي. أتحمل كل المصاعب في العالم،

لكني لا أتحمل أن تتعرضي للأذى. جوانا، جوانا. أحب هذا العالم لأنك تعيشين فيه».

أغمضتُ عينيّ، وألقيت رأسي على كتفه. شعرت بأنني أسعد امرأة في العالم، بالرغم من عمايَ المحتمل.

(١٩)

مع العمى

برغالو: ١٩٨٧

بقي شارباست يقظاً، ويتحسب لكل شيء، ويخطط لخطوته التالية، بينما كنت مستلقية بين ذراعيه أثناء نزولنا من الجبل. أدركت أن زوجي يواجه أكبر خطر مميت واجهه مقاتلو «البشمركة»، أو تعرضت له محطة الإذاعة. استطعت أن أتخيّل تعابير وجهه، بالرغم من التوّرم في عينيّ الذي منعني من رؤية أي شيء.

جعلني أشعر بالأمان، بالرغم من أنني أصبحت عاجزة الآن، لأول مرة في حياتي. أحتاج الآن إلى الاعتماد على شخصٍ آخر. أكاد لا أحتمل فكرة أنني أصبحت عاجزة، لكن ما يجعلني أشعر بالارتياح أن ذلك الشخص الذي أحتاج إلى دعمه، كان شارباست الذي أكاد أهيم به شغفاً.

اخترق صوت شارباست الأجش، الذي يبعث على الثقة، الصمت المخيّم: «ما زال منزلنا صامداً».

انفلتت صرخة فرحٍ صغيرة من بين شفتيّ. شعرت بسعادة لا

توصَف، كادت تنسيني ما حلَّ بي، كأن منزلنا الصغير هو قصر، وليس مجرد كوخ صغير.

قال شارباست: «لم تتعرض القرية للاجتياح».

«نحمد الله على ذلك يا شارباست».

أعلم أن هذه المنازل المتواضعة عزيزة جداً على قلوب ساكنيها.

لم يبارحني القلق. كان اللواء الخامس من الجيش العراقي بدأ في استخدام تكتيكات جديدة. أعتقد أنه لم يستخدم الشدة الكافية بالسلاح الكيميائي، لأنه خطّط لاجتياح شامل في نهاية الأمر. إننا محميون الآن بالجبال العالية، وبظلمة الليل. أيُحتمل أن يكون الجيش قد بدأ في التجمع، قبيل ساعة الحسم. هل سنتعرض للاجتياح عند انبلاج خيوط الفجر الأولى؟

ساد التشوّش والتوتر القرية. كانت الهجمات الكيميائية قد أصابت الجميع بالاضطراب، فكان طبيعياً أن يعم الخوف قلوب الجميع.

قال شارباست: «يتعيّن عليّ أن أُخرجك من هنا، ليراك الطبيب، ويفحص عينيكِ».

لم أستطِع أن أرى. اجتاحني شعور بالمرض حتى أعماقي. وأحسست بالضعف والعجز. صعقتني فكرة أنني لربما سأمضي آخر ليلة لي في كوخنا الصغير، وهو المكان الذي عرفت فيه السعادة، ومررت فيه في أخطر لحظات حياتي.

«هل دُمّر شيء في المنزل؟».

أجاب شارباست على الفور: «بقي كل شيء كما كان».

شعرت بموجة من الارتياح تجتاحني. وقمت بجردة حساب في ذهني. كنت قد تمكّنت من جعل مسكننا المتواضع بيتاً حقيقياً. أحسست بأني كمن يراجع ماضيه عشية موته. أرعبني هذا الإحساس. هل تكون ليلتي الأخيرة.

سبق لي أن وضعت مفرشَينا في أبعد زاوية عن الباب، وهي الزاوية التي تتجمع فيها معظم ممتلكاتنا. جمعت في تلك الزاوية كنزي الثمين: الكتب ذات الغلافات الورقية البالية، بالإضافة إلى الصور العائلية المرتبة في المكتبة المائلة. احتفظ جهاز التلفزيون بمكانه في زاوية غرفة الجلوس. سبق لي أن طلبت صنع طاولتين صغيرتين من أشجار الغابة القريبة، وحرصتُ على طي لحافي ووسادتي، بلونيهما الزهري، فوق إحدى هاتين الطاولتين.

بقي شارباست واقفاً. لاحظت أن أنفاسه ظلت مُجهَدة ومتقطعة.

خيّم علينا صمت ثقيل يشبه بثقله الخوف والموت اللذين زرعتهما تلك الغازات. بدا الأمر كأن واحدنا لا يعرف ماذا يقول للآخر. عجبت لهذا السكون العجيب الذي تنامى بيننا، ولتلك المشاعر التي لا يستطيع أحدنا اختراقها، ولا البوح بها. كأن هذه الذرّات غير المرئية تتراكم في ما بيننا، ثم تكثّفت أخيراً لتصبح جداراً غير مرئي لا يستطيع أحدنا اختراقه.

تملكتني فكرة مرعبة: ماذا لو تسببت لي هذه الغازات الكيميائية في فقدان دائم للبصر؟ هل سيغيّر عمايَ كل شيء؟ وهل سأصبح رمزاً للخسارة بالنسبة إلى شارباست، بدلاً من أن أكون مصدراً للإعجاب، والرفقة، والقوة؟

أقدم شارباست على كتابة عدة رسائل وقصائد حب، وأرسلها إلي عندما أدرك أخيراً الأشياء التي عرفتها دائماً، وهي أننا مناسبان لبعضنا بعضاً. خطرت إحدى هذه القصائد على ذهني في تلك اللحظة بالذات، ورحت أتلو أبيات الشعر هذه التي اعتززتُ بها كثيراً. لماذا خطر لي أن هذه الأبيات تحمل في معانيها سخرية بسبب فقداني لبصري: «بالنسبة إلي أنت العالم بكامله، وما أحزاني إلا زورق محكوم عليه بالغرق إذا لم يلتجئ إلى شاطئ عينيك».

شعرت بشارباست يجلس إلى جانبي. قال: «حبيبتي». ثم وضع يداً مطمئنةً على كتفي: «جوانا، لا تزالين عالمي الواسع بأكمله».

لمس شارباست شفتيّ بشفتيه بلطف، بالرغم من تلوثنا نحن الاثنين. بدا مصراً على تقبيلي ليُطمئنني إلى أنني ما زلت عالمه، وما زالت عيناي، برغم «عماهما»، شاطئه، ومرسى أحلامه. وضع شارباست يديه فوق وجهي، وسألني: «هل تستطيعين رؤية أي شيء؟ هل تستطيعين تمييز الضوء من الظلمة، أو تحديد الأشكال على الأقل؟».

بقيت عيناي على ورمهما، كما لو أن طبقة مخاطية قد

غطتهما. لم أستطِع رؤية أي شيء عدا ظلالاً غير واضحة. تجنبتُ إبلاغ شارباست أسوأ مخاوفي. لمست وجهه ببطء. رحت أمسّد وجهه الرجولي، وأتحسس شعر ذقنه، كما لو أنها لحظاتي الأخيرة معه. وفيت بوعدي الذي قطعته له بحلاقة ذقنة منذ زمن. كانت تلك لحظة رائعة وحميمة لن أنساها طوال عمري. مسّدت جبهته العريضة قبل أن تنزلق يدي صعوداً نحو شعره الداكن، وغرزت أناملي بقوة بين خصلاته التي سحرتني، وها هي مبللة الآن بسبب العرق. ثم مررت أصابعي فوق شفتيه الممتلئتين كما لو أنني أشتهيهما للمرة الأولى والأخيرة.

تنحنح شارباست، ثم سعل بخشونة بسبب الغاز، الأمر الذي دفعني إلى الارتجاف.

سألته بقلق: «هل أنت بخير؟».

«أنا بخير. أنا بخير، وأنتِ بخير أيضاً. اسمعي، اسمعي يا حبيبتي. اسمعيني جيداً. سيعود إليك بصرك. ما تمرّين به الآن هو حالة موقتة. نعرف أن الغازات الكيميائية تسبب مشاكل في البصر على المدى القصير عند ضحايا التسمم بالغازات».

لم أوافقه على كلامه. صرخت به: «هل يستطيع جسد ميت أن ينهض ويعيش من جديد، يا شارباست؟». تابعت بنبرة أكثر حدة: «لا. لا. أفقدتني الكيميائيات بصري. أشعر بأن هذا شيء مؤكد».

أمسك شارباست بيديّ وضغط عليهما: «تعالي معي».

مشيت وراءه إلى الخارج، حيث سمعته يمسك بخرطوم مياه ملتف.

أعيش وشارباست في منطقة جبلية حيث تكثر ينابيع المياه الباردة، ما وفَّر لنا إمدادات ثابتة من المياه العذبة، وهي مياه أكثر نقاوة من المياه المتواجدة في معظم المدن العراقية الرئيسية. لكن نقل تلك المياه إلى منزلنا كان أمراً صعباً، وبدائياً. تمتلك القرية عدداً كبيراً من خراطيم المياه التي يبقيها مقاتلو «البشمركة» موصولة ببعضها حتى أقرب نبع جبلي. اعتاد الأهالي ملء خزانات مياههم، المنتشرة فوق كل السطوح، يدوياً، مرة في الأسبوع، وذلك بعد تمرير سلسلة الخراطيم من منزل إلى منزل. وجدنا، لحسن حظنا، أن أحد الخراطيم ما زال في منزلنا.

قال شارباست: «هذا أفضل من لاشيء».

وقفنا تحت الماء من دون نزع ملابسنا، وانهمرت علينا المياه من رؤوسنا حتى قدمينا. أخذنا نهزّ أنفسنا، بعنف، مثلما تفعل كلاب مبللة، لنتخلّص من الماء الزائد عن وجهينا وشعرينا. قادني شارباست بعدما انتهينا عائداً بي إلى المنزل.

سألني: «أين هي الإسعافات الأولية؟».

«إنها محفوظة في البراد».

تحتفظ كل عائلة من «البشمركة» بكمية من التجهيزات الطبية الأساسية. أما العيادة الطبية الموجودة في القرية فكانت فقيرة

بمخزونها من الأدوية، بحيث لم يعد من ضرورة للذهاب إليها. بدأت القيادة منذ وقت قريب في إرسال الجرحى، الذين يسقطون أثناء الهجمات، إلى إيران لتلقي العلاج هناك.

وقفت بهدوء إلى أن وجد شارباست مجموعة الأدوية. قال لي: «وجدت قطرات العيون». رفع جفني برفق، ثم عَصَر قطرات قليلة في إحدى عيني. كرّر العملية نفسها في العين الأخرى. حاول أن يمسح كل الإفرازات التي غطّت عينيّ الاثنتين، لكنهما بقيتا مغلقتين بإحكام.

«جوانا، قرأت الكثير عن العمى الناتج عن الغازات الكيميائية. أعرف أن المصابين يستعيدون أبصارهم في العادة. يستعيد بعضهم بصره بسرعة تصل إلى يوم واحد، وقد يستغرق الأمر عند آخرين أسابيع قليلة. أعرف حالات كثيرة عاد فيها بصر الناجين إلى طبيعته».

لم أُجبه بشيء.

تحوّل شارباست بأفكاره إلى المشاكل الملحة الفورية التي تنتظرنا: «أنا متأكد من أننا سنتلقى أوامر كي نُخلي النساء والأطفال». صمت قليلاً قبل أن يتابع: «ومتأكد أيضاً من أنهم سيهاجموننا أخيراً».

شعرت بأن شراً مستطيراً ينتظرنا، وكان رأيي مطابقاً لرأي شارباست. رفعت رأسي، وأصغيت، لعلّي أسمع أصوات جنود أعدائنا، لكني لم أسمع شيئاً. تنهدت بصوت عالٍ.

جاءني صوت شارباست رقيقاً أكثر من المعتاد: «هل أنتِ جائعة يا حبيبتي؟».

«لا. لا». قلتها بصدق، لم أكن أفكّر في تناول الطعام منذ بداية الهجوم. شعرت بالغثيان.

بدأ شارباست في تمسيد كتفيّ: «ستجوعين بعد قليل، لكن انتبهي، فكل طعام غير معلّب هو ملوّث».

«وماذا عن تلك المعجنات التي أحضرها شقيقك إلينا؟ إنها محفوظة في البراد، كما أن خبزنا موجود هناك أيضاً».

«نعم. أنتِ محقة، البراد محكم الإغلاق. أعتقد أن ذلك الطعام سليم».

«لن نتضوّر جوعاً».

«يتعيّن علي الذهاب إلى القرية الآن. أريد أن أعرف ماذا يجري».

لمس شارباست وجهي بلطف، وذكّرني ثانية: «سأخرجك بعد ذلك من هذا المكان».

شجّعته بصوت ينمّ عن هدوء لم أشعر به في الواقع، وقلت له: «اذهب أنت، وساعِد الآخرين. سأحضّر الأشياء التي تلزمنا للمغادرة».

علّق شارباست: «لا أحب أن أتركك وحيدة هنا».

«عليكَ أن تذهب. اذهب الآن».

«كوني حذرة، واصغي جيداً. إذا سمعتِ أي شيء غير عادي، ضعي هذا القناع، وتوجهي إلى الملجأ».

«سأفعل».

وعدته بذلك، وأنا أتلمس ذلك القناع، برغم أنني أعرف أن توجهي إلى ذلك الملجأ يصبح أمراً عقيماً، إذا كان أعداؤنا قريبين جداً منا بحيث أستطيع سماعهم.

حذّرني قائلاً: «إياك أن تسقطي على الأرض».

اصطنعت ضحكةً وأنا أجيبه: «أحضرتني إلى هذا المنزل الصغير على أساس أنه قصر، لكن ثلاث خطوات في أي اتجاه تجعلني أصطدم بأحد الجدران».

مرّت فترة صمت من دون أن أسمع ردّه. لم أستطِع رؤيته، وبرغم ذلك استطعت أن أحسّ بأنفاسه تتسلل فوق كل مسام جسدي.

قال شارباست موافقاً: «سأظل أحبك. لن أغيب طويلاً».

ناشدته بالقول: «شارباست. اذهب لتطمئنني عن «آشتي» و«هيما»».

«نعم. نعم. سأفعل».

ذهب شارباست على الفور، فاستطعت أن أطلق العنان لمشاعري. لم أشأ أن يعرف زوجي مدى اليأس الذي أشعر به، فحرصت على أن أبدو متفائلة، لكني كنت حزينةً جداً، وقانطة جداً، للمسار الذي أخذته حياتنا.

صمّمت على البقاء، بالرغم من أنني عانيت الكثير في لحظات اليأس المدمر منذ إصابتي. تكلّل تصميمي هذا بالحزن عندما أدركت أن جزءاً هاماً من حياتي على وشك أن ينتهي. أعرف أنني غالباً لن أرى برغالو ثانية إذا ما غادرتها.

تسلّحت بإيمانٍ قوي كي أستطيع مواجهة التحديات التي تنتظرني: «حسناً يا جوانا، لن تستطيعي أن تقفي هكذا مثل سحلية تستمتع بضوء الشمس. يتعيّن عليك أن تتحركي الآن». لطالما ألهمني والدي المسكين، الذي اعتدت استحضار صورته من أجل تقوية عزيمتي. عجز والدي عن الكلام وعن السمع، فعاش الحزن والوحدة في حياته بصمت، ومن دون أن يُشعر أحداً بما يختلج داخله. مضى أبي في حياته بكل جرأة ليؤمّن وسائل العيش لزوجةٍ، وخمسة أطفال. شعرت بأن والدي يتطلع إليّ في هذه اللحظة، وأحسست بأنني لا أستطيع أن أخيّب أمله.

وضعت القناع جانباً، واستخدمت يديّ كي أرفع نفسي عن أرض المنزل الصلبة. عرفت أنه ينبغي عليّ ألا أتعثّر، وألا أخرج من الباب خشية ألا أقع وأتدحرج نزولاً في ذلك الطريق الجبلي. أعاني الكثير من المشاكل، فلست أحتاج إلى أن أكسر إحدى عظامي.

مددت ذراعيّ ويديّ إلى الأمام، كما يفعل من فقد بصره، لأستدل بهما إلى طريقي. وبدأت أمشي خطوةً خطوة. خطرت في ذهني فجأة ذكريات فيلم رعبٍ سبق لي أن رأيته منذ زمنٍ

طويل في بغداد، عندما كنت فتاةً صغيرة. تظهر في الفيلم مجموعة من «الزومبي» (أناس موتى يعودون إلى الحياة). تهرب هذه المجموعة من مقبرة من أجل ترويع المدينة بكاملها. مشت جماعة «الزومبي» هذه بأذرعٍ، وأيدٍ، وأرجلٍ، وأقدام ممدودة بصلابة، أي في مثل حالتي تماماً. أطلقتُ ضحكة خافتة في طريقي.

وجدت بسهولة مجموعة من ثيابي كنت قد وضعتها في وعاء بلاستيكي. فكّرت في أنه من حسن حظي أن لا تكون هذه الثياب ملوثة بشكل كبير.

شعرت بجوع كبيرٍ ما إن عثرت على قطعة حلوى في جيب أحد السراويل. سبق لي أن احتفظت بهذه القطعة كي أستمتع بها لاحقاً مع شارباست. أعرف أنه سيكون سعيداً عندما يعرف أنني أكلتها. تلمست قطعة الحلوى. كنت متشككة في مدى خلوها من التلوث بالغازات الكيميائية، كونها ملفوفة بإحكام بغلافها الورقي. فتحتها، وقضمت قطعة منها. ضحكت لمجرد تذوقي طعم السكر في لساني. شعرت بتحسّن كبير في معنوياتي.

رفعت ذراعي فتنسمت نفحةً من رائحة جسمي القوية. يا إلهي، لم أفقد قدرتي على الشم! فركت يديّ بثيابي، واكتشفت أن الغبار يغطي سروالي وقميصي. مرّرت يدي في ثنايا شعري، لأجد بقايا أغصان متكسرة، وآثاراً من الغبار والتربة.

ماذا ستقول والدتي، لو رأتني؟ رفعت والدتي النظافة إلى مستوى عالٍ، يوازي القداسة. وحافظ منزلنا في بغداد على قَدْر

من النظافة يقارب الهوس. أصرّت والدتي على أن نأخذ حمام كل يوم. أما في أيام الصيف الحارة فكنا نستحم مرتين يومياً. لم يسبق لي أن شممت رائحة عرق لأحد من أفراد عائلتنا. كان من شأن ذلك أن يتسبب في فضيحة.

لم أستطِع تطبيق معايير والدتي الصارمة في برغالو. على المرء أن يتعلّم التواضع في كل شيء، كونه أمراً ضرورياً من أجل أن يصبح في عداد «البشمركة». اتفقت مع شارباست، لهذا السبب، على أن نتبادل أدوارنا في الاستحمام اليومي.

صادف يوم الهجوم هذا دور شارباست في الاستحمام. لم أغتسل حتى بالماء. اضطررت إلى أن أتجاهل رائحة جسمي، لكنني رغبت برغم ذلك، في أن أجمع أغراضنا.

خشيت أن أسقط على الأرض، لذلك انحنيت وبدأت أزحف على يديّ وركبتيّ، وانطلقت أبحث في الغرفة بطريقة منظمة. تحسست يداي مسدّس شارباست، أثناء بحثي عن بعض متاعنا الموجود تحت الطاولة القليلة الارتفاع. علمت أنه اصطحب رشاشه «الكلاشينكوف» معه. لم يغب الرشاش عن أنظارنا في السابق. وجدت تحت الطاولة أيضاً رزمة رصاصات. أخذت المسدس المحشو، لكني تركت الرصاصات في مكانها. تسببت الحواف الحادة في أرضية المنزل الخشنة بخدوش كثيرة في يديّ وقدميّ. فكّرت جدياً في أنني لن أشتاق إلى هذه الأرضية أبداً، ولن آسف على هجرها.

جوانا وشارباست مع مقاتلين آخرين من البشمركة، في قرية كور كور الكردية

- شارباست (السادس من اليسار) في قرية كامشوغا الكردية مع مقاتلين من «البشمركة». يشاهد شارباست جالساً بين شقيقته شاونيم، وشقيقه الأصغر شامان، الذي قُتل بعد وقتٍ قصيرٍ من أخذ هذه الصورة

«آشتي»، صديقة جوانا في الجبال الكردية

«آشتي»، صديقة جوانا، مع ثلاثة من مقاتلي البشمركة أمام كوخ نموذجي شيده مقاتلو الاتحاد الوطني الكردستاني في قرية يسكنها المقاتلون

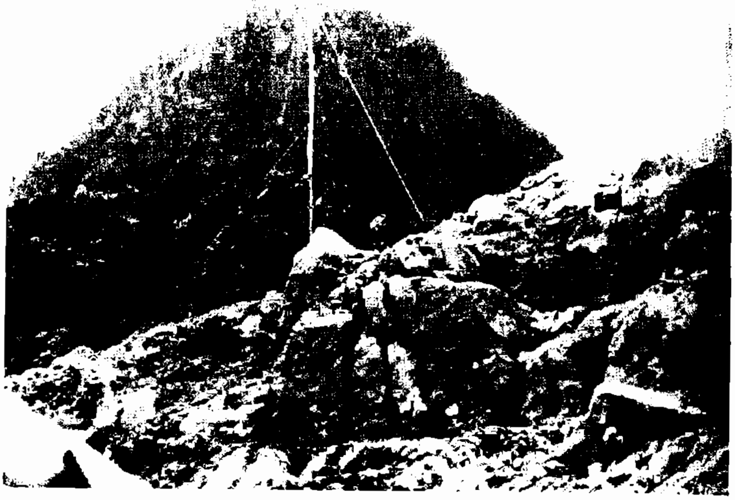

برج الإرسال لإذاعة الاتحاد الوطني الكردستاني في برغالو

الأنقاض التي خلفها جيش صدام في قرية كردية بعد تدميرها

سمعت بعد قليل صوت خطوات شارباست المسرعة. ابتسمت. كان شارباست قد حوّل طريقة مشيته العسكرية إلى طريقة معتادة بالنسبة إليه.

سألني: «هل سمعتِ أي شيء في غيابي؟».

قلتُ مخمنةً: «لا. لم أسمع شيئاً على الإطلاق. لعلهم اعتقدوا أنهم قتلونا جميعاً في تلك الغازات الكيمائية. إنهم يحتفلون الآن، وينتظرون قدوم الصباح حتى يأتوا ويتخلصوا من الجثث».

«لا أدري. لعل لديهم خططاً ليضربونا بالكيمائيات لعدة أسابيع، كي يتأكدوا، ربما، من عدم بقاء أي أطعمة، أو مياهٍ غير ملوثة لدينا، وهكذا يرغموننا على الرحيل. سيحضرون بعد ذلك إلى هنا».

سعل شارباست سعالاً شديداً، ومخنوقاً، بشكل مرعب. تمنيت ألا تكون رئتاه قد تأذتا. قال لي بصوت مختنق: «أحضرت معي بعض الأطعمة».

فتحت قطعة الحلوى شهيتي، واختفى شعوري بالغثيان.

تكلم شارباست بأنفاس متقطعة: «وجدنا عدة صناديق من الأطعمة المعلبة غير الملوثة. تقاسمناها في ما بيننا. أحضرت معي بعض معلبات من البازلاء، ولحم الدجاج».

سمعت صوت فتح علبة اللحم المعدنية. تأكدت من ذلك شممت رائحة الدجاج، تملأ أنفي.

«ماذا عن «آشتي»؟ هل هي بخير؟ وماذا عن طفلها؟».

«إنهم جميعاً بخير. لمحتهما لفترةٍ قصيرة. يرغب «ربوار» في أن يغادروا أيضاً».

«إذاً، «ربوار» بخير؟».

«رأيته مع «آشتي» و«هيما». نجوا جميعهم».

«هل تأذى «هيما» الصغير من الغازات الكيميائية؟».

«جوانا، لا أعرف على وجه التحديد. رأيتهم لفترة قصيرة فقط. لم أمتلك الوقت لأطرح الأسئلة. بدوا جميعاً بخير. كان الطفل ملفوفاً بحِرام وهو يتطلع حوله. أريدك الآن أن تأكلي هذه بسرعة، لأن عالمنا بأكمله ملوثٌ الآن. افتحي فمك».

شعرت بالتعاسة على الفور. تناوُلي الطعام بالملعقة يؤشر إلى التعاسة العميقة لحالتي. إن بصري فقط هو الذي تأثر، ولذلك لست عاجزة. أستطيع أن أُطعم نفسي.

أمرني شارباست بما يشبه الصراخ: «هيا، كُلي يا جوانا. افتحي فمك، بسرعة، الآن!».

مددت يدي اليمنى: «أستطيع تناول الطعام بنفسي يا شارباست. أعطِني العلبة».

أخبرني شارباست أثناء تناولي للطعام: «يريد صدّام السيطرة على وادي جافاتي، لذلك أصبح الوضع خطراً جداً. إنها مسألة وقت قبل أن يجتاح جيشه هذه المنطقة. تلقينا أوامر بإيجاد

موقع جديد لمحطة الإذاعة. سنذهب إلى قرية «مرجة» أولاً، قبل أن نتوجه إلى المكان الجديد. سنعيّن الموقع الجديد في الغد. أعتقد أن الموقع الجديد للمحطة سيكون أقرب إلى الحدود. وإذا كان الأمر كذلك، فستتمكنين من الحصول على العناية الطبية في إيران».

فوجئت بأمر اضطرارنا إلى الهرب، لكنني أعرف أن محطة الإذاعة يجب ألا تقع بأيدي الأعداء، لأننا لن نستطيع استبدال الأجهزة في هذه الحالة. أعتقد أن لا شيء عند الاتحاد الوطني الكردستاني يتمتع بأهمية أكبر من أهمية مركز الاتصالات.

«هل ما زالت «مرجة» آمنة؟».

«نعم. أعتقد أننا كنا الهدف الأول فقط. سيركز عدونا على مناطق أخرى ما إن نغادر الوادي».

سنعود إلى «مرجة» إذاً. سنعود إلى القرية التي التقيت فيها شارباست قبل أن نبدأ شهر عسلنا في شروان. أتمنى أن ألتقي هناك بزكية وعائلتها، لأن لا شيء يمكنه أن يشعرني بسعادة أكبر.

سألته بعد قليل: «هل أكلتَ شيئاً؟».

أجاب بسرعة: «سأتناول شيئاً في ما بعد».

«ومتى سنغادر برغالو؟».

«آمل أن نغادر غداً».

«ألدينا مياه غير ملوثة نستطيع شربها؟».

«لا. لا أعتقد أنه يجدر بنا شرب المياه. سنجد غداً ينبوعاً صافياً في أعالي الجبل، وبعيداً عن التلوث بالغازات. أريدك أن تنتظري حتى الغد».

أومأت وأنا أبلع لقمتي، وبحتُ بالسؤال الذي كان يُقلقني: «شارباست، هل سقط ضحايا؟».

تردد شارباست قليلاً، ثم اعترف لي: «يوجد أربعة، أو خمسة من مقاتلينا لا نتوقع أنهم سينجون، وهناك آخرون لسنا متأكدين من حالتهم. فوجئ بعض الأشخاص بالهجوم عندما كانوا في العراء، لذلك لم يتمكنوا من وضع أقنعتهم المضادة للغازات السامة في الوقت المناسب. سنعرف المزيد في الأيام القليلة المقبلة».

صلّيت بحرارة كي يتمكن الجميع من النجاة. بدأ الموت يحصد الكثير من مقاتلينا.

أدركت أن شارباست على حق بشأن أهداف بغداد. من الواضح أنها أصبحت تشمل الآن قرى في وادي جافاتي. استطاعت هذه القرى الصمود بوجه القصف اليومي الذي تعرضت له في السنة الماضية. وبالرغم من ذلك سوف يعجز أقوى المقاتلين وأشجعهم عن الصمود، إذا أصبحت الهجمات الكيميائية جزءاً من الروتين اليومي. يستطيع المرء الصمود بوجه الهجمات الكيميائية بحد ذاتها بواسطة الأقنعة المضادة للغاز. لكن، كيف يستطيع الصمود إذا تلوّث الماء والطعام، وكل شيء

ضروري للحياة. إن الحياة بعد الحرب الكيميائية هي المشكلة الحقيقية.

شربت العصير المتبقي في أسفل العلبة. بلغتُ درجةً من العطش بحيث شربته حتى لم تتبقَ أي قطرة منه.

«أتريدين البازلاء الآن؟».

سمعنا في هذه اللحظة بالذات صوت ارتطام قوي.

همس شارباست قبل أن يندفع خارج الغرفة: «اختبئي خلف الباب، الآن!».

قررت ألا أختبئ. ماذا سينفعني الاختباء؟ تلمست المسدس بأصابعي، سأعرف كيف أدافع عن نفسي إذا أمسكني أحدهم.

مرّت لحظات شعرت فيها بالتوتر قبل يعود شارباست: «لم أجد شيئاً».

أدركت من بين الأشياء القليلة التي رأيتها قبل الهجوم مباشرة، أن كل الحيوانات في برغالو ستكون إما ميتة، أو على وشك الموت.

«أيُحتمل أن يكون ما سمعناه مجرد صوت حيوان ما؟».

أعتقد أنني استشعرت شيئاً من القلق في صوت شارباست: «ربما».

قال: «أحضري قناع الغاز الخاص بكِ. سآخذك إلى الملجأ. استريحي هناك ريثما أعود إلى القرية. سأعود سريعاً».

«لا. لا. سأكون بأمان هنا. سأبقى هنا، في المنزل».

إن آخر مكان أفكر في اللجوء إليه كان ذلك الملجأ الطيني الذي سيكون أسوأ من القبر بالنسبة إلي، كما أنني سأكون وحدي هناك. لا. لن أذهب. لن أتمكن، بسبب الإصابة في عينيّ، من حماية نفسي من الديدان، أو أي من الكائنات الزاحفة التي قد تتغلغل في ملابسي، أو تنسل داخل شعري. لن أستطيع نسيان تلك الأفاعي، التي لربما ستستيقظ غاضبة بعد أن أوشك الغاز السام على القضاء عليها.

عكست نبرة شارباست نفاد صبره: «جوانا».

أحطت جسمي بذراعيّ: «لا. أفضّل أن أموت هنا على أن أعيش هناك».

«أريدك أن تكوني آمنة».

تكلمت بتصميم شديد: «لن أذهب إلى ذلك الملجأ وأنا عمياء، يا شارباست».

بدأ شارباست يفقد صبره: «أرجوكِ يا جوانا. سأغيب لفترة قصيرة فقط. أستطيع أن آخذك معي، لكني أريدك أن ترتاحي. اذهبي إلى الملجأ في غيابي. دعيني أطمئن عليك. سألحق بكِ عندما أعود».

ركّزت على حجتي الأساسية: «لربما كانت الأفاعي تملأ الملجأ».

«جوانا، سيقتلك الجنود إذا عثروا عليك».

«أنا أتكلم على الأفاعي يا شارباست! الأفاعي! هل نسيت؟ إن عينيّ مغلقتان. لا أستطيع أن أرى الأفعى حتى إذا كانت ملتفة قربي. لا!».

«جنود علي المجيد أخطر من أي أفعى».

«لا!».

تحرك شارباست بسرعة. التفّت ذراعاه حول خصري وظهري. شدّني باتجاهه قبل أن يرفعني. خرقت صرخاتي الحادة الصمت المخيّم. جفل شارباست في مكانه، وتركني بسرعة.

«حسناً، لا بد من أن أعداءنا قد عرفوا مكانك، هذا إذا كانوا قريبين منا».

تمسكت يداي بصدره كي لا أفقد توازني، ثم تراجعت وصرخت: «لا! شارباست. قلت لا! لن أذهب إلى ذلك الملجأ وأنا عمياء. لن أفعل ذلك».

شددت قبضتيّ استعداداً لعراك جسدي.

وُلدت عنيدة ومصممة، لكن شارباست كان أعندَ مني. كنا كتوأمين عنيدين، لا ينكسر لأحدهما قرار.

لكن شارباست تراجع، لحسن حظي.

قال لي بصوت مجبولٍ بالإعجاب وسط ضحكاته: «إنك تدهشينني يا حبيبتي. إذا ظهر أعداؤنا فلا ترددي في الصراخ. سيصل صوتك إلى الزوايا البعيدة من القرية، وهكذا سيحصل الجميع على فرصة للهرب».

تحدثت بهدوء وجدية: «نعم. سأفعل ذلك. سأصرخ كي أحذّرهم».

انطلق شارباست بالضحك ثانية.

غيّرت الموضوع. رحت أحدثه عن خطتي الأمنية: «سأنام بعد مغادرتك قرب الباب. وسأحتفظ بالمسدس في يدي. نادني عند وصولك، وسأتراجع كي تدخل».

قرص ذراعي بلطف، ثم انطلق مسرعاً إلى ساحة القرية.

شعرت بالرضا للنتيجة التي أسفر عنها خلافنا الأول، وقرفصت قرب الباب تماماً، ووضعت المسدس، بحرصٍ شديد، قرب قدميّ. انسدل شعري الطويل على وجهي، ورحت أرفعه إلى الوراء بحركة آلية، ثم رحت أتحسّس لحافي الزهري اللون. هززت اللحاف هزةً قوية جداً في محاولة مني لإزالة أي سموم قد تكون علقت به، ثم هززت الوسادات. بدأت أتساءل فجأة عما إذا كان ما فعلته صائباً، وبعد أن شعرت بالتعب الشديد. هل تسببت لتوي في نشر المواد الكيميائية في الهواء؟ وهل السموم غير المرئية تتطاير من حولي، وتتسلّل إلى أنفي، وتستقر في الأجزاء المكشوفة من جسدي؟ وقفت بعد أن سيطر عليّ شعور بالعصبية، ورحت أفكّر: هل تستطيع هذه السموم أن تأخذ طريقها إلى الجنين؟ رحت أربّت على بطني. خيّمت عليّ أفكار مليئة بالحب. إذا كنت حاملاً فإن حياة طفلي تصبح أهم من حياتي أنا.

بدأت أحسّ بأشياء جديدة: انطلقت بثور صغيرة بالتشكل في

أطراف أصابعي. لاحظت بعد ذلك ثآليل صغيرة بدأت بالبروز في الأماكن التي كانت مكشوفة أثناء الهجوم بالغازات الكيميائية: وجهي، رقبتي، يديَّ، وكاحلي. سبق لي أن سمعت أن انتشار هذه الثآليل هو من ضمن التأثيرات الجانبية للكيميائيات. أضافت هذه البثور والثآليل مصادر قلق جديدة عندي.

قرّرت أنه ليس أمامي ما أفعله في مواجهة الألم الشديد الذي أشعر به في عينيّ، وجلدي الذي يوخزني، إلا أن أرتاح. بدأت أحضّر نفسي للنوم.

بدا كل شيء أكثر صعوبة وسط الظلمة الكئيبة. تمكنت من ترتيب لحافي على الأرض الإسمنتية. ارتميت على اللحاف، بعد أن انتهيت من تسوية أطرافه المجعدة بأصابعي. وضعت رأسي على الوسادة بعد أن رميت نصف اللحاف فوقي. أعرف على وجه التأكيد أن اللحاف ملوّث، لكن، أليس كل شيء في برغالو ملوّثاً؟ هكذا تصبح مسألة تلوث اللحاف أمراً لا أهمية له. بدأت أتلمس أرضية الغرفة بيدي حتى وجدت المسدس. وضعته في مكان أستطيع الوصول إليه بسهولة.

شعرت بأنه لم يمضِ على استلقائي على الأرض سوى دقائق قليلة عندما استيقظت بفعل ثقلٍ كبير على جسمي.

تسلل إليّ صوت شارباست، كأنه قادم من خلال ضباب شديد: «جوانا، تحركي».

استغرقني الأمر دقائق قليلة قبل أن يزول الارتباك عني.

تشابكت قدم شارباست مع اللحاف، ودفعني من دون قصدٍ منه نحو الأرض العارية. سمعت خطواته الثقيلة أثناء تحركه بسرعة من زاوية إلى أخرى في الغرفة.

«شارباست، ماذا تفعل؟ أليس من المفترض أن ترتاح؟».

لم يجبني. فتحت بجهد عينيّ الدبقتين.

رفع شارباست اللحاف بعيداً عني.

«نستطيع السير بأمان في الاتجاهين الشرقي والشمالي. هذا هو اتجاه الطريق الذي سنسلكه».

بقيت غارقة في عالمي الخاص. مسّدت جفنيّ مرات عدة، ورفعت أحدهما بيدي المرتعشة أمام عينيّ. حدّقت بكل ارتياح. شعرت بأن بصري بدأ يتحسن. أستطيع أن أرى حبيبي شارباست هناك! استطعت التعرّف إلى وجهه المألوف لدي، وملامح جسده الممشوق.

وقفت من دون أن أكون واثقة. تحسست الأرض غير المستوية بقدميّ كي أجد بقعة آمنة.

«شارباست، تطلّعْ نحوي».

«جوانا، من فضلك».

«شارباست، أريدك أن تتطلع نحوي. الآن».

تصاعدت أنفاسه عبر أنفه وفمه، استمتعت بفكرة أنه تحوّل إلى تنّين غاضب.

وقف حاملاً زوجاً من الأحذية، واستدار ليحدّق فيَّ بقلق. استطعت أن أرى ملامحه.

«شارباست، أستطيع أن أُبصر». توقفت لأبتسم قليلاً: «أستطيع أن أرى. . . قليلاً».

لاحظت أن ملامح القلق التي ارتسمت على وجهه تحولت إلى ملامح سرور بالغ.

«تستطيعين الإبصار؟ حقاً؟».

«قليلاً».

وجدته قريباً مني على نحو مفاجئ، وراح يحدّق في عينيّ بشغف كبير. حدّق في وقال: «جوانا، إن اللون الزهري الفاتح يملأ مكان البياض في عينيك».

ابتسمت: «اللون الزهري؟ أتقول إن عينيّ ملونتان بلوني المفضّل؟».

شعرت بالحبور لمجرد أنه بقي لي عينان، وأنا التي قلقت كثيراً من أن تصاب مقلتا عينيّ بالجفاف، أي مثلما هي حال خالتي منيرة.

أضاف شارباست: «هناك طبقة لامعة بلون الحليب تغطي عينيك. هل أنت متأكدة من أنك تستطيعين الإبصار؟».

قلت بصوت أعلى مما قصدته: «نعم!».

أعلن بثقة: «سيعود إليك بصرك كله مع الوقت. سيعود».

«حقاً؟».

«نعم. سيتحسن بصرك يوماً بعد يوم».

وعدته، ووعدت نفسي: «لن أتذمر إذا بقيت أبصر إلى هذا الحد».

جذبني شارباست نحوه بشدة.

شعرت بسعادة غامرة عندما انهمرت الدموع على خديّ. مسحت دموعي بقميص شارباست. تجاهل قميصه المبللة، وأبقاني على مسافة قريبة منه، ثم انطلق ضاحكاً.

ابتعدت عنه، وحدقت في وجهه الذي ارتسمت عليه ابتسامات تنمّ عن الإعجاب. همست في أذنه: «يا حصاني البري».

شعرت بدافع قوي كي أنطلق راكضة وأعبّر عن سعادتي بالصراخ، بالرغم من الخطر المحتمل الذي يخيّم حولنا. انطلقت إلى الخارج، لأن الكوخ كان أصغر من أن يستوعب فرحي.

شعرت بأنني جميلة وقوية، وأحسست بالامتنان لأن عينيّ العاجزتين استطاعتا رؤية حدود تضاريس هذه الجبال الوعرة. أردت أن أركض نحو قمة الجبل. شعرت بأن سعادتي جعلتني أتصرف بسخافة، فعدوت بشكل دائري ضيّق فوق الباحة المستوية الصغيرة الموجودة أمام مدخل المنزل. رحت أضحك معتبرةً نفسي فرساً برية جامحة تناسب تماماً حصاني البري.

رأيت بطرف عيني أن شارباست لحقني.

أمسك بيدي: «تعالي، تعالي إلى المنزل».

أسرعت نحوه، ثم راح يلامس عنقي بشاربيه المثيرين. شعرت بأن ركبتيّ ضعيفتان، وأنني أرغب في شيء واحد. أريد أن أشعر بأنني قريبة منه كأقرب ما يشعر به رجل وامرأة مغرمان، حتى حدود التوحد.

رغبت في أن أخبره بأنني قد أكون حاملاً، لكنني لم أفعل. سيشكل هذا الخبر سبباً إضافياً للقلق عند شارباست في خضم هذه الظروف الصعبة.

تطلع شارباست من فوق كتفي. همس لي: «أشعر بأنهم هناك ينتظرون في البعيد. إنهم هناك، لكنهم سيأتون اليوم، أو في الغد، أو في الأسبوع القادم. سنكافح من أجل المحافظة على روحينا، يا جوانا».

سمعنا طلقات نارية في البعيد. اعتبرناها إشارة إلينا. من أين انطلقت هذه الطلقات يا ترى؟

أسرعنا إلى المنزل لنجمع أغراضنا المتواضعة. لم نجد أمامنا الكثير للقيام به مع اضطرارنا إلى مغادرة برغالو. أحتاج إلى الحصول على عناية طبية، كما أنه يتعيّن إيجاد موقع جديد لمحطة الإذاعة.

تطلعت بشغف إلى بيتنا الصغير مودعة إياه بحزن. ذكّرت نفسي بألا أشعر باليأس، لأن البقاء هو أهم شيء عندنا: البقاء لنعيش يوماً آخر نتمكن فيه من القتال والشعور بالحب.

(٢٠)

الهروب إلى «مرجة»

في الطريق من برغالو إلى «مرجة»:
خريف العام ١٩٨٧

وصلنا بسرعة إلى ساحة برغالو لنجد جماعة صغيرة من القرويين المتجمعين. بدا أن هذا الحشد، الذي ظهرت عليه علامات التعب، كان شارداً ومخدراً. تغيّر كل شيء في هذه المنطقة بعد هذه الهجمات الكيميائية.

تطلعت من حولي، وأومأت بتجهم. رأيت أشخاصاً عديدين يرتدون عدة طبقات من الملابس. يبعث منظر أجسادهم المنتفخة على التسلية، في ما لو كانت الظروف مختلفة. تساءلت مع ذلك عما إذا كانت ملابسهم الغريبة هذه لا تجعل من عملية تسلق الجبل عملية خطرة. فكّرت في أن ملابسهم المنتفخة هذه ستحمي عظامهم من الكسر، وذلك إذا ما تدحرجوا في أحد منحدرات الوادي.

تجمع عدد قليل من الأشخاص في الساحة، وبدأ قلبي يدق بسرعة. أين ذهب الآخرون؟ هل كذب عليّ شارباست كي يُبعد القلق عني؟ هل يُعقل أن يتجاوز القتلى عدد الناجين؟

سألت بعض الأشخاص عن الوضع، فأخبروني أن معظم المقاتلين سيبقون للدفاع عن برغالو، على الأقل إلى حين تركيب أجهزة الإذاعة في الموقع الجديد.

طغى عليَّ شعور عارم بالحزن عندما تطلعت من حولي. تلك الوحدة المترابطة، التي طالما كانت مثار إعجابي، وكانت تجمع بين ساكني برغالو، ستتلاشى قريباً، وسينتشر هؤلاء في أنحاء كردستان مثل حبات عقدٍ من اللؤلؤ تعرّض للانفراط.

لاحظت كثيرين من المقاتلين المصابين ببثور تشبه البثور التي أُصبت بها. شكّلت هذه البثور تذكيراً مخيفاً لنا بأننا تعرضنا جميعاً للغازات السامة، لكن سبق لي أن سمعت أحدهم يقول إن البثور الناتجة عن الغازات تشفى مع مرور الوقت.

لم أستطع فعل شيء غير نسيان وجودها، لكنني لم أملك نسيان قلقي على عينيّ المصابتين. أدركت أن بصري قد ضعُف، ولعله سيضعف أكثر. استعجلت مغادرة برغالو كي أستطيع الحصول على العناية الطبية اللازمة.

شغلت تفكيري في أمور أخرى أقلقتني. لمست بطني بيدي. أدركت أنه يتوجب عليّ الانتباه إلى نفسي، وأن أحذر من التعثّر أو السقوط. سبق لي أن مشيت عبر الجبال المحيطة بنا أكثر من مرّة، وأعرف مدى وعورة الأرض وخطورتها، وأدرك أن الطرقات مليئة بالأحجار المسننة والحادة، بحيث إنها تتسبب بجروح كبيرة، كما أن السقطات المفاجئة قد تودي بصاحبها إلى السقوط عن ارتفاعٍ يزيد على ثلاثمئة متر.

شعرت ببعض القلق في أعماقي. لم أشاهد «آشتي»، ولا أمرتها. ولم ألمح «باهار»، أو «كازال»، أو «بخشان»، ولا الطفل «لاسيك». تساءلت عما إذا كانت النساء الأخريات قد غادرن برغالو. تقاسمت معهن المصاعب والأحزان والمحبة، لكني لا أعرف متى سأراهن ثانية.

عدت بانتباهي إلى شارباست، عندما رأيت ملامح وجهٍ مألوفٍ لديّ. إنه «كاماران»، ابن عم شارباست، الذي سمعنا أنه على وشك إنهاء تدريباته العسكرية مع الاتحاد الوطني الكردستاني. سألني بصوت ينمّ على القلق: «جوانا. هل أنتِ بخير؟».

أعطاني وجهه الودود جرعة أمل مقوية. ضحكت وقلت: «كاماران!».

هل نسيتُ كم أحببت كاماران، ذلك الرجل الوسيم؟ سبق لي أن رأيته عدة مرات في بغداد، لأنه لم يكن قريب شارباست فحسب، بل كان صديقه الحميم. أعرف أن الكثيرين اعتادوا مداعبته بقولهم إنه يشبه توم كروز. لم يكن كاماران وسيماً فقط، لكنه تمتع بلطف وصدق كبيرين وشخصية ودودة. تمتع الرجل بذكاء خارقٍ أيضاً، وتخرّج من الجامعة حاملاً شهادةً في الاقتصاد. لكنه اختار التضحية بمهنة مريحة من أجل العيش حياة «البشمركة»، تماماً مثلما فعل شارباست.

قال لي كاماران: «كنت متجهاً إلى برغالو عندما أخبرني عدة مقاتلين بأنها تعرضت للقصف بالغازات الكيميائية، وهكذا أتيت بأقصى سرعة».

قاطعه شارباست: «سيذهب كاماران معنا إلى «مرجة»».

شعرت بسرور بالغ لسماع هذا الخبر.

جلسا القرفصاء على الأرض، واستخدما أصابعهما لرسم خارطة طريق هروبنا على الأرض الترابية. أعرف أن الاتحاد الوطني الكردستاني يسيطر على مساحات واسعة من الأراضي الكردية، لكننا لا نستطيع تحديد مواقع عدونا بسرعة. إن أكثر الطرق أمناً بالنسبة إلينا تتجه إلى الشمال الغربي. سنسير فوق أرض جبلية وعرة. يستطيع رجل صحيح الجسم أن يكمل الرحلة صعوداً وهبوطاً في يوم كامل تقريباً، لكني أعتقد أنني سأتسبب في بطء مسيرتهما بسبب بصري المحدود. شعرت بالخجل لأنني سأكون عبئاً عليهما. كرهت ذلك الشعور. لكم كرهت أن أكون ضعيفة.

يدل الواقع أن كل النساء الكرديات معرضات للخطر. كُشف النقاب حديثاً عن حقيقةٍ موّثقة بشعة: أطلقت حكومة صدّام منصباً «رسمياً» شنيعاً، هو «المغتصِب الحكومي»، الذي يتبع لإدارة السجون العراقية. تنحصر واجبات شاغل هذا المنصب باغتصاب الزوجات الكرديات على مرأى من أزواجهن، أو البنات على مرأى من آبائهن.

شعر كل الأزواج والآباء الأكراد بالغليان والغضب نتيجة كشف النقاب عن هذا الخبر، لأن مجتمعنا المحافظ ينظر إلى الاغتصاب باعتباره المصير الأكثر خزياً للمرأة.

إنها فكرة لا تطاق، لكن إذا قُدّر لي أن أُعتقل، فلا شك

في أنني سألقى هذا المصير. حدث ذلك لآلاف النساء والفتيات الكرديات البريئات.

قلتُ: «هيا بنا يا شارباست».

قال شارباست موافقاً: «نعم. حان وقت الرحيل».

أخبرنا شارباست عندما وقفنا: «سننقسم إلى مجموعات صغيرة. تتألف مجموعتنا من ثلاثتنا فقط. سأكون أنا على رأس المجموعة، وأنتِ ستكونين وسطها يا جوانا، بينما سيبقى كاماران في المؤخرة».

تقدمت قليلاً. نسيت فجأة حزني لمغادرة هذا المكان. تحولت برغالو، وفي الحقيقة الوادي بأكمله، إلى مرتع للموت في نظري.

لم ينسَ شارباست أن يُحضر معه ثلاثة أوعية فارغة لحفظ المياه. قال إننا سنعثر، بالتأكيد، على مياهٍ غير ملوثة في الينابيع الجبلية. حمل شارباست وكاماران بندقيتَي «كلاشينكوف» أثقلتهما، أما أنا فخبأت مسدساً في جيب معطفي. لم يحمل كاماران أمتعة شخصية له، لأنه كاد يفقد أعصابه حين سمع خبر قصفنا بالكيميائي، وجاء لنجدتنا. لم يفكر في نفسه، بل إنه تخلّص من أمتعته الشخصية عندما سمع خبر الهجوم الكيميائي. تمكن كاماران لهذا السبب من حَمل نصف حِمل شارباست، وأصر على أخذ حقيبتي من يدي.

شرح كاماران الأمر مرفقاً شرحه بابتسامة: «دعينا لا نُشغلْ رؤوسنا».

غادرنا برغالو، وألقى ثلاثتنا تحية وداع خجولة على المقاتلين المنهمكين في إعداد خططهم الخاصة بهم.

سلكنا طريقاً مليئاً بالحجارة لمغادرة برغالو. أضاف بصري الضعيف سبباً آخر لقلقي، وهكذا بقينا قريبين من بعضنا بعضاً. شعرت بالارتياح لأنني أستطيع، حتى الآن، التحرك إلى الأمام وإلى الوراء لتقديم المساعدة لرفيقَي رحلتي إذا لزم الأمر. أبقيت نظري مركزاً نحو الأسفل، أي تجاه أعقاب قدمي شارباست، لكنني ركّزت أكثر على الطريق بصورة أساسية، التي أصبحت ممهدة نتيجة أعوام وأعوام من مرور القوافل عليها. حرصت على أن أضع قدماً قبل أخرى بصورة آلية متذكرةً الأمور التي أعاني بسببها، فحنجرتي تؤلمني نتيجة العطش، كما أنني أُرهف سمعي كي أسمع الأشياء التي ينبغي الحذر منها. غمرني شعور أكيد بأنني سأسمع جلبة جنود العدو، أو ترددات طلقات بنادقهم المرعبة، في مكان قريب منا.

تطلعت إلى السماء من فوقي. غمرت أشعة الشمس بأنوارها الجبال الصخرية. إنه صباح بارد يغمره الضباب. شعرت بالارتياح لأنني أحضرت سترة إضافية ارتديتها فوق البنطال التقليدي لـ «البشمركة»، الذي ارتديته في اليوم السابق.

رأيت مجموعات من الأزهار البرية أثناء صعودنا الجبل. شعرت بألم مبرح في حنجرتي نتيجة الظمأ. تطلعت في اتجاه الأزهار، ولاحظت تويجاتها التي غسلها الندى وغلّفها الضباب. انحنيت بسرعة وحرصت على المحافظة على وتيرة خطواتي، ثم

حصدت سويقات عدة أزهار، وارتشفت بلساني قطرات الندى العالقة فيها. آه، كم كانت قطرات الندى هذه لذيذة. حرصت على إبقاء نظري على ظهر شارباست، ورميت سويقات الأزهار بعد ارتشافي قطرات الندى منها. أحسست ببعض البرودة في لساني وحنجرتي.

سمعت كاماران يضحك من خلفي. ابتسمت قليلاً أنا الأخرى لأن مزاجي قد تحسن فعلاً.

أحسست بارتياح أكبر ما إن بدأت الطريق تتعرج من خلال مناطق مغطاة بالشجر، بعكس الامتعاض والانزعاج اللذين تثيرهما المناطق المكشوفة من الطريق الصخرية. رحت أفكّر في أنه لو تواجد قناصون يراقبون برغالو، فسيغريهم منظرنا.

سمعنا فجأة حفيفاً انطلق من الأجمات المحيطة بنا. أطلقت صرخة عفوية.

شاهدت عنزة تقفز من أمام شارباست.

انزعجت من نفسي.

استدار شارباست ليتطلع نحوي، وعبّر عن دهشته لهفوتي هذه. أعرف أن شارباست فخور جداً بزوجته المناضلة من أجل الحرية، فلطالما كان يعرّفني إلى الداخلين الجدد إلى برغالو بفخرٍ شديد.

كرهت أن أخيّب أمله. تقدّم كاماران وطمأنني بابتسامته العريضة. أدركت أننا بدأنا يوماً طويلاً وشاقاً جداً.

شعرت بتعب شديد في ساقيّ بعد مسيرة ساعة. آلمتني أصابع قدميّ، نتيجة صعودنا المتواصل الذي لا ينتهي إلى الجبل، وزاد الظمأ الذي لا يرحم، شعرت به في حنجرتي وحلقي. استمر ظمئي المؤلم بالتزايد حتى ظننت فعلاً أن حلقي قد تيبَّس.

نجحت في المشي لمدة ثلاث ساعات قبل أن أبدأ في الترنح بشكلٍ خطر.

همس كاماران: «أعطنا خمس دقائق استراحة يا شارباست».

استدار شارباست. بدا أنه فوجئ لأن كاماران القوي لا يحتاج حتى إلى دقيقة واحدة. لكن عندما اتجهت عيناه نحوي، عرف السبب الذي يدفع كاماران إلى طلب الاستراحة.

رحت أتنفس بإجهاد، ثم جلست على الطريق الترابية الرطبة.

انتظرَتْنا مفاجأة كبيرة حتى في استراحتنا الهادئة هذه. سمعت صوت تساقط قطرات المياه الجارية. أنقذتني من غيبوبتي هذه فكرة وجود مياه عذبة متلألئة.

أشار شارباست بيده: «هل تسمعون؟ هناك. إنه جدول مياه جارية».

تطلع كاماران حوله: «أين؟».

حرّكت لساني المتورم داخل فمي. سأشرب من تلك المياه حتى لو قال شارباست إنها ملوّثة بالمواد الكيميائية. رسمت

خطتي. سأقفز في مياه الجدول قبل أن يتحرك لإيقافي. أستطيع أن أعدو عندما تدعو الحاجة.

«انتظري». وضع شارباست الأغراض التي كان يحملها، وأسند بندقية الكلاشينكوف وذخائرها برفق إلى أجمة. عمد شارباست بعد ذلك إلى انتزاع أوعية المياه الفارغة من الحزام الذي ربطه حول صدره. ارتحت عندما سمعته يقول: «نجت هذه المياه العالية من التلوّث».

استطعت أن أرى، من بين الأوراق الكثيفة، جدولاً صغيراً رقراقاً فوق صخور ملساء، قبل أن يتدفق في بركة صغيرة لينساب في المنحدر بعد ذلك. بدأت بلحس شفتيّ عند رؤيتي هذا المنظر الجميل. انحنى شارباست وتذوّق المياه. أومأ ونادى: «نعم. كنت مصيباً، فالمياه عذبة».

رفع اكتشافنا لذلك الجدول البارد من معنوياتنا جميعاً.

ملأ كاماران وعاء مياه (قربة) وناولني إياه، ثم قال مبتسماً: «ستتحسن سرعة مسيرتنا الآن. كدنا نصاب بالتجفاف».

لم أستطع أن أمتنع عن تجرعي النَّهِم للمياه. لم أذق في حياتي شيئاً ألذ من مياه ذلك النبع. كانت المياه عذبة وباردة. شربت حتى الثمالة، ثم تناولت منديلاً ملفوفاً بشدة من جيب سروالي، وبلّلت نصفه، ومرّرته على جبهتي وشفتيّ قبل أن أضعه فوق عينيّ المتورمتين. تسببت المياه الباردة في شعوري بشيء من الوخز في عينيّ، لكنني أعدت هذا التمرين، وأبقيت قطعة القماش الباردة فوق عينيّ الملتهبتين حرارةً.

شربت آخر قطرة بقيت في الوعاء قبل أن أناوله إلى شارباست. انزلق شارباست على المنحدر ليعيد ملأه.

اقترح شارباست أن نغيّر ثيابنا بعد أن شربنا للمرة الثانية. سبق لنا أن وضعنا هذه الثياب في كيس بلاستيكي. سنغيّر ثيابنا الآن، وسنرمي ثيابنا الملوثة في وادٍ مجاور.

ملأتني الحماسة لتغيير ثيابي الوسخة بحيث لم يكن هناك من ضرورة لتشجيعي. نهضت بسرعة. لاحظت أن سروال البشمركة الذي اشتريته في السليمانية أصبح قديماً وغير مريح، لأنه يشد خصري كثيراً. وقفت بنفاد صبر أنتظر شارباست كي يفتح الكيس، ثم تناولت سروالاً نظيفاً، وبلوزة زهرية اللون مصنوعة من «البوليستر». هرعت لأختفي في أجمة كثيفة، وأسرعت في تغيير ثيابي الملوثة، ثم ربطتها جيداً، ورميتها في اتجاه شارباست بعد أن ناديته. أدخلت البلوزة الزهرية اللون فوق رأسي وجذبتها بأصابعي. تأكدت من أن المسدس ما زال في جيب معطفي. قررت الإبقاء على معطفي الملوّث، لأننا قد نمضي الليل في الجبال، وأنا أعرف جيداً أن الليل بارد في الارتفاعات العالية، بغض النظر عن فصول السنة. أبقيت على حذائي نفسه، لأنه يريحني بالمشي أكثر من غيره. انسدل شعري متحرراً من عصبته المطاطية. حررته هكذا قبل أن أجمعه على شكل ذيل حصان طويل.

نهضت سريعاً على قدميّ المليئتين بالبثور، وعدت إلى سلوك تلك الطريق الأفعوانية التي يبدو أنها لا تنتهي. بدت

رحلتنا هادئة وبعيدة عن العالم المنهك بالحروب والطغاة، في ما لو لم نكن نسعى إلى النجاة بأرواحنا. لم يكن لدينا الوقت للتأمل بذلك البساط المزخرف بلوني الأخضر والبني الذي يتخلل طريقنا، أو للتمعن في الفراغات الجميلة التي ينيرها ضوء الشمس المتسلل من خلال الأشجار.

مرّت صور ماضي كردستان في ذهني، كأنني أقرأ صفحات من كتب التاريخ، وذلك أثناء صعودنا الجبل. تخيّلت الصيادين البدائيين وهم يطاردون الحيوانات البرية في هذه المنطقة، وتصوّرت وجوههم التي تنيرها النيران التي أوقدوها في مغاور بدائية. انتشرت مجموعات الإنسان الأول من العراق - الذي عُرف باسم بلاد ما بين النهرين ـ فوق هذه الطريق التي أمشيها الآن، لتنتشر في الأرض بكاملها. أعرف أن بلادي الحبيبة كانت مركز العالم المتمدن، وهي المكان الذي اختُرعت فيه الكتابة، والمكان الذي عرف إصدار أول القوانين في العالم. عدت إلى التفكير في وضعنا الراهن اليائس أتأمل بحزن أسباب وصول واقع المنطقة إلى هذه النهاية. تساءلت عن النقطة التي توقفت عندها المنطقة عن تسلّق سلّم الحضارة، وبدأت في التقهقر إلى حالةٍ من الفوضى، والحروب المتوالية.

أعادني صوت شارباست إلى عالم الواقع، فلاحظت أننا وصلنا إلى قسم من الطريق مليء بالأدغال الكثيفة. أبطأ شارباست في سيره، ثم توقف، وأعلن قراره: «دعونا نأكلْ ونرتَحْ قليلاً، قبل أن نمضي قُدُماً».

صممت على الاحتفاظ بما بقيَ لي من طاقة، وهكذا لم

أتكلّف عناء الإجابة، برغم أنني رحّبت في قرارة نفسي بتناول شيء من الطعام. ذكّرت ذاتي بوجوب تغذية جسدي من أجل طفلي، الذي كان يشق طريقه إلى عالم الكينونة ببطء في ذهني، وداخل أحشائي.

تهالكت نحو الأرض، وثنيت ساقيّ تحت جسدي. فتحت وعاء (مطرة) الماء، وحاولت غسل السموم من عينيّ مرة أخرى. لم يتوقف الألم.

ركع شارباست أمامي، وسألني: «كيف حالك يا حبيبتي؟».

أومأت وأنا ممسكة بالمنديل فوق عينيّ: «أنا بخير».

مسّد شارباست كتفي بلطف قبل أن ينهض واقفاً ليمشي نحو كاماران. استطعت أن أسمع صوت مناقشتهما الخافتة.

مددت رجليّ، ثم أحنيت رأسي فوق حضني. أمضينا لحظات قليلة من الراحة، لكني فوجئت بشيء بارد وثقيل فوق القسم الأسفل من ساقيّ. رفعت رأسي، ورأيت أفعى سوداء طويلة وهي تتلوى ببطء فوق رجليّ الممدودتين.

صرخت: «أفعى!». تحركت بأقصى سرعة عرفتها في حياتي، ووقفت منتصبة في الهواء. تسببت حركتي السريعة برفع هذه الأفعى في الهواء، ثم اصطدمتْ بالأرض مُحدثة صوتَ ارتطام قوياً، وما لبثت أن تسللت في أجمة النباتات الكثيفة.

وقفت لاهثةً، ووضعت يديّ على عنقي.

دُهش شارباست وكاماران لصرختي هذه، ونظرا في اتجاهي.

صرخت ثانية: «أفعى!»، وأشرت إلى منطقة الأجمات الكثيفة التي اختفت الأفعى فيها، وهي القسم الذي أيقنت بأسف أننا مضطرون إلى المرور عبره.

سأل شارباست: «هل تعرضتِ لأذى؟».

جاء صوته هادئاً وساخراً إلى درجة أنني شعرت بشيء من الغضب.

حدّقت فيه. أعرف أنني رأيت بالتأكيد لسانها يتحرك صوبي. حتى أنني شعرت بشيء يضغط على ساقي، لكنني لم أشعر بأنيابها الحادة وهي تنغرز في لحمي.

أجبت بلهجة فيها شيء من الغضب: «حسناً، لعقتني الأفعى بلسانها».

انحنيت، ورفعت ساق سروالي، ورحت أتفحص رجلي العارية بحثاً عن آثار عضّ. لم أجد أي أثر.

انطلق شارباست وكاماران بالضحك بمرح. وقبل أن يعاود كاماران حديثه مع شارباست قال لي: «إذاً، عليكِ أن تكوني ممتنة لأن الأفعى لعقتكِ، ولم تعضك».

حملقتُ بظهر زوجي.

وقفت على أطراف أصابع قدميّ، وأبقيت احتكاكي بالأرض في حده الأدنى، وأخذت أتفحص الأرض ببصري الخافت تحسباً لعودة الأفعى.

فتح شارباست وكاماران علبة من البازلاء، وثلاث علبٍ من السردين. قررنا أن نأكل ونتابع سيرنا في الطريق بأسرع وقت ممكن. سُرّ شارباست كثيراً لتقدمنا في الطريق، وبدأ في مداعبتي كي يحسّن مزاجي. قال إننا قطعنا الكثير من المسافات بحيث قد نتمكن من الوصول إلى «مرجة» عند حلول الظلام.

شعرت بموجة من الارتياح لسماع كلامه هذا، لأنه بعد تجربتي مع الأفاعي كدت أموت خوفاً من فكرة تمضية الليل في أرض الغابة.

يعرف كل الأكراد أن الأفاعي تنجذب إلى دفء الأجساد النائمة. وسبق لي أن سمعت حكايات كثيرة عن مقاتلي «البشمركة» الذين اكتشفوا عند استيقاظهم أفاعي غير مؤذية وقد التفّت بارتياح إلى جانبهم.

أكل شارباست وكاماران علب السردين بسرعة، وأصرا على أن أتناول أنا علبة البازلاء.

رحت أقهقه، وقلت: «أنا سوبرمان». بقيت على قناعتي لأنه لولاي لاستطاعا الانطلاق بسرعة من برغالو إلى «مرجة» من دون توقف، ولا استطاعا تسلق جبال كردستان بخفة عنزة ورشاقتها.

ابتلعت آخر ثلاث حبات بازلاء، وما لبثت أن سمعت جلبةً واضحة بين الأشجار القريبة منا. تناولت مسدسي، بينما أمسك كل من شارباست وكاماران بسلاحيهما. أشار شارباست إليّ كي أتحصن وراء أجمة كبيرة، بينما اختبأ كاماران وراء شجرة كبيرة.

وقف شارباست بهدوء وراح يُصغي، ثم تركنا وسلك الطريق من حيث أتينا. بدا لي أن فترة الانتظار هذه ستكون بلا نهاية بالنسبة إليّ.

شعرت بجزع كبير عندما سمعت أصوات رجال. هل قبضوا على شارباست؟ بقيت مصغية لعدة لحظات قبل أن أقرر أنه يتعيّن عليّ أن أذهب بنفسي لأتحقق مما يحدث. تنحنح كاماران بلطف بعد أن خطوت عدة خطوات، ثم هز رأسه مرات عديدة، ورسم بشفتيه علامة «لا». صعُب عليّ كثيراً التقيّد بما أمرني به.

ظهر شارباست فجأة: «ما من أمرٍ مهم. إنها مجموعة أخرى من مقاتلي «البشمركة» ترتحل عبر الجبال».

طرحت سؤالاً عبّرت فيه، للمرة الأولى، عن أكبر مخاوفي: «ماذا نفعل إذا التقينا بجنودٍ أعداء؟».

هز شارباست كتفيه: «سنقاتل حتى...»، ثم أشار بإصبعه إلى رقبته بحركة مخيفة، فهمت منها إشارة الذبح.

أطلق كاماران ضحكة مخنوقة. يستطيع هذا الرجل دائماً أن يرى الناحية المرحة في كل شيء.

ثم نزع نظارته السميكة بيدٍ، بينما رفع أربع أصابع عالياً في الهواء.

«لا تقلقي يا جوانا. هناك أربعة أشياء مؤكدة أعرف أنها لن تحصل. الأمر الأول هو أن صدّام حسين لن يموت بسلام في فراشه». أخذ يقهقه، ثم رفع وعاء الماء إلى شفتيه ليشرب

بسرور بالغ. ومضى يقول: «أما الأمر الثاني فهو أن ينابيع المياه العذبة في كردستان لن تكون ينابيع من «الشمبانيا»، كما أتمنى. والأمر الثالث هو أن قريبك العزيز كاماران لن يسكن أبداً في قصر كما يتمنى». توقف قليلاً ليعطي أهمية لما سيقوله تالياً: «أما الأمر الرابع، فهو أن شارباست، وأنا، لا يمكن أن نسمح لأعدائنا بأسرنا أحياء».

ابتسمت برغم ظروفنا المريعة. إن مجرد التواجد قرب هذا الرجل يرفع معنوياتي المنهارة، وهو الأمر الذي ذكّرني بأنه ما زال لدينا الكثير لنحمد الله عليه، برغم تشردنا.

لاحظت أن شارباست نفسه بدا مسروراً، وقال بين ضحكاته التي أطلقها: «هيا نكمل المسير».

بدأت أشعر بالأمان، الذي يشبه قوة جذب المغناطيس، الذي توحيه «مرجة».

«مرجة»! بدا الاسم بحد ذاته مثل قوة سحرية بالنسبة إلي. أعتقد أنه سيكون من الرائع أن أعود إلى القرية التي التقيت فيها بشارباست قبل بداية شهر عسلنا. شعرت كأن حياة أخرى تنتظرني في تلك القرية.

اجتزنا التلال العالية. شعرت بارتياح لأنها أصبحت وراءنا، ثم بدأنا في عبور الروابي المستديرة. اكتشفت أن المناورة في السير في هذه المنطقة المليئة بالتلال، هي أسهل من التلال الشديدة الانحدار التي تركناها وراءنا. لم أستمتع بمناظر هذه التلال بسبب إرهاقي بعد يوم طويل من المشي. دهمتنا العتمة

الزاحفة سريعاً ما بين التلال والأشجار، وهكذا أصبح سيرنا بطيئاً.

رفع شارباست يده اليمنى وتوقف.

نظرت من فوق كتفيه، رأيت طريقاً مكسوة بالحصى وتتشعب عبر الوادي. سنتمكن أخيراً من الوصول إلى هذه الطريق عند أسفل التلة، وسنصل إلى «مرجة» بعد اجتيازنا هذه الطريق.

وقف شارباست بصمت ليستطلع المنطقة.

تطلعت في اتجاه أسفل التلة، وأصغيت لعلّي أسمع أصوات دبيب الحياة في القرية الآتية من بعيد. لم أسمع شيئاً. ثم سرحت بنظري المتعب في الوادي الموجود في الأسفل، والذي ما زال مخضراً بحقول محاصيله، ومزيناً بأزهاره البرية الزاهية الألوان.

سبق لي أن تجولت كثيراً في أنحاء العراق، لكن كردستان هي المنطقة الأجمل في نظري. لا أغالي إن قلت إنني أعتبر هذه الهضاب الخصبة، والوديان الزمردية الألوان، بمثابة صندوق من الكنوز الأرضية، يحوي ثروات لا تعوّض، وهي الثروات المهددة، مع الأسف، بعواقب الحرب التي أخشى أن تؤدي إلى إفراغ هذا الوادي من خيراته.

تراجع شارباست ليتحدث مع كاماران بهدوء، لكن أذنيّ استطاعتا التقاط كلماته: «من يعلم ماذا يحدث في كل أنحاء

كردستان، وحتى في هذه المنطقة الشمالية النائية. يتعيّن علينا أن نتفرق. دعنا نلتقِ في منزل كريم، في غضون ساعة من الزمن».

انطلق كامارن عائداً نحو المنطقة المليئة بالأشجار، وأدركت أنه سينتظرنا حتى نتقدم قليلاً.

ركّزت سمعي على التحذير الذي أطلقه شارباست. هل يعتقد شارباست أن اللواء العراقي الخامس، التابع لعلي المجيد، قد شن غارات كيميائية فوق كامل أنحاء كردستان؟ هل سنكتشف بعد وصولنا أن «مرجة» خالية من السكان؟

أعرف أن رياحاً شريرة بدأت تهب من جهة بغداد.

أمرني شارباست، وهو المتيقظ على الدوام: «جوانا. ابقي على بعد خطوات قليلة مني، ولا تتكلمي أبداً».

«حسناً». وافقت بسهولة لأني لم أرغب في أن يشاهدني زوجي عن قرب.

أخفيت سراً عن شارباست، وهو أن نظري أصبح أسوأ من جهة، برغم أنه تحسّن من جهة أخرى. تحسن الوضوح في الرؤية عندي، لكن عينيّ أصبحتا أضعف في تقدير المسافات، وأضحت الخيالات غالبة على مدى الرؤية في عينيّ. خشيت أنني سأصبح عمياء بالكامل، فقررت ألا أُبلغ شارباست، على الأقل ليس الآن، لأنه لا يستطيع فعل أي شيء غير الاستغراق في القلق.

مشى شارباست بسرعة أمامي، لكنه لم يسرع بشكل أعجز معه عن اللحاق به.

وصلنا إلى أسفل التلة حيث الطريق المكسوة بالحصى، وسرنا على جهة واحدة من الطريق. تكتظ هذه الطريق المؤدية إلى «مرجة» بسكان القرية المنشغلين بأعمالهم المعتادة، لكنها خالية الآن. استنتجت من عدم وجود الناس على هذه الطريق أن «مرجة» قد أُصيبت بالغازات الكيميائية هي الأخرى، لكنني ارتحت عندما رأيت دليلاً على الحياة العادية بعد اجتيازنا منعطفاً في الطريق. شاهدت أربع نساء يسرنَ في اتجاهنا، ويمشين جميعاً بخطوات متمايلة. لبست النسوة الأربع فساتين قطنية ملونة وبراقة، واعتمرن أوشحة تتناسب مع ألوان فساتينهن. استطعت أن ألاحظ، حتى مع بصري المحدود، أن أكثر النساء وزناً قد لفتّ وشاحاً كبيراً فوق رأسها، واستقر فوقه وعاء كبير بتوازن. تتقن النساء الكرديات المحافظة على توازنهن وهدوئهن أثناء حملهن أحمالاً ثقيلة فوق رؤوسهن، وهي مهارة مفيدة لم أستطع إتقانها أبداً، بالرغم من محاولاتي المتكررة، التي أقدمت عليها طواعية.

تفحصت شكل الوعاء. خمّنت أنه مملوء باللبن الرائب. حرّكت لساني قليلاً فوق شفتيّ، اشتهيت لحظتها تذوّق بعض اللبن البارد.

تجاوزنا النساء، لكنني لم أرغب في أن أكون غير ودودة معهن، فتبادلت وإياهن الابتسامات وإيماءات التحية. لم تتطور هذه الإيماءات إلى تبادل للحديث، لأن الأكراد من عاداتهم أن لا يتبادلوا الأحاديث مع الغرباء لخوفهم من «الجحش» (العملاء).

تجاوَزَنا رجلان في منتصف العمر كانا وراءنا على ظهرَي حماريهما. رأيت سراويلهما الكردية الفضفاضة وقد تجمعت حول خصورهما وظهورهما، ثم ضاقت عند كواحلهما. أخذ الراكبان بأرجحة أرجلهما على جهتَي حماريهما، ورأيت أحد الرجلين ينحني إلى الوراء ليلكز مؤخرة حماره بعصا صغيرة مستدقة.

وصلنا سريعاً إلى ذلك القسم من الطريق الذي يخترق وسط القرية، واستطعت رؤية المزيد من القرويين. استغربت عندما لاحظت أن أحداً منهم لم ينظر إلينا بشيء من الفضول، بالرغم من الأوساخ التي علقت فوق ثيابنا المتجعدة، والتي كنت أظن أنها ستثير الاشتباه فينا.

شعرت بجوع شديد عندما مررنا أمام مجموعة من الشبان كانوا يتناولون مشروبات «الفانتا» بطعم الليمون، وبعض المكسرات.

جلست امرأة مسنة القرفصاء على الأرض وانشغلت بصنع كمامات غاز محلية. رأيتها تجمّع الأجهزة بحرصٍ شديد، وتستخدم الأصواف القطنية والأقمشة لتغطية قطع صغيرة من الفحم. أعرف أن خطوتها التالية ستكون حبك هذه الأجزاء مع بعضها لتصبح شبكة بشكل هلال، ثم ستعمد إلى خياطة قطعة صغيرة من المطاط بين طرفَي الكمامة، بهدف تثبيتها حول الرأس.

رأيت مثل هذه الأجهزة المحلية الصنع من قبل، بالرغم من

أنني ظننتها عديمة الفائدة في حالة هجوم كيميائي واسع النطاق، مثل ذلك الهجوم الذي غادرنا برغالو بسببه. أعتقد أن هذه الشبكات البدائية ليست إلا وسيلةً لطمأنة الضحايا الذين لا يستطيعون الحصول على أقنعة حديثة واقية من الغاز.

من المريع ألا يمتلك كل شخص في كردستان الأقنعة الواقية من الغازات السامة. سبق لي أن علمت أن صدّام اعتبر حصول الأكراد على أقنعة واقية من الغاز بمثابة جريمة. الآن عرفت السبب.

استطاع قادة الاتحاد الوطني الكردستاني أن يتفوقوا على ذكائه. عمد الأكراد إلى تهريب الأقنعة المضادة للغازات، التي يستخدمها مقاتلو «البشمركة»، إلى كردستان بطريقة غير شرعية على ظهور البغال. وها أنا مقتنعة الآن، بأنه لولا هذه الأقنعة لكان قُضيَ علينا، أنا وشارباست، والذين بقوا أحياء في وادي جافاتي.

انحرف شارباست يميناً في اتجاه طريق ضيقة، ثم وصلنا إلى شارع آخر. بدا لي أن كل منزل يشبه المنزل المجاور له. لاحظت أن كل هذه البيوت حديثة البناء ونظيفة، وأن معظم مداخلها قد زُيّن بنَية تحوي أزهاراً متعددة الألوان، وأن بعضها قد استقر فوق أعتب النوافذ.

وصلنا آخر لأمر إلى مقصدنا، أي منزل كريم وزوجته سوزان. طرق شارباست على الباب بلطف.

رأيت من خلال فتحة الباب عينَي كريم الحادتي النظرات.

قال كريم وهو يفتح الباب: «شارباست. هل أنت بخير! لقد قلقنا جميعاً!». أحاط كريم شارباست من كتفيه، وقال: «سمعنا للتو أنه تم إسقاط الغازات الكيميائية فوق كل القرى الموجودة في الوادي».

بدأ قلبي يطرق بشدة حتى مع الترحيب الشديد الذي لقيناه من ساكني هذا المنزل المتواضع. أعرف أن كريم وسوزان هما من المتعاطفين مع مقاتلي «البشمركة». شعرت بتعاطفهما معنا، وبادلتهما شعورهما هذا، بالرغم من لقائي بهما لمرة وحيدة.

أظهر كريم وسوزان مشاعرهما الصادقة. حثنا وزوجته على ترك أحذيتنا وأمتعتنا عند الباب، وقالا: «اجلسا! اجلسا!».

سمعت من سوزان الكلمات التي انتظرت سماعها أكثر من غيرها: «لا بد من أنك جائعة. سأحضر بعض المرطبات، وسأحضّر الطعام بعد أن يعود الأولاد إلى المنزل».

ناشد شارباست كريم بصوت ينمّ عن القلق: «أخبرنا ما الذي سمعته للتو».

قال كريم بنبرة محبطة: «إن بغداد تتبجح بإصابة سيرغالو وبرغالو بالغازات. ويقول بيان الحكومة إن الاتحاد الوطني الكردستاني قد تكبد خسائر فادحة». وجّه كريم نظرة قلِقة نحو شارباست وسأله: «هل ما سمعته صحيح؟».

أجاب شارباست: «حسناً، صحيح أننا أُصبنا بالغازات الكيميائية، لكن لم يمت أحد. أصيب الكثير من الناس بجروح،

لذلك لا يُستبعد أن يموت بعضهم. لم أحصل على أخبار من سيرغالو والقرى الأخرى المنتشرة في الوادي. قصدوا أن يقتلونا جميعاً من دون شك. سنقيم محطة إذاعة جديدة في منطقة أكثر أمناً، أي إلى الشمال، بحيث تكون بعيدة عن جيش صدّام». أضاف بابتسامة ملؤها الرضا: «ما زلنا محتفظين بمعداتنا».

اشتركت في الحديث: «يعمد كثير من الناس إلى مغادرة وادي جافاتي حالياً».

سمعت صوتاً محبَطاً تسلل إلى سمعي من المطبخ. لم أستطِع إلا أن أخمّن أن مضيفتنا تعبّر عن مخاوفها من أن «مرجة» قد تواجه المصير نفسه سريعاً. أعرف أن سوزان هي أمٌّ، يتعيّن عليها حماية أولادها. أستطيع ان أتفهم قلقها.

ربّتُّ على بطني عدة مرات.

تمتم كريم: «نحمد الله، على الأقل، لعدم موت أحد».

قال شارباست: «لولا الأقنعة المضادة للغاز لكان مات الكثيرون».

«وماذا بشأن العم جلال؟».

«لم يكن في برغالو وقت القصف، لكني أفترض أنه بأمان. ولو لم يكن بأمان لكنا سمعنا بالخبر».

تأوه كريم بشدة: «إنها أنباء سارة».

انضم جلال الطالباني، الذي يُطلق عليه أتباعه المخلصون،

لقب «العم»، إلى حركة المقاومة الكردية عندما كان في الرابعة عشرة من عمره فقط. انتُخب ليكون عضواً في اللجنة المركزية للحزب بعد مرور أربع سنين. يتصف «العم» بالجدية الدائمة. درس القانون وتخرج محامياً في العام **١٩٥٩**. اصطدم مع قادة حركة المقاومة الكردية حول وجهة نظره القائلة إن حركة النضال من أجل الحرية يجب أن تكون أكثر ديموقراطية. أسس الطالباني حركة الاتحاد الوطني الكردستاني في العام **١٩٥٩** على إثر هذا الصدام. لم يحصل على احترام الأكراد فقط عبر السنين، لكنه حاز إعجاب المجتمع الدولي أيضاً. وقدّم الرجل خدمات كبيرة إلى مقاتليه، ولذلك بادلوه بالاحترام الشديد. إن خسارة جلال الطالباني ستشكل خسارة كبيرة للحركة الكردية في حال حدوثها.

مضى كريم مستقصياً: «تقول الشائعات إنهم أسقطوا خليطاً من الغازات السامة، التي تتألف من...».

قاطع شارباست الجملة التي بدأها كريم: «يُحتمل أنها غازات مثل «السارين»، ومواد أعصاب أخرى. رأيت حروقاً وبثوراً عند بعض المصابين».

رفعت أصابعي وقلت: «أترى؟ إنها مثل هذه، لكن شارباست لم يتأثر، لسببٍ ما، إلا من بعض السعال».

حدّق كريم في أطراف أناملي وهو فاغر الفم. أسرعت سوزان من المطبخ لتلقي نظرة على البثور، وما لبثت أن أعلنت: «سأحضر لك بعض المراهم».

كرّر شارباست: «كنا سنموت جميعاً خلال الهجمات لولا الأقنعة المضادة للغازات».

لم يستطِع مقاتلو «البشمركة» الثبات في مواقعهم فقط منذ اندلاع الحرب الإيرانية ـ العراقية، لكنهم استطاعوا تسجيل النصر تلو النصر، واستعادوا معظم أراضي كردستان التي يسيطر عليها جيش صدّام، واستطاعوا طرد جيشه من الأراضي الكردية. استطعنا تحقيق النصر في غضون هذه السنة بمساعدة من إيران. أعتقد أنه في الإمكان التوصل إلى اتفاقية سلام مقبولة بوجود وفد كردي قوي إلى طاولة المفاوضات. سنتمكّن عندها، نحن الأكراد، من الوصول إلى حكم ذاتي حقيقي.

بدأ صدام يستعيد قوته، لأن نيران الحرب مع إيران، التي أنهكت قواته، قد خفتت بعض الشيء.

بدأت أفكاري في التسارع: كيف يمكننا القيام بهجوم مضاد؟ وأين يمكننا الهرب والاحتماء؟ أعرف أن كل البلدان المجاورة تضطهد سكانها الأكراد.

هل يمكننا اللجوء إلى تركيا؟ كيف لنا أن نُلقي بأنفسنا بين ذراعي الحكومة التي تقمع مواطنيها الأكراد، بدرجة تفوق حتى قمع الحكومة العراقية؟

هل يمكننا الالتجاء إلى سوريا؟ الرئيس السوري حافظ الأسد ما زال يمنع الأكراد داخل بلاده، من الحصول على كثير من حقوقهم، ولن يكون أكثر عطفاً معنا. وأعرف أن الأكراد في

سوريا يتعرضون لمضايقات كثيرة، وإن كانت أقل مما يتعرض له أكراد العراق.

هل يمكننا الاحتماء في إيران؟ أدرك جيداً أنه بالرغم من أن الحكومة الإيرانية تساند «البشمركة» وتتحالف معهم في الوقت الحالي، إلا أن ذلك يعود إلى ظروف حربها مع الحكومة العراقية، لأنها، هي نفسها، تضطهد سكانها الأكراد داخل أراضيها.

لكن، إذا بقيَ صدّام يهاجمنا بغازاته الكيميائية، فسيضطر الأكراد العراقيون إلى تخطي جبال قنديل، وهي آخر جبال تفصل ما بين كردستان وإيران.

احتضنت رأسي بين يديّ، ورحت أتساءل، في سري: هل سيحصل الأكراد على حريتهم في يومٍ من الأيام؟

لاحظني كريم فسألني: «جوانا؟ هل أنتِ بخير؟».

أجاب شارباست بسرعة: «تضررت عينا جوانا نتيجة الغازات السامة، ففقدت نظرها موقتاً، لكن بصرها بدأ يعود إليها ببطء».

مسحت دموعي وتطلعت مبتسمةً: «لكننا ما زلنا أحياء يا كريم. سنعيش لنقاتل ليومٍ آخر، ذلك هو النصر».

أسرعت سوزان بالعودة إلى الغرفة لتناولني أنبوب مرهم الإسعاف الأولي، وبدأت بوضعه فوراً فوق أصابعي المصابة بالبثور.

أسرعت بالعودة إلى المطبخ، ثم هرعت حاملة في يديها صينية نحاسية مليئة ببعض المقبلات الكردية المميزة. رأيت وعاء

يحتوي على الشاي المحلَّى بنكهة الهيل (الهال)، وبعض الزبيب، والجوز، وبعض المعجنات الكردية التي أُضيف العسل إليها. كان على الصينية أيضاً أربعة أكواب من عصير الرمان.

استطعت، بالكاد، ضبط نفسي، لكني سرعان ما تذكرت الأصول وانتظرت أن تسكب سوزان الشاي، وأن تقدم بنفسها كوباً صغيراً منه إلى كل منا.

بالكاد بدأنا بارتشاف الشاي اللذيذ، حين سمعت طرقاً خفيفاً على الباب. ارتسمت على الفور ملامح نظرة تساؤل على وجه كريم.

شرح شارباست الأمر: «أعتقد أنه كاماران. ارتحل معنا، لكننا افترقنا عندما أصبحنا على حدود القرية. اتفقنا على أن نلتقي هنا».

مشى كريم نحو الباب، وسأل بلطف عن هوية الطارق. همس كاماران اسمه، ففتح له الباب، وجلس بيننا.

شرب الرجال الثلاثة الشاي، وبدأوا بتناول المكسرات والزبيب، وراحوا يناقشون خطتهم لإقامة محطة إذاعة ومركز اتصالات جديدين. تناولت بعض المعجنات، وأصغيت إلى كل منهم وهو يدلي بوجهة نظره، بكل حماسة، بشأن الخطوة التالية التي يتعيّن على الاتحاد الوطني الكردستاني أن يأخذها. اختلطت أحاديث الرجال الثلاثة. شعرت بنعاسٍ شديد بعد أن نال مني التعب، وبعد أن امتلأت معدتي، فاستسلمت لنوم عميق حتى أثناء جلوسي منتصبة الظهر على الأريكة.

استيقظت بعد مرور عدة ساعات، ودُهشت عندما وجدت نفسي على سرير، في غرفة صغيرة لم أتعرّف إليها: أين أنا؟ وأين شارباست؟

عادت إلى ذهني تدريجياً ذكريات اليوم السابق. تذكرت أنني كنت في منزل كريم وسوزان. شعرت بعطش شديد، وفكّرت في أن يقوم شارباست بنقلي إلى السرير، وذلك كي أنال قسطاً من الراحة أثناء انشغال سوزان بتحضير وجبة الغداء.

تحسست بأصابعي عينيَّ المتورمتين. لم أعثر على مزيدٍ من الإفرازات منهما، لكن الألم بقي كما هو.

تفحصت الأشياء المحيطة بي. لاحظت أن الغرفة نظيفة جداً بالرغم من تواضع أثاثها وزخرفتها. خلت الغرفة من كل شيء عدا السرير الذي أستلقي عليه، وطاولة مستديرة وصغيرة مغطاة بقماش مزخرف ومطرز، أبيض اللون، بالإضافة إلى ثلاث صور لمناظر من مناطق كردية مميزة، معلقة على الجدران. تطلعت إلى الأعلى فرأيت، في الجهة العليا من أحد الجدران، نافذة صغيرة محمية بقضبان حديدية، ومغطاة بستارةٍ مخرمة بيضاء اللون.

تسلل الضوء من خلال النافذة. لاحظت أن رؤيتي باتت أوضح من ذي قبل، فبعث ذلك البهجة في نفسي.

وقفت وتمطيتُ. شعرت بالألم في كل أنحاء جسمي. خرجت من غرفة النوم هذه حافية القدمين، واتجهت إلى ممر ضيّق، سرت متبعة الممر الذي يؤدي إلى غرفة المعيشة، ورأيت سوزان تهتم بأحد أبنائها.

تطلعت سوزان في اتجاهي عندما دخلت وابتسمت. تحمل بشرتها الملامح الكردية بلونها الفاتح، وعينيها الداكنتين، وشعرها الأسود. لا تتصف ملامحها بالتماثل، لكن ابتسامتها تتميز بدفء وتعاطف شديدين، بحيث إنني بدأت أتساءل عن السبب الذي منعني من ملاحظة جمالها من قبل.

«جوانا، هل نمتِ جيداً؟».

اعترفت لها وأنا أتثاءب: «نمت بشكلٍ ممتاز، بحيث شعرت بأنني مخدرة. أين شارباست؟».

ظهرت ملامح ابتسامة تنم عن البهجة على محيّاها: «استسلمتِ لنوم عميق يا جوانا بحيث إننا لم نستطِع إيقاظكِ». مضت سوزان بمداعبتي: «اعتقدنا أنك في غيبوبة من دون شك. داعبك شارباست بحيث إنه قرّب فروجاً مشوياً من أنفك، لكن تلك الرائحة الشهية فشلت في إيقاظك». راحت سوزان تضحك هنا: «يا فتاتي العزيزة، لم يكن أمام شارباست من خيار إلا أن يحملك إلى سريرك. تناولنا العشاء بعد ذلك. توجهنا إلى النوم نحن كذلك بعد فترة قصيرة، وأنتِ نمتِ طوال الليل. طلب شارباست مني أن أدعكِ مستغرقةً في النوم حتى تستيقظي وحدك. قال إنك أظهرتِ من الشجاعة والقوة ما يكفي لتستأهلي راحة طويلة».

بدأت ابتسامة سوزان بالتلاشي أثناء تفحصها وجهي بقلق واضح. شعرت بنوعٍ من رعشة توقُّع شر قادم تخترق كياني.

«عليّ أن أبلغكِ يا جوانا أن شارباست وكاماران قد غادرا في الصباح الباكر متجهين نحو ساندولان».

«لا!».

«أَصغي إليّ يا جوانا. يوجد الكثير من الحواجز التي تنتشر ما بين قريتنا وساندولان، لذلك سيضطر شارباست وكاماران إلى تجنب الحواجز الرئيسية ليسلكا طريقاً جبلية».

فوجئت بحيث إنني لم أنطق بكلمة، لكن عقلي كان يدور فيه ألف سؤال وسؤال. غادر شارباست! غادر بدوني أنا! سألتها: «منذ متى غادر شارباست؟».

عرفت سوزان ماذا يدور في أفكاري: «لن تستطيعي اللحاق به أبداً. غادر منذ ساعات عدة». راحت تمسّد ذراعي: «أَصغي إليّ يا جوانا. سمعنا أن جنود الأمن الموجودين على الحواجز أصبحوا أكثر تشدداً الآن. إنهم سيسمحون للنساء والأطفال بالعبور، لكنهم يأخذون الرجال الذين يحاولون العبور، ومن بين هؤلاء فتية بعمر الثانية عشرة. ويعرف كثيرون أن شارباست وكاماران هما من مقاتلي «البشمركة»، لذلك فهما سيعرّضان حياتيهما للخطر إذا خاطرا بالعبور على أحد الحواجز». صمتت سوزان قليلاً قبل أن تضيف: «لدينا معلومات بأن الحكومة اعتمدت سياسة جديدة تقضي بإعدام كل المقاتلين بصورة آلية. يقوم الجنود بقتل رجالنا في الغابات، وذلك بعد إيقافهم على الحواجز».

رحت أصرخ: «لكن من المفترض أن أكون مع شارباست!

أستطيع أن أمشي! انظري!». مشيت بعد ذلك حول الغرفة مرتين.

هزّت سوزان رأسها ببطء: «تخطيتِ حدود قدراتك الجسدية يا طفلتي العزيزة. يتعيّن عليك أن ترتاحي لهذا اليوم، وستنقلين بالسيارة غداً إلى ساندولان». أشارت إلى رزمة صغيرة من الأوراق التي استقرت على طاولة مطبخ صغيرة. «ترك شارباست أوراقك الثبوتية العراقية هنا. تعتبرك الحكومة يا جوانا عربية عراقية «صرفاً»، وتنتمين إلى عائلة العسكري. لا يوجد شيء في أوراقك الرسمية يربطك بالأكراد. أعتقد أنك تتمتعين بحظ كبير بعبور الحواجز من دون جدال».

خفَتَ صوت سوزان عندما تطلعت نحو ابنها الصغير، الذي انشغل بمشاهدة الصور المتحركة على شاشة التلفاز الأبيض والأسود. «ينبغي عليك أن تغادري بسرعة. بدأت الطائرات بالطيران فوقنا، ولا نعرف ماذا سيحدث».

انتبهت عندها فقط إلى الطائرات العدوة التي تحوم في السماء. اكتسبت خبرة في تمييز كل أصوات الطائرات. أعرف صوت محرك الطائرة عند استطلاعها المنطقة، وأصبحت أميّز الصوت الخاص الذي تصدره أثناء إغارتها لتسقط القنابل. أصغيت لمدة دقيقة كاملة قبل أن أقرر أننا لا نتعرض لخطرٍ داهم مثل الذي تعرضت له «مرجة»... ليس الآن على أي حال.

وضعت سوزان يديها على كتفيّ، وأكدت ما قلته: «نعتقد

أنها طائرات استطلاع. أزعجتنا هذه الطائرات البارحة أيضاً، وحلقت فوق رؤوسنا في فترة الصباح بالكامل».

لم أضطرب نتيجة سماعي صوت الطائرة، لكني انزعجت كثيراً من مغادرة شارباست هكذا. لم أكن عبئاً على زوجي أبداً، منذ اليوم الأول من زواجنا. برهنت ذلك عملياً البارحة، برغم بصري الضعيف، عندما استطعت أن أجاري شارباست وكاماران في كل خطواتهما.

سيطر عليّ شعور بالانزعاج إلى درجة أنني بدأت أغلي غضباً.

يعرف شارباست مدى عنادي وتصميمي، لهذا تعمّد تجنب حدوث مواجهة بيننا عندما غادر أثناء استغراقي في النوم! يعرف أنني لم أكن لأدعه يغادر وحده لو كنت مستيقظة. كنتُ سألتصق به عملياً، أو كنت سأتبعه في الأحياء. وكنت سألجأ إلى أي شيء من أجل تجنب مثل هذا الفراق، الذي لربما يأتي في أخطر لحظة من حياتنا.

بدأت أسير حول الغرفة الأخيرة، ورحت أحرّك ذراعيّ. لم يسبق أن شعرت في حياتي باضطراب كهذا من قبل.

عبرت ذهني فكرة جديدة: ماذا لو لم أرَ شارباست بعد الآن. يُحتمل أن يكون قد مات، بينما أنا أقف آمنةً هنا في مطبخ سوزان.

لم أمتلك وسيلة لمعرفة مكانه، أو ماذا يحدث له، خصوصاً

أن الاختفاء الغامض للأشخاص لم يكن بالأمر النادر في أنحاء كردستان. كيف أستطيع إيجاده إذا لم يظهر فيساندولان؟

دفعني هذا الأمر الغامض إلى الارتجاف بسبب الإحباط والغضب. شعرت بأنه في إمكاني خنقه بيديَّ هاتين. وبرغم هذا لا أريد أن يؤذيه أحد غيري.

أخذت سوزان زمام المبادرة، فوجهتني بيديها، وجعلتني أستدير، ثم دفعتني إلى مطبخها الصغير: «دعيني أحضّر لك فطوراً شهياً. ما رأيك ببيض مسلوق، وبعض الخبز والمربّى، مع قليل من الشاي الساخن اللذيذ، أتوافقين؟».

قررت أنني يجب أن أكون قوية، هذا إذا ما قررت أن ألحق بشارباست عبر الطرقات الجبلية. إذاً، يتعيّن عليّ أن أتناول الطعام.

لم يمر وقت طويل حتى بدأت بتناول الفطور الشهي، لكني ما إن بدأت بالأكل حتى شممتُ رائحة جسمي الكريهة. «يجب أن آخذ حماماً حقيقياً يا سوزان، فمنذ الهجوم غسلت المواد الكيماوية عني فقط. أشعر برائحة جسدي القوية، وأني متسخة، إلى درجة أنني لا أستطيع تحمّل نفسي. ما رأيك؟ هل من خطرٍ في ذلك؟».

استعرضت سوزان مظهري المبتذل، ويبدو أنها اشتمت رائحتي، لأنها أصدرت قرارها: «نعم. ليكن حماماً سريعاً إذاً. غسلت كل ثيابك في وقتٍ مبكر من هذا الصباح. إنها منشورة في الخارج كي تنشف في الهواء. سأحضر لك بعض الثياب النظيفة الآن».

ابتسمت امتناناً لها، بينما استدارت سوزان كي تخرج.

شاهدت سوزان من خلال النافذة الصغيرة أثناء تناولي لآخر القضمات من الخبز والمربى. شاهدت الغسيل الذي نُشر فوق ملجأ العائلة تقريباً. رحت أفكّر في أن معرفة مكان ملجأ العائلة من القصف هو أمر رائع، وخصوصاً في حالة قررت الطائرات الإغارة.

ناورت سوزان حول مدخل الملجأ. رأيتها تتلمس ثيابي بأصابعها لتعرف مدى رطوبتها، ثم وهي تختار عدة قطع من هذه الثياب المغسولة والمنشورة فوق حبل الغسيل.

أعرف أن سوزان هي صديقة صدوقة. أتمنى أن أقابل مساعدتها بمثلها في حالة احتاجت إلى ملجأ أمين.

عادت بسرعة حاملةً معها رزمة صغيرة من الثياب الداخلية النظيفة، التي فاحت كلها برائحة عطرة. قادتني بعد ذلك إلى حمام العائلة، الذي أُحيط بجدران وأحجار إسمنتية رمادية اللون.

بدا الحمام الصغير مظلماً، ولا وجود لأي رسوم على جدرانه. تطلعت صوب الأعلى كي أرى النافذة الصغيرة الموجودة في أعلى الجدار، والتي لا يتجاوز عرضها عرض راحتَي اليد.

اقتربت من برميل معدني مليء بالماء وضع بحرص فوق سخّان يعمل على الغاز السائل. لاحظت وجود صنبور (حنفية)

مياه قديم رُكّب في أسفل البرميل. شاهدت أيضاً وعاءً معدنياً صغيراً على الأرض. قررت أولاً أن أملأ الوعاء، وأن أسكب الماء فوق رأسي وجسمي، ثم سأستخدم الصابون قبل أن أبدأ بالتشطيف.

عادت سوزان لتناولني صابونة، وكوباً صغيراً مليئاً بالشامبو، وقطعة من القماش لأستخدمها في حمامي، ومنشفة شبه مهترئة، لكنها نظيفة.

حذّرتني سوزان لدى مغادرتها المكان: «أسرعي».

أجبتها في المقابل: «سأسجّل رقماً قياسياً في سرعة الاستحمام».

نزعت ثيابي بأسرع وقتٍ ممكن، وسكبت المياه الساخنة قليلاً على شعري وجسمي. فعلت ذلك أكثر من مرة. استمتعت بالماء المنسكب حول جسدي. وضعت القليل من الشامبو في راحة يدي، ثم بدأت بفرك راحة يدي على جذور شعري. فركت بأصابعي بأشد ما يمكنني. استمتعت بشعور رائع.

لكن الحياة قابلة للتغيّر في غضون لحظة واحدة.

وقفت هناك بجسدي المليء بفقاعات الصابون. وفجأةً، سمعت الصوت الذي أعرفه جيداً لمحرّك طائرة قريبة جداً، بحيث إنني شعرت بالاهتزازات التي أحدثتها على الجدار الذي وضعت يدي عليه. لم أشعر بالذعر. ما يحدث الآن، وسبق

واختبرته عشرات المرات في الفترة التي قضيتها في برغالو، والتي تحمّلت خلالها مخاطر عديدة. اكتفيت بحبس أنفاسي، وانتظرت ما سيحدث. حلّقت الطائرة أخيراً من دون إلقاء حمولتها من القنابل.

زفرتُ، واعتقدت أن الخطر زال.

سمعت صوت الطائرة مجدداً قبل أن يتسنى لي إنهاء عملية التشطيف. بدأت الرغوة تتساقط حول وجهي وظهري، لكن لم يكن أمامي من خيار غير الهرب. تمسكت بفستاني بقوة، ووضعته فوق رأسي، لأنه إذا كتب عليّ الموت، فسأموت مرتدية ثيابي، ولن أرضى بالموت عارية.

بدأت بتحريك ساقيَّ كي أهرب من الغرفة، لكني سمعت في هذا الوقت بالذات أقوى دوي سمعته في حياتي بكاملها. سمعت انفجاراً كان من القوة بحيث ضجت أذنيّ بالألم.

أرجعت رأسي إلى الوراء، وفتحت فمي، وبدأت بالصراخ.

تتردد أصوات الانفجارات في كل مكان. سقطتُ على الأرض، وأحنيت ركبتيّ، ثم حميت وجهي ورأسي بذراعيّ الاثنتين.

إنها النهاية فعلاً. سأموت. اجتاحني غضب من شارباست. لم يودعني على الأقل. سأموت وحيدة.

صرخت باسمه: «شارباست!». وفي هذا الوقت بالذات، تردد صوت انفجار كبير هزّ الجدران، وهزّ الأرض من تحتي.

تذكرت في آخر لحظة صافية من التفكير بقيت لي، طفلي الذي لم أره بعد، وشعرت بحزن لا يوصف.

أحسست بأن جسدي يطير في الهواء. شعرت بعد ذلك بأنني ريشة في مهب رياحٍ قوية، قُذفتُ إلى جدار اسمنتي لا يرحم بأحجاره الرمادية.

لفّتني، بعدها، الظلمة.

(٢١)

القصف على «مرجة»

المنطقة المحظورة، مرجة، كردستان:
خريف ١٩٨٧

أسعفني الحظ عندما تعرضت للقصف. دفعتني قوة القصف إلى الجنة مباشرة، أو هكذا خيّل إليّ في البداية.

خيّل إليّ، وسط الحالة الضبابية الساكنة التي أحاطت بي، أنني في السماء. تناهى إلى سمعي صوت يناديني، لكنه غير مألوف لديّ. تزامن ذلك مع رؤيتي والدي.

حدّقت، وسط ذهولٍ كامل، في ظل والدي الذي استدار، حتى أصبح واضحاً أمامي. سمعت بعدها والدي يتكلّم، وهو الذي كان أصمَّ، وأبكم، في ما مضى.

أحاط القلق وجهه الوسيم أثناء توبيخه الرقيق لي: «جوانا، ماذا تفعلين هنا؟ يجدر بك أن تكوني في البيت مع والدتك».

جاء صوت والدي كما تخيلته تماماً، لطيفاً ومليئاً بالثقة. وقفت وقد انقطعت أنفاسي. إنها اللحظة التي تخيلتها منذ أن كنت فتاةً صغيرة عندما كنت أهمس له: «أبي. أبي، أرجوك أن تتحدث إليّ». لم يتحدث إليّ على الإطلاق في ذلك الوقت.

بدأت صورته المألوفة تتلاشى، وسمعت صدًى لصوت يأتي من البعيد. ناداني أحدهم باسمي: «جوانا! جوانا! هل أنتِ على قيد الحياة؟».

بدأت بالأنين، وكافحت كي أجمع أفكاري، لكن ذكرياتي بقيت غامضة، وظلّت عاجزة عن التناسق. حرّكت ذراعيّ بعد مجهود كبير، ثم لمست رأسي ووجهي بأطراف أناملي. دُهشت عندما اكتشفت أن رأسي مبلّل وزلِق. هل كنت أسبح؟

«جوانا؟».

استدرت لأحرّر ساقيّ.

«جوانا، اصرخي إذا استطعتِ».

تصاعد التشوش الذي أصبت به. فتحتُ عينيّ مرتجفةً، وتفحصت المكان المظلم الذي يحيط بي. استطعت التأكد من أنني منبطحة على أرضٍ اسمنتية، بالرغم من أن الهواء لم يكن نقياً.

بدأت شذرات ذاكرتي بالتجمّع في ذهني، لكن ببطء: أنا متواجدة في «مرجة»، وكنت في منزل سوزان. كنت منهمكة في الاستحمام عندما أغارت طائرة معادية على القرية.

لمست رأسي بلطفٍ مجدداً، وتساءلت عن الوقت الذي مضى على فقداني وعيي. شعرت كأن الدم يتدفق من رأسي إلى وجهي ورقبتي. أعتقد أنني تعرضت لإصابات خطيرة في رأسي.

رحت أتأوه بصوت أعلى من ذي قبل، وخشيت من الأسوأ، بالرغم من أنني لم أكن أتألم.

شارباست! أين شارباست؟

«جوانا؟ أين أنتِ؟».

حاولت أن أصرخ في محاولة يائسة مني لأجعلهم يعرفون مكاني، لكني لم أستطِع إلا أن أُصدر همهمة ضعيفة في حنجرتي. شعرت بأن هناك شيئاً ما يسد فمي. هل كُسر فكي؟

تفحصت فمي بأصابعي. اكتشفت فيه كتلةً، تشبه كتلة وحلٍ متجمدة! شعرت بالذعر، لكني تمكنت من استخدام أطراف أناملي لأنتزع تلك الكتلة من فمي. لم أستطع أن أتذكر من أين أتت هذه المادة الصلبة، أو حتى طبيعتها. تقيأت الأجزاء الصغيرة التي حررتها من مكانها، وبدأت أغمغم وأبصق. تذوقت طعم الدم في لساني المجروح، وشفتيّ الممزقتين.

ذكّرني طعم الدم بنصيحةٍ كانت ترددها والدتي على مسامعي، وذلك كي تحذرني من أن انتبه إلى ما أقوله: «جوانا، افتحي عينيك، وليس فمك».

افترضت عندها أن فمي كان مفتوحاً في الوقت غير المناسب. رسمت على شفتيّ ابتسامةً ساخرة.

«جوانا! اخرجي! إننا نتعرض لهجوم!».

زمجرت بصوتٍ خافت. لماذا لا يأتي أحدهم لنجدتي؟ هل دُفنت وأنا حيّة؟ هل انهارت الجدران والسقف فوق رأسي؟

«جوانا!».

تحرّر فمي أخيراً من تلك القطعة، فاستطعت إطلاق صرخة قوية.

«أنتِ حيةً! نحمد الله!».

سمعوني أخيراً. سأجد المنقذين في منتصف الطريق. تخيّلت جميع سكان قرية «مرجة» وهم يخاطرون بحيواتهم في العراء كي يحررونى من الركام الذي سقط عليّ.

بقيت ساذجة، حتى بعد كل هذا الوقت في برغالو.

استخدمت كل القوة التي استطعت حشدها، ودفعت إلى الأعلى بيديّ. لم أشعر بأن شيئاً يقيّدني. بدأت أتلمس طريقي، وحاولت أن أحدد موقعي. تذكرت أن آخر لحظات وعيي كانت في الحمام. حركت يديّ على جسدي كله كي أتأكد من أنني مرتدية ملابسي بالكامل. لا أستطيع أن أظهر عارية هكذا في المنزل.

تذكرت حينئذٍ مدى الجهد الذي بذلته كي أرتدي الفستان. إنني بنت مجتمعي، لذلك جازفت بحياتي، واستهلكت وقتاً إضافياً كي أستر جسدي العاري. أفضّل أن أكون جثة بكامل ملابسها على أن أكون امرأة حية، لكن عاريةً ومعرضة للفضيحة. لم أندم قط على ما فعلته.

إن الخروج من مكاني كان تحدياً حقيقياً لي. انتشر حطام أثاث المنزل، وركام جدرانه الاسمنتية، في كل مكان. زحفت

على يديّ وركبتيّ من أجل الوصول إلى المكان غير المسقوف الذي يقع ما بين الحمام وغرفة النوم. جلست قليلاً كي أقيّم الوضع، وأعطيت نفسي بهذا لحظات قليلة كي تتكيّف عيناي. لاحظت أن المنزل نفسه لم يتَهدم. تحمّلت جدران الدعم الإسمنتية القصف الذي تعرض له المنزل.

كدت أرقص من فرط ارتياحي.

كم من المرات سيخدمني الحظ؟ صحيح أنني لم أكن محظوظة عندما تعرضت لهذه المنازلات مع الموت نفسه، لكنني محظوظة لأنني عشت كي أُخبر الحكاية.

مسّدت رأسي. وجدت أنني ما زلت مبلّلة بالدم. تذكرت أن رأسي ارتطم بذلك الجدار الإسمنتي. تمنيت ألا أكون أُصبت بارتجاجات في الدماغ.

«جوانا؟».

صرخت بصوت متعب: «أنا هنا».

«هل تستطيعين الخروج؟».

حاولت أن أسحب نفسي، لكنني لم أستطِع. عجز ذراعاي عن حمل جسمي، كما أن رجليّ كانتا ترتعشان.

انهمرت الدموع من عينيّ، وكرّرت بصوت ضعيف: «أنا هنا».

حدث ذلك عندما سمعت هدير طائرة. ما زالت طائرات أعدائنا تحوم في الأجواء.

قذفت بنفسي إلى الأمام فور سماعي هذه الأصوات الراعدة التي تعد بالمزيد من الكوارث، وزحفت مجدداً على يديّ وركبتيّ. راحت شذرات الزجاج تجرّح يديّ وجسمي من خلال قماش فستاني.

شققت طريقي من خلال الثغرات التي وجدتها أمامي إلى أن استطعت أخيراً رؤية منقذي الواقف في الخارج. عرفت أنه كريم.

تطلعت من حولي. لم أشاهد أي شخص إلى جانبه. صُعقت عندما أدركت أنه أتى لوحده. هل قُتل الآخرون؟

مدّ يده إلي لنجدتي: «تعالي يا جوانا. تعالي معي».

تطلعت مجدداً لأتأكد من وجود منقذين آخرين.

أجاب كريم بعد أن لاحظ نظرتي الحائرة: «الجميع في الملجأ. هذه الغارة خطرة جداً». أدركت على الفور مدى المخاطرة الكبيرة التي تعرّض لها كريم بتواجده في العراء أثناء الغارة من أجل البحث عني. أجبته: «أوه، تخاطر بحياتك من أجلي».

أمسك يدي وجذبني نحوه حتى وقفت على قدميّ، وسألني: «هل تستطيعين المشي؟».

أومأت بالإيجاب.

استطعنا سماع صوت انفجارات القنابل قربنا. سرّع كريم خطواته وقال: «هيا. يجدر بنا الوصول إلى الملجأ».

اصطحبني كريم إلى الملجأ المركزي لقرية «مرجة» القريب، ولم يأخذني إلى الملجأ الطيني الصغير المجاور لمنزله. شعرت بالارتياح، لأنني تعبت من رؤية تلك الجحور الصغيرة الموجودة في برغالو.

تصاعدت أصداء أصوات الانفجارات القوية في اللحظة التي دلفنا فيها إلى الملجأ. نجونا... لكن بالكاد.

صرخت سوزان: «الحمد لله، جوانا على قيد الحياة!».

ترك كريم يدي، فاندفعت نحو سوزان. أسرعت هي الأخرى كي تسندني. أمسكت ذراعيّ وقادتني نحو جماعة صغيرة من النساء والأطفال. قالت لي: «عرفت أنك خاطرتِ بالاستحمام!».

تحلّقت النساء من حولي، وأخذت بعضهن عدة مناشف، ووضعنها فوق رأسي وكتفيّ، بينما بدأت أخريات بتفحّص يديّ وأصابعي النازفة.

عبّرت عن مخاوفي: «هل سأموت؟».

«لا. سوف تعيشين».

وضعت يدي فوق مؤخرة رأسي الذي بدا زلِقاً، ومليئاً بالدماء: «لكن رأسي؟».

وقفت امرأة على قدميها وقالت: «دعيني أرَ رأسكِ». وقفت من فوقي، وأزالت كل المناشف عن رأسي لتتمكّن من تجميع شعري إلى اليمين واليسار، وتفحصت فروة رأسي تحته. أمسكت أنفاسي.

هزّت كتفيها: «أنت بخير. هناك القليل من الخدوش لا غير».

رفعت رأسي: «حقاً؟».

أمسكت تلك المرأة رأسي بين يديها: «خُدش وجهك بسبب شذرات الإسمنت، وأُصيبت شفتاك بخدوش». ابتسمت قبل أن تضيف: «لكنك ستعيشين».

تدخلت امرأة ثالثة: «تمزّق فستانك، وركبتاك تنزفان». ألقت نظرة عن قرب لتضيف: «وتنغرز شذرات الزجاج في ركبتيك».

أومأت. أعرف أن ركبتيّ ستشفيان، أما قلقي الأكبر فتركّز على جروح رأسي. تطلعت نحو المرأة الأولى وقلت: «لكن رأسي». تلمستُ المنطقة العليا من فروة رأسي بحذر: «من أين يأتي كل هذا الدم؟».

«هناك القليل جداً من الدم. هل تشعرين بطبقة الشامبو اللزجة على رأسك؟».

قرّبت يديّ من صدري ورحت أقهقه. نسيت أنه لم يتوفر لي الوقت الكافي لشطف رأسي وجسمي. امتلأ شعري الكثيف بالرغوة. كانت تلك هي المادة اللزجة التي شعرت بانسكابها على ظهري ووجهي!

غمرني شعور عارم بالارتياح. لم يستمر شعوري بالارتياح طويلاً حتى شعرت بحركة في المنطقة السفلى من بطني، كأن شيئاً كان عالقاً وتحرّر فجأة.

زفرت، ورحت أتساءل عما إذا كان طفلي، الذي لم يولد بعد، بخير. استنشقت الهواء بعمق، ووضعت يدي فوق بطني.

ظهر القلق على وجه سوزان، وسألتني: «هل تشعرين بألم في هذه المنطقة؟».

هززت رأسي بالنفي. لم أرغب في أن أتشارك بسرّي مع أي شخص، إلا إذا كان ذلك ملحّاً، وخصوصاً أنني لم أكن متأكدة من حملي بعد. قررت أن ألتزم الصمت، ولا أبوح بهذا الموضوع.

نادت سوزان زوجها ليُحضر الدلو الموجود في الملجأ لاستخدام القرويين. لم تتوافر أكواب الزجاج، وهكذا تجرأت على الشرب من الدلو مباشرة. اكتشفت أنها مياه ينابيع عذبة.

بدأت امرأتان بانتزاع شذرات الزجاج بحرصٍ من ركبتيّ.

أحضرت سوزان عدة حِرامات، وأعلنت: «لن تنتهي هذه الغارة في وقت قريب، لذلك أريدك أن ترتاحي».

غطتني سوزان بحِرام وجلست في إحدى الزوايا، وناولتني مناشف جافة كي أضعها فوق رأسي. لم يكن الملجأ مزوداً بحمام أستطيع أن أشطف فيه الصابون عن رأسي.

نمت في الوقت المتبقي من الغارة، ولم أستيقظ بإرادتي في الواقع. استيقظت على صوت شارباست العذب.

«جوانا. استيقظي».

شعرت بأنني مترنحة عندما استدرت برأسي لأجده أمامي يتطلع نحوي.

«جوانا؟».

يا للحظة السعيدة! إنه ما زال حياً. «شارباست!». وقفت من دون أن أتنبه إلى شكلي المضحك حتى انفجر شارباست بالضحك.

«أتدرين أنك تضعين مناشف على رأسك؟».

تكلمتُ بنبرة غاضبة: «شارباست! هل تعلم ماذا حدث! ما كان يجب عليك أن تتركني!». لكني شعرت بفرح لوجود شارباست ولبقائي على قيد الحياة. أدركت أننا حصلنا مجدداً على فرصة ثانية.

لم يتمكن شارباست من التوقف عن الضحك، لكنه أشار إلى المناشف التي ما زالت تتدلى من على رأسي وكتفيّ: «ما هذه؟».

أجبته بسرعة: «كنت في الحمام عندما حدثت الغارة».

انحنى وحملني بين ذراعيه: «أعتقد أنه عليك إنهاء هذا الحمام يا حبيبتي، لأن الصابون يغطي وجهك كله».

شعرت بأن غضبي الذي فارقني في البداية عاد ليسيطر عليّ: «إنه ليس الصابون، بل شذرات الإسمنت. حاولتَ حمايتي من مخاطر السفر على الطريق، فكانت النتيجة أنك وضعتني في خطرٍ أشّد! لو لم تتركني لكنت آمنة معك».

أمسك ذراعي برفق: «تعالي. دعينا نَعُدْ إلى منزل كريم. سنناقش خططنا هناك».

شعرت بالتعب، والألم، لكني مشيت وأنا أعرج قليلاً بسبب الألم الشديد في ركبتيّ. خرجت وتطلعت حولي. بدت الشمس رائعة في مغيبها بأشعتها الزهرية والذهبية، لكنها كانت تغيب عن قرية دمرها عدوّنا جزئياً. كنا أحياء. كان يكفيني هذا، فلم أُلق في تلك اللحظة بالاً لأي شيء آخر.

شعرت بتشنج آخر، في أسفل بطني مجدداً. إذا ما كنت حاملاً بالفعل، فلا بد من أن طفلنا، الذي لم يولد بعد، هو في خطر شديد. لم يكن في استطاعتي فعل أي شيء، بسبب عدم توفر أي عناية طبية في «مرجة». ولا أستطيع الحصول على العناية الطبية اللازمة لي، عدا عن الإسعافات الأولية، إلا في السليمانية. لا أستطيع أن أتوجه إلى السليمانية في الوقت الحاضر. سمعنا أيضاً أن الحكومة العراقية قررت إعدام أي شخص يسعى إلى الحصول على علاج طبي لإصابته الناتجة عن المواد الكيميائية. سيلاحظون من إصابة عينيّ أنني ناجيةٌ من برغالو، وما زالت عيناي حمراوي اللون، ومتورمتين، ولزجتين نتيجة استمرار الإفرازات.

أردت حماية طفلي الذي لم يولد بعدُ بأي ثمن. وعاهدت نفسي أن أمشي ببطء وأجلس بهدوء ما أمكنني ذلك. أتمنى أن يعيش هذا الجنين.

لم أستطِع فعل أي شيء بالنسبة إلى عينيّ غير وضع المزيد من قطرات العيون فيها، والتمني أن يستمر التحسّن.

وجّهت نظرةً خاطفةً في اتجاه وجه شارباست، وتساءلت عما إذا كان يجدر بي أن أخبره بمسألة الحمل المحتمل. أوحت لي نظرة سريعة إلى وجهه المتغضّن أنه مشغول بمشاكل عديدة أخرى. لا أريد أن أضيف قلقاً جديداً إلى أسباب قلقه.

اكتشفت أمراً آخر يتعلق بمغادرة شارباست قرية «مرجة» من دوني. عرفت أنه كان في إمكاني اللحاق به في الطريق لو أنني أسرعت قليلاً. علمت أنه حذّر سوزان من شخصيتي العنيدة، وهكذا عمدَتْ إلى عدم قول الحقيقة عندما أخبرتني بأن زوجي قد غادر قبل ساعات، وذلك كي تعطي شارباست وكاماران وقتاً كافياً للابتعاد عن القرية. اكتشفت لاحقاً أنه كان قد غادر المنزل قبل لحظات قليلة فقط، وحتى عندما كنت أوجه الأسئلة إلى سوزان. عرفت هذا الأمر بسبب عودة شارباست بسرعة إلى الملجأ ليجدني ما زلت مبللة بعد الحمام، ومضطربة نتيجة القصف.

سار شارباست وكاماران في الطريق لمدة ثلاثين دقيقة فقط قبل أن يسمعا صوت الطائرات المغيرة تقترب لتقصف «مرجة». استطاعا رؤية الطائرات العدوة فوقهما. وأخبرني كاماران في ما بعد، «وقف شارباست مثل رجلٍ متجمد، وراح يراقب تلك الطائرات وهي تلقي قنابلها على «مرجة». نادى شارباست اسمك مرةً واحدةً قبل أن ينطلق عائداً بأقصى سرعته. وثب فوق

صخور كبيرة، وأخاديد شديدة الانحدار». وما لبث أن انطلق كاماران بالضحك قبل أن يضيف: «إنك غالية جداً على قلب زوجك يا جوانا. لا تشكّي في ذلك أبداً».

جلبت لي كلمات كاماران موجةً عارمة من السعادة، لكني قلقت أكثر من السابق بشأن ابتعادنا عن بعضنا. أتمنى ألا يحدث هذا الأمر. أعرف أن شارباست وكاماران يعرّضان نفسيهما لخطر شديد إذا استخدما الطرق الرئيسية، ولذلك يتعيّن عليهما اختصار الطريق عبر الغابات.

منعتني جروحي الكثيرة من القيام برحلة المشي الصعبة هذه، لكن الوضع السائد كان يدعو إلى انتقالنا من هذا المكان. يستحيل علي صعود هذه الأرض الجبلية، وخصوصاً بعدما تأكدت من أنني حامل. اعتقدت أنه من الأفضل لي أن أدع جسمي يستريح، لذلك صُعق شارباست عندما وافقت بوداعة على أن نفترق في مكانٍ تشعبت فيه الطريق. وافقت على أن أسلك طريقاً، بينما يسلك هو طريقاً آخر.

اتفقنا على أن يلاقيني شارباست وكاماران في مستوطنة ساندولان الصغيرة، التي تبعد أربع ساعات بالسيارة. لكن قطع هذه المسافة مشياً يستغرق من عشر إلى اثنتي عشرة ساعة من المشي السريع. علمنا أخيراً أن ساندولان لا تزال في أيدي قوات الاتحاد الوطني الكردستاني، برغم أنها لا تبعد أكثر من كيلومترات قليلة عن المناطق التي تحتلها قوات الحكومة. قدّرت أن هذه المستوطنة قد تقع بيد العدو في أي وقت. واتفقنا على

أن نكمل طريقنا من هناك إلى سانجاسر، وهي مكان خطِر بالنسبة إلينا، لأن أعداءنا يسيطرون على تلك المنطقة. لكن، أدركنا أنه لا خيار لدينا غير المرور بسانجاسر، لأننا اتفقنا مع مهرّب شهير هناك قال إنه سيؤمن مرورنا عبر جبال قنديل.

أعرف أنها ستكون رحلة خطرة، لأننا سنطارَد مثلما تُطارَد الحيوانات، طوال فترة الرحلة.

لمس شارباست وتراً حساساً بالنسبة إليّ عندما سألني إذا ما كنت سأفكر في احتمال عودتي إلى بغداد. قال إنه لربما يجدر بي العودة إلى المدينة، وتجنب الأحداث التي ستأتي بالتأكيد. أخبرني بأنه لا يستطيع تحمل رؤيتي وأنا أموت.

تطلعت إليه من دون أن أستطيع تصديق أنني أسمع هذه الكلمات. ضربت صدره الصلب بقبضتيّ المشدودتين. تسببت حركتي هذه في صوت يشبه الفحيح. تلقّى جوابه، لكن على طريقتي. إن مصيرنا هو مصير واحد، لأننا واحد. سننطلق معاً ونحن على قيد الحياة نحو المناطق الآمنة من أجل بناء حياتنا، وإلا فسنموت معاً. الأمر هو بهذه البساطة. سنكون معاً بغض النظر عن توجهات قدرينا. أعرف أن هناك زوجات أحببن أزواجهن بقدر ما أحب شارباست، لكني متأكدة من أنه ليس من واحدة منهن تحب زوجها أكثر مني.

أكملتُ حمّامي الخطِر، أخيراً، بعد مغادرة شارباست وكاماران «مرجة» للمرة الثانية. ارتديت بعدها ملابس نظيفة، وجهزت الحقيبتين الصغيرتين اللتين تحويان أغراضي.

ودعت كريم، وسوزان، وأولادهما، بعد مضي عدة ساعات. لم ينضم كريم إلى مقاتلي «البشمركة»، لذلك كان يأمل ألا يكون هو أو عائلته هدفاً لرجال صدّام. انضممت إلى جماعة مسافرة إلى ساندولان. وكان شارباست رتّب عملية نقلي بالسيارة مع معارف موثوقين بالنسبة إليه. لم نرَ أثراً لعدونا لأن الطريق الرئيسية من «مرجة» إلى ساندولان كانت لا تزال في أيدي قوات الاتحاد الوطني الكردستاني. كان باستطاعة شارباست وكاماران أن يأتيا معنا بالسيارة، لكننا كنا غير مستعدين لمخاطرات غير ضرورية، وخاصة أنني أعرف أن الرجلين مطلوبان من قِبل حكومة بغداد.

تطلعت من خلال نافذة السيارة إلى مجموعات من اللاجئين الأكراد المسرعين في طريقهم نحو مقصدهم. لاحظت أن كل الرجال مسلحون برشاشات «الكلاشينكوف»، وهو السلاح المفضّل لدى الأكراد، ويتمنطقون بأحزمة رصاص ظاهرة على صدورهم. لاحظت أيضاً أن الكثيرات من النساء يحملن أطفالهن الملفوفين على أجسادهن. شاهدت كذلك أطفالاً يمشون خلف أمهاتهم، بينما انشغل الأطفال القلقون الأكبر سناً بجر حبال مربوطة برقاب البقر، أو الحمير عند طرفها الآخر. لاحظت أن الدجاج والبط وُضعت بأقفاص خشبية على جوانب الحمير. شعرت بحزن شديد من جراء أوضاعهم هذه. أين سيجد المدنيون الأمان عندما تصبح كل المناطق من حولنا خطرة؟

إنها رحلة رائعة لولا حقيقة أننا نهرب للنجاة بحيواتنا. لم يبدأ الجليد هجومه على النباتات الخضراء بعد، لأننا كنا في أواخر فصل الخريف. بدت الأشجار بمثابة باقات ضخمة من النباتات ذات الألوان الخضراء، والذهبية. تنتصب هذه الباقات فوق بساط العشب الذابل ذي اللون البني الشاحب. امتدت التلال المنحدرة نحو سلسلة الجبال البعيدة. لم يصل الثلج بعد، لكن الطقس بدأ يميل نحو البرودة، لذلك شعرت بالبهجة لأن الشمس مشرقة، وهي التي تجلب الدفء إلى هذا الهواء الخريفي المنعش.

أدركت أن الهواء سيكون أبرد تحت ذلك الغطاء الكثيف من الشجر. حدّقت كالمسحورة في تلك الغابات، كنت أعرف أن حبيبي شارباست يمشي في مكان ما تحتها.

وصلنا إلى ساندولان، وهي مستوطنة صغيرة تتألف من منازل قليلة فقط. توجهت السيارة إلى منزل صغير حيث يعيش الزوجان عبد الله ومينيش. علمت أنهما من مقاتلي «البشمركة»، وأنهما مسؤولان سرّيان عن ذلك السيل البشري الذي بدأ بالتدفق من وادي جافاتي.

صُدمت عندما علمت أن شارباست وكاماران لم يصلا بعد. صُدمت برغم المنطق الذي يقول إن وصولهما في هذا الوقت هو أمر مستحيل إلا إذا نبتت لهما جوانح.

بدا الزوجان المضيفان وسيمين بشكل واضح. لاحظت أن عبد الله يشبه شارباست بوسامته، أما مينيش فكانت مثا

للجمال الأسمر المثير. أظهر الاثنان شجاعةً كبيرة، ولم يكترثا لأنهما سيلقيان الموت المحتم مع أطفالهما الصغار إذا اكتشف العملاء (الجحش) نشاطاتهما. سمعت أنه ليس هناك ميتات أبشع من تلك التي تتم على أيدي هؤلاء العملاء، الذين يتظاهرون بأنهم من مقاتلي الاتحاد الوطني الكردستاني في وادي جافاتي.

أصرّ الجميع عليّ أن أرتاح بسبب جروحي الكثيرة، لكني لم أفعل حتى أتأكد من سلامة شارباست. جلس الزوجان اللطيفان حولي تحت شجرة جوز. شربنا الشاي المحلى، وأكلنا الخبز الكردي مع الجبنة، ورحنا ننتظر وصول المسافرَين عبر الغابة. أسندتُ رأسي إلى جذع تلك الشجرة الضخم، ورحت أغمض عينيّ وأفتحهما بشكل متقطع. بحثت في الطريق عند سماعي كل حركة للأوراق الخريفية. مضت ساعات عدة قبل أن تنبهنا أصواتٌ خافتة إلى أن أحداً يمشي على الطريق. رأيتهما فجأة، ولاحظت وجهيهما الشاحبين من أثر الإرهاق، لكنهما بقيا مبتسمَين، ولوّحا بأيديهما، كأن مسيرهما لفترة عشر ساعات هو مجرد نزهة. بدا الأمر كأننا نتجمع لننطلق في نزهة عائلية، وليس في سباقٍ طويلٍ آخر للنجاة بحياتنا.

شعرت بسعادة لا توصف لرؤية زوجي مجدداً، بالرغم من إدراكي التعابير التي ارتسمت على وجهه. شعرت بأن شيئاً ما ليس على ما يرام.

ألقى شارباست التحية على كل الموجودين بسرعة، لكنه

ادّعى أنه يتعيّن علينا مغادرة ساندولان بأقصى سرعة ممكنة. قال إنه يمتلك قدرة على الإحساس بالخطر الداهم. وأكد أن عدونا يطاردنا، وأن جميع الموجودين في ساندولان سيكونون في خطر كبير.

شعرت بأن يديّ دبقتان مع تلفظه بهذه الكلمات، وأن الشعر في رقبتي قد تصلّب. أمضيت مع شارباست ما يكفي من الوقت لأعرف أنه يمتلك موهبة حقيقية تمكّنه من الإحساس بالخطر الحقيقي قبل أن يضرب مباشرة. إنني من الذين لا يرغبون في تجاهل إلهامه.

نهضت بسرعة، وتحضّرت للمغادرة بعد إنذاري بوقتٍ قصير. أعرف أنه كلما عجّلنا، كلما كان ذلك أفضل.

شرب كل من شارباست وكاماران كوباً من الشاي بسرعة، وانطلقا مجدداً حتى وهما يأكلان للمرة الأولى منذ عشر ساعات. راحا يبتلعان بسرعة قضمات من الخبز المحشو بالجبنة البيضاء. أرادا أن يستأجرا عربة كي تنقلنا فوق الطريق الترابية والصخرية، حتى بلدة سانجاسر التي يسيطر عليها العملاء (الجحش).

لم أستطِع إبعاد ذلك الشعور المحبط حول التحديات التي تنتظرنا، لكننا لم نمتلك خياراً غير الارتحال وسط قواتٍ معادية. زرع العملاء أنفسهم بذكاء في جبالنا وتلالنا، كأنهم أفاعٍ سامة تلتف حول جبل قنديل، وهو طريق الهرب الرئيسي.

وجد شارباست وكاماران، لحسن الحظ، عربة قادرة على

عبور المناطق الوعرة. ودّعنا عبد الله وزوجته مينيش، الشجاعين والمضيافين، في الصباح التالي. ولو كنت أعلم ما سيحصل لهما لكنت توسلت إليهما أن يرافقانا، وأن يتركا ساندولان ليعبرا جبل قنديل معنا. تربّص القدر الكئيب بالزوجين الوسيمين واللطيفين. علمت أن معركة حامية، بعد وقت قصير من مغادرتنا، قد أودت بحياة عبد الله. أما مينيش فقد هربت وأولادها الصغار للنجاة بأرواحهم. لم نكن نعلم لحظة مغادرتنا مدى المأساة التي ستفرض نفسها على كردستان بكاملها.

وصلنا إلى سانجاسر بعد مغادرتنا «مرجة» بأربعة أيام.

اكتشفنا أن دخول سانجاسر هو أمر بسيط نسبياً، وسبب ذلك أن العملاء الذين يعيشون هناك لم يتصوروا إمكانية أن يتمتع مقاتلون ينتمون إلى «البشمركة» بالحماقة والاستهتار، أو حتى بالشجاعة التي تدفعهم إلى الدخول إلى معسكرهم المدجج بالسلاح من تلقاء أنفسهم. أعرف أن معظم مقاتلي «البشمركة» يتجنبون الدخول إلى هذه البلدة ويتنقلون عبر الغابات، لكننا لا نستطيع تسلّق جبل قنديل من دون دليل، وهكذا استقللنا السيارة لتضعنا أمام أبواب مهرّب كردي شهير يدعى «حسن المجنون». يُطلق على هذا الرجل لقب المجنون، بسبب المخاطرات التي يأخذها على عاتقه. وهو رجل اشتهر بشجاعته، ومعرفته بكل طرقات كردستان وممراتها. بدا الرجل مثل صورته في أذهان الناس، كرجل جبال حقيقي. لاحظت أنه يكبر شارباست بأعوام قليلة فقط، وأنه طويل القامة، كثيف الشعر، وذو شارب ضخم. بدا لي ذا بنية رياضية وقوية.

طلب منا «حسن المجنون» أن نجلس لتناول الشاي. أعلن أمامنا بجدية: «أتيتم في أسوأ الأوقات». أصدر الرجل صوتاً حاداً بلسانه قبل أن يضيف: «إن شقيقي هو واحد من العملاء. وقد أبلغني أن ما يزيد على ألف عميل يتجمعون هنا، عدا عن آخرين سيأتون لاحقاً».

التفتّ نحو شارباست بسرعة. هل هذا المهرب هو من العملاء حقاً؟ بقي وجه شارباست خالياً من أي انفعال، ولم ينمّ عن أي شيء، لكنه اكتفى بالإصغاء. تبادلت نظرة متجهمة مع كاماران.

مضى حسن ليخبرنا: «لديهم أوامرهم. الأولوية الآن لمعسكرات الاتحاد الوطني الكردستاني في وادي جافاتي. وتنوي بغداد إغلاق محطة الإذاعة إلى الأبد. ويأخذ العملاء على عاتقهم مضايقة المقاتلين المنسحبين، وقتلهم. إن هذا يشملكم، كما أنهم سيُنزلون العقاب بالمدنيين الذين يمدون يد المساعدة إلى مقاتلي «البشمركة»، وهذا يشملني أنا. تنوي الحكومة من الآن فصاعداً طرد القرويين من منازلهم، وتنوي كذلك قتل الرجال والفتيان، ونقل النساء والأطفال إلى الجنوب ليسكنوا في مخيمات اللاجئين. إنهم يريدون إفراغ كردستان».

تسارعت نبضات قلبي.

جاءت استجابة شارباست باردة ومحسوبة: «إذا كان ما تقوله صحيحاً، فيجب علينا إذاً أن نغادر الآن».

هزّ حسن رأسه وأجاب: «سيكون ذلك خطِراً جداً».

قال شارباست مستهجناً: «ظننت أنك مهرب حقيقي».

بدا «حسن المجنون»، مجنوناً بالفعل في تلك اللحظة، وبدا أنه فقد صوابه نتيجة إهانة شارباست له.

استرخى شارباست في جلسته، كأنه لا يكترث لشيء في هذا العالم، وبرغم ذلك لاحظت أن ذراعيه المفتولتين بالعضلات بدأتا بالتوتر.

خشيت أن تحصل المشاجرة في أي لحظة الآن. يتمتع شارباسات بشجاعة تفوق معظم الرجال الآخرين، لكني خشيت أن يتخلى عنه حظه الآن. تمتع كل من شارباست وحسن بالقوة، لكننا موجودون الآن في معقل «حسن المجنون». ماذا سيمنع هذا الرجل من استدعاء أحد العملاء ليقبض علينا جميعاً؟

تضيّقت عينا حسن: «سأرى ماذا يمكنني أن أفعل».

قال شارباست بهدوء: «نعم، أم لا. سنبحث عن مهرّب آخر إذا لم تقدر على أخذنا إلى أعالي جبل قنديل». قبل حسن المجنون التحدي: «سأقوم بالمهمة، لكنكم ستنفذون ما أقوله».

لاحظت الالتماع في عينَي شارباست: «ومتى سننطلق؟».

«ليس اليوم. سأتحدث مع أخي، وهو سيزودني بالمعلومات التي أحتاج إليها».

نهض شارباست: «سنذهب معك».

وقف كاماران إلى جانب شارباست. تفحص الرجلان سلاحيهما.

تطلع «حسن المجنون» في اتجاهي: «ستبقى هنا، مع النساء في المنزل».

أومأ شارباست باتجاهي، وحملت عيناه رسالة مخفيةً تقول إنه يتعيّن عليّ التزام الهدوء، وأجاب موافقاً: «نعم».

أحسست بأنني مشلولة من الخوف، ورحت أراقب مغادرة الرجال الثلاثة للمنزل. لماذا، بحق الله، يقوم شارباست بدخول منزل عميل؟ هل جُنّ هو الآخر؟ قررت أن أطلق عليه لقب «شارباست المجنون» إذا رجع سالماً.

صعُب عليّ أن أصدّق مدى الخطورة التي انتهت إليها رحلتنا. هل سيُقتل شارباست؟ وإذا كان الأمر كذلك فهل سأنتهي في يد عدونا؟

دخلت في تلك اللحظة بالذات زوجة «حسن المجنون»، وعدة نساء أخريات، ورحن يتحدثن ببساطة، كأن حيواتنا ليست في الميزان. وجدت أخيراً ما يكفي من الشجاعة كي أطرح السؤال على زوجته: «هل شقيق زوجك من العملاء؟ وكيف تقبلين بذلك؟».

بدت امرأة خشنة الطباع بوجهها المتغضن، والمتجعد، الذي يدل على سنين عديدة من العمل الشاق، لكنها برهنت على أن طبيعتها طيبة. ضحكت لسؤالي: «أوه، إنه ليس عميلاً بالفعل. إنه يأخذ أموال الحكومة، لكنه لا يؤذي أحداً، وهو يحمي شقيقه، أي زوجي».

تمنيت أن يكون ما تقوله هذه المرأة صحيحاً، لأن مصير زوجي بين أيدي زوجها وشقيقه.

أعتقد أن قصتها قابلة للتصديق، لأن تاريخ العملاء معقد قليلاً. كان معظم الأكراد في الماضي يفضلون الموت بشرف، على أخذ دينار واحد من الحكومة العراقية مقابل التجسس على جيرانهم وأصدقائهم. ولقي العملاء احتقاراً شديداً، بحيث باتوا يُعرفون بلقبٍ فيه إهانة كبيرة لهم وهو ابن الحمار (أو الجحش). غيّر بعض الأكراد مواقفهم أثناء الحرب الطويلة مع إيران. غيّرت تلك الحرب في الواقع حياة كل العراقيين، بمن فيهم الأكراد الذين يعيشون في الشمال.

طُلب من كل الرجال في العراق التوجه إلى الخنادق لحماية حكومة بغداد. أما الأكراد الذين رفضوا القتال في الخنادق، فكانوا يعرضون أفراد عائلاتهم للسجن، وبيوتهم للهدم، وفتيانهم للقتل. جاء الحظر بعد ذلك، وحاولت الحكومة في بغداد تجويع الأكراد عن طريق فرض حظر وصول المواد الغذائية إليهم. خشي الأكراد أن يجوع أفراد عائلاتهم، فبدأ القليلون منهم بقبول مرتبات من الحكومة، وتظاهروا بأنهم مخبرون كي يتجنبوا الاضطرار إلى القتال.

ساد الجشع، لأن العملاء كانوا يقبضون رواتب عالية. وُضعت جوائز مقابل القبض على بعض مقاتلي «البشمركة»، مثل شارباست، الذي أصبح شهيراً بفضل كتاباته وخطاباته التي يبثها

من محطة الإذاعة. تضاعفت أعداد العملاء، ووصلت إلى عدة آلاف، بفضل الأموال الكثيرة التي أُغدقت عليهم.

وجدنا أنفسنا في منطقة مليئة بالعملاء، واحترنا بمن نثق. أظن أنه يتعيّن علينا أن لا نثق بأحد.

اشتعلت أسوأ مخاوفي عندما عاد «حسن المجنون» من دون شارباست وكاماران. يُحتمل أن يكون هذا الرجل قد أقدم على مقايضة حياة زوجي بسيارة جديدة!

اشتعل فيّ الغضب، وتحضّرت كي أنتزع عينَي هذا الرجل من جمجمته.

أعتقد أن شارباست قد توقع رد فعلي، لأنه سرعان ما اقتحم الغرفة. تأكدت حينها من أن كل شيء يجري على ما يرام. قال لي إن تواجدنا نحن الثلاثة معاً، في منزل حسن المجنون، هو أمر يحمل الكثير من المخاطر. أضاف أنني سأكون في أمان مع النساء هنا، ولن يلاحظ أحد وجودي عندما يبدأ العملاء بتفتيش المنازل. قال إنهم يفعلون ذلك في سانجاسر، ويقومون بحملات تفتيش ليلية. وشرح لي شارباست أيضاً أنه من المستبعد أن يتعرّض منزل شقيق حسن للتفتيش لأنه عميل معروف.

عزم شارباست وكاماران على تمضية الليل في منزل شقيق حسن. وثق شارباست بالرجلين، المهرّب والعميل، لكني لم أكن أثق بهما أبداً.

بدت لي تلك الليلة أطول ليلة أمضيتها في حياتي كلها.

عاد شارباست وكريم في الصباح التالي. بدا كاماران مرتاحاً، أما شارباست فكان نحيلاً بعينين مجوَّفتين ومحاطتير بدوائر سوداء. اعترف لي شارباست عندما اختلينا لوقت قصير بأنه لم ينم حتى لحظة واحدة. وقال لي إنه وقف في رواق المنزل للحراسة، بينما غط كاماران في النوم.

لم يحدث أي شيء، لكن شارباست وصل إلى آخر حدود تحمّله.

جادل شارباست ضد اعتراضات «حسن المجنون»، التي قال فيها إن مغادرة سانجاسر ما زالت عملاً خطراً. وثابر شارباست على الجدال حتى اقتنع «حسن المجنون» أخيراً بالقيام بمحاولة. قاد رحلتنا راكباً على ظهر بغله، بينما تبعناه سيراً على الأقدام. رأينا أمامنا حاجزاً للعملاء بعد وقتٍ قصير من مغادرتنا البلدة. ولاحظنا أنهم يعجوّن حول المكان مثل نحلات غاضبة. استدرنا على أعقابنا لنمضي ليلة مؤرقة أخرى.

قمنا بمحاولتنا الثانية لمغادرة البلدة في مساء اليوم التالي. وصلنا إلى حاجزٍ آخر للعملاء، وما لبثنا أن عدنا مجدداً إلى سانجاسر.

تحوّل شارباست في هذه الأثناء إلى ما يشبه الرجل الذي مسّه الجنون، أما أنا فبدأت، لأول مرةٍ في حياتي، بقضم أظافري. حافظ كاماران، وحده، على برودة أعصابه.

واجه شارباست «حسن المجنون» مجدداً في نهاية اليوم الثالث، وقال له: «سنغادر هذه الليلة يا حسن».

بقيَ حسن على هدوئه، وقال إنه سينتظر ليرى ماذا سيحدث، لكن شارباست صرخ في وجهه: «سنجتاز ذلك الحاجز، حتى ولو كان صدّام حسين نفسه يقف حارساً فيه!».

لقينا أخيراً بعض الحظ. نجحنا، في محاولتنا الثالثة لمغادرة سانجاسر، في الالتفاف حول الحاجز من دون أن ينتبه إلينا أحد، بينما انشغل الحراس العملاء باستجواب مسافرين آخرين أقل حظاً منا.

وجدنا طعم النجاح حلواً، لكنني لم أستطِع أن أنسى أن القسم المتبقي من الرحلة قد يكون أكثر خطراً علينا. علمنا أن العملاء سيشكلون تهديداً لنا حتى وصولنا إلى قمة جبل قنديل.

رحت أتطلع إلى البعيد أثناء لحاقنا بـ «حسن المجنون»، وبغله الضخم الرمادي اللون. تمكنت في هذا الوقت من رؤية بساط الثلج الذي يغطي قمم جبل قنديل، وهو المنظر الذي كنت سأعتبره رائعاً في ظروف أخرى، وبرغم ذلك لم أستطع التمتع بهذا المنظر لأنني سأضطر إلى تسلّق ذلك الجبل.

شعرت بخفقان في قلبي، وخشيت أن نهلك في الطريق، لكن إذا عشنا ليوم فسوف نجد أنفسنا فيه في الحضيض، فكيف سأتمكن من الصعود إلى تلك القمة الشامخة؟ وصلت إلى استنتاج يقضي بأن الله سوف يتدخل في هذه المسألة.

مضيت، مرة أخرى، في قراري البقاء على قيد الحياة.

(٢٢)

عندما تسلّقنا جبل قنديل

المنطقة المحظورة في كردستان قرب الحدود الإيرانية:
أواخر تشرين الأول، ١٩٨٧

لم أفكّر كثيراً في البغال في أعوامي الخمسة والعشرين التي مضت من حياتي. تغيّر هذا الواقع بعد مضي لحظات قليلة فقط من تشبثي بالأحزمة التي يحملها بغل «حسن المجنون» على ظهره. فعند هذه اللحظة، أصبح ذلك البغل عالمي بكامله. راقبت بحرص كل حركة من حركاته، بدءاً من تعديله وضع أذنيه الضخمتين، وانتهاءً بالمكان الذي يختاره لوضع حافريه. وانحصر هدفي الوحيد في الحياة في تجنب السقوط عن السرج، والارتطام بقوة على الأرض. تمسكت بذراعيّ بشدة برقبة ذلك الحيوان بحيث لم أسنِد ظهري إلى شيء. لم أشكّ في أن وضعيتي ليست بوضعية راكب بغلٍ مثالي، كما أن البغل لم يكن مرتاحاً معي. كما أنني لم أشعر بالارتياح معه. بقيت مرتعبة كما كنت في الأيام القليلة الماضية.

انضم شارباست إلى «حسن المجنون» في الإصرار عليّ

بركوب ذلك البغل. قالا إنني أمشي ببطء شديد، برغم أنني شعرت بثقةٍ كافية جعلتني ألحق بخطوات الآخرين. عدّد شارباست أسباباً أخرى لقرارهما هذا، وقال إن رحلتنا في منطقة جبل قنديل ستستغرق يومين، أو ثلاثة أيام، من المشي المرهق. أضاف أن جروحي لم تشفَ بعد، وأنني سأتسبب في تأخر المسير.

استجبت بطريقة ساخطة. سبق لي أن ركبت على ظهر حمار صغير في أحيان قليلة، لكن الحمير لا تعلو كثيراً عن الأرض، وهكذا كانت ساقاي الطويلتان تلامسان الأعشاب الطويلة النابتة في التلال. اعتدت أن أقف، بكل بساطة، وأدع الحمار الصغير ينطلق من تحتي، حينما كنت أشعر بالتعب.

لكن بغل «حسن المجنون» هو أمرٌ آخر.

تملّكني خوف دائم من الارتفاعات، وها أنا على ظهر بغل «حسن المجنون» الضخم. يُعتبر هذا الحيوان نموذجاً مثالياً للبغال بسبب لونه الرمادي الفاتح الجميل، وصدره العريض، وحركة أذنيه الكبيرتين المعبرتين. ويفتخر «حسن المجنون» ببغله كثيراً إلى درجة ظننت معها أن دليلنا يحب هذا البغل بقدر ما يحب أطفاله الصغار. لكني وجدت البغل عالياً بشكل رهيب، حتى أنه أعلى من كثير من الأحصنة.

رفضت في البداية ركوب هذا الحيوان إلى أن توسل إلي شارباست بيأس: «أرجوك يا جوانا، اصعدي على ظهر هذا البغل. لا نمتلك وقتاً نضيعه! ستتسببين في قتلنا جميعاً».

بدأت بمحاولة الصعود على ظهر ذلك الحيوان الذي ينوء بحمل كيسين من الأمتعة، يتدليان مثل «خرجين» على جهتيه. استقر مفرشي الزهري اللون، الذي تسبب في خلاف بيني وبين شارباست طوال الطريق، على ظهر البغل، وأعطى هذا المفرش البغل ارتفاعاً إضافياً لم يكن بحاجة إليه.

وقف الرجال الثلاثة يراقبونني. أخذت نفساً عميقاً عدة مرات، وفكّرت في أن الألم، الذي أشعر به في ركبتيّ، يعطيني سبباً كي أجرب الركوب على ظهر هذا البغل.

أبلغت شارباست بهدوء: «حسناً، سأجرب».

لم أكن أعرف الطريقة الصحيحة لامتطاء البغل. استدرت حوله بحذر، وبحثت عن مكان مناسب يمكنني فيه الصعود على ظهره. فتح البغل عينيه، وأعطى انتباهه لكل حركةٍ أقوم بها. بدا واضحاً أن البغل اعتبرني غير مؤهلة لركوبه، لأنه تراجع عندما تقدمت نحوه.

تأوه شارباست بشدة، وأعطى «الكلاشينكوف» لكاماران، ثم رفعني بحركةٍ سريعة من ذراعيه، وألقاني على ظهر البغل. تذكرت أن شقيقة شارباست داعبتني ذات مرة بشأن سروال «البشمركة» الذي أرتديه. أدركت أخيراً أنها على حق، لأنني أستطيع القيام بحركات جريئة بذلك السروال الفضفاض.

روى كاماران، الذي لا تخلو جعبته من النكات، نكتةً لم أستطِع سماعها، دفعت بشارباست إلى الاستغراق بالضحك.

وددت لو أنني وجهّت توبيخاً إلى الرجلين، لكنني كنت متوترة بشكل منعني من القيام بخطوات مفاجئة. اعتبرت أنه ما من شيء يثير الضحك في جلوسي على ظهر ذلك البغل، وشعرت بدوخةٍ بسبب وجودي على مثل هذا الارتفاع عن الأرض.

أومأ «حسن المجنون» في اتجاهي وأمرني: «غيّري ثقلك من جهة إلى جهة. دعي البغل يشعر بك».

وجّهت نظرة دهشة في اتجاه هذا «المجنون». أعتقد أن الرجل يستحق لقبه إذا ما فكّر في أنني سأقوم بأي عمل يزعج بغله. هل يدعوني إلى التأرجح؟ انحنيت بحيث عانقت رقبة البغل.

هزّ «حسن المجنون» رأسه باشمئزاز، وتحرك شاربه الكثيف. أمسك الرجل بأحد أعنة البغل وأعطاني الآخر، ثم قاد البغل نزولاً على الطريق.

تمسكت بصعوبة برقبة البغل، لكنه مضى متهادياً بصورة طبيعية. لاحظت أنه يضع قوائمه بثقة حتى في الظلمة، أما أذناه الرشيقتان فتحركتا بإيقاع مثالي مع مشيته نزولاً. قررت أن أطلق اسم «بيوتي» beauty على هذا البغل، لأن مالكه كان على حق في تفاخره بمظهره. أدركت أنه من الأفضل لي ألا ألمس «بيوتي» من دون داعٍ، لأنني عندما لمست أعلى رأسه، من دون قصد، رفع رقبته فجأة، فتحرك جسمي معها، حتى كدت أقع على الأرض.

لا. لم يكن «بيوتي» سعيداً براكبته غير الواثقة من نفسها.

قلقت بحيث صعُب عليّ التنفس. استرخى البغل أخيراً، وأسرع بخطواته.

سأل شارباست: «كيف حالك يا حبيبتي؟». همهمت قليلاً من دون أن أقدّم شرحاً. لم أرغب في إزعاج «بيوتي» بثرثرة لا لزوم لها.

اكتشفت أن الركوب على ظهر بغل تسبب بتعاسة كبيرة لي، لأن الإرهاق الذي أشعر به يزداد مع مرور كل لحظة. شعرت بالألم في كل ناحيةٍ من نواحي جسمي، وتوقعت أن أقع على الأرض في كل لحظة.

استمر «حسن المجنون» في كونه المهرّب المفضّل لمقاتلي «البشمركة» منذ أمدٍ بعيد. ثابر الرجل على المخاطرة بإحضار التموين لمقاتلي «البشمركة» في تلك المنطقة من كردستان التي صنّفها صدّام بـ «المنطقة المحظورة». اكتسب «المجنون» وبغله خبرة في جلب إمدادات الدواء، والمواد الغذائية، والأسلحة، والذخائر، إلى «البشمركة». لقد صمّم صدّام على تجويع «البشمركة»، لكن المهربين من أمثال «حسن المجنون» تسببوا في إفشال هذه الاستراتيجية. عمد مهربون آخرون إلى تدريب مجموعات من البغال على عبور الجبال من دون مرافقة مالكيها، وذلك لتقليص عامل المخاطرة بحياة أحدهم. اعتادت هذه المجموعات نقل الإمدادات من القرى الإيرانية، التي كانت مصادر التموين الأساسية لمقاتلي «البشمركة» العراقيين، إلى

المهربين الذين كانوا ينتظرون على الجانب العراقي من الحدود من أجل تفريغ الحمولة. اعتاد المهربون منح البغال فترة لتأكل وترتاح قبل أن تُرسَل مجدداً إلى إيران من أجل تكرار العملية. حملت هذه الطريقة مخاطر مأساوية بالنسبة إلى البغال المسكينة في حالات كثيرة. كانت البغال تتعثر وتسقط على الأرض، ثم تعجز عن الوقوف ثانية، إذا ما مال حملها من جانب إلى جانب، وذلك بسبب إهمال تحميلها بطريقة صحيحة. وحدث في مراتٍ كثيرة أن تبقى تلك الحيوانات رابضة على الأرض حتى يكتشفها مسافر يتعاطف معها، وإلا فإنها كانت تتعرض لنهش الحيوانات المفترسة، أو كانت تموت نتيجة الجوع. إن كردستان هي مكان لا يرحم بالنسبة إلى الإنسان، والحيوان أيضاً.

تعجّب «حسن المجنون» لأن بعض المهربين كانوا يخاطرون بإرسال بغالهم بمهمات من دون مرافقة. نظر إلى بغله نظرة إعجاب، بحيث حسبت للحظة أنه سيطبع قبلة على شفتيه الضخمتين، وصرّح قائلاً: «لن أخاطر قط بإرسال «بيوتي» وحده».

أُعجبت بشجاعة حسن. أعرف أن حياة المهرّب هي مهنة مليئة بالمخاطر. ومن قال إن قوات «البشمركة» تقدر على الصمود شهراً واحداً من دون مساعدة المهربين.

جرت حادثة مرعبة في غضون الساعات القليلة القادمة.

توقف حسن المجنون بغتة، ثم بدأ بالمناداة بصوتٍ مرتفع موجهاً صوته في اتجاه سيرنا: «أنا «حسن المجنون»! أنا «حسن

المجنون»! من هناك؟ أنا مجنون! ابتعدوا أو أظهِروا أنفسكم! أنا «حسن المجنون»!».

أسرع شارباست وكاماران في الوقوف إلى جانبي. راقبتهما بنوعٍ من الانبهار الممزوج بالخوف عندما رفعا سلاحيهما.

تساءلت عن هوية الأشخاص الذين يتقدموننا؟ هل هم العملاء؟ أم جنود صدّام المشاة؟

بدأ جسم البغل بالارتعاش بكامله، فقررت أنه من الحكمة أن أقفز عن ظهره قبل أن يبدأ بالتقافز. تطلعت عند ذلك نحو الأرض التي بدت بعيدة جداً عني، ثم غيّرت رأيي. إذا كنت حاملاً فإن مثل هذه القفزة قد تتسبب في إجهاضي. قررت ألا أُقدم على هذه المخاطرة، لذلك أحنيت رأسي قدر إمكاني، لأنني أدركت أنني أشكّل مع «بيوتي» هدفاً مغرياً.

تابع حسن إرسال تهديداته الغاضبة، وقال إنه رجل مجنون، وإن الذين يعترضون طريقنا هم أكثر جنوناً منه، ولن يقفوا عائقاً أمامنا. عرفت الآن كيف استحق «حسن المجنون» لقبه هذا، ويبدو أنه فخور كثيراً به.

اخترق أسماعنا عندها صوت أتى عبر الظلمة في استجابة لنداءات حسن. يبدو أن «حسن المجنون» عرف صاحب الصوت، فهدأ قليلاً. مشى إلى حيث الصوت كي يسوي أيّ سوء تفاهم.

قال لنا الرجل عند عودته إنه وجد عصابة تتألف من أربعة مهربين اعتادوا سلب المسافرين في هذه المنطقة. إنهم

انتهازيون، لكنهم ليسوا مجرمين. أدركت أنه لولا «حسن المجنون» لكنا تعرضنا للسلب.

همهمت وأنا أفكّر في عدم قدرتهم على سلبنا نحن الثلاثة، لأننا أفقر الفقراء.

بدا لي أن هذا الليل لن ينتهي. جلست بيأس على ظهر البغل، وأعطيت نصف انتباهي فقط لمحادثة الرجال الخافتة. قلقت على الطفل الذي اعتقدت أنني أحمله في أحشائي. أعرف جيداً أن تعرضي لحادث جسدي من شأنه أن يتسبب لي في مشاكل جديدة.

شعرت بإرهاق شديد بحيث إنني بدأت أحلم بأنني في بغداد. اشتقت إلى سريري القديم. شعرت بشوقٍ عارم إلى تناول وجبة طعام حقيقية. بدأت، للمرة الأولى منذ زواجي بشارباست، بالتساؤل عما أفعله في كردستان في منتصف الليل، وأنا جالسة على ظهر بغلٍ لا يرغب حتى في امتطائي ظهره على الأقل.

أخيراً، بعد ان اعتقدت مرات ومرات أنني سأسقط عن ظهر البغل مثل الحجر، دعانا «حسن المجنون» إلى التوقف قرب جدولٍ صغير. قال الرجل: «لقد اجتزنا نقطة خطرة. نستطيع الاستراحة هنا قليلاً، ثم ننطلق قبل الفجر».

اعتبرت أن هذه الكلمات أجمل عبارة سمعتها على الإطلاق.

انصرف حسن المجنون إلى مداعبة «بيوتي»، وراح يهمس بكلمات لطيفة في أذنيه، بينما جهِد شارباست بمساعدتي على النزول إلى الأرض.

لم تشجع تلك الليلة على تبادل محادثة لا معنى لها. تحلقنا صامتين كي نتقاسم استراحتنا القصيرة. أحضر «حسن المجنون» بعض الفاكهة والمكسرات معه، بينما جهّز شارباست بعض الخبز الكردي، وهو الخبز الذي يصبح قاسياً مثل البسكويت بعد خَبزه، لكنه يعود ليصبح طرياً وجاهزاً للأكل بعد رشّه بالماء. أخذ كاماران خبزاً إلى الجدول كي يجهزه لنا.

تناولت القليل من الطعام، ثم توجهت إلى الجدول بعد ذلك من أجل الاستمتاع بشرب الماء البارد الذي يجري في البركة الصغيرة التي تشكلت بقربه. اقترب «حسن المجنون» وبغله ليشربا من البركة نفسها أثناء شربي منها.

حدّقت للحظة مرعبة في فم «بيوتي» المفتوح، وفي أسنانه الكبيرة. تأوهت بصوت مسموع، لكنني لم أكترث. وهكذا غرفتُ براحة يدي كمية أخرى من الماء، وشربت بنهم.

حرسني شارباست عندما جلست وراء أجمةٍ صغيرة. كان «حسن المجنون» قد حذّرنا سابقاً من أننا في منطقة ترتادها الحيوانات المفترسة، وعلى الأخص الذئاب والدببة. أبلغته أنني أخاف الأفاعي والعقارب أكثر مما أخاف الدببة. راح شارباست يراقب كل حركة تجري على الأرض. تناول مفرشي الزهري

اللون ولفّني به، وهمس لي بأن عروسه الآتية من بغداد قد جعلته فخوراً لأنني أظهرت الكثير من الشجاعة.

أرهقتني الرحلة إلى درجة عجزت معها عن الإجابة، لكني رأيته جالساً قربي، قبل أن أغمض عينيّ لأنام، ليحرسني من الذئاب كما افترضت. لا يمكننا إيجاد مثل هذا المكان المنعزل إلا في كردستان. استسلمت للنوم وقد تنازعتني رؤى متقطعة تصارع فيها شارباست مع دب مفترس في معسكرنا الصغير.

استيقظت بعد ساعات قليلة على صوت ضجة كبيرة. انهمكت الطيور بالتغريد، كما سمعت أصواتاً بشرية خافتة حولي. ماذا أسمع؟ جلست بسرعة، ورحت أتطلع من حولي بحذر شديد. ذُهلت عندما رأيت منطقة معسكرنا الصغير مليئة بحشد من الناس، ومجموعة كبيرة من البغال المعدة للتحميل.

شعرت بجفاف في حلقي. وجّهت نظرة قلق في اتجاه شارباست الذي بانت ابتسامة على محياه. خاطبني مطمئناً: «كل شيء على ما يرام. إننا في مكان يرتاده المهربون، جميعهم يعرفون هذا المكان الذي يعتبرونه نقطة استراحة لهم».

لم يُقدم أيّ من المهربين على فعل أي شيء يسبب الانزعاج، لكنني كنت المرأة الوحيدة في ذلك المعسكر. أردت مغادرة المكان بسرعة لهذا السبب الوجيه. تناولنا فطورنا من الخبز وبعض الفاكهة. شاهدت بعض البغال تشرب من مياه الجدول، لذلك أجّلت إطفاء عطشي أنا. يتواجد كثير من ينابيع المياه في كردستان، لذلك أعرف أننا سنعثر على جدول آخر.

قررت أن أروي عطشي في ما بعد، لأنني لن أشرب من نبع ماء لا أحد سوى البغال تتحلق حولها وتتجرع مياهها.

وافقني شارباست على مضض بأنني أستطيع المشي لمسافة قصيرة قبل أن أعاود الركوب على ظهر «بيوتي». وافق «حسن المجنون» كذلك، وقال إننا سرعان ما سنصل إلى أسفل جبل قنديل، وأن بغله سيحتاج إلى كامل طاقته في طريق الصعود. تحوّلت خشيتي من صعود ذلك الجبل ببطء فأصبح الجبل هدفاً يثير الرعب.

أفسد التأخر رحلتنا لهذا اليوم، لأن «حسن المجنون» أكثر من عدد مرات توقفنا للاستراحة. علمت أننا ما زلنا في منطقة يسيطر عليها العملاء وجنود الحكومة، وأن حسن يعلم وحده أماكن تواجد حواجز قوات الحكومة. مرّت علينا لحظات مُنعنا فيها حتى من التكلم همساً. ولو نفذنا كل ما يطلبه منا حسن، لتوقفنا حتى عن التنفس بالكامل.

أعتقد أن معجزة منعت اكتشافنا. لم يطمئننا حسن أكثر عندما روى لنا بعض القصص المرعبة عن مسافرين آخرين وقعوا في أيدي العملاء. أعلم أن تلك العائلات قد افترقت أعمالاً ضد نظام صدام، لأن الرجال أُخذوا ليُعدموا، أما النساء فتم إرسالهن إلى السجون حيث يتعرضن لأعمال مرعبة، رفض «حسن المجنون» أن يصفها لنا. شعرنا برغم ذلك ببعض الطمأنينة عندما تفاخر بأنه لم يسبق له قط أن وقع في أيدي الأعداء، وأضاف إن مهماته كانت ناجحة على الدوام.

تحسّن مزاجي قليلاً عند علمي بسجله المثالي. لم يمر وقت طويل قبل أن ننبطح فوق العشب مجدداً، لدى سماعنا أصوات الأعداء التي تناهت إلينا من خلال أجمة كثيفة.

أحسّ «بيوتي» بالخطر هو الآخر، وبدا لنا أنه في تناغم مثالي مع صاحبه، وبدأ بالتقدم بهدوء أثناء تركيز «حسن المجنون» على الأصوات التي سمعها من حولنا. أعطانا «بيوتي» أكثر من دليل على أنه بغل ذكي، ربما أكثر من إنسان.

شعرنا بعد قليل بالأسف لحالة البغل. انهمك شارباست بالتشاور مع «حسن المجنون» عندما تبيّن أن «بيوتي» تناول بعض الأطعمة التي سببت له مشاكل معوية مريعة. جلست أتحدث بهدوء مع كاماران، لكن سرعان ما روّعتنا أصوات تخلص البغل من غازاته. أغمضت عينيّ قليلاً، وسكتّ بفعل الصوت والرائحة. شعرت بالخجل من ذكر الأصوات التي سمعتها. لم يستطِع كاماران منع نفسه من رواية بعض النكات، وهو الرجل المحب للمرح. عدنا وسرنا وراء «بيوتي»، لكننا حافظنا على مسافة معقولة منه، لأنه استمر بالتخلص من غازاته بصوت مرتفع، غير آبه لوجودنا. ساءت الحالة أكثر، لأن «بيوتي» استمر بالتخلص من المزيد من الغازات مع كل خطوة، وأصبحت أصوات «الانفجارات» التي يُحدثها البغل أعلى وأعلى، وتستمر الرائحة المنبعثة منها مدةً أطول. لم يستطع كاماران ضبط نفسه، فبدأ يقلد البغل بإحداث أصوات عالية في فمه.

لم أجد أي شيء مرحٍ في المأساة التي يمر بها «بيوتي»،

لكن كاماران لم يتورع عن التسلي بالمأزق الذي يمر به البغل. وجد كاماران شيئاً كهذا يُضحكنا في وضعنا الكئيب. استمر الرجل على هذا المنوال حتى أصابتني ضحكاته بعدواها.

سمع «حسن المجنون» ضحكاتنا المدوية فقرر أن يوبخنا. استدار الرجل عائداً في اتجاهنا، وقال عابساً: «هل تسخرون من بغلي؟».

تسبب رد فعل «حسن المجنون» في إطلاق حماسة كاماران. تغضنت جبهة كاماران، والتمعت عيناه أثناء اندفاعه بالضحك بشكل صاخب. لم أستطِع ضبط مشاعر الحبور عندي، فوضعت يديّ فوق فمي، خشية افتضاح أمري.

شعر شارباست بالانزعاج أيضاً. بدا وجهه متجهماً عندما أمرنا بصرامة: «توقفا. إننا لا نلعب هنا».

استطعت أنا وكاماران التحكم في انفعالاتنا وتهكمنا على البغل، بصعوبة كبيرة.

لم يشعر ذلك البغل المسكين بالارتياح. استطعت إقناع شارباست بأن يسمح لي بالمشي لعدة ساعات إضافية حتى يقرر هو و«حسن المجنون» أن وتيرة سيري تؤخرنا، وأنه يتعين عليّ ركوب البغل ثانية.

فعلت بالضبط ما طلبه الرجلان مني، وبدأت أشعر ببعض الإعجاب تجاه «بيوتي». أُعجبت بشكل خاص بقدرته على المناورة على طول هذه الطريق. شعرت بما يكفي من الطمأنينة

التي سمحت لي بالتطلع من حولي لأستمتع بالمناظر الطبيعية. أُخذتُ بمنظر جبل قنديل الخلاب وهو يدخل، ببطء، دائرة الرؤية عندي.

لم أشعر بأن تجربة ارتحالنا في النهار تحمل الرعب نفسه الذي يحمله التنقل أثناء الليل. لكن، بقيت هناك بعض الأسباب التي تدفعنا إلى الانزعاج. أرسلت الشمس أشعتها القوية التي كانت غير مألوفة في هذا الوقت من السنة. ذكّرت نفسي بأننا نسير في ارتفاعات عالية. ستبقى أشعة الشمس حادة في هذا الموقع، وحتى بقية الرحلة. سطعت بقوة إلى درجةٍ اضطررت معها إلى إحناء رأسي حتى مستوى صدري من أجل حماية عينيّ من الوهج. شعرت بالارتياح برغم ذلك، لأن الثلوج لم تتساقط بعد. أكيد لو أنها تساقطت، فقد كانت ستضيف مخاطر جديدة إلى رحلتنا الخطرة أصلاً.

اتبعنا نظاماً بسيطاً في هذه المرحلة من رحلتنا، بأن نتحرك صعوداً، ثم نتوقف ونصغي إلى أي أصوات غير طبيعية، ثم نتحرك قدماً مجدداً لنتوقف للإصغاء. لم نتوقف للراحة إلا لمرات قليلة. بقي المصدر الأول لقلقنا هو مواقع الحواجز العسكرية التي تغيّرت منذ آخر رحلة قام بها «حسن المجنون» في هذه المنطقة. استطعنا عدة مرات أن نسمع أصوات أعدائنا من خلال الأشجار الكثيفة. حملت هذه اللحظات أشد أنواع الرعب بالنسبة إليّ، لأنه إذا ما اكتشف أحد منهم وجودنا فستتعرض

للإعدام. أعرف أنه في حالة القبض علينا سنتعرّض للتعذيب قبل قتلنا.

التزم شارباست عهده بأنه لن يسمح لهم بأسرنا، وهو الذي كتب ذات مرة، «نفضّل الموت في معركة على الموت في سجون عدونا». تطلّع في وجهي وقال: «لا تقلقي. سأقتلك بنفسي، وأقتل نفسي، لأن ذلك أهون عليّ من رؤيتك بين يدي العدو».

لم أعرف ما إذا كان كلامه هذا يدعو إلى الارتياح، أم إلى الرعب. أعلم على وجه التأكيد أن زوجي يمتلك قلباً من حديد. سيجد شارباست في نفسه القوة الكافية لينفذ التزامه المليء بالتحدي، ولينظر إليّ نظرة الوداع الأخيرة وهو يطلق رصاصة على رأسي، وهو سيفعل ذلك إذا اضطر إلى إنقاذي من العذاب والموت، اللذين ينتظرانني على أيدي أعدائنا قساة القلوب، لو وقعت أسيرة لديهم. ارتجفت لمجرد التفكير في هذه الإمكانية المخيفة، لأنني أعلم أنه إذا كانت هذه اللحظة الكارثية قدراً مكتوباً ومحتماً، فسيكون حزن شارباست أكثر إيلاماً من حزني أنا.

انشغل «حسن المجنون» في مضغ عودٍ كبير لتنظيف أسنانه بهمة عالية، حتى وهو يجول بعينيه بحثاً عن مصادر الخطر.

حافظ كاماران على هدوئه في وجه المخاطر التي تهددنا، وأدهشتني ابتسامته الحاضرة دوماً على شفتيه، وسرعة بديهته. فكّرت في أن أكبر خسارة تتعرض لها مجموعتنا ستكون موت

كاماران، لا سمح الله، لأنه صغير السن، ولم يتزوج، ولم يجرّب حب المرأة بعد، وسوف تُحرم من نكاته الحاضرة دوما حينها.

قررت أن أتحمّل مسؤولية مراقبة الأفق بحثاً عن أي أدلة تشير إلى عدونا. لم تكن رحلتنا، أصلاً، عبر هذه الأمكنة العالية لتشجع على الثرثرة التي لا معنى لها. وأشكر الله لأنني لم أجد مثل هذه الإشارات.

بدأت هذه الأرياف تثير اهتمامي بشكل متزايد. انتشرت النباتات الكثيفة في كل مكان، وكذلك ظهرت التلال الكثيرة في هذه المناطق، التي كانت مؤشراً لما بعدها. شعرت بتوتر في داخلي، فالتلال التي نعبرها بدأت بالتحوّل إلى جبل. سيطر القلق عليّ عندما تبيّنت أننا نقترب من بدء أكبر تحدٍّ في حياتي كلها. ويبدو أن «بيوتي» أحس بغريزته بخطورة الوضع فبان عليه التوتر والإجهاد. بدت لنا سلسلة جبال قنديل الشهيرة أعلى وأكبر حتى وصلنا إلى أسفل قاعدة الجبال.

شعرت برهبة دفعتني إلى التزام الصمت، وحدقت نحو الأعلى حتى بدأت عضلات رقبتي بالتشنج. عجزت عن رؤية قمة الجبل! لاحظت تراقص أشعة الشمس على الصخور الملساء. وسبق لي أن توقعت صعود جبل مغطى بالأشجار والطرقات الترابية، التي تتلوى مثل أشرطة نحو القمة. بدا لي أن جبل قنديل ليس بذلك الجبل الذي حلمت به. سيطر عليّ نوع خاص من الرهبة، عندما أيقنت أنه مطلوب مني أن أتسلّق

صخوراً غرانيتية عارية، ووعرة، وعالية، بشكل عجزت معه عن التصديق أن يكون شارباست قد اعتقد أنني قادرة على تسلقها.

تساءلت عن قدرة البغل على السير فوق هذه الصخور الملساء؟ هل سنترك «بيوتي» لنسير من دونه؟ لا أعتقد ذلك، لأن حسن المجنون لا يُخفي حبه لبغله، وخصوصاً أن «بيوتي» يحمل أمتعتنا.

التزم الجميع الصمت، حتى كاماران، للمرة الأولى منذ انطلاقنا في هذه الرحلة.

أعطاني شارباست، في هذه اللحظة بالذات، أسوأ الأخبار التي سمعتها في حياتي: «لن تمشي يا حبيبتي. ستركبين على ظهر البغل طوال مرحلة صعودنا».

حدّقت في شارباست فاغرة الفم. طلب الرجل مني المستحيل لتوه.

زادت التطورات سوءاً عندما أصدر «حسن المجنون» توجيهاته: «إنها مخاطرة كبيرة. إذا انطلقنا في طريقنا صعوداً في هذا الوقت فسيكتشفون أمرنا من مواقعهم في أسفل الجبل، وسنتعرّض لنيران العدو. سننتظر هناك حتى الغسق». أشار الرجل بيده نحو منطقة مغطاة بالأشجار الكثيفة.

تطلعت مرة أخرى نحو شارباست. إذاً، يريدني هذا الرجل أن أجلس على ظهر بغل، وأوكل لهذا الحيوان أن يتسلّق أكثر الجبال انحداراً في كامل أنحاء كردستان، وأن تُنجز هذه المهمة المذهلة في ظلمة الليل. أعتقد أن شارباست قد فقد منطقه السليم.

جلست جامدةً كالحجر أثناء انتظارنا هبوط الشمس إلى مغربها، وبدأت أحدّق في الجبل. قدّرت من موقعي هذا أن الصخور الشديدة الانحدار لجبل قنديل ترتفع لعدة آلاف من الأقدام. سأجلس على ظهر بغل عالٍ تحيطني الصخور المسننة من جهة، وأودية سحيقة من الجهة الأخرى، التي سنهوي إليها، ونلقى موتنا المحتم، إذا ما أخطأ البغل قليلاً في خطواته.

غمرتني تعاسة هي أسوأ ما شعرت به إلى حد الآن. فللمرة الأولى في حياتي أواجه اختباراً لا أستطيع اجتيازه بنجاح.

حاول شارباست أن يخفف عني. جلس قربي، وشجعني على تناول ما بقي معنا من فاكهة، وربّت على يديّ، حتى أنه مسّد كتفي، وهي علامة تدل على حميمية تندر رؤيتها في عالمنا الكردي. شعرت بكل تأكيد بأننا مقدمون نحو أمر مشؤوم.

قال لي شارباست أخيراً بطريقته العفوية: «يستطيع البغل أن يتسلق ذلك الجبل وهو معصوب العينين».

شهقت بصوت عالٍ. هكذا إذاً! أدركت الآن ماذا يجري! هكذا إذاً! هذا ما يفعلونه لدفع البغال إلى تسلق قمم هذا الجبل المرتفع! وهكذا يمنعون البغال المتململة من رمي نفسها من الجبال! سحبت يديّ من يدي شارباست، وأسرعت الكلمات في الانطلاق من فمي: «لا! اتخذت قراري. سأعود إلى بغداد».

قال شارباست في غمرة ضحكاته: «عمَّ تتحدثين يا جوانا؟ لا تستطيعين العودة إلى بغداد من هنا. تستطيعين الذهاب إلى طهران لربما، لكن ليس إلى بغداد».

حملقت بزوجي: «أَصغِ إليّ يا شارباست. لن أجلس على ظهر بغلٍ معصوب العينين يُدفع إلى تسلق جبل يزيد ارتفاعه على ثلاثة آلاف متر!».

ذُهل شارباست للحظة قبل أن تختلج في شفتيه ابتسامه مترددة، سرعان ما تحولت إلى ضحكة كاملة. بدأ شارباست بالضحك ولم يستطِع التوقف، لأن ضحكاته كانت من القوة بحيث بدأت الدموع بالانسكاب على وجهه.

أعترف بأنني فكّرت في أن شارباست قد أصيب بالجنون أخيراً. سبق لي أن توقعت حصول هذا الأمر. لا يستطيع أي شخص أن يعيش تحت ضغط كبير ومتواصل، مثل ذلك الذي يعانيه المقاتلون الأكراد يوماً بعد يوم، وسنة بعد سنة، من دون دفع ثمنٍ من قدراتهم العقلية.

ظهر كاماران من بين الشجيرات الكثيفة ليستطلع سبب هذا الحبور. تطلع نحونا باهتمام أيضاً «حسن المجنون» و«بيوتي».

هز شارباست رأسه إلى الخلف وإلى الأمام من دون أن يتوقف عن الضحك: «أوه يا جوانا. إن هذا مضحك كثيراً. إنه مضحك فعلاً».

شعرت بأنني أغلي من الغضب. أدركت فجأة أنني أسأت التقدير، لأن شارباست لم يقصد ما قاله حرفياً. عرفت الآن أنه لن تُعصب عينا البغل. أعتقد أنه ليس من المستغرب أن تتملكني الشكوك، لأن الرحلة بكاملها بدت سلسلة لا تنتهي من الخداع. لم يقدم إلي أحد الحقيقة بكاملها، لكنهم قدموها إلي شذرةً فشذرة.

اغتنم شارباست، بالطبع، فرصة اضطرابي، حتى أن «حسن المجنون» قد اعتقد أن مجرد تفكيري في إمكانية عصب عيني «بيوتي» أثناء تسلقه هذا الجبل الخطر، يشكل نكتة مضحكة. أكد لي حسن أنه على العكس من ذلك: «إن البغل ذكي جداً إلى درجة أنني أحياناً أدعه يختار طريقه المفضل بنفسه».

لم يفدني كثيراً التأكيد أن اختيار طريقنا سيُترك لبغل. شعرت، فجأةً، برغم ذلك، بقلقٍ أقل بالنسبة إلى تسلّق ذلك الجبل على ظهر «بيوتي». واكتشفت أنه يُمكن أن أي موقف أن يكون أصعب.

بدأت قافلتنا الصغيرة بالتحرك بعد وقتٍ قصير، ونزلت الشمس إلى ما دون خط الأفق، لكن وهج الضوء الزهري اللون استمر. عادت إليّ عصبيتي عندما تقدم «حسن المجنون» أمام «بيوتي» ليشجعه على معاودة المسير صعوداً. تمايل وزني أثناء رفع البغل لرأسه، ورقبته، وكتفيه، والبرميل الذي يحمله إلى الأعلى.

لاحظ «حسن المجنون» مدى ذعري المتزايد، وحذرني: «اجلسي بخفة. إذا شعر البغل بأن وزنك يتمايل بطريقة غير سليمة، أو أن حمله ثقيل جداً، فسيعمد إلى القفز من الجبل».

تحوّلت إلى امرأة مذعورة: «شارباست! إن البغال التي تحمل أحمالاً فوق طاقتها ترمي أنفسها من الجبل! انظر». وكزت أحد الكيسين بركبتي، وأضفت متوسلة: «خذ هذا الكيس، وأنت يا كاماران، خذ الكيس الآخر».

سمعت زوجي وقريبي يقهقهان. أردت في تلك اللحظة أن أصفع وجهيهما.

أدركت في هذه اللحظة أن مصيري يتعلق بمزاجية «بيوتي». اجتاحتني موجة من الندم، تمنيت عندها لو أنني أطعمت «بيوتي» الفاكهة التي أكلتها قبل قليل، ولو أنني داعبت أنفه، وحتى لو أنني قبّلته. أما كان من الأجدر بي لو أنني غرفت له الماء براحتَي يدي كي يشرب. عرفت أنني أضعت فرصة توثيق علاقتي مع «بيوتي» سُدًى.

ابتدأت على هذا الشكل تلك الليلة المليئة بالكوابيس. توترت رقبة «بيوتي» وكتفاه، وبانت عروقه، ما إن بدأت حوافره تضرب الطريق الغرانيتية، وتعرّق جسده كله. ارتعشت خوفاً عندما سمعت تطاير الأحجار من تحت حافري البغل، وسمعت دوي ارتطامها أسفل الجبل بعد سقوطها فوق أحجارٍ أخرى. فهمت لأول مرة حنكة الاتحاد الوطني الكردستاني بجعل منطقة جبل قنديل المركز الجديد لمخابئ الثوار. لا يستطيع أي جيش نظامي أن يحارب في قمة من قمم جبلٍ مثل هذا. وعلمت أيضاً أن محطة الإذاعة الجديدة ستكون، بالتأكيد، في مأمن هنا.

مرت ساعة على بداية تسلقنا هذا الجبل، وما لبث حسن، المتيقظ على الدوام، أن أحس بأننا تحت المراقبة. دلّنا بسرعة على فجوة بين الصخور، وهي منطقة توفر لنا الحماية، وأشار إلينا أن نختبئ. عاد قائلاً إن جنود الأعداء يتمركزون في موقع حاجز جديد يقع تحتنا تقريباً، لذلك فهم يتمكنون من رؤية

مركزنا بوضوح. وأخبرنا بأنه عليه أن يجد طريقاً جديدة لمسيرتنا، وهكذا غادرنا ليستكشف هذه الطريق الجديدة.

لبثنا ننتظر لوقت طويل. لم أستطع أن أستريح بسبب توتري، لكن شارباست وكاماران كانا مقاتلَين حقيقيين، فاستفادا من الوقت ليغتنما لحظات من النوم. لم يستعِد بصري قوته التامة بعد، لكنه يتحسّن باستمرار، وساعدني أكثر ضوء القمر الخافت.

انجذبت عيناي نحو زوجي. بدأت أفكّر في الأوقات التي أمضاها شارباست في مواقف مماثلة وهو يحارب عدوه ويختبئ منه. كنت في بغداد في هذه الأثناء، ولم أعرف حقيقة حياة مقاتلي «البشمركة». ظننت في السابق أن حياة المقاتل هي الحياة المليئة بالحركة والمغامرة الدائمين، ولم أعرف أن حقيقة هذه الحياة هي أقل إثارة مما ظننت. أدركت الآن أنه مقابل كل لحظة من الحركة تقابلها لحظات عديدة من التأخيرات والتعقيدات التي لا تنتهي، أي عندما يعلق المرء في العراء، ويتضوّر جوعاً.

صممت على ألا أكون الحلقة الأضعف في مجموعتنا، كما يعتبرني الرجال، لهذا أقسمت أن أكون قوية وشجاعة مثل بقية زوجات المقاتلين اللائي التقيتهن، وعلى ألا أتسبب بمشاكل جديدة لشارباست.

عاد «حسن المجنون» أخيراً، وأشار إلينا بحماسة كي نتبعه.

ارتفعت نسبة الأدرينالين في دمي ما إن اقتربنا من طريق

جبلية أخرى. أمضينا ساعة أخرى في صعودنا، وبدا لي أن «حسن المجنون» أصبح مرتاحاً لأننا ابتعدنا عن أعين أعدائنا، وهي الأعين التي تركز باستمرار على سفح هذا الجبل.

ظننت أننا غير محظوظين لأننا نقوم بهذه الرحلة في ذروة توتر شديد ما بين بغداد وكردستان. اكتشفت في ما بعد كم أنا مخطئة. خدمنا الحظ كثيراً لنكون من بين أوائل الأكراد الذين يتسلقون جبل قنديل، لأن الاندفاعة الحقيقية نحو هذا الجبل كانت ستأتي لاحقاً. ستسوء الحالة أكثر إلى أن تنفجر الأزمة الحقيقية، وهي التي ستنتهي إلى محرقة كردية حقيقية. سيضطر الكثيرون من الأكراد إلى ترك مواطنهم، والهرب من كردستان مشياً على الأقدام. وسيهلك، في النهاية، الألوف من الرجال، والنساء، والأطفال، على سفوج جبل قنديل. بقيت كل هذه الأمور من مستقبل كردستان مجهولة لدينا في تلك الليلة من هروبنا.

حفل مساؤنا بسلسلة من المخاطرات. فعندما لم نكن مضطرين إلى الاختباء عن عيون أعدائنا، كنا نتسلق صخوراً هي من الضيق بحيث لم أتمكن من التطلع إلى الأسفل. بدا «بيوتي» مرتاحاً. ولسبب لا أعرفه، بدأ بالسير على أقصى حدود المنحدر. فضّل البغل الاستمتاع بالحياة في حدودها القصوى، وبالمعنى الحرفي، حتى لو تواجد لديه ما يكفي من مساحة الطريق ليقترب من سفح الجبل.

أخطأ البغل لمرة أو اثنتين في وضع قائميه الأماميين في

أمكنة كادت تودي بي وبه إلى التهلكة لو هوى، لا سمح الله، من فوق الصخور، لولا بوصات قليلة بقيت له. استطاع «حسن المجنون» في كل مرة، وفي اللحظة الحاسمة، إرجاع «بيوتي» إلى طريقه الآمن.

تسبب حركات الهبوط والشد المستمرين في هذه الطرقات الوعرة، في تشنج أعصابي وعضلاتي، وجعلت جسمي كله يرتجف.

قضيت أربع ساعات من الرعب الشديد، قال بعدها «حسن المجنون» إننا سنرتاح لست ساعات. أضاف أن «بيوتي» وصل إلى أقصى حدود تحمله.

رفع شارباست جسدي المرتجف عن ظهر البغل، ووقفت قليلاً لأسمح لساقيّ وذراعيّ بالاسترخاء بعد أن تشنجت كل عضلاتي نتيجة التوتر. لم أستطِع التصديق أنني نجوت.

شعرت بهبوط في خفقان قلبي عندما قال لي شارباست إننا لم نصل بعدُ إلى أصعب قسم من عملية تسلّق الجبل. حدّقت في زوجي عاجزةً عن تصديقه، ولم أستطِع الرد عليه لأنني كنت مخدرة ذهنياً.

تناولنا وجبةً خفيفة، بينما انصرف «حسن المجنون» إلى إطعام «بيوتي»، وتقديم الماء إليه، ومسح العرق عنه. انهمكنا بعد انتهائنا من تناول الطعام في ترتيب الأمكنة التي سننام فيها.

وضعنا كل ملابسنا فوقنا لننام في هذه الليلة الجبلية الباردة. شعرت بأنني محظوظة أيضاً لأنني جلبت معي مفرشي الزهري

اللون. لم أستطِع الاستسلام للنوم في هذه الأرض الصخرية برغم الإرهاق الشديد الذي تملّكني. تطلعت من حولي فرأيت شارباست وكاماران مستلقيين بارتياح على سطح الصخور القاسي. استسلم الرجلان للنوم العميق، حتى وسط هواء الليل الجبلي البارد، كأنهما سحليتان تستمتعان بدفء الشمس، في غير موعد طلوعها.

تكفّل حسن المجنون بالقيام بأول نوبة من الحراسة، ثم جاء دور شارباست، وبعد ذلك تولى كاماران هذه المهمة. عرضت أن أتولى نوبة حراسة أنا أيضاً، لكن شارباست رفض، وقال إنني استهلكت كل طاقتي أثناء صعودنا الجبل، وأضاف إن أهم شيء هو أن نكمل هذه العملية.

شعرت بروعة الطبيعة في هذه الارتفاعات العالية. وأنار القمر وأضواء النجوم المتلألئة جزءاً من عتمة الليل الحالكة. بدت هذه النجوم قريبة مني، حتى خلت أنني أستطيع أن أمد يدي وألتقط واحدة منها. رحت أتأمل السماء، ووضعت يدي فوق بطني. شعرت بأن طفلي قد استقر بثبات في أحشائي، وأنه يرتاح بأمان. استمتعت لأول مرة بفكرة كوني حاملاً حقاً، وصممت على أن أسرع في إبلاغ شارباست ما إن نخرج من مرحلة الخطر هذه. رحت أتخيّل مدى الفرح اللامحدود الذي سيشعر به، وتخيلته كيف سوف يرفعني بين ذراعيه، ويبدأ بالدوران بي، معبّراً بذلك عن سعادته. تخيّلت عناقنا بعد ذلك لنخطط معاً لمستقبل طفلنا.

تمنيت أن يشبه الطفل شارباست، حتى لو كان بنتاً، وهمست في سرّي: «يا حشاشة قلبي».

رحت أفكّر كيف أنني أردت هذا الطفل بكل قوة. سمحت لنفسي بأن أتساءل، لأول مرة في حياتي، كيف استطاعت والدتي أن تفكر في إيذائي عندما كنت في أحشائها. أعرف أنها كانت أماً مثالية لأطفالها جميعاً، وخاصة لي أنا، لكنها حاولت أن تجهضني عمداً بسبب فقرها، وهي التي ولدت أربعة أبناء، مع العلم بأن أصغر ولدين عندها هما توأمان، بالإضافة إلى أن زوجها خسر كل شيء خلال ثورة ١٩٥٨. أعتقد أن حالتها لم تكن أكثر كآبة من حالتي في تلك اللحظة.

لا أستطيع أبداً أن أفكر في إيذاء طفلي عمداً، بالرغم من عدم امتلاكي منزلاً يؤوينا معاً، وبالرغم من كوني أهرب طلباً للنجاة بحياتي، ولعلي سأصبح لاجئة بعد قليل، ومن دون أن أمتلك ديناراً واحداً. إنني على استعداد للتضحية بحياتي من أجل حماية طفلي الذي لم يُولَد بعد.

غفوت أثناء تحديقي في النجوم، ونمت بعمق. استمتعت بخمس ساعات من النوم المتواصل.

تخضبت السماء بألوان الشمس الشاحبة للصباح الطالع.

ملأني شوق إلى إنهاء هذا التسلق الخطر. سنصل إلى مقصدنا، دولاكوغا، في غضون ساعات قليلة، وهي الموقع الجديد لمحطة الإذاعة. تطلعنا جميعاً إلى إنهاء القسم الأخير من رحلتنا.

حفل يومنا بتحدياتٍ عديدة. مررت بلحظات من الرعب الخالص الممتزج بالارتياح الحذِر. ساءت حال الطريق، وأصبح الممر أضيق بحيث صعُب حتى على «بيوتي» المرور فيه. بدا أنه يجهد كثيراً، وجفل عدة مرات نتيجة وضع حافريه على أطراف الأخاديد الحادة التي تمتلئ بها أرض الجبل.

تحسّن أدائي كثيراً وتطلعت مرة إلى الأسفل بصورة عفوية، ورأيت الأشجار والأجمات بعيدة جداً، بحيث إنها بدت مثل أعواد الثقاب. تأرجحت بشكل خطر. لم يتحسن الوضع عندما أصبحت شمس الصباح عذاباً خالصاً، وهي التي انسكبت على رأسي ووجهي. رحت أفكّر في أن هذه الرحلة يجب أن تنتهي، وأنني سأنهار إذا قضيت ساعة أخرى فيها بعد.

مضيت في تحمل الأشعة الحارقة. حدّقت إلى الأعلى لأكتشف أننا لا نستطيع الصعود أكثر من ذلك. انتهت الصخرة الضخمة عند هذا الحد. تصاعدت الإثارة التي شعرت بها. أيقنت، لأول مرة، أن انتصارنا على الجبل أصبح أمراً ممكناً. نظرت بعد ذلك نزولاً، وشعرت بالرضا على هذا المنظر. يتواجد عدونا هناك، في الأسفل، وهو لا يمتلك إلا الأرض التي يقف عليها. لن يستطيع هذا العدو أن يقهر كردستان مطلقاً! إننا، نحن الأكراد، نزرع لأجيال لاحقة، للأجنة الذين نحملهم في أحشائنا، نحن النساء، من أجل حياة حرة لهم، غير مغمَّسة بالانكسار، ولا بالقمع، ونحن مستعدون للتضحية بكل شيء من أجل الوصول إلى حريتنا.

وصلنا إلى هضبة عريضة تقع على مسافة قريبة من أعلى نقطة في الجبل. إننا الآن في دولاكوغا. لم نفشل أبداً، وشعرت مع آخر خطوة خطاها «بيوتي» بأنني تسلمت هدية لا تقدّر بثمن.

أنزلني شارباست من على ظهر البغل للمرة الأخيرة. مسدت جبهته. أدركت أنني مَدينة لهذا البغل بحياتي. قفزت في الهواء فرحاً للمرة الأولى في هذه الرحلة، أما «بيوتي» ففتح ثغره، وأظهر أسنانه، وبدأ ينهق. رحت أضحك بسرور تام، وداعبته مجدداً.

تطلعت حول الهضبة. اكتشفت أننا لسنا وحدنا عندما رأيت أن أربعين، أو خمسين مقاتلاً قد اجتمعوا لتحيتنا، ولاحظت من بينهم امرأتين بينهما آشتي، التي عرفتها في برغالو. شعرت بأقصى درجة من السرور عندما رأيت «هيما» الصغير، وشاهدت خدّيه الصغيرين الممتلئين، وفمه الصغير الرائع. بدا «هيما» مسروراً، برغم البيئة القاسية. شكرت الله لأن هذا الطفل الغالي لم يتضرر من التأثيرات السيئة الطويلة الأمد للغازات السامة. علمت أن ربوار، وهو زوج آشتي، هو المهندس في محطة الإذاعة. توقعت أن يكون وجوده عاملاً هاماً لنجاح محطة الإذاعة الجديدة.

لاحظت أن دولاكوغا تحوي القليل من المباني التي لم تشيّد بحسب ترتيب معيّن. وعلمت أن معظم المقاتلين يعيشون في خيَم، بالرغم من استمرار العمل في عدة مبانٍ جديدة. لاحظت

أن مباني عديدة جديدة قد بدأت تظهر، بما فيها الملجأ الذي يُستخدم في حالات التعرض للقصف، وبعض المساكن التي تشتمل على غرف بسيطة. علمت أيضاً أن هذه المباني تشتمل على حمام ومرحاض مشتركين، وهو الأمر الذي أشعرني بالارتياح. احتجت إلى أخذ حمام كامل، لكن كان عليّ أن أرضى بأن أغسل وجهي في حوض صغير في هذه الأثناء.

نزعت عني ثيابي المتسخة، واغتسلت وسط شعوري بالامتنان. انتعش جلدي جرّاء الماء البارد. شعرت بألم في بطني أشبه ما يكون بالنار الحارقة، في اللحظة نفسها التي اعتقدت فيها أن أسوأ متاعبنا قد انتهى إلى غير رجعة.

إنها اللحظة التي خسرت فيها طفلي الذي بدأت أحبه كثيراً.

بكيت بمرارة.

(٢٣)

البحث عن الخالة عائشة

ساكيز، إيران: صيف العام ١٩٨٨

تحرّك جيش صدّام جالباً معه الموت من أقصى الجنوب إلى أقصى الشمال، وبدأ جنوده بإطلاق الرصاص، وانشغل الطيارون في سلاح جوه بإلقاء العلب التي تحتوي على الغازات. لم يطرح معظم الأكراد إلا سؤالاً واحداً: متى سنصاب بقذيفة قاتلة، أو سنشتنشق حصتنا من الغاز المميت؟ وأنا شخصياً لم أعد أتوقع أن أستمر في الحياة. وكيف يمكنني أن أتفاءل بالحياة عندما يموت الآخرون، أو يصبحون على وشك الموت؟ ساءت الحالة أكثر في اللحظة التي ظننا فيها أنها وصلت إلى حدها الأقصى سوءاً.

اجتاحت الفوضى كردستان بكاملها عندما اجتاحها جنود صدّام، وذلك إثر مغادرتنا برغالو. امتلأت الجبال والأودية بالأكراد الذين يهربون للنجاة بأنفسهم... نعم للنجاة بأنفسهم فقط، بالمعنى الحرفي للكلمة. تزايدت التهديدات منذ أن أطلق علي المجيد العنان لأسلحته الكيميائية، ليس فقط على «البشمركة»، بل في كامل أراضي كردستان، بمن في ذلك

المدنيون. هلك الألوف من الأكراد المرتعبين خلال مذبحة الغازات السامة هذه. وقعت الأمهات والآباء بهلع بلغ درجة أنهم أضاعوا أطفالهم، وتركوا الأطفال الصغار، الذين ما زالوا يَحْبون، وراءهم ليموتوا وحدهم في الممرات الجبلية.

اعتقد الأكراد أن العالم المتحضر سوف يضغط على البعثيين ويُرغمهم على وقف أعمالهم الوحشية، وذلك ما إن يعلم بهجمات الغازات الكيميائية التي سلبت أرواح الآلاف من الأكراد، واستباحت حيواتهم. دُهشنا عندما لم يكترث أحد. إن عدم اهتمام العالم أعطى البعثيين شجاعة أكبر للمضي باستخدام الأسلحة الكيميائية، وبأساليب أكثر وحشية، وهكذا اكتسبت المذبحة الكردية زخماً أكبر.

لم نتمتع، أنا وشارباست، بنعمة المكوث في منزل واحد، حتى لو كان مجرد خيمة منذ هروبنا من برغالو. اتضح لدينا عند وصولنا إلى دولاكوغا، أنه من غير العملي بالنسبة إلينا أن نمضي أشهر الشتاء القادمة فيها.

علمنا أن محطة الإذاعة لم تبدأ عملها بعد، وهكذا فلا أحد يحتاج بعد إلى مواهب شارباست التي يتميّز بها ككاتب ومذيع. تتألف المناطق السكنية القليلة في هذا المكان، من مجموعة من المباني الصغيرة. لاحظت أن عدداً من المقاتلين يعيشون في الخيام، برغم أن الشتاء لم يكن بعيداً. وتعيش في دولاكوغا ثلاث زوجات لمقاتلين من «البشمركة». علمت أن النساء لم يحظين بترتيبات خاصة. عشت أنا وشارباست في كوخ صغير

كان يُستخدم لتخزين المعدات. أعلم أن الشتاء سيجلب معه الثلوج الكثيفة، لكن هذه الأبنية الضعيفة في هذه المرتفعات لن تقدّم الحماية لساكنيها من العواصف الثلجية، التي تهب في مثل هذه الارتفاعات العالية.

لمسنا بأنفسنا أن دولاكوغا هي مكان يصعب الوصول إليه، حتى عندما يكون الطقس صحواً ومثالياً. يتحول الوصول إلى هذا المكان إلى أشبه بالمستحيل خلال أشهر الشتاء القاسية. ولا يندر أن تصل سماكة الكتل الثلجية هنا إلى عشرين قدماً، وفي بعض الأحيان إلى ثلاثين قدماً، وهو ما يجعل من عملية تسليم المؤن أمراً في غاية الصعوبة. وقد فرضت هذه الظروف الصعبة أن يقتصر عدد المقاتلين هنا على الحد الأدنى منهم، على الأقل خلال أشهر الشتاء. لذلك، طُلب من المقاتلين، الذين يُعتبر وجودهم غير ملحّ، وغير ضروري، أن يغادروا.

تميّزت رحلتنا إلى دولاكوغا بخطورة لم نكن نتوقعها، بشكل أثار إحباطنا بشكل كبير. لكن، سرعان ما حلّت مشاعر الارتياح عندنا مكان مشاعر خيبة الأمل التي بدأت بالتلاشي. إن دولاكوغا هي بيئة قاسية لشخص يشعر بالمرض. بقيت عيناي تؤلمانني بالرغم من تحسن حالتهما كثيراً. مررت بأيام عانيت فيها غشاوة على بصري من دون سبب مفهوم. واحتجت إلى عناية طبية لأنني عانيت مشاكل نسائية عديدة بسبب فقداني جنيني، لكن كل الجراح والكدمات التي أُصبت بها أثناء القصف في «مرجة» قد تماثلت للشفاء.

اضطررت أنا وشارباست إلى السفر إلى إيران، بشكل موقت

على الأقل. وطُلب من كاماران البقاء في دولاكوغا. شكّل ثلاثتنا فريقاً واحداً متجانساً حتى الآن، لذلك كان الانفصال مؤلماً لنا. حرصت أنا وشارباست على أن يكون الوداع هادئاً أثناء تحضيراتنا لهذه الرحلة الصعبة باتجاه أسفل الجبل. اضطررنا إلى استئجار بغلٍ غير «بيوتي»، لأن «حسن المجنون» غادر فور وصولنا إلى دولاكوغا. اكتشفنا أن رحلة النزول من الجبل أهون كثيراً من صعوده. وما هوّن علينا كثيراً هو عدم تواجد الجنود الأعداء الذين يستكشفون المنطقة من أجل إطلاق النار علينا، في هذه الجهة الإيرانية من الجبل. نجوت من السقوط فعلياً من فوق الصخور عدة مرات، بالرغم من هذه الظروف المؤاتية. أحمد الله على أننا استطعنا نزول الطريق بسلام.

لا تبعد بلدة «الوطن» التي نقصدها، الواقعة على الحدود الإيرانية، أكثر من مسيرة ثماني ساعات عن دولاكوغا. تطلعنا إلى أن نجد في هذه البلدة مسكناً موقتاً لنا إلى أن يتسلّم شارباست مهمته الجديدة. تمنيت الحصول على قليل من الراحة، لكن قلبي خفق بشدة عندما ظهرت «الوطن» أمام أعيننا. قلت في نفسي إنها «منعزلة جداً»، كذلك فإنها «تبدو لي بمثل بدائية دولاكوغا». إنها الحقيقة، لأنني أينما تطلعت وجدت بيوتاً بدائية، ومواطنين بملابس «مبهدلة». أخذتُ نَفَساً عميقاً، وقلت في نفسي: «إن الطقس بارد جداً هنا، وأنا أكره البرد».

أظهر شارباست ضيقه ونفاد صبره أمام تذمراتي. نظر نحوي نظرة توبيخ، وقال: «بالطبع الطقس بارد هنا يا جوانا. إننا في مكان مرتفع جداً. اشكري ربك لأنك لن تعيشي في خيمة».

أدركت أنه محق في هذا الأمر. إننا محظوظون من هذه الناحية. سنتمتع، بصفتنا من مقاتلي «البشمركة»، بامتياز السماح بالسكن في قرية إيرانية عادية، وذلك بعكس المدنيين الأكراد الهاربين من الهجمات الكيميائية، الذين سيُحصر سكناهم في مخيمات اللاجئين. سبق أن سمعنا أن وضع هذه المخيمات بائس، وأن اللاجئين الذين يعيشون فيها يمرون في ظروف سيئة وغاية في الصعوبة، بشكل لا يُحتمل.

تمتعنا بحرية عبور الحدود جيئة وذهاباً كما نشاء، بفضل الوثائق المناسبة التي حصل عليها شارباست.

اكتشفنا عند وصولنا إلى قرية «الوطن»، أن كل ما افترضناه عنها كان في إطار النظرية. دهشت بعدد الأكراد العراقيين من مقاتلي «البشمركة» الموجودين في هذه القرية. رأيت في ذلك مؤشراً سيئاً. علمنا فور وصولنا أن كل الغرف الموجودة في القرية قد استؤجرت. قالوا لنا: «إن القرية مليئة بالعراقيين».

تتبعنا كل المعلومات عن تأجير الغرف لبقية اليوم، لكننا لم نعثر على مكان نبيت فيه. ازداد توتري. فبالرغم من أننا لا نزال في الصيف، لا تزال الليالي باردة جداً في هذه المرتفعات العالية. بدأت الظلمة تخيّم على المكان، فبدأ شارباست بالاتصال مع الغرباء الموجودين في الشارع. وبدأت فكرة المبيت في خيمة تبدو، شيئاً فشيئاً، مقبولة بالنسبة إلينا.

تجنبنا كل سكان القرية. امتلكنا القليل من المال، لأن أجور مقاتلي «البشمركة» كانت متدنية جداً. إننا، في هذا المكان

الغريب، لا نمتلك أي مصوغات ذهبية من زفافنا سوى الخاتمَين في إصبعينا. وبرغم حاجتنا الماسة إلى المال، إلا أننا لم نرغب في المساومة عليهما.

بدأت أشعر بالضعف. أصبحت مريضة جداً.

أشفق علينا أحد الرجال الإيرانيين في النهاية. أبلغ هذا الرجل شارباست: «كل الغرف في منزلي قد امتلأت بالمستأجرين». ألقى الرجل نظرةً عليّ، فعرض علينا بعدها: «أمتلك إسطبلاً. أرحب بكما إذا رغبتما في النوم مع حيواناتي».

فاجأه شارباست بقبوله: «نعم، سيكون ذلك مناسباً لنا... على الأقل موقتاً».

وقعت كلمات الرجل مثل نغمات الموسيقى على آذاننا. شعرنا بالإرهاق إلى درجة بدا معها أن النوم في إسطبله فكرة رائعة. تبعنا الرجل بوداعة إلى منزله.

بلغ الجوع مني مبلغاً جعلني لا أنفك أتخيّل الوجبات الساخنة، في كل الوجوه التي أراها. اكتشفت سذاجتي بعد قليل. أدت الحرب، التي استمرت لثماني سنوات، إلى جعل قلوب الإيرانيين أكثر قساوة، لأن الحرب كانت بمثابة حمام دم بالنسبة إليهم. اكتشفنا أن استقبال أسرة الرجل لنا كان بارداً، مثلما هي ثلوج الجبال، بالرغم من أننا من مقاتلي «البشمركة»، وأننا حاربنا مع الإيرانيين ضد صدّام لمدة ثماني سنوات.

فكرت قبل مغادرتنا دولاكوغا، لحسن الحظ، في وضع

القليل من الخبز، وقطع من الجبنة في جيب سروالي الذي يرتديه مقاتلو البشمركة. حمدت الله، لأننا على الأقل نمتلك شيئاً نأكله قبل أن ننام.

الإسطبل كناية من غرفة صغيرة ملحقة بالمنزل. وجدنا فور دخولنا هذه الحظيرة الملحقة، أن بأبها الذي يؤدي إلى المنزل المريح مقفل بإحكام. تبادلت أنا وشارباست النظرات نحو بعضنا بعضاً، ثم نظرنا إلى المكان الذي سننام فيه. رأينا فسحة ترابية ضيقة تقع ما بين مدخل الإسطبل والمنزل. لمحنا، لحسن حظنا، سياجاً يصل إلى علو الركبة، أقيم من أجل حصر الحيوانات في المنطقة المخصصة لها.

تواجدت في ذلك الإسطبل البغال، والبقر، والدجاج، والبط، والأرانب. استمتعنا في تلك الليلة بجوقة مؤلفة من الحيوانات، وعانينا إلى درجة الغثيان من الأصوات، والروائح المنبعثة من هذه المخلوقات، التي دخلت عالمها الخاص، أثناء تخلصها من بولها. وامتلأت الغرفة بالبراغيث بحيث شعرت بأنها تتجول في شعري. كانت هذه قمة مصائبي!

شاركنا الحيوانات مسكنها طوال أسبوع من الزمن. بدا شارباست مثل ملاكٍ طوال هذه الفترة، وحافظ على تفاؤله بحيث ظل يردد أن وضعنا قد يكون أسوأ: «كان يمكن أن نكون في مخيّمات اللاجئين، يا جوانا».

اكتفيت بالرد على إجابته بهمهمة من جانبي، لكني أدركت أن أوضاعنا المعيشية قد تكون أكثر فظاعة. وأكد أفراد من

«البشمركة» معلوماتنا السابقة، وهي أن مخيّمات اللاجئين هي بمثابة مخيمات الرعب، إن لم يكن أسوأ.

حاولت أن أتفهم موقف الحكومة الإيرانية. إنها ما زالت متورطة في حرب طويلة ومريرة مع العراق. تفهَّمت حذرها من تدفق اللاجئين الأكراد من العراق، وتفهمت شكوكها في أن يندس جواسيس مع الأشخاص الذين يبحثون عن ملاذٍ لهم، فيها. تدرك الحكومة أن هؤلاء الأكراد العراقيين كانوا متمردين في بلدهم، وهي تتساءل عما إذا كانوا سيتحالفون مع الأقلية الكردية الساخطة في إيران. بدا أن الحكومة الإيرانية، لم تعرف بكل بساطة، كيفية التصرف مع الأكراد العراقيين، فأقدمت على عزلهم في مخيمات اللاجئين، بانتظار تحقيق نصرٍ عسكري على صدّام كي تستطيع إعادتهم إلى العراق.

تلاقت أمنياتنا في هذه النقطة الوحيدة.

لا أستطيع أن أنسى أن الإيرانيين لا ينوون إبادة الأكراد العراقيين على الأقل، بالرغم من أنني لا يمكنني أن أنسى مدى فظاعة الحياة في مخيمات اللاجئين هنا. كانت الدولة الإيرانية، والحق يقال، أكثر إنسانية مع الأكراد العراقيين من حكومتنا في بغداد.

تابعت مع شارباست البحث عن غرفة. اعتدنا الاغتسال بالماء البارد مع شروق شمس كل صباح، في محاولة منا لطرد البراغيث، وذلك قبل أن نغادر مسكننا المريع لنمشي في أنحاء القرية. التقينا في جولاتنا هذه بعدد كبير من معارفنا الذين

ينتمون إلى «البشمركة». كانت مضت سبعة أيام قبل أن نلتقي بصديق من «البشمركة» دعانا إلى الانتقال إلى بيته الذي استأجره لزوجته وطفليه الصغيرين.

خلت أنني في الجنة، بالرغم من أن المنزل افتقد الكهرباء، والماء، والحمامات. اعتاد ساكنو هذه المنازل التوجه إلى الينابيع الجبلية لاستخدامها كحمامات، وهو أمر غير عملي وغير صحي، في ما لو كانت الأمور طبيعية، ولسنا في حالة حرب، حل شارباست مشكلتنا الشخصية عندما تعاون مع صديق له من «البشمركة» على شراء خراطيم مياه ووصلها إلى نبعٍ مجاور، فحصلنا بذلك على مصدر مياه موقت لذلك المنزل.

مرّت ستة أشهر قبل أن يستلم شارباست أوامر من الاتحاد الوطني الكردستاني بالانتقال لمسافة أبعد في الداخل الإيراني، وبالتحديد إلى قريةٍ أكبر تدعى «ساكيز». سُررنا لهذا الانتقال، وتمنينا أن نتجنب تمضية شتاءٍ ثانٍ في «الوطن». علمنا أن الاتحاد الوطني الكردستاني حصل على إذنٍ لإقامة محطة إذاعة جديدة في «ساكيز».

انتظرتنا الصعوباتُ نفسها فور وصولنا إلى «ساكيز». وجدنا أنه من الصعب علينا إيجاد مكان مناسب نعيش فيه. ابتسم لنا الحظ عندما أخبرنا أحد أفراد «البشمركة» بوجود بيتٍ شاغر تملكه امرأة إيرانية تدعى «شمسا». لاحظنا أنها حافظت على تحفظها عند موافقتها على عقد الإيجار، وتفحصتنا ببرودة بعينيها البنيتين الواسعتين. أظن أن سلوكها عَكَس عدم ثقتها بالعراقيين،

وحتى بالأكراد منهم. شعرنا بالامتنان لحصولنا على غرفة صغيرة في منزل محترم، ولم نفوّت أي فرصة لإظهار امتناننا، وللبرهنة على أننا مستأجرون طيبون.

تخلت «شمسا» عن بعض تحفظها بعد مرور أسابيع قليلة. وبدت مخلصةً عندما نصحتني: «يتعيّن عليك أن تعودي إلى والدتك في وطنك، يا ابنتي. إنك صغيرة السن وبريئة جداً كي تعاني حياة «البشمركة» القاسية».

ارتعش قلبي بأمل غامض في أن أكون على صداقة مع «شمسا»، بالرغم من الشكوك التي يشعر بها العراقيون والإيرانيون تجاه بعضهم بعضاً. تبيّن لي لاحقاً أن قدري لن يسمح لي بالاستقرار في مكان واحد، لأن شارباست استلم أوامر جديدة بمغادرة «ساكيز» والانتقال إلى منطقة جبلية تقع قرب حلبجة، إلى الجنوب الغربي من برغالو والسليمانية. وسبق أن استطاعت الحكومة الإيرانية والاتحاد الوطني الكردستاني تحرير المنطقة من جيش صدّام، ولهذا يعتزم الاتحاد الوطني الكردستاني إقامة محطة إذاعة جديدة هناك.

عزمت على مرافقة شارباست برغم معارضته لي: «إنني ذاهبة معك».

اضطر شارباست إلى تركي في قرية «الوطن» في الشهور الثلاثة الأخيرة، والدخول والخروج عدة مرات عبر الحدود، وذلك للانضمام إلى المقاتلين الذين يشنون غارات على قوات صدّام. قلقت جداً على سلامته خلال فترات غيابه عني، وخلت أن كل وداعٍ سيكون وداعنا الأخير، لأن مقاتلي «البشمركة»

يسقطون بأعداد كبيرة. تمثلت الحسنة الوحيدة لفترة الراحة الجسدية الإجبارية التي قضيتها، باستعادتي عافيتي. تحسنت أخيراً أوضاع عينيّ المتأذيتين.

لازمني شعور لشهور طويلة، بأن عينيّ تأذتا بشكل دائم، وخيّم عليّ هاجس خسارتي بصري بشكلٍ نهائي. ارتحت كثيراً عندما عاد بصري إلى طبيعته مع الوقت. شعرت بأنني محظوظة جداً، بعدما علمت أن فقدان البصر الدائم هو من التأثيرات الجانبية الشائعة للغازات السامة.

بقيت لدينا مهمة كبيرة لننهيها قبل مغادرتنا إيران، وعودتنا إلى العراق. استطعت الاتصال بعائلتي عندما كنا في قرية الوطن، وأبلغتهم أننا أحياء في إيران. علمت خلال ذلك الاتصال أن خالتي عائشة هي من عداد المفقودين، وأنها لم تتصل بهم منذ السادس عشر من آذار ١٩٨٨، وهو التاريخ الذي تعرضت فيه حلبجة للهجمات الكيميائية. أبلغوني أن ابنها صباح، وبناتها الثلاث، قلقون جداً، ويخشون أن تكون والدتهم قد قُتلت خلال هذه الهجمات. أقنعت نفسي بأنها هربت مع اللاجئين إلى إيران، وأنها موجودة في أحد مخيمات اللاجئين الكثيرة. فقررت مع شارباست أن نبحث عنها قبل أن نترك المنطقة.

تواجد مخيّم معين قرب الحدود، اعتبرناه الأكثر احتمالاً لأن تكون فيه، لأنه يؤوي لاجئين أتوا من حلبجة تحديداً.

تمنيت أن تكون خالتي عائشة أحد هؤلاء اللاجئين. إذا كان الأمر كذلك فسنعيدها معنا إلى السليمانية لتنضم إلى أولادها.

انطلقنا في مهمتنا بعد قليل. استطعت أن أشمّ رائحة مخيّم اللاجئين قبل أن ألمحه. استنشقت الهواء الفاسد، وقادتني الرائحة الكريهة، ورحت أتطلع حتى رأيت غلالةً رقيقة من الغبار تلوّن الأفق. بدأت مدينة كبيرة من الخيَم البيضاء بالظهور ببطء في الأفق كلما اقتربنا. شدّ انتباهي منظر قمم الخيَم المتشابهة بحيث إنني لم أنتبه إلى طريقي، وهكذا تعثرت فوق الصخور المغطاة تماماً. سألني شارباست القلِق بعد أن تعثرت مرتين، أو ثلاثاً: «هل تؤلمك عيناكِ؟»

«لا. لا».

لم أستطِع إلا أن أفكر في مهمة العثور على الخالة عائشة. أمسك شارباست مرفقي بلطف وقادني عبر الميدان الكبير.

رأيت، بعد أن اقتربنا أكثر، صفاً متلوناً ومتعرجاً وسط الألوان البيضاء. بدا لي هذا منظراً محيراً حتى تأكدت من أن هذا الخط المتعرج لم يكن إلا نساءً كرديات يرتدين ثياباً ملونة. افترضت أن النسوة تجمعن في الصف انتظاراً لنصيبهن من الخبز، أو الماء.

بدأت بالارتجاف حتى في هذا اليوم الصيفي الحار، وتذكرت حالة حلبجة قبل تعرضها للهجمات الكيميائية، وها هم سكانها يعيشون اليوم في الخيَم.

كانت حلبجة قبل الهجمات مدينة مزدحمة، يعيش فيها ما يقارب خمسين ألف نسمة من الأكراد. لا تبعد هذه المدينة أكثر من أميالٍ قليلة عن الحدود الإيرانية. وقد مثّلت بازدحامها نقطة جذب تجارية، بالإضافة إلى شهرتها بأنها تضم مقام الشيخ علي الأبابيلي، وهو رجل دين موقّر مدفون هناك.

انتقلت خالتي عائشة من السليمانية لتسكن في حلبجة بسبب ذلك المقام بالدرجة الأولى. كانت امرأة مؤمنة تقية، وظلت على تدينها طوال عمرها، وأصبحت أكثر تديّناً بعد انتهائها من تربية أولادها. أعربت خالتي عن رغبتها في العيش بالقرب من مقام علي الأبابيلي. اشترت منزلاً صغيراً في حلبجة، وأمضت أياماً سعيدة من شيخوختها فيه، استمتعت خلالها بالعبادة في ذلك المقام.

عرف العالم بالهجمات الكيميائية على حلبجة بفضل الحكومة الإيرانية وحنكتها، بعدما أرسلت مصورين إلى موقع تلك الهجمات من أجل توثيق موت الضحايا والخراب الذي حصل، وتسخير ذلك في حربها الإعلامية، كما العسكرية، ضد نظام صدام. استطاع الصحافيون والمصورن الأجانب توثيق موت خمسة آلاف ضحية بريئة من الرجال، والنساء، والأطفال. مات الكثيرون أيضاً في الأيام القليلة التالية.

تمنيت فقط ألا تكون خالتي عائشة تعاني جروحاً مؤلمة. أعرف أنها أصبحت في عمرٍ يصبح فيه شفاؤها من الأمراض أمراً أكثر صعوبة. اتخذت قراراً بيني وبين نفسي: يتعيّن عليّ أن أجدها. إنني أحبها كما أحب أمي تقريباً، ولطالما وجدتها قربي

عندما تطلَّب الأمر ذلك، سواء عند وفاة والدي غير المتوقعة. أو في إحدى أزماتنا المالية العديدة.

شعرت بسبب آخر يدفعني إلى إيجادها. لم أخبر أحداً، ولا حتى شارباست، بقصة ظهورها الروحي الغامض أمامي، وهو الأمر الذي حدث أثناء الهجمات الكيميائية على برغالو. اقتربت وقتها كثيراً من الموت، ثم دفعني ظهورها الغامض إلى التشبث بالحياة مجدداً. تملكتني رغبةٌ قوية في وصف ذلك المشهد المحيّر لخالتي عائشة، ورغبت في أن أسألها إن كانت تصلي حينها، أو حتى إذا خطرت على بالها. فكّرت في أنه لا بد من أن يتواجد تفسير عقلاني لما حدث، لأن تواجدها كان حقيقياً وجسدياً بالنسبة إلي، بالرغم من أنني علمت في ما بعد أنها كانت حية، وبصحة جيدة، وتعيش في حلبجة في الوقت نفسه الذي ظننت أنها موجودة في برغالو.

أغمضت عينيّ قليلاً، وتمتمت صلاة قصيرة. تمنيت أن أفتحهما فألمحها وقد انطلقت من مخيّم اللاجئين لتعانقني بحرارة. فتحت عينيّ على أمل تحقق حلمي، لأكتشف أن صلاتي لم تُستجب.

قلت لشارباست بصوت غلبت العاطفة عليه: «سنجدها»!

تواجد أكبر عدد من لاجئي حلبجة الموجودين على الحدود في معسكر اللاجئين هذا. ويعود ذلك إلى أن حلبجة هي أكبر مدينة كردية أُخليت نتيجة الهجمات الكيميائية.

امتلكت الحكومة العراقية سبباً محدداً لمهاجمة حلبجة. سبق لقوات الاتحاد الوطني الكردستاني والقوات الإيرانية أن حررت

هذه المدينة من جيش صدّام. قيل وقتها إن تحرير حلبجة تسبب في إثارة غضب صدّام الشديد. وما لبث أن أمر الجيش العراقي إثر ذلك باستخدام كل الإجراءات لاستعادة المدينة بغض النظ عن الخسائر بالأرواح.

ارتفع عدد سكان حلبجة من خمسين ألفاً إلى سبعين ألفاً عند بدء هذه الهجمات. تعود هذه الزيادة إلى اللاجئين الذين تدفقوا على المدينة من القرى المجاورة، إثر تعرضها للهجمات هي الأخرى. قصف أعداؤنا حلبجة في البداية بقذائف الهاون والصواريخ. وزادت حدة الهجمات وقساوتها في السادس عشر من شهر آذار، وذلك عندما قُصفت حلبجة بوحشية بغاز الخردل، والساران، والتابون. بقي كثير من السكان في ملاجئهم معتقدين، ويا لخطأ اعتقادهم، أنهم في أكثر الأمكنة أمناً. يُذكر أن السموم الكيماوية تتركز في الملاجئ الموجودة على مستويات منخفضة، ولهذا علقت عائلات بكاملها في الملاجئ المنخفضة، وتُركت لتموت فيها. عرف القليلون الحقيقة المريعة لهذه الأسلحة التي تُستخدم ضدهم، ولهذا هربوا إلى الخارج للنجاة بأنفسهم، وذلك عندما استنشقوا القليل منها. لم يتوفر للكثيرين الوقت الكافي للصعود إلى الأماكن الأكثر ارتفاعاً، بسبب افتقادهم الأقنعة الواقية من الغاز، وهكذا قضوا ضحية هذه الغازات السامة.

عانى كثير من الناس، من الذين تعرضوا لهذه الغازات، بسبب عوارض مؤلمة قبل أن يموتوا في الشوارع. وروى شهود

عيان أنهم رأوا بعض الضحايا المنكوبين يموتون من فرط الضحك، أو أن هؤلاء استمروا في تقيؤ مادة صفراء مائلة إلى اللون الأخضر حتى وفاتهم.

فرغت مدينة حلبجة من السكان أثناء قصفها بالغازات الكيمائية، وبعدها. هل أصبحت المدينة المكتظة بالسكان، التي أتذكرها من أيام صباي، مدينة أشباح؟ لن يطول الأمر بنا كثيراً قبل أن نتحقق، لأن لدينا خططاً، أنا وشارباست، لزيارة المنطقة. تجمّع شعور غير مسبوق بالخوف في داخلي. ماذا سنكتشف في حلبجة؟

عدت في هذه الأثناء إلى التركيز على المسألة التي شغلتني ذلك اليوم: إيجاد خالتي عائشة.

أبرز شارباست أوراقنا الثبوتية لأحد أفراد الحرس الوطني الإيراني المتجهم الوجه. سُمح لنا بالدخول بعد ذلك إلى المخيّم المسيّج، الذي كان يحظى بحماية كافية.

مشينا بصمت جنباً إلى جنب في مخيّم اللاجئين الكبير هذا. رأينا أفراداً من الهلال الأحمر الإيراني، المسؤولين عن توزيع الإعانات الغذائية على اللاجئين.

بدا المخيّم كئيباً بخيَمه الرقيقة، التي تتمايل جوانبها مع الريح، وبنفاياته المنتشرة في كل مكان. شاهدنا الكثير من اللاجئين الأكراد وهم يقفون أو يجلسون من حولنا، ويحدقون فينا بفضول. تقدمنا عدة خطوات، ثم ترددنا قليلاً بسبب حيرتنا من أين نبدأ عملية بحثنا. وجدنا أمامنا ممرات مكتظة

بمجموعات من الأشخاص. سبق لنا أن سمعنا أن ما يزيد على المئة ألف من الأكراد اختاروا اللجوء إلى إيران، وذلك خلال الأشهر الستة الماضية فقط. شعرت بأن أكثرية الأشخاص المئة ألف كانوا يحدقون فيَّ مباشرة. هل سنتمكن من إيجاد الخالة عائشة في كتلة البشر هذه؟

أشرت براحتَي يدي دلالةَ حيرتي، ثم سألت زوجي: «من أي طريق نبدأ؟».

رفع شارباست كتفيه وهزّهما: «ما الفرق في أن نبدأ في أي طريق؟».

تأوهت بعمق. كثرة أعداد اللاجئين تجعل المرء يُصاب بالحيرة. قلت بأمل: «لعلك ستلتقي بأحد الأشخاص الذين تعرفهم، والذي سيقوم بمساعدتنا». عاش شارباست حياته بكاملها في كردستان، عدا أعواماً قليلة أمضاها في جامعة بغداد. تنقل في كامل أنحاء كردستان خلال السنين التي أمضاها كمقاتل من «البشمركة». اعتاد أن يمكث في القرى الكردية كي يتناول وجبة طعام، أو لينال قسطاً من الراحة في الليل. اعتقدت، بسبب ذلك، أنه سيتعرف إلى أحد اللاجئين.

اقترحت آخر الأمر: «سأتفحص الوجوه المتواجدة إلى يساري، بينما تتولى أنت تفحص الوجوه الموجودة إلى يميني».

تطلعت نحو شارباست عندما لم يرد عليّ. لاحظت أن وجهه بدأ بالشحوب، لأن الاستماع إلى ما يقوله الناس الموجودون في مخيّمات اللاجئين، كان أمراً يدعو إلى

الاكتئاب. إن رؤية الكارثة بأم العين كانت أشد المفاجآت إيلاما بالنسبة إليه.

تفهمت مدى الأذى الذي تعرض له عنفوان زوجي وشرفه. تمثّل مدينة الخيم هذه، الفشل التام لكل شيء يرمز إلى «البشمركة»، والاتحاد الوطني الكردستاني. ضحى زوجي، عندما أصبح بالغاً، بكل غالٍ ونفيس من أجل حرية الأكراد. ضحى بعمله، وأجّل مسألة زواجه، وإنجابه للأولاد. وها هو يجد نفسه في عمر الثلاثين، رجلاً فقيراً، من دون منزل، وذلك في وقتٍ يستقر فيه معظم الرجال بعملٍ ثابت، كما أنه وصل إلى مرحلةٍ كادت فيها تكون أي وجبةٍ يتناولها هي الأخيرة.

تعمّق يأسنا عندما سمعنا أكثر الأصوات إثارة للحزن: الصرخات المحزنة للأطفال المرضى. تذكرت خسارتي التي حدثت منذ وقتٍ قريب، واقتنعت بأن الهجمات الكيميائية، وغارات القصف التي تعرضنا لها، وصعودنا جبل قنديل، قد كلفتنا خسارة ولدي الغالي. تزايدت أحزاني من جديد. أدركت في تلك اللحظة أننا، نحن الأكراد، قد خسرنا كل شيء. وأدركت أن كل آمالنا وأحلامنا قد تحطمت. لن يعود أي شيء إلى ما كان عليه.

وُلد عالم جديد مكان عالمنا الذي اعتدناه، وناضلنا لأجله. والأكراد الذين اعتادوا العيش وسط المناظر الخلابة للأودية والجبال الكثيرة، أصبحوا مشلوحين كنكرات في خيم اللاجئين. لطالما انصرف الأكراد إلى فلاحة حقولهم، والاعتناء بقطعان

مواشيهم المتزايدة، وتربية أولادهم كي يستطيعوا وراثة أراضيهم، لكنهم خسروا الآن كل شيء. تبخرّت أحلامهم مع تصاعد أبخرة الأدخنة البنية اللون الناتجة عن الغازات السامة. بدأ الأكراد بالانتشار في كافة أنحاء العالم، واضطروا إلى التكيّف مع أوضاع حياتية جديدة، هي أدنى، من حيث المستوى، من تلك التي عرفوها من قبل. كانت هذه أشد خساراتهم مرارةً.

مشيت أنا وشارباست بحذر، وبصمت. توسعت دائرة أحزاني بعد أن سرنا أكثر في هذا المخيّم وسط حشود اللاجئين. وجد كل لاجئ نفسه عالقاً بين حشد من الناس، وبرغم ذلك بانَ الإحساس بالوحدة على وجه كل واحد منهم. جذبتني الوجوه اليائسة لأطفال المخيّم مثل مغناطيس، وذكرّتني عيونهم الحزينة بالشموع الومضة، التي احترق نصفها، أما أكتافهم فانحنت نحو صدورهم.

مرّ صبي صغير لا يزيد عمره على أربع أو خمس سنوات، قربي. لاحظت أنه غير مكترثٍ للعالم من حوله، وأحنى وجهه، المليء بالبثور بشكل مريع، نحو الأسفل. كم من الأهوال مر بها ذلك الصبي في حياته يا ترى؟ وأي مصيبة حلّت بحيّه، وعائلته؟ ترى؟ ارتعدتُ أسفاً على حياته الضائعة. تخيّلت أن هذا الصبي كان يلعب في لحظةٍ، ووجد نفسه في اللحظة التالية يركض خلف والديه، وأخذ بالصراخ نتيجة النار غير المرئية التي أصابت وجهه. أين والداه يا ترى؟ وهل أصبح يتيماً ووحيداً؟

شكّلت يداي قبضتين. أريد الحصول على أجوبة: يا الله! ماذا سيحدث للأطفال؟

رأيت أطفالاً محزونين كيفما تطلعت. أغمضت عينيّ. أردت الهروب من هذه النظرات الشاردة. تمنيت أن تأتي قوة ترفع هؤلاء الأطفال وتنطلق بهم خارج المخيّم. لم أستطع فعل أي شيء، ولم يتوافر لي المال حتى لشراء الحلوى لهم. كنت مفلسة تماماً.

سمعت أصوات ترحيب قطعت عليّ أفكاري، جاءتني من مجموعة من اللاجئين الذين تحلقوا حول إحدى الخيَم الكثيرة.

«تعالاا. تعالا!».

«اجلسا! اجلسا!».

وجّه إليّ شارباست نظرةً ذات معنى. يتعيّن علينا قبول دعوتهم.

دخلنا حلقةً من اللاجئين الذين يجلسون على الأرض لتبادل الأحاديث. بدأ حشد من الناس بالتجمع، وارتفعت الأصوات التي تريد أن تعرف ماذا نفعل هناك. بدوا مستعجلين لمعرفة آخر الأخبار والتطورات الجارية في الخارج. أرادوا أن تنتهي أعمال العنف، كي يتمكنوا من العودة إلى بيوتهم.

تبادلت أنا وشارباست، مجدداً، نظرة أخرى ذات معنى. أعرف بماذا يفكّر زوجي. لا نستطيع أن نبلغ هؤلاء الفقراء الحقيقة المُرة، وهي أن بيوتهم المتواضعة لم تعد موجودة.

علمت أنا وشارباست منذ وقت قريب أن الجيش العراقي قد أفرغ المدن والقرى من سكانها الأكراد، وأن فِرَق قوات الهندسة قد اعتادت تتبع الأبنية وتفجيرها، لتأتي الجرافات بعد ذلك وتسوي الركام بالأرض. هل نقول لهم إن الأحياء الكردية التي كانت مزدهرة، وتضم البيوت، والمحلات، والمدارس، والمساجد، قد أصبحت كلها أكواماً من الأنقاض؟ وهل نخبرهم عن الينابيع التي أصبحت مسمومة، وقطعان الماشية التي أُبيدت. لقد تسبب صدام في التدمير المتعمد والممنهج للقرى الكردية واضعاً نصب عينيه أن الأكراد يجب أن يفقدوا المنازل التي يريدون العودة إليها.

لم يعرف اللاجئون بما حصل بعد هروبهم من موطنهم، ومنع المسؤولون عن المخيّم وصول أخبار العالم الخارجي إلى مسامعهم. أعتقد أن هنالك أوقاتاً يكون الجهل فيها هو الأفضل للإنسان.

عزمت أنا وشارباست على تحويل انتباهم نحو أمور أخرى، فبدأت وإياه السؤال عن خالتي عائشة: «تدعى خالتي عائشة حسون. غادرت السليمانية منذ سنين قليلة، كي تكون قرب المقام الديني. عاشت حفيدتها، رزان، معها حتى وقتٍ قصير من بدء الهجوم. نجت رزان من هذا الاعتداء لأنها كانت بعيدة عن المدينة يوم إلقاء الغازات الكيميائية».

لم أُفاجَأ في كون خالتي عائشة هي مواطنة معروفة ومحبوبة من مواطني حلبجة. ادعى كل شخصٍ تقريباً من الذين قابلناهم أنه سمع بها. كانت شهيرة جداً في الواقع، ومواطنة فاضلة من

مواطني المدينة التي أبيد ساكنوها، واستطاعت بطيبتها أن تترك انطباعاً محبباً استثنائياً لدى كل من عرفها.

توجّه شارباست نحو الرجال، فابتعدت عنه كي أتحدث مع النساء. أخبرتهن عن الخالة عائشة، وأملت أن أحصل على بعض الأخبار المؤكدة عن أحوالها.

قابلتُ امرأة تدعى جميلة. كانت مسنة ونحيلة، بحيث بدا وجهها محدباً بالفعل. قالت لي المرأة بصوت عالٍ: «تتمتع عائشة حسون عزيز بسمعة نقية تشبه سمعة القديسين الذين نوقرهم. إن أعمال الخير التي قامت بها لا تعد ولا تحصى». تقوّس حاجباها وتابعت: «أعتقد أنه تم اختيارها لتقرأ القرآن عندما تتجمع النساء في عيد المولد النبوي».

أومأت بلهفة لأنني معتادة على حضور الاحتفال السنوي للمولد النبي.

تذكرت إحدى المرات التي ترأست فيها خالتي عائشة الإناث في عائلتنا في أحد احتفالات المولد النبوي. كنت فتاة صغيرة في ذلك الوقت، لكنني شُدهت بسحر تلك الأمسية. جلست خالتي عائشة وأدارت ظهرها إلى الحائط، وبدأت ترتل أناشيد بمدح النبي، وتهز دفاً جلدياً أثناء إنشادها. أضافت بأسلوبها هذا نوعاً من السحر على الاحتفال بكامله. أقيمت وليمة بعد الاحتفال، ووُزعت الأطباق على سجادة حمراء وُضعت على الأرض. تذكرت تحديداً خروفاً محشواً بالأرز، وبالكثير من الخضار، وبعض اللحوم المفرومة، بالإضافة إلى الكثير الكثير من أنواع الفاكهة.

تابعت جميلة كلامها: «اعتنت خالتك بالفقراء». تطلعت المرأة من حولها، فلمحت وميضاً من الدهشة في عينيها الداكنتين المعبرتين قبل أن تضيف: «أتقولين إن عائشة حسون عزيز موجودة في هذا المخيّم؟».

أجبتها: «آمل ذلك. إنها لم تتوجه إلى السليمانية، حيث يتوقع المرء أن تهرب، ولم يتمكن ابنها وبناتها من إيجادها».

تجمع في هذا الوقت المزيد من اللاجئين حولنا، لأن أخبار وجود أفراد من مقاتلي «البشمركة» التابعين للاتحاد الوطني الكردستاني، في المخيّم، قد انتشرت بسرعة النار في الهشيم. أعرف أن الاتحاد الوطني الكردستاني يتمتع بشعبية كبيرة في حلبجة. تشعبت الأحاديث بسرعة من أخبار خالتي عائشة إلى المجازر الجماعية بحق الأكراد، ثم إلى مسألة هروب اللاجئين. عدنا بالحديث بعد ذلك إلى خالتي عائشة، لنعود بعد ذلك إلى مناقشة المأساة المؤلمة التي يعيشها اللاجئون.

تمتمت إحدى النساء الشابات التي تحتضن طفلاً صغيراً بين ذراعيها: «لماذا يقتل صدّام النساء والأطفال؟». همس لي أحدهم بأن ذلك الطفل الصغير وُلد أثناء عملية النزوح الكبيرة، لكنه لم يتمتع بأي عناية طبية، لذلك فليس من المتوقع أن يعيش.

قالت جميلة باستهجان بعد أن صفّقت بيديها: «تقول القطة إن جراءها تشبه الفئران عندما تريد التهامها!».

بدأت ثلاث أو أربع فتيات بالتغامز في ما بينهن، وتبادلن الابتسامات، لدى سماعهن هذا التعليق الذكي للمرأة العجوز.

لم أستطِع تحويل أنظاري عن معاناة الأطفال. لاحظت أن كل امرأة تقريباً تمسك بطفل واحد على الأقل، وأن جروحاً ظهرت في جسد كل واحد منهم.

شاهدت طفلة متألمة تفرك عينيها اللتين كانتا تنزان مادة كثيفة.

سمعت كذلك طفلاً يشبه الأطفال المتشردين وهو يشكو: «أمي. قدماي!». رفعت والدة الصبي قدميه الصغيرتين، بحيث استطعت رؤية جراحهما. حمل عقبا قدميه آثار الجروح الملتهبة. شرحت الوالدة الأمر لي: «تناثرت قطع الزجاج على الطرقات. وتواجدت على الطرقات أقدام صغيرة نازفة بشدة، كانت من الكثرة بحيث إننا عندما سرنا فوق ثلوج الجبل تلونت هذه الثلوج باللون الزهري».

رأيت وجهاً متغضناً بالبثور الملتهبة لطفلة صغيرة أخرى. وضج صدر طفلة صغيرة أثناء محاولتها التنفس بكل جهد. علمت أن رئتيها تأثرتا بالغازات السامة.

أبلغتني امرأة ذات شعر أسود بصوت يشبه صوت الإنسان الآلي: «مات زوجي الشهر الماضي أثناء الغارة. اضطررت إلى أن أترك ثلاثة أطفال من أصل خمسة. أمتلك ذراعين فقط، لذلك أستطيع حمل طفل واحد على كل ذراع. لم يستطِع الثلاثة

الآخرون السير معنا. لن أنسى ما حييت صراخهم، والتوسلات التي أطلقوها كي لا أتركهم وحدهم».

بدا الحزن الشديد على وجه إحدى النساء، وأخبرتني كأنها تروي حلماً: «تركت طفلي في الجبل، لأنه كان يموت بين يدي من تأثير الغازات، ولأنه تعيّن عليّ حماية أطفالي الآخرين. فتح الطفل عينيه عندما وضعته على حجرٍ مسطح، وبدأ يحدّق فيَّ كأنه يعرف القدر الذي ينتظره». أغمضت عينيها البنيّتين، ووضعت يديها المرتعشتين حول رأسها. استغرقت المرأة بالبكاء بصوتٍ عالٍ، وسرعان ما أبعدتها فتاتان.

بدا لي أن كل لاجئ يمتلك قصة مأساته الخاصة به. وما لبثت أن بدأت الوجوه وقصص أصحابها بالتمازج. فقدت كل إحساس عندي برد الفعل. فماذا يمكنني أن أقول؟ عجزت عن التفوه بالكلمات المناسبة. ماذا يمكنني أن أفعل؟ لم أمتلك أي موارد مالية، ولا يمكنني أن أساعد هؤلاء النسوة الفقيرات. بدأت بمسح دموعي، وأسرعت تلك المرأة العجوز، جميلة، بالتربيت على بطني، وأعلنت: «يتعيّن على بطون النساء الكرديات تعويض الخسارة».

ذُهلت لحكمة المرأة. أرجعتني ملاحظتها إلى ذكرى خالتي عائشة، التي عرفت على الدوام الأفكار التي تجول في خاطري، والتي أحس بها في قلبي.

تقدمت من شارباست، الذي لم يطلع على المنحى الرصين

الذي أخذه حديثي مع النساء، ثم ربّت على ذراعي: «جوانا. عليكِ أن تسمعي هذا. تعالي».

أومأت للمرأة، وابتعدت عنها قليلاً من أجل الاستماع إلى رجل ذي ملامح عادية، وشاربين يحددان شفتيه المزمومتين. وصف الرجل لي مشهداً رآه شخصياً: «تسللت إلى الحي الذي أسكنه بعد زوال الغازات السامة عن حلبجة، وقبل قدوم جرافات الجيش إلى المنطقة، للبحث عن زوجتي وبناتي الثلاث. وجدتهن جميعاً. كن جثثاً موزعة في أرجاء المنزل. أحمد الله لأنني كنت قد اصطحبت ولديّ الاثنين صبيحة ذلك اليوم، وهكذا تمكّنا من النجاة. انصرفت لتفقد منازل جيراننا بعدما انتهيت من دفن زوجتي وبناتي. أعرف أن عائشة حسون عزيز كانت تعيش في الجوار. ناديت اسمها، هكذا». وضع يديه حول فمه الذي فتحه بالكامل، فبانت أسناه المهشمة والصفراء. «سيدة عائشة حسون عزيز!». ناديت بعد ذلك على اسم حفيدتها. لم يجبني أحد. وجدت المنزل غير موصد، وهكذا تمكنت من التجول عبر الغرف. رأيتها عندما خرجت من الباب الخلفي. كانت عائشة تصلي في حديقة المنزل الخلفية، ووجدتها منهارةً على سجادة صلاتها».

رحت أصرخ: «لا! لا!».

فوجئ الرجل بصراخي هذا، ونظر نحو شارباست ليعرف ما إذا كان يجدر به أن يكمل قصته.

ربّت شارباست على كتفي، بينما حثّ الرجل: «تابع».

انحنيت إلى الأمام: «قل لي هذا الشيء فقط: هل كانت حية؟».

أجاب الرجل بسرعة وثقة: «لا. مضى على وفاتها حينها يوم أو أكثر».

عجزت عن استيعاب الكلمات التي سمعتها لتوي، فلعل الرجل كان مخطئاً. فما الذي دفعها إلى الخروج إلى الحديقة كي تصلي أثناء هجوم بالغازات السامة؟ منطق الأمور يشير إلى أن الرجل كان يصف استجابة خالتي عائشة للفوضى التي عمّت المكان. اعتادت هذه المرأة الركون إلى الصلاة في أوقات الخطر الكبرى. فبينما يندفع الجميع إلى النجاة بأرواحهم، انصرفت هي إلى عبادة الله.

عائشة، خالة جوانا الغالية على قلبها، التي قُتلت أثناء الهجوم بالغازات الكيميائية

جوانا وشارباست في العام ١٩٨٨، عند وصولهما إلى قرية «الوطن» الإيرانية، وبعد هروبهما الفظيع من كردستان العراقية

جوانا الحامل مع شارباست في العام ١٩٨٩، بعد هروبهما

جوانا الحامل في العام ١٩٨٩، مع شمسا الطيبة (الواقفة إلى أقصى يسار الصورة)، وهي المرأة الإيرانية التي أصبحت أماً ثانية لجوانا

صورة جوانا، وشارباست، وابنهما كوشا، الموجودة على جواز السفر، أثناء تحضيرهما لمغادرة المنطقة للذهاب إلى بريطانيا

جوانا السعيدة، والآمنة، والحرة في بريطانيا، مع ابنها كوشا

صدمتني الحقيقة المؤلمة والمؤكدة التي سمعتها تخرج من شفتي هذا الرجل. عرفت أن المرأة التي يصفها هي خالتي عائشة بالفعل. غمرني شعور بالسعادة لأن رزان لم تكن في المنزل وقت الهجوم. إنها، والحمد لله، حيّة، وبخير.

«أردت أن أدفنها، لكني خفت أن أكون قد تأخرت كثيراً. غطيتها بسجادتين، أو ثلاث، من سجادات صلاتها التي وجدتها في المنزل. وعدت بعد أيام قليلة لأكتشف أن شخصاً آخر قد دفنها في حديقتها. تواجدت في ذلك الوقت فرق جالت في المدينة، وتولت دفن الأموات قبل أن يحصل جنود الأعداء على فرصة تدنيس الجثث، أو التمثيل بها». كرّر الرجل قوله: «دُفنت خالتك في حديقتها. أنا متأكد من ذلك. وجدت قبراً جديداً بالقرب من المكان الذي تركتها فيه».

لم يبقَ للرجل أي شيء آخر ليقوله.

جلست في مكاني. اجتاح جسدي شعور بالخدر. تيقنت من أن خالتي عائشة ماتت.

عرفتُ من قتلها. قتلها علي المجيد، الذي كان ينفذ رغبة قريبه صدّام حسين، وهو الرجل المسؤول عن موت آلاف الأشخاص الأبرياء، وإحداهن كانت قديستي، خالتي عائشة.

خرجت مع شارباست من المخيّم بعد فترة قصيرة عائدين إلى «ساكيز». احترت كثيراً في كيفية إعلام أبناء خالتي عائشة الأربعة بموتها. إن إجراء المكالمات الهاتفية كان مكلفاً وصعباً. وأعلم أن توجيه رسالة حول شؤون الموت سيكون أمراً بارداً، ويخلو من العاطفة. ماذا بشأن والدتي؟ ستُصدم من دون شك

بهذه الأخبار. اتصلت آخر الأمر بأخي رعد، وهو الذي قررت أن أبلغه بالأنباء المحزنة.

تمثّلت تعزيتي الوحيدة في معرفة أن خالتي عائشة توجهت إلى لقاء ربها وهي تقوم بأحب شيء لديها، أي شكره والتعبد له. بقيت مسألة ظهورها، غير القابل للتفسير، الذي جرى في برغالو، وهي ستبقى لغزاً لن أستطيع حلّه أبداً.

لم أستطِع مغادرة السرير في الأسابيع التي تلت. أرجعت في البداية حالة الضعف التي مررت بها، إلى الاكتئاب الذي شعرت به تجاه خالتي عائشة، لكن المرض وصل بي إلى درجة دفعتني إلى الاستنتاج مع شارباست أخيراً، أن سببه هو التسمم الغذائي. لم أستطع أكلَ شيء من دون أن أتقيأه. أدركت أننا سنضطر في النهاية إلى مغادرة «ساكيز» في وقتٍ قريب، وعلمت أيضاً أن شارباست يتطلع لأي سبب كي يتركني هنا، لذلك جهدت لإيجاد طبيب يستطيع وصف دواءٍ لي من أجل تخفيف حدة غثياني الحاد.

اكتشفت عند هذه النقطة الأخبار التي قلبت خطط حياتنا رأساً على عقب. عرفت أنني حامل. قالت الطبيبة ذلك من دون أن تترك أي شك. سأُرزق بطفل، وهو الذي سيجعلني مع شارباست والدَين في غضون أقل من ثمانية أشهر.

تذكرت فجأة تلك المرأة التي التقيناها في مخيم اللاجئين، وتذكرت رؤيتها النفاذة إلى مستقبلنا. فهمت عندها كلامها الذي قالته: «يتعيّن على بطون النساء الكرديات التعويض عن الخسارة».

بكيت بفرحٍ عارم.

(٢٤)

كوشا، كوشا... حشاشة قلبي

ساكيز، إيران: ٨ أيار، ١٩٨٩

أيقظتني آلام مبرحة في بطني من نوم عميق. كانت من الحدة بحيث وجدت نفسي في وضع متقوّس في وسط غرفة نومنا الصغيرة، وعجزت عن تذكر كيفية وصولي إليها. تنفست بطريقة صعبة ومتقطعة أثناء انتظاري ماذا سيحدث تالياً. عاد الألم ليجتاحني مرةً ثانية. شهقت بصوتٍ عالٍ، ووضعت راحتَي يديّ فوق بطني.

تطلعت نحو شارباست، فوجدته مستغرقاً في الشخير.

أمضيت معظم أيام حملي وحيدة في «ساكيز». كان شارباست قد غاب عني كي يحارب في كردستان، لكنه تمكّن من أن يضع ترتيبات ليكون قربي كلما تقدمت في الحمل. لم نكن متأكدين من موعد الوضع بالتحديد. سبق لي أن توجهت لرؤية الطبيبة مرة واحدة فقط، وهي التي أعطتني بعض الإرشادات عن حملي. لم أخضع لفحوصات أخرى منذ زيارتي الأولى هذه، وهكذا بدأت بوضع روزنامة خاصةٍ بي، تمكنت بواسطتها من تخمين موعد ولادة طفلنا. علمت أن النساء

الكرديات الحوامل، وحتى نساء مقاتلي «البشمركة» الحوامل، لا يحصلن على العناية الطبية في إيران. لم أجد أمامي سوى أن أتمنى أن تأتي ولادتي طبيعية، ومن دون تعقيدات، وخصوصاً مع عدم توفر المال الكافي لننفقه على الفحوصات الطبية، وعملية الولادة.

عاد الألم ينخر جسدي، للمرة الثالثة بدءاً من ظهري والمنطقة السفلى من بطني، ليتشعب في كافة أنحاء جسمي. أحسست بأن ثمة شيئاً غير طبيعي بالمرة. زحفت نحو شارباست، وهززت كتفيه: «شارباست. استيقظ».

امتلك شارباست الاستجابات السريعة والمتنبهة التي يتمتع بها المقاتلون. فتح عينيه في الوقت نفسه الذي أسرع فيه نحو سلاحه الملقى على الأرض، ووجه انتباهه بالكامل نحو المدخل الوحيد للغرفة. تطلع نحوي عندما تأكد من عدم وجود دخلاء، وقال: «ماذا؟ ماذا؟».

«إنني مريضة جداً يا شارباست. تجتاحني آلام مبرحة».

أجابني شارباست بثقة وسرعة: «إنه الحليب. لم تنتظري كي يغلي جيداً. لا شك في أنك تعرضت للتسمم بسبب الحليب مجدداً».

فكّرت في ما قاله لي. اعتدت في المدة الأخيرة شرب كميات كبيرة من الحليب الإيراني. أعرف أنه من الضروري ترك الحليب يغلي قبل تناوله. أعتقد أنني أخطأت عدة مرات بحساب طول مدة الغليان الضرورية للحليب ليصبح آمناً، ويبدو أنه أثّر فيَّ.

قضيت معظم مدة حملي، في الواقع، وأنا مريضة، وغير قادرة على عدم تقيؤ معظم الأطعمة أو السوائل التي أتناولها. وصلت إلى مرحلة جعلتني معها رائحة الطعام أشعر بالاختناق. وحتى رائحة الطعام الذي يحضّر في السخّان الموجود داخل الغرفة، كانت تدفع بي إلى الخارج. اعتدت، لهذا السبب، أن أتناول وجباتي في الشرفة الصغيرة الموجودة أمام المدخل. اضطررت إلى أن أتناول الطعام بكميات صغيرة فقط. بقيت نحيلة حتى بعد مرور تسعة أشهر تقريباً على حملي. وظل ذلك الانتفاخ الصغير الذي يدل على حملي هو الدليل الوحيد الذي يدل على أن عائلتنا هي على وشك استقبال ضيف جديد. لم يصدق سوى عدد قليل من الناس، أنني أكملت فترة حملي كاملة.

برهنت ربة البيت الذي استأجرناه أنها صديقة مخلصة لنا، ولم تتأخر عن تقديم مساعدات جليلة إلينا. اتفقت مع شارباست، بعد وقتٍ قليل من اكتشافي أني حامل، أن مرافقتي إياه في جولاته القتالية مع «البشمركة» إلى كردستان، أمر يحمل الكثير من المخاطر لي، وخصوصاً بعد أن تذكرنا معاً النتائج الكارثية التي أسفرت عنها رحلتنا من «مرجة» إلى دولاكوغا. تعيّن عليّ إبقاء طفلنا، الذي لم يولد بعد، في أمان. لعبت «شمسا» دور الداعم الأساسي لي، لأن شارباست كان بعيداً عن المنزل في معظم الأوقات. تحفظت المرأة عن التقرب مني في البداية، لكنها أصبحت تحبني في ما بعد. أبدت «شمسا» تعاطفها الشديد معي خلال فترة حملي الصعبة، حتى أنها

حضّرت لي مراراً أنواعاً متعددة من الطعام الساخن، بالإضافة إلى الحساء الإيراني، وأطباق الخضار الأخرى، وشجعتني على تناول هذه الأطعمة. أعرف أنه ما من أحد يستطيع الحلول مكان والدتي، إلا أن «شمسا» برهنت لي أنها بديل رائع لها.

حدّق شارباست فيَّ.

«شارباست؟ إنني أعاني آلاماً مبرحة في معدتي. ماذا أفعل؟»

«عودي إلى السرير. تعانين كل ذلك بسبب الحليب. ستشعرين بتحسّن في الصباح».

أضأت المصباح الكهربائي، وتطلعت إلى ساعتي التي أشارت إلى الرابعة صباحاً. نجحت في الزحف نحو السرير».

رفع شارباست الغطاء حتى وصل إلى ذقني: «ستكونين بخير يا حبيبتي. عودي إلى النوم الآن».

ابتعد عني قليلاً وقال بصوت مكتوم: «أيقظيني مجدداً إذا احتجتِ إلي».

تعوّد شارباست، بعد عشر سنين مرّت عليه وهو يحيا حياة المحاربين، النوم على الأرض الصلبة، وهكذا استسلم للنوم على مفرشنا القطني.

زادت الآلام حدة إلى درجةٍ عجزت معها عن البقاء في السرير. نهضت لأمشي في الغرفة. لم يسمع شارباست وقع خطواتي. شعرت بالرعب بعد مضي ساعتين، وقررت التوجه إلى «شمسا». ستساعدني هذه المرأة على اتخاذ القرار المناسب.

تسكن «شمسا» في شقة صغيرة فوقنا بطابقين. أقدمَتْ على تأجير الطوابق السفلية، وعاشت في الطابق العلوي. أخبرتني أن زوجها مات منذ أعوام، وتركها مع خمسة أطفال. اثنتان من بناتها تزوجتا، واثنان من أبنائها يعيشان في المنزل ويتابعان دراساتهما في الجامعة. قالت لي إن أصغر أولادها، وهي ابنتها التي تبلغ السابعة عشرة من عمرها، ما زالت في مرحلة الدراسة الثانوية. احتفظت «شمسا» بمكان لي في قلبها بالرغم من مسؤولياتها الكثيرة.

طرقتُ بابها، ودلفت إلى الغرفة بناء لطلبها.

تطلعت «شمسا» نحوي مرة واحدة، وقالت لي قبل أن أنطق بكلمة: «ستضعين طفلك».

«لا. لا. إنني أعاني بسبب تسمّم من الحليب».

«لا، يا ابنتي، ستضعين طفلك».

وقفت جامدة في مكاني، وسيطر عليّ الرعب بشكلٍ مفاجئ.

لا أعرف شيئاً عن الأطفال. ماذا فعلت؟ أما كان يجدر بي الاحتراس من الحمل، على الأقل، إلى أن أصبح قرب والدتي.

أخذت «شمسا» الأمر بكل جدية، وأعطت توجيهاتها لأولادها قبل أن تمسكني بذراعي وتقودني إلى الأسفل: «أين شارباست؟».

«إنه نائم».

«أيقظيه. قولي له إنه ينبغي علينا التوجه إلى المستشفى. خذي حماماً سريعاً، بينما أجهّز نفسي».

أومأتُ بصورة آلية. لم يسبق لي أن شعرت بمثل هذا الذعر في حياتي. لم أكن متحضرة لهذا بشكل من الأشكال، ولم أجهّز أي شيء للطفل، برغم أنني كنت بدأت بخياطة بعض الثياب له، إلا أنها لم تنتهِ بعد. بدا الأمر في البداية كأنه لعبة، أو تحضير بعض الأشياء لدمية، لكن الحقيقة لم تتأخر في الظهور، فسرعان ما سيبدأ طفل ضعيف بالعيش معنا! رحت أجول في البيت، وزاد اضطرابي. ناديتُ: «شارباست! انهض! انهض! إنني على وشك وضع الطفل».

بقي الغطاء فوق رأسه، وتناهى إلى أسماعي صوت مكتوم من تحته: «إنه الحليب».

«لا. لا يا شارباست! تقول «شمسا» إن الطفل على وشك الخروج!».

قفز شارباست واقفاً على قدميه. انطلق باحثاً عن قميص وسروال نظيفين أثناء حمامي البارد لأنه لا يوجد في منزل «شمسا» مياه ساخنة.

أعرف أن القلائل من الإيرانيين يستحمون في منازلهم غير المجهزة بالحمامات. إنهم يستحمون في حمام تركي رخامي ضخم في وسط مدينة «ساكيز». يحتوي هذا الحمام على غرف مخصصة للعائلات، وأخرى للنساء، وغرف أخرى للرجال.

أستطيع أن أقول إن الشيء الوحيد الذي استمتعت به في إيران كان ذلك الحمام التركي.

لم يتوفر لي الوقت لأخذ حمام ساخن ذلك الصباح.

غادرنا المنزل على عجل، ولم نأخذ شيئاً معنا. يتواجد المستشفى على بُعد مسيرة نصف ساعة من منزل «شمسا». وبالرغم من أنني كنت على وشك الوضع، إلا أنني اضطررت إلى مشي كل خطوة من هذه المسيرة. جعلتني آلام الوضع المبرحة والمستمرة أتمنى لو أنني أستطيع أن أستلقي على الرصيف وأدع الله يفعل بي ما يشاء. أعلم أنني لا أستطيع أن أفعل ذلك، لأنه يتعيّن عليّ الذهاب إلى المستشفى للتأكد من أن طفلي سيولد سالماً.

وجدت نفسي عاجزة، مجدداً، عن فعل أي شيء عدا المضي قُدُماً، لكنني لم أكن أعلم شيئاً عن العذاب الذي ينتظرني.

اضطررت إلى التوقف مع كل انقباض بسبب الألم الشديد الذي يترافق معه. كنت أتوقف عن المشي، وأمسك أنفاسي قليلاً، وأسند جسمي إلى جدران المنازل الملاصقة للشارع. حاولت أن أكتم صرخاتي الحادة التي يُمكن أن تجذب انتباه الشرطة، فبدأت بالأنين بدلاً من الصراخ. عجز شارباست و«شمسا» عن فعل أي شيء لي. لفت منظرنا الغريب نحن الثلاثة أنظار بعض الفضوليين.

وصلنا أخيراً إلى المستشفى المحلي. لم أفاجأ عندما

أدركت أنني لست موضع ترحيب هناك. قالت «شمسا» للموظف المسؤول: «إن ابنتي على وشك أن تضع طفلها». لم يتأخر المسؤول عن اكتشاف أنني لاجئة. تعب الإيرانيون اللاجئين العراقيين وسئموا منهم، ونظروا إلينا باعتبارنا أعداءهم، لأننا نستهلك الخدمات الطبية التي يحتاج إليها شعبهم.

استُدعيت ممرضة لترشدنا إلى قسم الولادات. صُدمت عندما قالت هذه الممرضة لشارباست إنه لا يستطيع مرافقتي: «لا. لا يُسمح للرجال بدخول قسم الولادات».

تطلعت بقلق نحو شارباست. إنها أكثر الأحداث أهمية في حياتنا، وأريد أن أتقاسمها معه. كنت خائفة، ولم أرغب في أن أكون وحيدة.

لاحظ شارباست مدى يأسي، لذلك جاءت لهجته أكثر عنفاً عندما أبلغ الممرضة: «يجب أن أكون معها. إنه طفلنا الأول، وزوجتي تحتاج إلي».

تحوّل وجه الممرضة إلى قناع من الغضب. لاحظتُ أنها تمتلك رقبةً ثخينة وبنيةً قوية. بدت خصماً مخيفاً، وعلى استعداد لمنازلة كل مقاتل عراقي ينتمي إلى «البشمركة». حملقتْ بوجهي أولاً قبل أن تتحول إلى شارباست: «لا! إنها التعليمات. تستطيع أن تذهب وتقف وراء تلك الشبكة». وأشارت في اتجاه مكان أصبح وراءنا.

استدرت أنا وشارباست لنتطلع. رأينا شبكة من الأسلاك السميكة تتدلى من السقف إلى الأرض لتقسم الغرفة الكبيرة،

بحيث يصبح أحد القسمين غرفة انتظار. هل يعتبرون الأزواج الذين ينتظرون زوجاتهم حيوانات برية في هذا المستشفى؟

قلت لشارباست: «لا بأس، انتظر هناك. ستكون «شمسا» معي».

تطلعت الممرضة نحو «شمسا»، وسألتها بفظاظة: «أين حوائجها؟».

تمتمتُ بتردد: «لا أمتلك شيئاً».

وجهت الممرضة أمرها إلى «شمسا»: «اذهبي واجلبي لها عباءة، وبعض الثياب للطفل. إننا لا نقدم هذه الأشياء».

سالت الدموع من عينيّ، وراقبت شارباست وهو يتوجه بكل إطاعة ليقف خلف الشبكة. تبعته «شمسا».

سرت مرتعبة خلف تلك الممرضة القاسية الطباع. شعرت بأن مسيرتي هذه هي الأكثر وحشةً في حياتي. لم أكن لأشعر بحزنٍ أكبر لو أن أحداً قال لي إنني أسير نحو قبري. أُدخلت جناحاً تنتظر فيه نساء أخريات كي يلدن أطفالهن. قالوا لي إنه لا يتوافر طبيب كي يشرف على عملية وضعي للطفل، لكنهم أوضحوا أنهم سيرسلون لي قابلة قانونية أو ممرضة، ويعتمد ذلك على مدى صعوبة عملية الوضع. وضعوني في السرير من دون توجيه أي كلمة تطمين إلي، وأبلغوني أنهم سينقلونني إلى غرفة الولادة عندما يحين الوقت.

لم أشعر بأن أي شيء يتواجد في مكانه الصحيح، ولم

أحس بضعف في السابق مثل الذي شعرت به حينها. أنهكني الألم الذي لا يرحم، وشعرت بخوفٍ شديد. أدركت أنني الطفل الأصغر في عائلتي، لكنني لم أكترث لكل شيء يتعلق بإنجاب الأطفال. اعتبرت نفسي أكثر النساء جهلاً في العالم لما ينتظرني، وهكذا خلق جهلي خوفاً عظيماً عندي.

وجدت نفسي وحدي في الوقت الذي احتجت فيه إلى والدتي، أو شقيقاتي. سالت من عينيّ دموع الخوف والشعور بالوحدة والغربة. أردت أن تكون والدتي إلى جانبي!

أدرت رأسي لأواجه الجدار، ورحت أنشج: «يا أمي».

ردّ علي صوت قريب مني: «ماذا تفعلين هنا وحدك، يا ابنتي؟»

فتحت عينيّ لأجد وجهاً إيرانياً كردياً لطيفاً لامرأة في منتصف العمر: «أراك حزينة! لكنها مناسبة سعيدة». تطلعت المرأة في أنحاء الغرفة وقالت: «أين شقيقاتك؟ وأين والدتك؟».

شعرت بأكبر تعاسة يمكنني الشعور بها: «إنني لاجئة». واعترفت وسط دموعي: «إنني وحيدة هنا».

لاحظت أن هذه المرأة بدينة، لكن بطريقة ما تبدو محببة. ابتسمت من خلال دموعي بعد أن انحنت نحوي، وقالت: «عانقيني يا ابنتي. تخيلي أنني والدتك».

فعلت ما طلبته المرأة مني بالضبط.

أمضت هذه المرأة اللطيفة الساعات القليلة التالية وهي تتنقل ما بين سريري، وسرير ابنتها.

اقتربت مني عند الساعة العاشرة صباحاً قابلة قانونية متجهمة الوجه، وقالت: «حان الوقت».

شعرت بشك كبير وخوف شديد مما سيحصل. كيف عرفت هذه المرأة أن الوقت قد حان؟ لم يأتِ أحد ليفحصني.

عانقتني رفيقتي الحنونة مودعةً، وهمست في أذني: «سينتهي الأمر سريعاً، وعندما يضعون ابنك، أو ابنتك بين ذراعيك، سيصبح ذلك الطفل قلبك».

ابتدأت الخطوة التالية. كانت في غرفةٍ مليئة بالرعب.

أمروني بأن أصعد إلى طاولة ولادة خشبية. شعرت بأن الطاولة ضيقة بشكل خشيت معه أن أسقط إلى الأرض الإسمنتية. بقيت يقظة برغم التقلصات، بسبب خوفي من فقدان توازني.

بدت كل لحظة من لحظات الوضع بمثابة كابوس بالنسبة إلي. حسبت أنني سأصاب بالهذيان لشدة ألمي، لكنهم لم يعطوني شيئاً للتخفيف منها. لم ألمس أي تعاطف، أو عناية، من قِبلهم. سحب أحدهم طفلي من أحشائي قبل الأوان. رحت أصرخ من الألم، وكذلك صرخ طفلي.

سمعت طفلي!

سمعت صوت «شمسا» في الوقت الذي شعرت فيه بأنني سأغرق في لجة مظلمة. سُررت كثيراً لأنهم سمحوا لها بالدخول إلى غرفة التوليد. شبكت يديها بيديّ، وتكلمت بنعومة: «انتهى الأمر الآن، وأصبح لديك ابن يا جوانا، لديك ابن».

بلغ الإرهاق الذي شعرت به حداً عجزت معه عن فهم أهمية ما حدث للتو.

انهمكت ممرضة بتنظيف ابني ولفّته بحِرام، وبدأت القابلة القانونية بخياطة الأمكنة التي تعرضت للتمزق. لم تستخدم أي مخدّر، وادّعت أنه: «لا يتوافر أي مخدّر موضعي للعراقيات». راحت تخيط بكل قسوة، وبنوعٍ من الفرح الغاضب، أثناء غرزها للدرزات.

رأيت، بعدها، ابني.

بدا جميلاً. لم أستطِع التوقف عن التحديق في وجهه الصغير والمستدير، وعينيه الكبيرتين الداكنتين والمحببتين. ذكّرني أنفه الدقيق وشفتاه المكتنزتان بشارباست. رأيت شعره الأملس كأنه مُشّط لتوه.

حملته «شمسا» قريباً من وجهي، واستنشقت رائحته الطفولية العطرة. اغرورقت عيناي بالدموع. نظرت نحو «شمسا»، وقلت بسعادة لا توصف: «أصبحتُ أماً».

أصررت بعد مضي ساعات عدة على أن يرى شارباست طفلنا. لم أستطِع جعل زوجي ينتظر حتى الغد قبل أن يرى هذه المعجزة الصغيرة التي أطلت على حياتنا.

أخبرتني «شمسا»، ضاحكة، أن شارباست الكئيب ما زال ينتظر وراء الشبكة المعدنية.

لم تخصص عربات مدولبة للاجئين العراقيين، وهكذا مشيت، وأنا أعرج، نزولاً في الممر الطويل. احتضنت «شمسا» طفلي بذراعيها القويتين.

ظهر لنا شارباست ببطء أمام ناظرينا. لاحظنا أنه أمسك بالشبكة المعدنية بكل قوته مركّزاً نظراته عليّ.

اقتربت بقدر ما تسمح به هذه الأسلاك الحديدية المنصوبة. خرج صوتي متقطعاً عندما قلت له: «انظر يا شارباست. انظر، إنه ابنك».

تركّزت عينا شارباست على ابنه.

أضاء وجهه بابتسامة، وقال: «كوشا».

سبق لي في الأشهر القليلة الماضية أن تباحثت مع شارباست لاختيار أنسب اسم لابننا. اتفقنا على أننا سنطلق على الطفل، إذا كان صبياً، اسم «كوشا»، الذي يعني «المناضل» في لغتنا الكردية.

كرّر شارباست: «كوشا».

حدقت في المناضل الصغير، ابني كوشا، الذي ملك قلبي بالكامل.

يبدو أن كوشا قد استاء من إفراطنا بتدليله، ففتح فمه وأطلق صرخة احتجاج.

ضحكنا معاً بسعادة عارمة. ما أروع أن نرى حبنا يحبو طفلاً أمامنا.

التفت شارباست نحوي، وابتسم بفخرٍ وحبور: «لقد فعلتِها. فعلتِها يا جوانا».

أجبته: «نعم. نجحنا في ذلك في النهاية. نجحنا معاً».

نجحنا بالفعل، بعد أن تعرضنا للمطاردة كالحيوانات، لكننا قاتلنا من أجل البقاء. أعرف أن الفوضى تعم كردستان الآن، وأن آلاف الأكراد قد ماتوا بينما نجونا نحن، لكننا سنجمع صفوفنا مرة أخرى، وسوف نعود إلى بلادنا. سيظل الحلم الكردي حياً.

بدأت بطون الكرديات في تعويض الخسائر البشرية التي أصبنا بها.

خاتمة: الحرية!

لندن، إنكلترا: ٢٠ تموز، ١٩٨٩

التفت شارباست نحوي، عندما وصلنا إلى مكتب إدارة الهجرة في مطار هيثرو في لندن. ارتسمت ابتسامة نجاحٍ صغيرة على وجهه. التقت عيوننا، بينما وجّه نحوي إيماءةً سريعة. بدأ شارباست بتجميع أمتعتنا القليلة من دون أن يقول شيئاً.

شعرت بأن ركبتيّ ضعيفتان، تماماً مثلما هي أعصابي، وأن رجليّ ترتعشان تحت ثنايا تنورتي. استطعت أن أقف بصعوبة.

إن شارباست هو أكثر الرجال قدرة على الإقناع في العالم. دُهشت عندما قبل ضابط شؤون الهجرة المتجهم الوجه كلماته. قال الضابط إنه لن يجبرنا على الرحيل في أول طائرة عائدة إلى دمشق، وهي المدينة التي انطلقنا منها. علمت أنهم لن يقبضوا علينا ليضعونا في السجن. قبِلَنا البريطانيون بصفتنا لاجئين يسعون إلى اللجوء في المملكة المتحدة. علمت أنه باستطاعتنا نحن الثلاثة، أنا وشارباست وطفلنا كوشا، دخول إنكلترا، كما أننا سنتلقى المساعدة والمساندة أثناء تقديم الطلبات للحصول على الإقامة الشرعية.

شعرنا بأننا بأمان فعلي، وأننا بعيدون عن الغازات الكيميائية لصدام حسين، وأننا تحررنا من حياة اللاجئين الكئيبة التي عشناها في إيران، وابتعدنا عن الرعب الذي يرتسم في عيون الضباط السوريين. إننا في إنكلترا الآن، ونعتزم بدء حياةٍ جديدة في هذا البلد، نستطيع في خلالها أن نحيا بأمان، هنا في عاصمة الضباب. ونستطيع أن نربي ابننا الغالي كوشا، في هذه البلاد التي تبعد عن العراق آلاف الأميال.

تطلعت في وجه كوشا الصغير، وحضنته بقوة أكبر. دفعتني شاعرية هذه اللحظة إلى البكاء. رحت أنشج من فرط سعادتي.

إننا محظوظون.

بدا حبيبي شارباست مرهَقاً ومتعَباً. عانيت وإياه في خلال ثلاث سنين من الزواج، وكثرة الترحال، والهرب، متاعب تفوق ما يلاقيه المتزوجون خلال خمسين، أو ستين سنة. وبرغم ذلك، أعتقد أن هذه الصعوبات والمحن التي عانيناها قد قربتنا من بعضنا بعضاً. اقتربنا من بعضنا بشكل أحسست معه بأنني لو عشت مئة سنة أخرى، فسأعتبر أن شارباست هو الشخص الوحيد الذي يستطيع أن يفهم تماماً كل أفكاري ومشاعري، وهو الشخص الأوحد الذي لن أتردد لحظة في الهيام به والحلم بالزواج به. شاركني زوجي كل أحزاني، وعرفت في تلك اللحظات أنه يفتقد الأشخاص الذين أفتقدهم، كما أنه ما زال يحلم ببلدنا الجميل، كردستان، مثلي أنا تماماً.

دُهشت لمدى اللطف الذي قبلنا به ضباط شؤون الهجرة في مطار هيثرو. هرع بعضهم ليرتب مسألة سكننا وطعامنا، وقدموا

إلينا المال، حتى أنهم عرضوا مساعدتهم كي نصل إلى وضع قانوني لإقامتنا. اعتدت لأعوام طويلة مضايقة الموظفين الحكوميين الرسميين الدائمة لنا في أماكن لجوئنا السابقة، وحتى في بلدنا العراق، بحيث عجزت عن تصديق ما يُظهره الغرباء من تعاطف معنا.

عادت بي أفكاري إلى أسعد أيام حياتي، وهو اليوم الذي انتقلت فيه من قلعة ديزا إلى «مرجة» كي ألتقي بزوجي الجديد. لم أستطِع التنبؤ حينها بالدموع السخية التي سأذرفها، والتي قدّر لي أن أهرقها في المستقبل. كنت حينها تلك الشابة التي وقعت في الحب إلى درجة أنني آمنت فعلاً بأن الأحلام تتحقق، وأننا سنربح معاركنا، وأن تضحياتنا ستعطينا أعظم انتصار: حرية الأكراد.

أعرف أن كردستان ليست حرة الآن، وأن الكثيرين ممن أحبوا سلسلة جبال كردستان أصبحوا من الأموات، أو أنهم يحيون حياة اللاجئين غير المرغوب فيهم.

توصلت إلى اقتناع بأن صدام حسين لن يثير غيظ العالم، ولو نجح في قتل كل شخص حيّ من الأكراد. إن صدام حسين هو رجل محبب لدى إدارة رونالد ريغان، وهي الإدارة التي تجاهلت فعلياً مسألة إبادة مئة ألف كرديّ.

أعتقد أنني كنت، مثلما هو شارباست، على استعداد لتحمل حياة اللاجئين إلى الأبد. لكن الأمومة تغيّر كل شيء بالنسبة إلى المرأة. قررت أخيراً مع زوجي، بعد أن أبصر كوشا النور في هذه الدنيا، أنه يتعيّن علينا مغادرة هذه المنطقة المنذورة

للصراعات، والبحث عن حياة جديدة في بلد جديد، تُحترم فيه إنسانيتنا، بحيث نستطيع تربية أطفالنا بأمان وسلام.

لم يتأخر شقيقي رعد عن مد يد المساعدة إلينا، فأرسل لنا المال لدفع تكاليف جوازات سفرنا، ولرشوة الموظفين الرسميين في إيران، ولاحقاً في سوريا. أفترض أنه لولا شقيقي لكان شارباست، وكوشا، وأنا، قد انتهينا لاجئين في معسكر من الخيام، مثل مخيّم اللاجئين الناجين من حلبجة. حدث ذلك إثر الهزيمة الكاملة تقريباً لقوات الاتحاد الوطني الكردستاني، عندما لم يبق أي مكان آخر يهرب إليه الناجون. تحوّل اللاجئون الأكراد العراقيون، بعد انتهاء الحرب ما بين إيران والعراق، إلى مصدر قلقٍ كبير بالنسبة إلى إيران، ولم يعد هؤلاء موضع ترحيب فيها. لم يعد من الممكن أيضاً العودة للعيش في العراق، ولو عدنا لتعرض شارباست للإعدام، ولتعرضتُ أنا للاعتقال، ولنشأ كوشا في أي ميتم. لم تكن هناك فرصة لمولودنا الجديد أن ينجو بحياته في ظل هذه الأوضاع.

يستطيع المال في هذا العالم الغارق في الفساد، أن يحل معظم مشاكل الأوراق الرسمية. تمكنت أنا وشارباست من تجهيز بعض الوثائق باستخدامنا مساعدة رعد السخية، وتمكنا من مغادرة «ساكيز» والارتحال إلى طهران، ومن هناك استقللنا أول طائرة مغادرة لإيران. خطّطنا للتوجه إلى دولةٍ ما، أي دولة مستعدةٍ لاستقبال اللاجئين الأكراد. ذُعرت كثيراً عندما علمت أننا متوجهون إلى سوريا. بذلت جهداً كبيراً للسيطرة على ذعري

هذا الناجم عن حقيقة أن سوريا هي دولة بعثية هي الأخرى. حاول شارباست أن يطمئنني بصبره المعهود، وقال إننا نستطيع تدبر الأمر هناك، لكنني عجزت عن التفكير في شيء عدا تلك الوجوه البعثية القاسية التي سنلاقيها فور وصولنا.

تأكدت من أن قلقي كان في محله، فزاد ذلك من صعوبة الوضع. استشاط الموظفون الرسميون السوريون غضباً عندما رأوا أكراداً عراقيين يصلون جواً إلى بلدهم. تفحصت عيونهم المتشككة في أوراقنا وجوزات سفرنا. أقدم هؤلاء بعد قليل على سحبنا من صفوف الواصلين، رافضين بذلك السماح لنا بدخول سوريا. وُضعنا في منطقة معزولة في ملجأ مهمل موجود تحت مبنى المسافرين في المطار. قالوا لنا إنه إذا لم يُعجبنا المكان فسيقومون بإرسالنا إلى السجن. وجدنا بعض المسافرين الأكراد الآخرين محتجزين معنا في المكان نفسه، لكن قلقي كان شديداً بحيث إنني نسيت وجوه المسافرين الذين شاركونا في مصيرنا الكئيب هذا، ونسيت أيضاً كل الأحاديث التي تبادلناها.

قلقت أيضاً لانعدام وجود الماء والطعام معنا. صودرت أمتعتنا، ولم يبق معي سوى حفاظتين احتياطيتين اتسختا بدورهما. لم أعد قادرة على إرضاع طفلي، وفرغت زجاجتا الحليب المخصصتان له. بدأ يصرخ من الجوع. نقلونا في سيارة أمنية رسمية بعد مرور أربع وعشرين ساعة، ووضعونا أمام مركز للشرطة في دمشق. قالوا لنا إنه سيتم استجوابنا، وفهمنا ضمناً أنهم لربما سيسلموننا إلى الحكومة العراقية، أي أننا سنتوجه إلى موتنا المحتم.

طلبت الحصول على الحليب لإرضاع ولدي الجائع، لكنني لم أستلم سوى الماء. بدا الأمر من القسوة إلى درجة أطلقت معها صرخة غضب تفجرت من أعماقي، وخرجت كزئير قوي. ذُهل جميع الموجودين من حولي لدى سماعي وأنا أنفجر غضباً. راح شارباست يحاول إقناعي بأن أهدأ، لكني لم أستطِع. شعرت بأنني متوحشة وقوية بما يكفي لقتلهم جميعاً. أدركت سريعاً أن صرخة غضبي قد غيّرت موقف هؤلاء الموظفين الرسميين. تحوّلنا في لحظة إلى ضيوف مرحَّبٍ بهم، ونقلونا من مركز الشرطة إلى شقة في دمشق، وأعطونا بعض المساعدة. رفضت مغادرة الشقة لأسبوعين متتاليين، ولم أرَ شيئاً من دمشق القديمة، وكان كل ما أرغب فيه هو الهروب إلى عالم أحس فيه بأنني إنسان. انصرفت لحماية طفلي، بينما انشغل شارباست في الحصول على وثائق مزوَّرة، وتذاكر سفرٍ لرحلة مباشرة إلى إنكلترا. زعم جواز سفري الجديد أنني من مواطني دولة الإمارات العربية المتحدة. لم نستطِع تأمين الحصول على تأشيرات دخول بريطانية، لكننا قررنا مغادرة سوريا على أي حال، وبأي وسيلة، وأن نضع أنفسنا تحت سلطات الهجرة البريطانية.

شعرت وشارباستان كأننا مجرمان عندما صعدنا بعصبية إلى الطائرة التي كانت ستقلنا من دمشق إلى لندن، وعجزنا حتى عن الكلام. اعتراني شعور بأنهم سيأخذاننا وطفلي من الطائرة في أي لحظة، وسيجبروننا على أخذ أول طائرة متجهة إلى بغداد.

اضطرت الطائرة إلى الهبوط، بشكل لم يكن مقرراً سابقاً، في قبرص، فانتابني رهاب شديد من أن يكون وضعنا غير القانوني هو السبب. أبلغونا بعد أن غادرنا الطائرة أن المسافرين سيبقون في قبرص لعشر ساعات، وشجعونا على مغادرة المطار والتوجه لزيارة هذه الجزيرة الصغيرة والجميلة. رفضت أن أتزحزح من مبنى المسافرين في المطار، لم أكن مستعدةً أبداً للقيام بأي شيء يتطلب الخروج والدخول من خلال مكتب هجرة آخر.

لم يكن هناك من مبرر لقلقي، مرة أخرى. صعدنا إلى الطائرة من دون حصول شيء، ولم تلبث الطائرة أن أقلعت. شعرت بأن قلبي قد قفز إلى حلقي عندما وصلنا أخيراً إلى مركز الجمارك في مطار هيثرو. شاهدت شارباست وهو يكاد يقفز قفزاً نحو المكتب. شرح مأساتنا للموظفين، واعترف لهم بأننا نمتلك وثائق مزيفة، ثم طلب منحنا اللجوء السياسي لأننا معرضون للقتل إذا أُجبرنا على العودة لملاقاة صدّام، وأفراد حزبه البعثيين في العراق.

لا أتذكر سوى القليل عن ليلتنا الأولى التي قضيناها في إنكلترا، لأنني شعرت وشارباست بإرهاق شديد نتيجة رحلتنا الطويلة نحو البحث عن الحرية، بحيث إننا لم نتبادل سوى القليل من الكلمات. تركّز قلقي الحقيقي حول راحة كوشا، بعدما أنهكته هذه الرحلة المضنية، وملأ الدنيا بصراخه.

استيقظت باكراً في الصباح التالي. حدّقت في سقف غرفة الفندق الشاحب، وهي غرفة قدمها إلينا بلطف موظفو الهجرة إلى أن نعثر على شقة لنستأجرها. تطلعت كي نحصل على مكان يخصنا وحدنا، وتمنيت الحصول على مكانٍ أفضل من مجرد غرفة مفردة لا يكون سقفها ملطخاً نتيجة أعوام من الدخان وتراكم الأوساخ. رأيت في هذا السقف رمزاً يذكرني بحياتي أنا. ألم أكن شابة صغيرة ذات مرة، جديدة على الحياة، وجميلة؟ ألم تجعلني الأعوام القليلة الماضية أبدو كأنني تقدمت بالسن، وساهمت في جعلي أقرب إلى امرأة قروية تملك الكثير من القسوة في بعض الأحيان؟

شعرت كأننا نلنا العفو فجأة! ووجدنا أنفسنا أحراراً، ونعيش في غرفة فندق في بلاد لا يخيّم علينا فيها خطر الاعتقال، أو التعرض لإطلاق النار، لا لجريمة اقترفناها عدا عن كوننا خُلقنا أكراداً.

أدرت رأسي بهدوء، وحدّقت في وجه الرجل الذي أحببته أكثر من حياتي نفسها. انقبض قلبي من الحزن. شاهدت وجه شارباست الذي يبدو متعباً، حتى أثناء استغراقه في النوم العميق، لكنني ارتحت لأنه لا يبدو أنه يعاني الكوابيس، للمرة الأولى منذ انطلاقنا في رحلتنا معاً. أملتُ أن نحظى بلياليٍ هادئة قادمة. تمنيت للحظة أن يتقاعد شارباست أخيراً، في إنكلترا، من كونه محارباً منذ أن كان شاباً.

تناهت إلى سمعي من خلال الباب غير السميك أصوات الأطفال الضاحكين الخافتة التي تملأ الممرات الداخلية للفندق. أظن أنهم أطفال محظوظون لم يجربوا الخوف الذي تسببه القنابل المنفجرة، أو قذائف المدفعية، ولا الغازات الكيميائية، ولم يعانوا الرعب الذي يسببه اضطرار المرء إلى الهرب المتتالي من منزله في عتمة الليل.

التفتّ لأحدق في السرير الموجود قرب سريري، لأشاهد وجه كوشا الصغير، الذي ابتعد عنه شبح الموت برصاصة حاقدة، لأول مرةٍ منذ بداية حياته.

نهضت بهدوء من السرير، وتحسست خد شارباست بلطف، وسرت قليلاً كي أطبع قبلةً على خد كوشا الصغير الزهري اللون، وذلك قبل أن أنسلّ وراء الستارة الضخمة أقف خلفها وأتطلع من خلال النافذة. خصصت اللحظات الهادئة التالية لأحدّق في البعيد، فرأيت الحدائق الخلفية لعدة منازل إنكليزية.

هل سيقيّض لي أن أزرع مع شارباست حديقة مثل التي أتطلع إليها؟ وهل سيكون من الصعب علينا أن نترك وراءنا الفوضى التي عشناها، باعتبارنا مناضلَين من أجل الحرية، وأن نعيش حياة طبيعية ومستقرة؟ عشنا عدة سنين كأننا فراشات مجنحة جميلة، وكانت هذه الأجنحة تنبض بشغفنا بالقضية الكردية. هل نستطيع بالفعل أن نصبح زوجَين إنكليزيين مستقرين ومتحضرَين؟

أطلقت تنهيدة من القلب، تقدمت نحو طاولة صغيرة أُسندت إلى جدار، وجلست على كرسي خشبي. تناولت ورقة من أوراق الفندق الرخيصة، وحدّقت فيها للحظات طويلة.

كتبت بقلمي كلمات كانت أجمل من أن تصدّق: «شارباست، وجوانا، وكوشا حسين، أصبحو أحراراً!

إننا أحرار!».

أين هم الآن؟

حصلت أحداث عديدة غيّرت وجه العالم منذ أن فرّت جوانا من بلدها الذي أحبته حتى الثمالة: كردستان. وهي أحداث أثّرت كثيراً في أفراد أسرتها وأصدقائها، الذين انتشروا في أنحاء الكرة الأرضية.

تتابع جوانا الحياة في إنكلترا، وهي البلاد التي وفّرت الحرية لها. يفخر شارباست وجوانا بكونهما والدين لصبيين. بلغ كوشا، الذي ورث عن والده مواهبه الفنية، عامه الثامن عشر في العام ٢٠٠٧، أما الابن الأصغر، ديلان، فهو في السادسة من عمره، ويمتلئ حيوية. تستمتع جوانا بوظيفتها مع الخطوط الجوية البريطانية «بريتيش آيروايز»، وهي الوظيفة التي تسمح لها بالكثير من الأسفار.

يقسّم شارباست وقته ما بين شمال العراق، الذي ما زال الأكراد يطلقون عليه اسم «كردستان»، وبين إنكلترا.

أما والدة جوانا المسنة، كافية، فلا تزال تلك الشخصية المليئة بالحيوية، وهي تعيش في إنكلترا، حيث تستمتع برفقة بعض أبنائها وأحفادها. وتعيش في إنكلترا أيضاً شقيقة جوانا الكبرى، علياء، وزوجها هادي، مع ثلاثة من أولادهم الأربعة، ويواظب الجميع على رؤية جوانا وأسرتها بين حين وآخر.

ويعيش ولدهم الرابع وزوجته في دبي. ويقسّم شقيق جوانا الأكبر، رعد، وزوجته كريستينا، وولدهم المراهق عمر، أوقاتهم ما بين سويسرا ودبي. استمر شقيق جوانا، سعد، وعائلته في العيش في العراق، وهم يواجهون صعوبات عديدة هناك بسبب الوضع المتزعزع. اضطر سعد وعائلته حديثاً إلى الفرار من بغداد في منتصف الليل، طلباً للأمان في كردستان.

عاد أولاد الخالة عائشة إلى حلبجة فور تحسّن الحالة الأمنية، وأقدموا على نبش جثة والدتهم لدفنها في السليمانية الجميلة، وهي المدينة ذات الغالبية السكانية الكردية التي عرفت السعادة فيها. مات الخال عزيز، بعد وقتٍ قليل من مغادرة جوانا العراق.

استطاعت جوانا أن تتقصّى أخبار «آشتي»، وعلمت أنها وزوجها، وربوار، يعيشون الآن في أستراليا. أما قريب شارباست المحبوب، كاماران، فقد تزوج، ويعيش في النمسا مع زوجته وابنته الصغيرة. تفرّق الكثيرون من أصدقاء شارباست الذين قاتلوا معه في صفوف «البشمركة» في أنحاء أوروبا، بينما عاد بعضهم الآخر إلى كردستان، ليجدوا أنفسهم أحراراً، من سطوة صدام حسين، للمرة الأولى في التاريخ الحديث.

توفي «حسن المجنون» بطريقة مأساوية، لكن جوانا لا تعرف الظروف التي أحاطت بموته المفاجئ، ولا تعرف أيضاً مكان وجود «بيوتي»، البغل الذكي الذي أحبه «حسن المجنون» كثيراً، والذي أنقذ جوانا حين حملها فوق جبل قنديل.

نال العراقيون الأكراد، والعراقيون الشيعة، قسطاً ضئيلاً من

العدالة، عندما تابعوا محاكمة الرئيس السابق صدام حسين بسبب جرائم الحرب التي ارتكبها. وُجد صدام حسين مذنباً في المحاكمة الأولى التي جرت لمحاسبته على الجرائم التي ارتكبها ضد الشيعة، وحُكم عليه بالإعدام شنقاً، وشُنق فعلاً يوم الثلاثين من كانون الأول، ٢٠٠٦. شعرت جوانا، والكثيرون من الأكراد الذين عانوا كثيراً جراء حكم نظام صدّام، أن إعدامه هو أمر عادل، لكنها شعرت بإحباط كبير لأن الديكتاتور السابق قد شُنق قبل انتهاء محاكمته بقضية الأنفال التي لم تنتهِ بعد، وهي القضية التي يُقال إنها أودت بحياة ما يقارب المئتي ألف رجل، وامرأة، وطفل، من الأكراد.

أتاحت عملية إنهاء حكم صدام حسين المجال أمام الأكراد ليكونوا على رأس القيادة العراقية. انتخب مسعود البرازاني، وهو نجل أبي القضية الوطنية الكردية، الملا مصطفى البرزاني، رئيساً لإقليم كردستان العراقي. وانتخب زعيم الاتحاد الوطني الكردستاني، والسياسي المعروف، جلال الطالباني، كأول رئيس كردي للعراق، وهو الأمر الذي كان باستطاعة القليل جداً من الأكراد تخيله خلال الأعوام المظلمة السابقة، عندما كان الأكراد يُطارَدون من أجل تعذيبهم وقتلهم.

تأمل جوانا، مع بقية الأكراد، أن يكون الستار قد أُقفل نهائياً على حقبة طويلة من الاضطهاد والمذابح، وأن يكون الباب قد انفتح أمام الديموقراطية، والحريات الفردية.

سيبقى الأمل حياً في القلوب الكردية!

جدول زمني
بالأحداث الرئيسية التي أثّرت
في مصير العراقيين الأكراد في العصر الحديث

١٩١٨ : هزيمة الامبراطورية العثمانية. القوات البريطانية تحتل العراق، ووضع المناطق الكردية تحت السيطرة البريطانية.

١٩١٨ : وينستون تشرشل يأمر سلاح الجو الملكي بإسقاط مواد كيميائية على الأكراد المتمردين.

١٩١٩ : المناطق الكردية تلتحق بالدولة العراقية الجديدة، التي أصبحت تحت الانتداب البريطاني.

١٩٢٠ : معاهدة سيفر تقر إنشاء دولة كردية بشرط موافقة عصبة الأمم.

١٩٢١ : تتويج فيصل الأول ملكاً على العراق، الذي أصبح يشمل المناطق الكردية.

١٩٢٣ : الشيخ محمود بارزنجي يثور ضد الحكومة العراقية الجديدة، ويعلن المملكة الكردية.

١٩٢٣ : البرلمان التركي يفشل في المصادقة على معاهدة سيفر.

١٩٢٤ : سقوط السليمانية أثناء تمرد ضد الحكومة العراقية المدعومة من البريطانيين.

١٩٣٢ : البرزاني يقود تمرداً جديداً، ويطالب بالحكم الذاتي للأكراد. رفض فكرة الحكم الذاتي.

١٩٤٣ : البرزاني يثور مجدداً، ويحرز نجاحاً أكبر هذه المرة عندما سيطر مقاتلوه على مناطق واسعة من الأراضي.

١٩٤٦ : مسعود البرزاني يؤسس الحزب الديموقراطي الكردستاني. يرتكز هذا الحزب الكردي السياسي على أسس قبلية.

١٩٤٦ : سلاح الجو الملكي البريطاني يقصف القوات الكردية. فرار المقاتلين الأكراد إلى منفاهم في إيران.

١٩٤٦ : اضطرار البرزاني إلى مغادرة إيران بسبب مصادمات مع القوات الإيرانية. وصوله إلى منفاه في الاتحاد السوفياتي.

١٩٥١ : انتخاب البرزاني رئيساً للحزب الديموقراطي الكردستاني، حتى مع استمرار وجوده في منفاه في الاتحاد السوفياتي.

١٩٥٨ : عودة البرزاني من المنفى بعد الإطاحة بالملكية العراقية. اعتراف الحكومة العراقية الجديدة بالحقوق القومية الكردية.

١٩٥٩ : فشل الانقلاب البعثي الأول. هروب صدّام حسين إلى مصر.

١٩٦١ : الحكومة العراقية تقوم بحل الحزب الديموقراطي الكردستاني بعد تمرد كردي جديد.

١٩٦٣ : نجاح الانقلاب البعثي. الانقلاب المضاد يطيح بالحكومة البعثية.

١٩٦٨ : عودة البعثيين إلى الحكم. تمكن صدّام حسين من أن يكون الرجل الثاني في السلطة.

١٩٧٠ : الحكومة العراقية، والأحزاب السياسية الكردية، توافق على اتفاقية سلام تمنح الأكراد الحكم الذاتي.

١٩٧١ : اهتزاز السلام ما بين الحكومة العراقية، والحزب الديموقراطي الكردستاني.

١٩٧٤ : البرزاني يدعو إلى ثورة جديدة بعد رفض اتفاقية الحكم الذاتي.

١٩٧٥ : توقيع اتفاقية الجزائر ما بين إيران والعراق، التي تنهي الدعم الإيراني للأكراد العراقيين.

١٩٧٥ : جلال الطالباني، وهو عضو سابق في الحزب الديموقراطي الكردستاني، يؤسس حزباً سياسياً كردياً جديداً تحت اسم الاتحاد الوطني الكردستاني.

١٩٧٨ : وقوع صدامات ما بين الحزب الديموقراطي الكردستاني بقيادة البرزاني، والاتحاد الوطني الكردستاني بقيادة الطالباني. الصدامات تؤدي إلى مقتل عدد كبير من المقاتلين الأكراد.

١٩٧٩ : صدّام حسين يحل محل أحمد حسن البكر كرئيس للعراق. وفاة البرزاني، زعيم الحزب الديموقراطي الكردستاني. تولي ابنه، مسعود البرزاني، زعامة الحزب.

١٩٨٠ : العراق يهاجم إيران، واندلاع الحرب بينهما.

١٩٨٣ : الاتحاد الوطني الكردستاني يوافق على وقف إطلاق النار مع الحكومة العراقية. إطلاق المحادثات بشأن الحكم الذاتي للأكراد.

١٩٨٥ : ازدياد قمع الحكومة العراقية للأكراد. توقف المحادثات.

أفراد من الميليشيا التابعة للحكومة العراقية يغتالون شقيق جلال الطالباني، واثنين من أبناء عمومته.

١٩٨٦ : الحزب الديموقراطي الكردستاني، والاتحاد الوطني الكردستاني، يتحدان للقتال إلى جانب الحكومة الإيرانية ضد الحكومة العراقية.

١٩٨٧ : الجيش العراقي يستخدم الأسلحة الكيميائية ضد المقاتلين الأكراد.

١٩٨٨ : الجيش العراقي يشن حملة الأنفال ضد الأكراد. مقتل عشرات ألوف المدنيين والمقاتلين الأكراد، واضطرار مئات ألوف الأكراد إلى الهرب إلى إيران، وتركيا، وسوريا، للعيش في المنفى. حلبجة تصبح رمزاً شهيراً للهجمات الكيميائية الوحشية.

١٩٩١ : نشوب تمرد كردي بعد طرد القوات العراقية من الكويت. الجيش العراقي يشن الحرب ضد الأكراد. مقتل الآلاف، واضطرار أكثر من مليون كردي إلى الفرار. لجوء الكثيرين من الأكراد إلى الجبال العالية.

١٩٩١ : إنشاء منطقة حظر الطيران في شمال العراق لحماية الأكراد من صدام حسين.

١٩٩٤ : تحوّل الصدامات ما بين الاتحاد الوطني الكردستاني، والحزب الديموقراطي الكردستاني، إلى حرب أهلية.

١٩٩٦ : زعيم الحزب الديموقراطي الكردستاني يطلب مساعدة صدّام حسين للتغلب على الاتحاد الوطني الكردستاني.

١٩٩٦ : الاتحاد الوطني الكردستاني يستعيد السيطرة على السليمانية.

١٩٩٨: التوصل إلى اتفاقية سلام ما بين الاتحاد الوطني الكردستاني، والحزب الديموقراطي الكردستاني.

٢٠٠٣: قوات التحالف تطيح بحكومة صدّام حسين. الشعب الكردي بأمان لأول مرة منذ إنشاء العراق بعد انتهاء الحرب العالم الأولى.

٢٠٠٥: حدث تاريخي عراقي وكردستاني بتولي أول كردي، وهو جلال الطالباني، مؤسس الاتحاد الوطني الكردستاني، منصب الرئاسة في العراق في السادس من نيسان ٢٠٠٥.

مسرد

الاتحاد الوطني الكردستاني: تأسس في العام ١٩٧٥ على يد جلال الطالباني، وهو الرجل الذي أصبح رئيساً للعراق في العام ٢٠٠٥. يُعتبر الاتحاد الوطني الكردستاني حركة سياسية كردية وعراقية رئيسية. يمتلك الاتحاد انتشاراً واسعاً بين الأكراد، ويُعتبر الحركة المنافسة للحزب الديموقراطي الكردستاني.

الأكراد: مجموعة تختلف عن العرب، والأتراك، والفرس. يقدّر عددهم بالثلاثين مليوناً، ويسكنون مناطق في سوريا، وإيران، وتركيا، والعراق.

الأهواز: مدينة إيرانية تقع على ضفاف نهر قارون. شهدت هذه المدينة أعنف المعارك التي دارت ما بين إيران والعراق. وحارب سعد، شقيق جوانا، لعدة أشهر في الخنادق العراقية التي حُفرت خارج الأهواز، وكاد يُقتل هناك.

آية الله روح الله الخميني (١٩٠٠ ـ ١٩٨٩): مرجع وزعيم ديني لمذهب المسلمين الشيعة. لعب دوراً حاسماً في قلب نظام شاه إيران في العام ١٩٧٩. قاد إيران خلال الحرب الإيرانية ـ العراقية التي استمرت ثماني سنين.

إيران: الجمهورية الإسلامية في إيران، تُعرف أيضاً باسم بلاد

فارس. تقع في جنوب غرب آسيا، وكانت عدوة للعراق باستمرار.

البارزنجي، الشيخ محمود (؟ ـ ١٩٥٦): قائد كردي مهم عارض البريطانيين عندما أعلن نفسه ملكاً على كردستان. استطاع احتلال السليمانية والمناطق المحيطة بها.

البرزاني، الملا مصطفى (١٩٠٣ ـ ١٩٧٩): الزعيم القومي الكردي ورئيس الحزب الديموقراطي الكردستاني. كان قائداً أسطورياً التزم النضال من أجل القضايا الكردية. اعتبرته جوانا وشقيقها رعد بطلاً.

بشمركة: المعنى الحرفي لهذه الكلمة هو «أولئك الذين يواجهون الموت». و«البشمركة» هم مقاتلون مسلحون من الأكراد، ينتسبون إلى أحزاب سياسية في العراق، مثل الاتحاد الوطني الكردستاني. كان شارباست، زوج جوانا، عضواً في الاتحاد الوطني الكردستاني. وقد قُدّر عدد مقاتلي البشمركة العراقيين الناشطين في شمال العراق بحوالى ثمانين ألفاً، وذلك اعتباراً من شهر كانون الثاني من العام ٢٠٠٥. والبشمركة هي الميليشيا الوحيدة غير المحظورة من قِبل الحكومة العراقية الجديدة.

البعث: تأسس حزب البعث العربي الاشتراكي في السابع من نيسان ١٩٤٧، على أيدي ميشال عفلق، وصلاح الدين البيطار، وهما طالبان جامعيان سوريان. تتضمن مبادئ حزب البعث الالتزام بالاشتراكية، وبالحرية السياسية، وبالوحدة العربية

الشاملة ويستمر حزب البعث على سدة الحكم في سوريا، بينما فقد حزب البعث في العراق السلطة عندما أطاحت «قوات التحالف» بحكومة صدام حسين.

بغداد: عاصمة العراق التي يسكنها حوالى ٥,٨ ملايين نسمة. تقع المدينة على ضفاف نهر دجلة. اعتُبرت بغداد قلب الامبراطورية العربية، وكانت خلال عصرها الذهبي، الذي استمر من العام ٦٣٨ إلى العام ١١٠٠، في المرتبة الثانية بعد القسطنطينية من حيث الحجم والعظمة. ازدهرت بغداد في ذلك الوقت باعتبارها مركز العلم، والفلسفة، والتجارة.

البكر، حسن (١٩١٤ ـ ١٩٨٢): الرئيس البعثي للعراق من سنة ١٩٦٨ إلى ١٩٧٩، وقريب للرجل الثاني في السلطة، صدام حسين، وهو الرجل الذي خلفه في العام ١٩٧٩.

بلاد ما بين النهرين: عبارة تطلق على منطقة ما بين نهرَي دجلة والفرات. انبثقت الحضارة الأولى في هذه المنطقة، وهي التي باتت تعرف الآن باسم العراق.

جبل قنديل: أعلى جبل في العراق.

«**الجحش**»: هم المخبرون الأكراد الذين عملوا لصالح الحكومة العراقية للتجسس على إخوانهم وجيرانهم الأكراد.

حزب البعث الاشتراكي، العراق: تأسس الحزب سراً في سنة ١٩٥٠. كبر الحزب كثيراً من حيث عدد الأعضاء، وقلب

الحكومة العراقية في العام ١٩٦٣. خرج الحزب من السلطة لفترة تسعة أشهر فقط، وما لبث أن عاد إليها في العام ١٩٦٨، وظل في السلطة حتى العام ٢٠٠٣.

حزب الدعوة: تأسس في العراق في أواخر الخمسينيات من القرن الماضي على أيدي مجموعة من القادة الشيعة من أجل محاربة الاشتراكية التي ينادي بها حزب البعث، والعلمانية، والشيوعية. اكتسب هذا الحزب شهرة جديدة في السبعينيات من القرن الماضي، وأطلق نضالاً مسلحاً ضد الحكومة البعثية.

الحزب الديموقراطي الكردستاني: حزب سياسي ومجموعة قبلية عسكرية كردية. تأسس في العام ١٩٤٦ بقيادة مسعود البرزاني. كان هذا الحزب أول حزب سياسي كردي يؤسسه الأكراد ويعمل لأجلهم. انشق جلال الطالباني، وكان أحد أعضاء هذا الحزب، لاحقاً في أواخر السبعينيات ليؤسس حزباً منافساً، هو الاتحاد الوطني الكردستاني.

حلبجة: مدينة كردية تقع في مقاطعة السليمانية الشمالية، وتبعد ٢٦٠ كيلومتراً تقريباً عن بغداد في الاتجاه الشمالي الشرقي. تبعد هذه المدينة ١١ كيلومتراً عن الحدود الإيرانية. اكتسبت حلبجة شهرتها بعد الهجوم بالأسلحة الكيميائية الذي تعرضت له في السادس عشر من آذار من العام ١٩٨٨. يُعتبر هذا الهجوم الأكبر بالأسلحة الكيميائية في العصور الحديثة، وأسفر عن مقتل خمسة آلاف رجل، وامرأة، وطفل، نتيجة الغازات السامة.

أقدمت قوات صدّام على تدمير هذه المدينة، لكن أعيد بناؤها منذ ذلك الحين.

دجلة: أحد النهرين الرئيسيين في العراق. ويمر نهر دجله في بغداد.

سجن أبو غريب: مجمع سجون شهير في العراق، بناه البريطانيون في أوائل الستينيات من القرن الماضي. اشتهر هذا السجن بكونه المكان الذي استخدمته حكومة صدام حسين لتعذيب المتمردين عليها وقتلهم. سُجن شقيق جوانا في هذا السجن. اكتسب السجن شهرةً عالمية عندما أصبح مركزاً معروفاً استخدمته قوات الاحتلال الأميركية لتعذيب العراقيين.

السليمانية: مدينة كردية في شمال العراق، وفيها ولدت والدة جوانا.

السنّة: الطائفة الإسلامية الرئيسية والأكبر، في الإسلام، من حيث العدد. يُعتبر السنّة أقلية في العراق. تنتمي عائلة جوانا إلى المسلمين السنّة.

شط العرب: المجرى المائي الذي تكوّن من التقاء نهرَي دجلة والفرات. يصب شط العرب في الخليج الفارسي.

الشيعة: طائفة إسلامية تختلف مع الطائفة السنية حول قضية خلافة النبي محمد. يشكّل الشيعة غالبية في العراق.

صدّام حسين (١٩٣٧ ــ ٢٠٠٦): ابن فلاح لا يملك أرضاً. مات

والد صدّام قبل أن يبصر ابنه النور، فنشأ في كنف خاله، وتسلق سلّم السلطة عن طريق حزب البعث، وما لبث أن أصبح رئيساً للعراق في العام ١٩٧٩. قاد صدام نظام حكم من الرعب شمل جميع العراقيين، وهاجم الدولتين الجارتين له إيران والكويت، وهو الأمر الذي خلق حربين متتاليتين في المنطقة. شن صدام العديد من الحملات على الأكراد في الشمال العراقي أثناء الحرب العراقية ـ الإيرانية (١٩٨٠ ـ ١٩٨٠). وأمر باستخدام الأسلحة الكيميائية في عامي ١٩٨٧ و١٩٨٨، وهو الأمر الذي دفع جوانا إلى مغادرة بلدها. خضع صدّام للمحاكمة في بغداد أثناء تأليف هذا الكتاب، وذلك للجرائم التي ارتكبها أثناء حكمه العراق، بما في ذلك المذابح الكردية التي جرت في عامَي ١٩٨٧ و١٩٨٨. وأصدرت المحكمة العراقية الخاصة حكماً يدين صدام حسين بجرائم ضد الإنسانية، بما في ذلك إعدام ١٤٨ رجلاً وطفلاً ينتمون إلى مدينة الدجيل الشيعية، وهي التي تقع على بعد ٣٥ ميلاً إلى الشمال من بغداد. لقي صدّام حتفه عندما أُعدم شنقاً في شهر كانون الأول/ ديسمبر من العام ٢٠٠٦.

العراق: دولة شرق أوسطية تضم معظم بلاد ما بين النهرين، والطرف الشمالي الغربي لسلسلة جبال زاغروس، وكذلك الجزء الشرقي للصحراء السورية. تم إنشاء هذه البلد بضم مقاطعات بغداد، البصرة، والموصل العثمانية. يتقاسم العراق شرقاً حدوداً مع إيران، وشمالاً مع تركيا، وفي الشمال الغربي مع سوريا، وغرباً مع الأردن، وإلى الجنوب مع الكويت والمملكة العربية

السعودية. تكوّن العراق الحديث خلال مؤتمر أوروبي ترأسته الحكومتان البريطانية والفرنسية، في العام ١٩٢٣.

العسكري، جعفر باشا (١٨٩٥ ـ ١٩٣٦): عم والد جوانا العسكري. تحدّر جعفر العسكري من عائلة بغدادية بارزة. خدم في الحرب العالمية الأولى مع الأمير فيصل، ولورنس العرب، في قيادة قوات الحجاز النظامية. عمل في عدد من المراكز الحكومية بعد انتهاء الحرب العالمية الأولى مع الملك فيصل الأول، والملك غازي الأول، اللذين حكما العراق. شملت المراكز التي احتلها منصب سفير العراق لدى بريطانيا العظمى، ووزير الدفاع، ورئيس وزراء العراق. يُذكر أن العم جعفر هو الذي رتّب تلقي والد جوانا للعلم في فرنسا. اغتيل جعفر في العام ١٩٣٨.

كردستان: تعني هذه الكلمة حرفياً «بلاد الأكراد». إنها منطقة تشمل شمال العراق، وجنوب تركيا، وغرب إيران، وشمال شرق سوريا. وعدت القوى الغربية الأكراد بإعطائهم دولةً مستقلة بعد الحرب العالمية الأولى، لكن هذا الوعد لم يتحقق. استمر القوميون الأكراد منذ ذلك الوقت، في السعي إلى الحصول على الاستقلال، لكن صرخاتهم لنيل الحرية لم تلقَ أذناً مصغية. يتمتع الأكراد في العراق هذه الأيام باستقلال ذاتي شبه كامل، وتشهد المنطقة الكردية من العراق ازدهاراً اقتصادياً وعمرانياً لم تشهده من قبل.

المجيد، علي حسن (١٩٤١ ـ ٢٠٠٧): ابن عم الرئيس العراقي السابق صدّام حسين. قاد القمع الدموي لإخماد التمردين الشيعي والكردي ضد حكومة صدام حسين البعثية. اكتسب لقب «علي الكيماوي» نظراً لدوره في حملة الأنفال التي شنها ضد الأكراد العراقيين، بمن فيهم جوانا. خضع الرجل، وقت كتابة هذا الكتاب، للمحاكمة عن جرائم الحرب التي اقترفها، وللعديد من الجرائم الأخرى.

الملك غازي الأول (١٩١٢ ـ ١٩٣٩): الابن الوحيد للملك فيصل الأول. حكم العراق لست سنين فقط قبل أن يُقتل في حادث سيارة جرى في ساحات قصره.

الملك فيصل الأول (١٨٨٥ ـ ١٩٣٣): الابن الثالث لأول ملك من ملوك الحجاز (الآن المملكة العربية السعودية)، الملك الحسين بن علي. وُلد فيصل في الطائف، وتلقى تعليمه في القسطنطينية، وتحالف مع البريطاني لورنس، المعروف بلورنس العرب، من أجل محاربة الامبراطورية العثمانية. أصبح فيصل ملكاً على سوريا والعراق بعد هزيمة العثمانيين في الحرب العالمية الأولى. وكان مقرباً جداً من عائلة العسكري.

الملك فيصل الثاني: (١٩٣٥ ـ ١٩٥٨): الابن الوحيد للملك غازي الأول. كان في الرابعة من عمره فقط عندما قُتل والده في حادث سيارة. قُتل فيصل الثاني أثناء الثورة التي اندلعت صباح الرابع عشر من آذار في العام ١٩٥٨، وهي الثورة التي أدت إلى تدمير مصنع المفروشات الذي يملكه والد جوانا.

وادي جافاتي: منطقة جبلية تقع في الشمال الغربي من العراق، حيث تتمركز قيادة الاتحاد الوطني الكردستاني. كانت هذه المنطقة من بين أولى المناطق التي أطلق فيها جيش صدام حسين غازاته الكيميائية. يضم وادي جافاتي قرية برغالو الصغيرة، وهي المكان الذي ضم محطة الإذاعة التابعة للاتحاد الوطني الكردستاني، وهي القرية الصغيرة التي اعتبرتها جوانا موطنها.

صدر عن شركة المطبوعات للتوزيع والنشر

سلسلة الأدب

مجموعات

مؤلفات باولو كويلو

- إحدى عشرة دقيقة
- الشيطان والآنسة بريم
- الخيميائي
- على نهر بييدرا هُناك جلست فبكيت
- حاجّ كومبوستيلا
- الجبل الخامس
- فيرونيكا تقرر أن تموت
- الزَّهير
- ساحرة بورتوبيللو
- الرابح يبقى وحيداً
- أوراق محارب الضوء
- مكتوب
- بريدا

ليلى عسيران

- الاستراحة
- الحوار الأخرس
- المدينة الفارغة
- جسر الحجر
- خط الأفعى
- عصافير الفجر
- قلعة الأسطة
- لن نموت غداً

د. نعمة الله ابراهيم

- فروخ ناز (ألف يوم ويوم)
- السير الشعبية العربية

د. أحمد حاطوم

- المساجلات
- في مدار اللغة واللسان
- قواعد فاتت النحاة
- كتاب الإعراب
- نقوش

شكري نصرالله

- كنوز العرب
- قالوا وفعلوا: وقائع من تاريخ العرب وتراثهم
- الثالث
- السنوات الطيبة

منشورات المجلس القطري للثقافة والتراث

- تاريخ اللغات ومستقبلها ـ هارولد هارمن
- فلسطين في الشعر الاسباني المعاصر ـ د. محمد الجعيدي
- هل كنا مثل أي عاشقين؟ ـ نافتج سارنا

◆ ◆ ◆

- لا أحد يفهم ما يدور الآن ـ روحي طعمة
- الأيام والناس ـ برهان الدجاني
- علم الإبداع ـ د. مروان فارس
- آن الأوان ـ طلال حيدر
- سرّ الزمان – طلال حيدر
- انظر إليك ـ مرام المصري
- بائع الفستق/رواية ـ سمير عطا الله
- اللباس والزينة ـ أ. بينول
- أُخذَةُ كِشْ ـ ألبير نقاش
- صورة العادات والتقاليد والقيم الجاهلية ـ د. محمد أبو علي
- إميل بجاني، كاتب في الغربال – بقلم شخصيات عدة

طه حسين، من الشاطئ الآخر ـ عبد الرشيد محمودي

موسوعة الأمثال والحكم والأقوال العالمية ـ منير عبود

- **عشرون روائياً عالمياً يتحدثون** ـ عصام محفوظ
- **مختارات من الشعراء الرواد في لبنان** ـ عصام محفوظ
- **قصة يوطوبيا . قصة مشربية** ـ حسن فتحي
- **جدلية الحب والموت عند جبران خليل جبران** ـ د. بطرس حبيب
- **الحب والتصوف عند العرب** ـ د. عادل كامل الآلوسي
- **سنوات ضائعة من حياة المتنبي** ـ هادي محيي الخفاجي
- **الطربوش** ـ روبير سوليه
- **مهما قلت لا تقل** ـ د. نبيل سليمان
- **امرأة تبحث عن وطن** ـ ماريا المعلوف
- **خطوات أنثى** ـ رُدينة الفيلالي
- **أثواب الحزن** ـ هدى السراري
- **وراء الأفق** ـ ابراهيم أبو زيد
- **دريد لحام/ مشوار العمر** - د. فاروق الجمال
- **بساطٌ من الزهر الأحمر** ـ نيلوفر بازيرا
- **إمرأة. . . وظلّان** ـ خلود عبد الله الخميس
- **اعترافات غايشا** ـ آرثر غولدن
- **خريف من ذهب** ـ جوزيف طوبيّا
- **عودة النبض** ـ نوال نجم
- **مغامرة حب في بلاد ممزقة** ـ جين ساسون
- **سموّ الأميرة** - جين ساسون
- **يساورني ظنٌّ أنهم ماتوا عطاشى** ـ غسّان علم الدين
- **طلاق الحاكم** ـ منى دايخ
- **حقيبة حذر** ـ عاطف البلوي
- **ألف عام من الصلاة** ـ ييون لي

- **حبٌّ محرَّم** ـ يوكيو ميشيما
- **بيل كانتو** ـ آن باتشيت
- **إيزيس في القدس** ـ منى دايخ
- **عشّاق أمي** ـ هاجر عبدالسلام
- **وراء الأفق** - إبراهيم أبو زيد
- **الخامدون** - ربى عنبتاوي
- **هو وهي في السعودية** - هتّان بن محمد الطاسجي
- **نسرين ستموت الليلة - رواية بوليسية** - خديجة نمري
- **حبيبي الحقيقة** - أحمد طقش
- **الوردة الضائعة** - رواية سردار أوزكان
- **أرملة مهندس** - صالح ابن عايض
- **بومبي** - روبيرت هاريس
- **مصائر الغبار** ـ راوي حاج
- **الصرصار** - راوي حاج
- **ويسألونك عن الذاكرة** - د. عبد السلام فزازي
- **فتاة من بلغراد** - لويس دو بيرنيير
- **أصل الغواية - قصص قصيرة** - منتهى العزة
- **دماء الأزهار** - أنيتا أميرسفاني
- **باب للخروج** - طارق محمود فراج
- **امرأة للشتاء المقبل** - روحي طعمة
- **الحريم اللغوي** - يسرى مُقدّم
- **الخجل والكرامة** - داغ سولستاد
- **بوح أنثوي** - منى دايخ
- **هل يفرّقنا الدين؟** - حسن السيد أسعد فضل الله
- **أبعد من الريف - شعراء خالدون في عيون الألف الثالث** - لامع الحر

هذا الكتاب

قصة حقيقية مذهلة عن الحلم الذي عاشته جوانا العسكري في عراق صدام حسين، وكيف أنها استطاعت النجاة من الصراعات المرعبة التي خاضتها في سبيل الحب، والهدف الذي تعلقت به، وهو الوصول بالشعب الكردي إلى الحرية.

أمضت جوانا، التي نشأت في بغداد لأبٍ عراقي عربي وأم كردية، طفولة مليئة بالخوف والقلق تحت حكم البعثيين. لم يخفف من قسوة هذا الوضع سوى تمضيتها لعطلات صيفية مبهجة في كردستان برفقة أسرتها، وهي تروي لنا الارتعاشات التي أحست بها كفتاة في الخامسة عشرة عندما التقت مقاتلاً شاباً وجسوراً من البشمركة، كيف أنها بدأت حملة من أجل الحب.

تتكشف أمامنا التفاصيل الدقيقة للحياة التي تعيشها زوجة مقاتل من البشمركة في كردستان أثناء أحلك أيام الحرب الإيرانية ـ العراقية: الرعب الذي سيطر على جوانا عندما عاشت معاناة قاسية بسبب عمى مؤقت نتيجة الهجمات الكيميائية التي شنتها قوات صدام حسين، والخوف من الدوريات العراقية المراوغة أثناء محاولتها الهرب مع زوجها إلى الأماكن الآمنة، وكذلك بحثها اليائس عن قريبة مفقودة لها في مخيم للاجئين في إيران. واجهت جوانا حملات التفتيش التي تجري في منتصف الليل، واستجوابات البوليس السري، والسجون الوحشية المنتشرة في أنحاء البلاد. في هذه الرواية، يبرز عالم الأكراد وكردستان حياً في عيون جوانا، من خلال حبها لزوجها.

إن قصة جوانا التي تصوّر المأساة مثلما تصوّر الانتصار، لهي قصة مثيرة وموحية، وهي شهادة مؤثرة، في الوقت نفسه، على قوة الحب، وقوة الروح البشرية، وعلى الإرادة التي لا تكلّ للصمود بوجه كل الاحتمالات.

ISBN 978-9953-88-058-7

9 789953 880587

شارع جان دارك - بناية الوهاد
ص.ب. ٨٣٧٥، - بيروت - لبنان
تلفون: ٧٥٠٨٧٢ - ٩٦١١٣٥٠٧٢٢+
تلفون+فاكس: ٣٤٢٠٠٥ - ٣٥٣٠٠٠ - ٩٦١١٣٤١٩٠٧+
books@all-prints.com
www.all-prints.com

شركة المطبوعات للتوزيع والنشر